

الأدب العربي بين البادية والحضر

تأليف

الدكتور محمد عوف

وكيل كلية اللغة العربية بالمنصورة

١٩٨٣ - ١٤٠٣ هـ

حقوق الطبع محفوظة لدؤاب

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إذا كانت دراسة الأدب من خلال العصور الأدبية تقدم تصوراً لمسيرته ، تتضح من المنظر إليه أطواره . . فإن صورة الأدب تبدو في هذه الأطوار باهتة ، تتطلب مزيداً من التحديد ، وتثير كثيراً من التساؤلات ، وكان من أبرز هذه التساؤلات ، تساؤل بعض الدارسين من العرب والمشرقين عن السر في تباين الأدب العربي في الطور الواحد ، بحيث تواجه في العصر الواحد بأدب سهل الألفاظ لينها ، لا خشونة فيه ولا قوهر ، بل ولا جزالة ، كما تواجه في العصر ذاته بأدب جزل الألفاظ قوياً ، مع سهولة ووضوح ، أو مع خشونة وقوهر . . مما أثار أكثر من قضية كان من أهمها دعوى السهل والتريف .

لذا كان لي - وقد سبق أن قدمت دراسة للأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام - أن أضم إليها دراسة أخرى للأدب العربي في بيئاته المختلفة ، تحرص على تقديم صورة له في البيئة المتقاربة الآثار زمانية ومكانية وثقافية ، بحيث تبدو الصورة متلائمة ، يمكن بها الإجابة على بعض تلك التساؤلات المثارة .

وذلك لأن العصر الجاهلي - مثلاً - قد قام على بيئات عديدة ، منها البيئة ذات الحضارة المادية كما في إمارتي الحيرة والشام ، والبيئة ذات الحضارة البدوية ، وهي البيئة البدوية التي وفدت إليها بعض المظاهر الحضارية ، فأثرت في أبنائها تأثيراً ما ، والبيئة ذات الحضارة الروحية والفكرية وهي البيئة البدوية التي جاءت بها حضارة الإسلام الروحية والفكرية فهزت أبنائها هذا أسقط عنهم الكثير من موروثاتهم القديمة . أضف إلى هذه البيئات الثلاثة البيئة البادية التي حرص أبنائها على بداوتهم بكل ما فيها من خشونة وقوة .

فليس شك في أن اجتماع هذه البيئات على أمة واحدة في عصر زمني واحد ،

يجعل دارسى الأدب فى حيرة ؛ فهو أمام ظواهر أدبية لا تقل عن أربع ظواهر ، كل منها تختلف عن الأخرى فى آثارها .

من ثم رأيت أن أقدم دراسة فى الأدب العربى من خلال بيئاته ، لتكون مكتملة لدراسته من خلال عصوره ، تتضح بهما معا صورة الأدب العربى وأطواره .

بيد أن دراسة النثر الجاهلى فى البادية والحاضرة لم تكن بالأمر اليسور ؛ لتمذر الوقوف على نصوص نثرية موثوق فى صحة نسبتها إلى قائلها . فكان أن تبعت فنون النثر فى أطواره المختلفة وفقا للبيئة الزمانية فحسب - دون نظر إلى البيئة المكانية - لتتعرف على انعكاس الحضارة الإسلامية عليه ، وأثر ذلك فيه .

وأما كان الجهد المبذول ، فهى خطوات على الطريق ، فى حاجة إلى ما يكملها ، فالمدى واسع ، والأحداث متشابكة ، وفقنا الله وسدد خطانا ، وهى أنا للصواب وهى الصواب لنا .

المؤلف

النسورة فى ٦ من ذى القعدة ١٤٠٠ هـ

١٦ من سبتمبر ١٩٨٠ م

تمهيد

الفصل الأول

الأدب

من يتعرض لدراسة الأدب العربي يواجه في أول أمره سؤال عن المقصود بكلمة « أدب » ، وأصل اشتقاقها ، وأطوار استعمالها منذ الفترة الزمنية التي يتيسر للدارس أن يطل على اللغة فيها حتى عصرنا الذي نميش فيه . ولا ريب في أن تلك الفترة الزمنية التي لا يستطيع الدارس أن يتجاوزها في إطلاله على اللغة العربية وآثارها هي ما نعرف عليه الدارسون باسم العصر الجاهلي ، وهو تلك الفترة الزمنية التي سبقت مجيء الإسلام ، وتمتد إلى نحو مائة وحسين عاماً قبل الإسلام .

مفهوم كلمة أدب :

الناظر في مأثور العرب في العصر الجاهلي يجد أن كلمة « أدب » ومادتها في استعمالات القوم نادرة ، وهي مع هذه الندرة - فيما وصلنا - لم تكن تستعمل بالمفهوم التمييزي الذي نعرفه اليوم ؛ فقد اجتارت في هذا السبيل أطواراً انتقلت فيها معنى إلى معنى ، شأن كلمات اللغة دائماً .

ولعل من أقدم استعمالات مادة « أدب » ما روى على لسان طرفة بن العبد للتوفي

سنة ٥٦٩ :

بحن في المشتاة ندهو الجفلى لا ترى الآدب إنما ينتقر^(١)

فالآدب هنا : الداعي إلى الطعام ، يقال : أدب يأدب أدبا - من باب ضرب - دعا

إلى الطعام ؛ فالآدب - بسكون الدال - للدعاء إلى الطعام .

(١) انظر للتصيدة (٥) بيت (٤٦) من ديوان طرفة ، طبعة آلوارد . والمشتاة :

لشتاء ، والدعوة الجفلى : الدعوة العامة ، والآدب : الداعي إلى الطعام ، والانتقار :

اختيار أناس دون أناس ، فالدهوة النقرى تقابل الدعوة الجفلى .

ثم ماروى على لسان أعشى قيس ، وهو شاعر مخضرم :
جروا على أدب منى بلا نزق ولا إذا شمردت حرب بأغمار (١)

وما جاء في حديث عتبة بن ربيعة مع ابنته هند ، يصف أبا سفيان بن حرب حين
خطبها قبيل الإسلام : « يؤدب أهله ولا يؤدبونهُ » ، وما جاء في ردها عليه :
« وسأخذهُ بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلقى » (٢) .

يشير إلى أن الكلمة انتقلت من المعنى الحسى السابق إلى المعنى الخلقى .

وقد يكون استعمالها في المعنيين دون ترتيب ، لكن لم يصلنا ما يدل على ذلك ،
حتى إذا جاء الإسلام استعملت الكلمة في الدلالة على المعنى التعليمى ، مثال ذلك
ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخاطب وفود العرب على اختلاف
لهجاتهم ، فيفهم عنهم ويفهمهم ، فقال له على كرم الله وجهه : يا رسول الله نحن بنو أب
واحد ، ونراك تسكلم الوفود بما لا يفهم أكثره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« أدبى ربى فأحسن تأدبى » (٣) . ومثاله كذلك ما جاء في قول كعب بن سعد الغنوى
التوفى في السنة المباشرة قبل الهجرة :

حبيب إلى الزوار غشيان بينه حميل الحيا شب وهو أديب

ثم اطردها في العصر الأموى بهذه المعاني الثلاثة ، وكثر استعمالها في الدلالة
على ما كان يلقى العلم إلى طلبته من الشعر والقصص والأخبار والأنساب وكل ما يهدب
النفس ويشقفها من محتاف العلوم والمعارف . ومن ثم نشأت مهنة جديدة لجماعة من
الناس أطلق عليهم « المؤدبون » ، وهم أولئك المتميزون في العلم والأدب ، فكانوا

(١) هذا البيت من قصيدة مشهورة تحتلف روايتها بالزيادة والقص ، والتقديم
والتأخير ، في الأغاني ج ٨ ص ٧٩ ، وجمع الأمثال ج ٢ ص ٢٧٦ ، والبلدان ج ١
ص ٨٦ وما بعدها ، وشعراء الجاهلية ص ٣٦١ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ٢٦١ ،
ص ٢٦٢ بتحقيق شاكر .

(٢) الأمالي ج ٢ ص ١٠٤

(٣) للنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ طبع القاهرة سنة ١٣١١ هـ .

موضع ثقة الخلفاء والأمراء فسموا إليهم لتأديب أبنائهم وتهذيبهم ، وتلقينهم للأثور من ألوان التمييز ، وأخذ ألسنتهم بثقاف اللغة على اختلاف اتجاهاتها وفنونها .

ومن ثم السع مدلول كلمة أدب ومشتقاتها ، وأصبحت شاملة كل ما يحقق لالسان العلم والثقافة من معارف ، وعلوم ، ورواية شعر ونثر ، وظلت على هذا النحو يتسع مدلولها ويضيق وفقاً لمقام استعمالها حتى إذا كان العصر العباسي ، ونمت الحضارة العربية ، وازدهرت النهضة العلمية ، وقويت حركة التأليف والترجمة ، أخذ كل لون في الاستقلال بنفسه عن الأدب ، فأصبحت كلمة أدب تدل على التعبير الكلامي الجيد - شعرا ونثرا - وما يدور في ملكه من شرح وتعليق وتقد . وأصبحت كلمة أديب تدل على من يعالج فيه التمييز الكلامي ، قولاً أو نقداً أو شرحاً . ولم تعد لتشمل عالم البلاغة أو النحو أو أصول اللغة كما كان .

يبد أن مادة « أدب » كانت تطلق في بعض الأحيان - مع هذا التخصص - على المعنى العام الشامل لكل ألوان الثقافة ومظاهرها ؛ فقد روى عن الحسن بن سهل الوزير العباسي المتوفى سنة ٢٣٦ هـ أنه قال : « الأدب عشرة ، ثلاثة شهرحانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليين ؛ فأما الشهرحانية فضرب العمود ولعب الشطرنج ، ولعب الصواج ، فأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والديب وإيام الناس ، وأما الواحدة التي أربت عليين فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس (١) . وبهذا المدلول العام استعمل الكلمة إخوان الصفاء ، وعبروا بها عن مختلف العلوم والمعارف في رسائلهم (٢) ، وذكر ابن خلدون أنهم إذا أرادوا حذمه الأدب قالوا : « الأدب هو حفظ أ شمار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف » (٣) .

(١) الشهرحانية : نسبة إلى الشها ريج أو الشها رجة ، وهم أشراف الفرس ، والأنوشروانية : نسبة إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس من سنة ٥٣١ هـ - ٥٧٩ م . انظر زهر الآداب للحصري ج ١ ص ١٦٤ بتعقيق الشيخ محمد عبي الدين الطبعة الثالثة ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م .

(٢) انظر الرسالة السابعة من القسم الرياضي من رسائل إخوان الصفاء .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٠ طبع كتاب التحرير بمصر سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

وما زال هذان السبيلان يتنازعان الكلمة إلى عصرنا الحديث ، فتارة تستعمل للدلالة على كل ما يحقق الثقافة للسان ويهذب عقله وشعوره ولسانه ، وأخرى يراد بها الكلام الجيد الذى يعبر به صاحبه عما يحس ويرى شعرا كان أو نثرا .

* * *

هذا ويلاحظ أننا فى تبصرا لاستعمالات كلمة « أدب » واشتقاقاتها كنا خاضعين لما وصلنا من استعمالات العرب قدمائهم ومحدثهم ، مما يلفت النظر إلى أن هذا التدرج اقتراضى ، لا يمكن الجزم به ؛ إذ من الممكن أن يكون العرب الجاهليون قد استعملوا الكلمة فى المعانى التى رأينا أنها جدت عليها وأصل الكلمة لا يمنع من ذلك ؛ فهى تدل على الدعاء ، سواء كان الدعاء إلى طعام أو رأى أو فكر أو شعور أو خلق .

أياما كانت أطوار الكلمة التى استعملت بها ، فالذى يعيننا فى دراستنا هنا هو أن الأدب العربى الذى سنتناوله بالتأريخ والبحث هو الكلام الجيد الذى عبر به العرب عن أحاسيسهم ومشاعرهم وصوروا من خلاله رؤيتهم للأشياء والأحداث بالقدر الذى يحقق الإمتاع النفسى ، واللذة الوجدانية ، فيحرك المواطن ، ويعكس الانفعالات .

أقسام الأدب :

١ — الأدب أدبان : أدب ذاتى ، وأدب موضوعى .

أما الأدب الذاتى فهو ذلك الكلام الذى يعبر به صاحبه عن الأشياء أو الأحداث أو المواطن أو نحو ذلك تعبيرا مباشرا ، وهو ما عرف بالأدب الإنشائى ، وإنما كان هذا اللون من الكلام أدبا ذاتيا لأنه — كما ترى — يعرض لشخصية صاحبه بحيث ترى الحياة من خلال نفسه وعاطفته هو؛ فأنت حين تتلقى قصيدة شاعر أو رسالة كاتب ترى فيها ما رآه هو من خلال تصوراته وحياله ، وتقع فيها تحت سلطان هواطفه وانفعالاته .

هذا اللون من الأدب إذن مرآة لنفس صاحبه ، ولأن نفس صاحبه تلك خاضعة لمختلف المؤثرات البيئية للعصر الذى تعيش فيه؛ نقول أن هذا اللون من الأدب كذلك مرآة لعصره وبيئته .

ومن ثم كان حتميا أن تختلف حول هذا الأدب الآراء ، وتباين الاتجاهات ؛

إذا هو يمتد بالدرجة الأولى على الذوق الخاص والمزاج الشخصي للأديب ، ولا يمكن أن نتصور الناس مصبوين في قلب عاطفي واحد . ومن ثم كان مولد الأدب الموضوعي . فالأدب الموضوعي هو ذلك الكلام الذي يتناول به صاحبه الأدب الداتي أو المواقف القاتية بالوصف أو الشرح والتحليل أو التأريخ أو الموازنة ، فهو أدب وصفي .
وإعما كان هذا اللون من الكلام أدبا ولم يكن علما ؛ لأنه لا يمكن لصاحبه أن يمتد به على الحقائق العلمية الخالصة ، بل هو فيه مضطرا إلى أن يجمع بين العلم والفن ، فبينما يقيم عمله على قوانين علمية ثابتة ، تجده مضطرا إلى أن يمزج ذلك بالاعتماد على الذوق الخاص والرؤية الشخصية ؛ فناقد الأدب أو مؤرخه لا يستطيع أن يفقد أو يؤرخ ما لم يكن ذا ذوق أدبي ، يدرك به أسرار التعبير وظلاله ، ويتمكن به من موارد نص أهبي بآحر . . إلى غير ذلك الذي يتعرض له ناقد الأدب ودراسة ؛ فهو - في ذلك - يختلف عن غيره من الباحثين في محتلف مروع العلوم الأخرى ، إذ ليس ضروريا أن يكون مؤرخ الثورة ثوريا ، ولا أن يكون مؤرخ السياسة سياسيا ، بخلاف من يؤرخ للأدب ، فلا بد من أن يكون أدبيا .



٢ - ثم الأدب الداتي (الإنشائي) أدبان ؛ شعر ونثر في .

أما الشعر فتميره عن الشئ ميراث شق ، مثل الموسيقى المتولدة من الوزن والقافية ، واعتياده على العاطفة أكثر من النثر ، بيد أنهما يشتركان في المقومات العامة للأدب الإنشائي ، التي من أبرزها الفكرة ، والعاطفة ، والخيال ، والصورة ، ثم الأسلوب .
(أ) والفكرة : مر الحدث أو الموقف الذي يؤثر في الأديب ؛ ويوقظ مشاعره وأحاسيسه تمهيدا لتحريك العاطفة المناسبة فيه .

(ب) والعاطفة : هي الاستجابة العاطفية لدى الأديب للموقف أو للحدث الذي أثر فيه ؛ إذ بدون ذلك يفقد الأديب أهم عوامل السجاح الأدبي وهو الصدق الفني ، فيخرج كلامه حامدا حافلا لا روح فيه ولا حياة ، فهو مصنوع ملفق .

(ج) والخيال : هو المظار الشخصي للأديب ، يرى بواسطته الفكرة التي حركت مشاعره وأثارت عواطفه ، فهي رؤيا جديدة للأفكار بمد التأثر بها ؛ فعبث الأيام بنا

وقصاؤها عليها فكرة حركات مشاعر المرى وأثارت عاطفة الأس والحزن فيه، فرأى
الإنسان أمام الأيام زجاجاً قطعته في قوله :

ضحكنا وكان الصحك مناسفاهة وحق لكان البسيطة أن ييكونوا
تخطئنا الأيام حتى كأننا رجاج ولسكن لا يبادل سبك

(د) والاسلوب : هو ذلك المنهج السكلامى الذى يسير عليه الأديب فى صوغ العبارات
التي تنقل ما يرى من خلال ذاته ، ليظهر متلقى أدبه بما شعر ، ويحس بما أحس ، ويحد
ما وجد . وبواسطة نجاح الأديب فى تأليف عبارته موافقة لما فى نفسه ، يضمن لعمله
لونا آخر من ألوان الموسيقى - بل هو أصمها - وهو تلك الهزات المنظمة المتوافقة فى
الإيقاع مع أحاسيس الأديب وعواطفه ، والتي تصل متلقى الأدب من ثنايا عباراته
وإيحاءاتها . وهذا اللون الموسيقى هو ما عرف باسم الموسيقى الداخلية .

نشأة الشعر والنثر :

كثير الحديث حول أسبقية الشعر للنثر أو أسبقية النثر للشعر ، وقدم كل ما عرزه به
اعتراضه ؛ فالحديث فى هذا الموضوع افتراضى حالص ، لا يمكن أن يجزم فيه برأى ،
وبالتالى لا يمكن أن يحمل واحد على قبول أحد الرأيين دون الآخر

لكذا نميل إلى أسبقية الشعر بل نؤكد نؤمن بذلك ؛ لأن الشعر بمقوماته وخصائصه
هو الفن التمييزى الذى يناسب المرحلة الأولى للأمة فى أطوار حياتها الأدبية .

فالأدب المشور يحمل صاحبه على مزيد معاناة وبذل جهد أكثر فى تجميع أفكاره
وترتيبها وتقديمها فى ثوبها الفنى ، وهذه المعاناة فى صياغة الأدب المشور لا تماثلها المعاناة
فى الترام الشاعر بالوزن والقافية - كما فى الشعر العربى - لأن الوزن والقافية من الأمور
التي يسهلها على الأديب الشاعر فطرته التي مجنح إلى الموسيقى وتميل نحو التطريب والإيقاع
المتسق ، فالترام بموسيقى الشعر ما صعب إلا على أبناء الأطوار اللاحقة والأمم فى أطوارها
الأولى تنسم حياتها بما يتطلب الشعر ويتوافق معه ، إذ تكون فى فترة الصراعات والحروب
التي تسبق الاستقرار وما يتولد عنه من تنظيم سياسى واجتماعى إلى آخره . مما يتطلب
التفكير والتروى ومعالجة الأمور بلون من التمييز أكثر تعقلا وحكمة .

هذا إلى أن الشعر وايد الخيال والنثر الأدبى وليد العقل، والخيال دائماً يسبق العقل

في النمو والحركة ، كما يتضح من النظر في ملوك الأمم البدائية والمتحضرة ، فالخيال لدى البدائيين أقوى من العقل ، على خلاف الحال لدى المتحضرين ، وكما يتضح من النظر في سلوك الصبي والشاب ، فالخيال لديه أقوى من العقل ، بينما العقل لدى الشيوخ أقوى من الخيال ، فالخيال مصاحب للمراحل الأولى من أطوار الحياة ، ثم يليه العقل .

لذلك أقرر بأن الشعر كان الفن التمييزي الأسبق في حياة كل أمة ، وليست أمة في ذلك بمختلفة عن أمة

الفصل الثاني

العرب

العرب اسم لإحدى الجماعات السامية ، لم يعرف بمدى وجه التحقيق للمهدالأصلي لها ولأحواتها الأخرى ؛ فقد تمددت الأقوال ، واضطربت الافتراضات ، دون الوصول إلى قول حازم يحدد منشأها في عصور ما قبل التاريخ .

والذي يكاد يتفق عليه أن شبه الجزيرة العربية هي موطن الجماعات السامية كلها في العصور التاريخية . استقروا فيها ، وأخذوا منها كثيرا من عاداتهم وأخلاقهم .
وتحت ضغط الحياة في الجزيرة اندفع كثير من أهلها إلى الخروج منها والهجرة إلى حيث الخصب والتماء ، ولكن على فترات متباعدة .

في الألف الثالث قبل الميلاد خرج الأكديون « الأشوريون والبابليون » من الجزيرة إلى العراق ، وهناك عاشوا في صراع دائم مع المطامع الشخصية تارة ومع الأمم الوافدة - مثل الكشيين والحيثيين - تارة أخرى ، حتى قصى عليهم الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد .

وفي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد خرج السكمانيون من الجزيرة إلى الشام ، وأسوا هناك مدينا تجارية ، مثل صيدا ، وصور ، وبيروت ، وقد أطلق اليونانيون على من أقام من هؤلاء بساحل البحر المتوسط اسم الفيقيين . ولم يلبث هؤلاء السكمانيون أن تشعبوا وانتشروا في المنطقة ، فتنازلت طائفة منهم في شمالي سوريا وهم المعروفون باسم « الأوجريتيون » ، واستقرت طائفة أخرى في شرقي الأردن ، وهم « المؤابيون » ونزحت طائفة « العبريين » إلى فلسطين .

وفي نحو منتصف الألف الثاني قبل الميلاد خرج الآراميون من الجزيرة العربية ، إلى صحراء الفود في باديتي الشام والعراق ، وتنازلوا فيها حتى وصلوا إلى خليج العقبة غربا وجنوبي الفرات شرقا ، وكونوا لهم إمارة بين بابل والخليج العربي ، عرفت باسم « كلد » ، ومنها أخذ اسم السكوانيين .

أما من استقر به المقام في الجزيرة العربية فقد عاش بعضهم في القسم الجنوبي منها ، وعاش الآخرون في القسم الشمالي ، ولكل من القسمين طبيعته وخصائصه التي تميز من يعيش فيه .



أما من أقاموا في القسم الجنوبي من الجزيرة العربية فقد صادفوا في موطنهم من أسباب التضرر ما أعانهم على الهوض ببلادهم ، وإيجاد حضارة مازالت آثارها باقية إلى يومنا هذا ؛ فقد تمكنوا من تشييد سد مأرب ليتحكموا في مياه الأمطار ، ويستخدموها بتدرج على مدار السنة صمما لزراعة حصيبة تلي حاجتهم ، وتخدم بأسباب الثراء والمقدم .

ومن ثم راجت في البلاد حركة التجارة الداخلية ، كما راجت حركة التجارة الخارجية التي دعت القوم إلى تكون لهم علاقات على مختلف المستويات بمن يجاورونهم في مصر والشام والمراق ، وأصبح مألوفا رؤية للقوافل التجارية تجوب الصحراء العربية شرقا وشمالا .

وقد كشف النقوش التي عثر عليها في منتصف القرن التاسع عشر عن كثير مما كان مجهولا عن حضارة القوم وأنظمتهم الحكومية ؛ فقد تبين أن هذا الوطن العربي كان مقسما خمس ممالك هي مملكة معين وعاصمتها معين في الجوف اليمنى ، ومملكة سبأ في جنوبها وعاصمتها مأرب ، ومملكة قتيبان في الجنوب الغربي لسبأ وعاصمتها تمع ، والمملكة الأوسانية جنوبي قتيبان ، ثم مملكة حضرموت وعاصمتها شبوة .

وتسببت الطامع في نشوب حروب كثيرة وصراعات بين هذه الممالك الخمسة ، فقد كان لكل مطمع في أن يسيطر على طرق التجارة ويحمل الأمر كله في يده دون غيره . تحقق ذلك للمسيبيين في نحو القرن العاشر قبل الميلاد ، ثم دارت الأيام وتغلب السبئيون في نحو القرن السابع فمدوا سلطانهم على الأرض ، وتحولت إلى أيديهم أزمة القوافل التجارية .

وفي نحو سنة ٢٧٠ ق . م أنشأ بطليموس الثاني أسطولا بحريا يجوب البحر الأحمر ليربط بين مصر والهند وإفريقية الشرقية فاضطربت اقتصاديات السبئيين ، مما يسر على ملوك ريدان أصحاب ظفار أن يبارعواهم وينلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية نحو سنة ١١٥ ق . م وفتحوا دولة الحميريين .

وفي سنة ٢٤ ق . م حاول والى الرومان على مصر (إليوس جالوس) أن يستولى على بلاد الحميريين ، فأعد جيشا كبيرا لذلك ، ولكنه عاد مكابلا بالفشل الذريع .

وفي منتصف القرن الرابع الميلادى استطاع ملوك الحبشة أن يستولوا على بلاد الحميريين ، ويظفروا بها نحو عشرين عاما ، استعاد بعدها الحميريون دولتهم ، ولكنها عادت إليهم ضميعة وانية ، يطمع فيها حيرانها ، فقد أخذ الشماليون فى الإمارة عليها ، كما اضطروا كثير من أبنائها إلى الهجرة منها إلى الشمال .

ونجت ضنظ الاضطهاد الرومانى الواقع على اليهود اندفعوا إلى الجزيرة العربية فى نحو القرن الأول الميلادى ، وفى الوقت نفسه توالت البعثات الدينية المسيحية ، حتى اعتنقت نجران المسيحية ، فشب صراع بين متتقى الدينين ، وأحد للصراع أشكالاً مختلفة كان أبرزها مناهضة ملوك حمير تغلظ الصرانية فى ديارهم خوفا من أن يكون وراء ذلك تحرك البيزنطيين . ولعل هذا كان من أهم الدوافع إلى أن يستق اليهودية ذونواس آخر ملوك حمير ، ويحول القضاء على المسيحيين فى نجران ، الأمر الذى دعا البيزنطيين إلى أن يوعزوا إلى النجاشى بفزو اليمن سنة ٥٢٥ م ، فاستولى عليها وضمها إلى الحبشة ، ولم تغل من قبضتهم إلا بعد نحو خمسين عاما بمعاونة الفرس أعداء بيزنطة ، فانتقلت بذلك إلى سلطات الفرس ، وظلت خاصة لهم حتى سنة ٦٢٨ م حيث اعتنق الإسلام (بأذان) عامل الفرس عليها (١) .

* * *

وفى القسم الشمالى كان العرب المدنايين ، وكانوا يقيمون فى الحجاز ومجد وتمتد عشائرم وقبائلهم إلى باديتى الشام والمراق . وكانوا يعيشون عيشة بدوية تمتد على رعى الإبل والتم

ومن ثم لم يكن لهم - فى الغالب - سكنى دائمة إلا حيث توجد بعض الواحات

(١) انظر التاريخ العربى القديم لطائفة من المستشرقين ترجمة فؤاد حسين ، نشر وزارة التربية والتعليم . وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ٢٧٥ ، ج ٢ ص ٨ وما بعدها ، و ج ٣ ص ١٣٦ - ٢١٤ .

في الحجاز ، ولعل هذا من أبرز العوامل التي تسببت في عدم تجمهم في وحدة سياسية قبل الميلاد .

وإتقد نشأت علاقات بين عرب الجنوب وعرب الشمال ؛ ففي تيماء الواقعة شمالي مدائن صالح قامت مستعمرة آرامية تجارية في القرن الخامس ق . م ، كما كان للمعديين مستعمرة في ناحية « الملا » شمالي الحجاز ، نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة إلى غير ذلك من مظاهر الالتقاء التي نجد مجال بحثنا هنا لا يتسع لتناولها بالتفصيل .

الفصل الثالث

الوطن العربي

أقصد بالوطن العربي الأرض التي ضمت الجماعات السامية ، والتي عرفت باسم « الجزيرة العربية » ، أو على وجه الدقة « شبه الجزيرة العربية » ، وإعنا أطلق عليها قديما اسم « جزيرة » لإحاطة الماء بها ولأنه لأنه يحيط بها من ثلاث جهات بحسب هي الشرق والغرب والجنوب ، قيل هي « شبه جزيرة » .

وعلماء الجيولوجيا يرون أن شبه الجزيرة العربية في العصر الجليدي كانت تحرى بها بعض الأنهار ، وكانت تغطي بعض أجزائها مروج حضراء ، ولا يزال يشهد على ذلك وجود بعض الأودية الجافة العميقة ها .

كما يرون أن تلك الأرض كانت تتصل بالقارة الإفريقية في الزمن البعيد الموعلى في القدم .

وشبه الجزيرة العربية تمتد لتشغل مساحة كبيرة لاتماثلها شبه جزيرة أخرى عرفت حتى الآن .

واشتهرت عند جغرافى اليونان والرومان بأقسامها الثلاثة « العربية الصحراوية ، والعربية الصخرية ، والعربية السميدة » .

فقد كانوا يطلقون اسم « العربية الصحراوية » على المنطقة الشمالية التي تقع بين بلاد العراق والحيرة من الشرق وبين بلاد الشام من الغرب . وفي شمالى هذا الإقليم قامت مملكة تدمر التي حكمتها أسرة « الرباء » المشهورة .

وكانوا يطلقون اسم « العربية الصخرية » على شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها في شمالى الحجار وحنوبى البحر الميت، وفي هذه المنطقة قامت مملكة النبط ، وكانت حاصرتها مدينة سلع « بطرا » .

وكانوا يطلقون اسم « العربية السميدة » على ناطق شبه الجزيرة العربية، وتشمل وسط الجزيرة وجوبيها .

لسكن الجنرايين العرب قسمها خمسة أقسام هي (تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن) .

وحدوا تهامة بالمنطقة الساحلية الضيقة التي تطل على البحر الأحمر (بحر القلزم) المروفة بإقليم الحجاز ، وهي أرض منخفضة رملية شديدة الحرارة ، كانت تسمى النور - قديما - لانخفاض أرضها ويقع في شمالها ثغر صغير يعرف باسم (الوجه) يظن أنه كان ثغر مدينة الحجر المروفة الآن باسم (مدائن صالح) ، ويقع في جنوبي (الوحة) قرية الحوراء . وقد قامت بمنطقة تهامة بعض المرافق والنور مثل حدة ويبس في الحجاز، والحديدة في اليمن وتكثر الأودية والمناطق البركانية والحرث (١) في هذا الإقليم .

يفصل تهامة من هضبة نجد سلسلة جبال السراة التي تمتد في شرقي تهامة من الشمال إلى الجنوب .

وكما وجدت في هذه المنطقة آبار وعيون كانت دليلا على الخصب وقيام القرى الكبيرة ، مثل يثرب ووادي القرى - في شمالها - وهو يقع بينها وبين العلا التي كانت تسمى قديما (دادان) ومن مدن هذا الوادي مدينة (قرح) وكانت تقام بها سوق عظيمة في الجاهلية ، ومدينة الحجر أو مدائن صالح وحبير وفدك التي نزل بها اليهود وامتدوا إلى تهاة في الشمال ويثرب في الجنوب . وكان ينزل في هذه الجهات قبل الإسلام قبائل عذرة وبلي وجهينة وقضاعة .

أما الحجارة وينبسط شرقا وهضبة نجد المسيجة التي تنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تنصل بأرض العروض - وهي بلاد اليمامة والبحرين - ويعرف الجزء المرتفع مما يلي الحجاز باسم (المالبة) ، بينما يعرف الجزء المنخفض مما يلي العراق باسم (السافلة) ، أما شرقها إلى اليمامة فيعرف باسم (الوشوم) ، ويعرف شمالها إلى جبل طيء - أحاسيس - باسم القصيم ، وهو عندم الرمل الذي يدبت الغضا (١) ، وإليه ينسب أهل نجد يسمون أهل الغضا وأهم مدن الحجاز مكة ، وهي بمدحمة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرقي

(١) الحرة : أرض رملية تملؤها قمم الراكين .

(٢) الغضا ضرب من الأثل .

من مكة تقع الطائف التي أقيمت على ظهر جبل (غزوان) وتحف بها كثير من الأودية والآبار ، مما أتاح للملكة النباتية من قديم أن تزدهر بها .

وتقع شمالي نجد صحراء النفود مبتدئة من واحة تيماء حيث تمتد شرقا نحو ثلاثمائة ميل لتشغل مساحة واسعة تزخر بكثبان الرمال الحمراء ، وتتخللها مراعي فسيحة ، حتى إذا اقربت من العراق مدت ذراعا لها نحو الجنوب فتفصل بين نجد والبحرين مدمية باسم (الدهناء) أو رملة عالج - وهي مارل قبيلتي تميم وضبة - فإذا أحاطت باليمامة انبطحت في الربع الخالي - وهو صحراء واسعة قاحلة ، تفصل بين اليمامة ونجد وبين عمان ومهرة والشحر وحضرموت - وتندمج فيها صحراء الأحقاف التي تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن من نجد والحجاز وهذه الصحارى التي تطرق نجدًا في الشمال والشرق والجنوب قفار متمعه ، يمتاز من بينها القسم الشمالي بأماطه الكثيرة التي تسكوه حلة قشبية من النباتات والمراعي . وتقع وراء هذا القسم الشمالي بادية الشام بأوديتها وواحاتها الكثيرة وبادية العراق أو السهولة .

والمروض تشمل اليمامة والبحرين وما والاها ، والبحرين تمتد من البصرة إلى عمان - وهي المعروفة اليوم بالكويت والأحساء وجزر البحرين وقطر - وكانت تنزل بها قبيلة عبد القيس في الجاهلية .

وتكثر في هذا الإقليم الآبار والينابيع خصوصًا في الأحساء . ومن مدن هذا الإقليم القديمة مدينة (هجر) ، و (القطيف) وكانت تسمى (الخط) وإليها تسبب الرمال الخطية . وفي جنوبي البحرين عمان ، ومن مدنها (محار ودبا) ، وعرف سكان هذا الإقليم من قديم بالملاحه واستخراج اللآلئ .

واليمن يطلق على جنوبي شبه الجزيرة كله ، ويشمل حضرموت ومهرة والشحر - وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة كما هو معروف اليوم - وتتألف من أقسام طبيعة ثلاثة أحدها ساحل ضيق خصب هو تهامة اليمن ، وثانيها جبال موارية لساحل هي امتداد سلسلة جبال السراة ، وثالثها هضبة تفضى إلى نجد ورمال الربع الخالي ، ولغزارة الأمطار التي تهطل على هذه الهضبة بفضل الرياح الموسمية كثر بها الأودية والسهول ، فالتست بها المزارع الخصبية ، وتنوعت الثمار ، فاجتذبت إليها

السكان المستقرين الذين أقاموا فيها دولا وحضارات منذ الألف الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادي .

والقسم الشمالي من اليمن البحار للبحجاز يسمى (عسير) ، وهو القدي كانت تقطنه قبيلة بجيلة في الجاهلية .

ومن أشهر مدن اليمن عدن وصنعا وزييد ونجران وظفار ، ومن أشهر وديانها تبالة وبيشة — وكانت به مأسدة — وحضرموت التي تمتد شرقي اليمن على ساحل بحر العرب ، إقليم مهرة ، والشعر^(١) ، وتتمو في جباله أشجار الكندر وهو اللبان الذي اشتهر به جنوبي بلاد العرب في الجاهلية .



وعلى العموم تمتاز شبه الجزيرة العربية بمناخ حار شديد الحرارة ، أما الرياح فألطفها الرياح الشرقية للمروفة بالصبا ، وأقساها ريج السهوم التي تهب صيفا على نجد فتشوي الوجوه ، وأبردها ريج الشمال التي تتحول إلى صقيع في كثير من الأحيان خصوصا في الشرق .

وأما مطار شبه الجزيرة قليلة إلا في الشمال الغربي حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء ، وإلا في الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية صيفا ، فتتحول في كثير من الأحيان إلى سيول جارفة في شمالي الحجاز واليمن ، أما في الداخل فهي قليلة جدا ، يتشوف السكان لنزولها ، ويسعدون بها لأنها تحمل لهم أسباب الحياة ؛ ولذلك سموها الغيث والحيا ، واستنزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم . وأصبح احتباس المطر في هذه المناطق نذير الخطر ، تهجر الأرض بسببه خشية الجذب المهلك ، فسكرت لذلك عندم الرحلة في طلب العشب والسكلا ، حيث ترحل القبيلة — حين يحتبس المطر — بإبلها وأغنامها طالبا لمراع جديدة ، يحلون بأرضها ويقيمون فيها .

وشبه جزيرة العرب خالية تماما من الغابات ، وليس بها أنهار جارفة ، ولا بحيرات إلا ما يقال من أن في الربع الخالي بحيرة مالحة .

وتضم شبه الجزيرة أنواعا مختلفة من الحيوانات والطيور ، ردد الشعراء أسماء

(١) الشعر في اللثة الجنوبية يعني الساحل .

أكثرها في شعرهم فذكروا من الحيوانات الخيل والإبل والأغنام ، ومثل الطباء والأوعال والنعام وحمار الوحش والنزال والزراف ، ومثل الأسد والنمر والضبع والذئب والفهد ، ومن الطيور الصقر والسر والعراب والحدأة والقطا ، وذكروا كثيرا من الجراد والنحل ، أما الزواحف فذكروا منها الضب والثعبان والمقرب والورل والحية^(١) .

(١) لمزيد من التفصيل راجع تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ج ١ ص ٨٦ وما بعدها طبع بنسداد ، وتاريخ العرب لفيليب حق ج ١ ص ١٥ وما بعدها الترجمة العربية وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة .

الفصل الرابع

اللغة العربية

الناظر في تاريخ الأمة العربية وعلاقتها بالجماعات السامية لا يصعب عليه تصور نشوء اللغة العربية ، وإدراك ما بينها وبين اللغات السامية من علاقات ، تبدو في توافق الاشتقاقات وتكون الأفعال والأسماء والحروف ، كما تبدو في الاشتراك في كثير من المفردات .

فاللغة العربية - وهي لغة واحدة من الجماعات السامية - لم تبدأ متميزة هكذا ، لأنها لم تبدأ منفصلة عن أخواتها ، إنما هي وأخواتها تفرعن عن لغة واحدة هي اللغة الأم المعروفة باللغة السامية .

ولا شك في أن هذه اللغة الأم قد تم نموها فتكونت أفعالها وأسماءها وحروفها واشتقاقاتها ومزيداتها قبل أن يتفرق أصحابها وتتوزعهم الأرض . ولما أخذت الجماعات السامية في النزوح عن شبه الجزيرة العربية - على ما سبق ذكره - نزحت كل جماعة بلهجتها التي كانت فيما بعد لغة مستقلة متميزة فأصبح في العراق اللغة الأكديّة بسميها « البابلية والأشورية » ، وفي الشام اللغة الأجرينية - وهي لغة نقوش رأس شمرا - والفينيقية ، والعربية ، والآامية وفي شبه الجزيرة العربية بقيت اللغة العربية .

بيد أن هذه اللغة العربية لم تلبث أن كسبت إلى لهجات ولغات يختلف بعضها عن بعض تبعاً لاختلاف البيئات والطبائع ، وهي لغات الحجاز ، واليمن ، والحبشة وحق هذه اللغات تفرغت إلى لهجات حيث كان لسكل قبيلة وبطن لهجة تناسب مبيشته وموطنه الأصغر .

والذي يميننا من هذا كله أن نتحفظ في الحكم على بعض الألفاظ في اللغة بأنها ألفاظ دخلية ، وأن هذه الكلمة سرايانية أو عبرية أو حبشية إلى آخر ما يواجهنا به بعض أسلافنا من الباحثين ؛ فما دامت هذه اللغات مبنية عن أم واحدة فليست واحدة

منها بأولى من غيرها بنسبة لفظة إليها، ومن ثم لا يصح من الباحث أن يتسرع في الحكم
فيذكر أن تلك الكلمة مأخوذة عن السريانية أو عن الحبشية أو عن العبرية .

* * *

وبالنظر فيما بين أيدينا من الشعر الجاهلي نبتين أن الشعراء العرب - على اختلاف
قبائلهم ولهجاتهم الخاصة - قد اصطالحوا على لهجة من بين لهجاتهم هي اللهجة القرشية
لتكون لغة أدبية للعرب جميعاً ؛ وهذا يفسر ما نراه من توحد لغة الشعر الجاهلي
وقيامها على اللهجة القرشية .

ونبحث عن السر في تفوق اللهجة القرشية على سائر اللهجات فنجد لدى قريش
من الأسباب ما هو كفيلاً بأن يشد إليها أنظار وقلوب وعقول العرب جميعاً ؛ فقد
فرضت عليهم ديانتهم أن يخضعوا لنفوذ قريش عليهم ؛ إذ كانت حارسة الكعبة بيت
عبادتهم كما فرضت عليهم المعاملات الاقتصادية أن تكون لقريش عليهم اليد الطولى ،
وقد كانت قوافلها التجارية تجوب أنحاء الجزيرة ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك
في قوله تعالى : « لإيلاف قريش . إيلامهم رحلة الشتاء والصيف .. » . وأعان على
ذلك ماجد من ظروف سياسية دعت مختلف القبائل العربية إلى الاتجاه نحو قريش ،
فقد رأت القبائل العربية ما يتهددها من الدولتين المظالمين الجاورتين (الفرس والروم)
ثم ما تحاوله الحبشة من جهة ثالثة لتفرض سلطانها وسيطرتها عليها ، في مواجهة مكشوفة
تارة ، وتارة أخرى في هجوم ديني على أجزاء من الأرض العربية يحلهم على دينهم
الوثني ، فلم يكن لهم بد إلا ذلك كله من أن يتجهوا إلى قريش بكل ما أوتوا من
الأسباب والوسائل ، مما هأأ للهجة القرشية السيادة والتسلط على كل اللهجات ، لتصبح
بعد ذلك اللغة الأدبية السائدة ، أو اللغة المفصحى لجميع العرب .

وعلى الرغم من ذلك نجد طائفة من المستشرقين ومن سائر مسارهم يحاولون أن
يخرجوا علينا بأراء أخرى قائمة على الافتراض والحدس دون إمامسة معقول ، ولمسلى
الذى أملى على بعضهم هذا المسلك عداوتهم للقرآن والإسلام ومحاولة السكيد له بشق
الأساليب ، على نحو ما زعم هارتمان وفولر من أن لغة الشعر لهجة أعراب نجد والجمامة ،
وقد أدخل فيها الشعراء تغيرات كثيرة ، ثم يزعم (فولرز) أن بقية بلاد العرب كانت
تتكلم لغة مخالفة ، ليقرر ما يراه من أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية غير معربة

على لهجة قريش الدارجة ، وهي لهجة - فيما يزعم - غير معربة ، تختلف عن لهجة الشعر الجاهلي الخاضعة لقواعد النحو العربية ، وأن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه في لغة البدو للعربية .

وهكذا يكشف هذا المستشرق عما يقصد إليه من وراء بحثه الخلف بالملية ، فيقيم على فروض وأحداث هي أقرب إلى شطحات المخربين ، فليس له من سند علمي واحد ، ولهذا رفض رعم هذا رفضاً قاطعاً طائفة من المستشرقين في مقدمتهم (بوهل وتولدكه وجاير) (١) :

ويكفي أن نذكر (فولرز) بأن قراءات القرآن الكريم توفيقية ثقافت كما سمعت من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا جهد لأحد فيها ، وأن للدين نقلوه عن الرسول صلى الله عليه وسلم هم صحابته ، ولو كان الأمر على ما صوره له وهمه من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ على الصحابة في لهجة غير معربة لفضى على اللغات المعربة من حوله .

هذا إلى أن (فولرز) وقع في خطأ آخر يكشف عن ضلال أوهامه ، إذ لم يعرف عن قبيلة من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة حالية من قواعد النحو والعربية .

ويبدو أن (فولرز) وأصرا به من المستشرقين وجدوا اللغويين حين أخذوا في جمع مادتهم اللغوية في القرن الثاني الهجري يرحلون إلى قبائل نجدية دون قريش متوهماً أن ذلك كان لأن لهجة نجد هي اللهجة المختارة وأنها هي لغة الأدب العامة في العصر الجاهلي ، وفاتهم أن ذلك إنما كان حرصاً من اللغويين العرب ، فقد كان معلوماً أن اللهجة القرشية سادت وأصبحت لغة الأدب في كل المناطق العربية ، وكان معلوماً كذلك أن قبائل نجد ما زالت سليمة اللغة دون أخواتها اللاتي أثر في لغتها ما وجد عليها من لغات الأعاجم والموالي الذين كثروا في مكة بعد الإسلام كثرة مفرطة فآثرها اللغويون من القبائل العربية ورحلوا إليها طلباً للغة العربية الخالصة . وفي ذلك يقول أبو نصر الفارابي : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأصحح بين الألداظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس والدين عنهم نقلت اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذوا معظمه ، وعليهم اتسكل في التريب

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية « مادة قرآن » ، وكتاب العربية ليوهان فلك

ص ٣ وما بعدها ، وتاريخ القرآن لمولدكه .

وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائين ، ولم يؤخذ عن
غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكان البراري
ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ إلا من
لحم ولا من جذام مجاورتهم أهل مصر والقيط ، ولا من قضاة وغسان وإياد مجاورتهم
أهل الشام وأكثرهم نصارى يترءون بالبرانية ، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا
بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر مجاورتهم للقيط والفرس ، ولا من عبد القيس
وأزد وعمان لأنهم كانوا بالبحرين محالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لخاطبتهم
للهند والحشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمام ولا من ثقيف وأهل الطائف لخاطبتهم
تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا الآلة صادوهم
حين ابتدوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم (١) .

(١) الزهر للسيوطي ج ١ ص ١٢٨ طبع صبيح بمصر .

الكتاب الأول

الأدب العربي

الفصل الأول

البيئة والأدب

فما لا جدال فيه أن الأدب مرآة تعكس صورة أحواله ، وتكشف عن دخائل نفوسهم ، وتبين ما خفي من أسرار حياتهم ، وتعمل لاتجاهاتهم التعبيرية ، وتلوى عما يتوقع في المستقبل لهم من اتجاهات فنية ومكرمة . كما أنه القالب الذي يصب فيه ناشئة الأمة ، فيشكلهم ويهشيم لما يتضمن من خلق وعادات سلوكية واتجاهات ومذاهب عقيدية .

ومما لا جدال فيه - كذلك - أن الأدب انعكاس لما يعتل في نفوس أحواله ، وترديد لما يدور في أعماقهم ، وتعبير صادق عن كل ما أثر فيهم على المدى الطويل من أحداث كونية واقتصادية وسياسية وعقيدية . . الخ .

فهو يعني - بالنسبة للإنسان - الشيء ومصدره ، إذ هو مرآة تعكس صورة البيئة ، وصورة تراءى على سطح مرآة هي البيئة التي تحيط بالأديب وتكتنفه . . أى أن الأدب والبيئة متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فالأديب لا يستطيع أن يقطع نفسه عن بيئته التي يعيش فيها ، ولا أن يحول بين أبه وبين ما يمر به من مواقف ، وما يمانى من مشاعر وانفعالات ، بل إن الأدب هو متنفس الأديب الذي يخفف عنه ضغط الحياة ، وما تنص به من أحداث ومشكلات ، فيقدم لمجتمعه مشكلاته التي يمانى منها مصحوبة بأماله وأمانيسه التي يسعى للوصول إليها ، أى أن الأديب يؤثر في تكوين الأدب كما يتأثر به .

حقا قد يستطيع الأديب أن يتحكم - إلى حد ما - في عبارته ليستر شيئا من خصائص نفسه ، ترما على الأحداث ، أو تأييا على مظهر من مظاهر الضعف البشري - وهو الظهور في ثوب الشاكي للتألم - ولكنه مع هذا كله لا يستطيع أن يتحكم في نفسه إلى الحد الذي لا ينم فيه أدبه عن حاله .

ومن ثم أصبح في مقدور بعض الدارسين أن يصلوا إلى الخطوط الرئيسية والمهمة في حياة الأديب الصادق من خلال أدبه ، كذلك أصبح في مقدور بعض الدارسين

أن يتعرفوا على طبيعة الحياة وما فيها من أحداث عامة في عصر ما من عصور الأدب من خلال الإلمام بمختلف الألوان والنون الأدبية التي قدمها أدباء هذا العصر .

وعلى العكس من ذلك أصبح على من يريد أن يتعرف على مسار الأدب في عصر ما أن يتعرف أولاً على ظروف الحياة في ذلك العصر ، وأن يقف على أبرز الأحداث التي وقعت فيه ، وأن يلم بطبيعة من يضمهم العصر ، وما صادفهم من مشكلات وأحداث ، وكيفية مواجهتهم لتلك المشكلات والأحداث ، ومدى تأثير هذه المشكلات والأحداث عليهم

وإنما لزم المدارس أن يتعرفوا على كل ذلك ليصبح بين يدي المدارس الناقد المحقق من وسائل التحقيق والضبط ما يقربه من الحقيقة وبدنيه منها إن لم يقدمها له بكامل هيئاتها وأبعادها ؛ إذ هو أمام النتاج الأدبي ، والتاريخ البيئي للجماعة كمن يضع بين يديه العملية الحسائية وميزانها ليتأكد من صحة ما يصل إليه .

وليتمكن هذا المدارس من الوقوف على التفسير المقنع لكثير من التعبيرات الأدبية ، والتعرف على ما يشتمل من صور وخيالات هية يدهش لها بعض المدارس لما فيها من غرابة ، أو وحشية ، أو سذاجة نسبية .

من ثم كان لزاماً على من يتعرض لأي طور من أطوار الأدب العربي أيما كان أن يتعرف أولاً على طبيعة الحياة العربية في العصر الذي ضم هذا الطور بالقدر الذي يعينه على تصور الحركة الأدبية فيه ، ويطامه على اتجاهات مسارها ، إذ من خلال ذلك يستطيع أن يستخلص العوامل التي كان لها التأثير المباشر في تقوس الأدباء العرب مقدموا أدبهم على هيئته التي قدموه عليها .

ولا ريب في أن هذا النهج فيه من المشقة والجهد ما يربو على منهج الشك من أول الأمر في كل ما ينسب إلى عصر من العصور أو إلى أديب من الأدباء - شاعراً كان أو كاتباً - ثم البحث عما يثبت هذا التراث أو يفيقه ؛ لما يتضمن منهج الشك من شبهة وجود حكم مسبق يسمى صاحبه لإقراره .

يبد أن منهج التحقيق والاستقصاء القائم على البحث في ثمايا البيئة يقدم الباحث من الحقائق ما يشغله عن المشقات والصماب التي يتجشمها ويماني منها .

ونظرة إلى ما بين أيدينا من أدب الأمم للماضية تقرر ما ندعو إليه من أهمية التعرف على البيئة بكل أبعادها ليصدر حكما على أدب هذه البيئة صادقا أو قريبا من الصدق .

فالبيئة - وليس العصر - هي المقياس الصادق، والكشاف الدقيق للأدب المنسوب إلى أبنائها؛ إذ العصر الواحد يضم ألوانا مختلفة من العاصر البشرية التي يتباين فيها كل لون عما عداه من الألوان تباينا غير مستقر، فقد يضيق هذا التباين مشتركات طبيعية أو سياسية أو نحو ذلك، كما قد يوسع هذا التباين ويريد احتلافات طبيعية أو سياسية أو نحو ذلك كذلك. بحيث تصبح الأمة الواحدة في العصر الواحد كأنها عديد من الأمم لكل جماعة منها من الدوازع والأذواق والمزاج ما يمنحها كيانا استقلاليا متميز به عن الأخرى بحيث نسمع صوت الفرد منها ولا تصدق أنه يندرج في المجموعة التي تضم أفراد الجماعة؛ فبينما صوت الواحد هما يدوب رقة وسلاسة، إذا صوت الواحد هناك يصك السمع بخشونة ألفاظه ووعورة تراكمه، وقوة إيقاعه .

ولقد اعتاد الدارسون أن يقسموا الأدب إلى عصور، يضم كل عصر طائفة من الأدباء الذين يمثلونه في أدبهم، ويمبرون عن أحداثه واتجاهات الحركة الفنية فيه، على الرغم مما قد يكون بين أبناء الجيل الواحد من اختلاعات أصيلة توجه بصهم جهة اليمين، وتوجه البعض الآخر جهة اليسار . . . فإذا ما ووجه الدارس بمثل هذا التباين لجأ إلى البيئة الخاصة يطلب منها تفسيراً له وتعليلاً .

من ثم كان الطريق الأقرب إلى الواقع، والأوضح في الكشف عن الاتجاهات الفنية لأمة من الأمم هو البحث في أدبها من خلال البيئات الأدبية، لتكون الصورة أشمل وأوضح، وليكون الخلاف البادى مسبوqa بما يفسره ويعالاه، وليس محتاجا إلى تفسير وتعليل .

* * *

من هذا للنطق أتقرر أن البيئة الأدبية هي المجتمع المحصوص الذي يفرض على أفرادها اتجاهها معينا موحدا أو متقاربا، يلون أدبهم بلون خاص ويميزه من غيره بميزة يسير بها .

أو هي الوسط البشري الناقل، الذي يستقبل أحداث العصر ويتأثر بها، ويمتصها

ثم يتعلمها فيما يقدم من تعبيرات أدبية، ودون أن يخضع لحدود الزمان والمكان، إذ هو أهم منهما وأوسع انتشارا وتأثرا .

فالبيئة الأدبية ليست مقصورة على عصر، ولا محصورة بجبل، ولا محدودة بموطن، بل يمكن أن تراها ماثلة في أعصر عديدة، وأجيال مختلفة، ومواطن كثيرة .

أى أن البيئة الأدبية قد تكون مجاورة غيرها من البيئات الأخرى، كما قد تكون منفردة، إذ هي تخضع بالدرجة الأولى - لنوع التفاعلات، و ظروف الحياة وما يتولد عنها من أحداث، ومدى اتصال الأديب بتلك الأحداث، وكيفية تسماله معها أو استقبالها وتمثلها (١)

فالأديب يخضع في مساره الأدبي لموامل ومؤثرات متشابكة تتماون حثما في تشكيل أدبه وصنعه بالصبغة التي تتفق مع من يماثله في ظروفه، على الرغم مما قد تكون بينهما من فوارق زمانية أو مكانية .

وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم أدباء أى أمة، وتقديمهم في مجموعات بيئية متلائمة تكشف عن أدبهم ومدى استجابتهم لبيئة تلك البيئة، وتبين المؤثرات التي خضع لها كل منهم، بلونت أدبه باللون المميز له من غيره من الآداب .

ولأن هذا المنهج فيه من الشمول واتساع التناول ما يجعل النظر ممتدا بين عصور التاريخ على اتساع رقعتها، ليرى أدب البيئة الواحدة في هذه العصور كلها . . . مما قد يصيب الدراسة بنوع من التراكات . . . لهذا رأيت أن أقدم البيئة في عصرها متميزة عن البيئة الأخرى في العصر ذاته، حتى إذا استوعبنا بيئات العصر كله، انتقلنا إلى بيئة العصر التالي . وبذا تتلأى ما قد يشأ من حلط أو اضطراب .

* * *

ولقد احتل الشعراء الجاهلين، ومرض من خلالها شعرهم .

فابن سلام نظر في شعرهم وقومه، واحتار من الشعراء الجاهلين حولهم، ثم صنف هؤلاء الفحول، ووزعهم على طبقات رتبها ترتيبا تنازليا، بناء تارة على ما يراه من

(١) راجع للمؤلف « في الأدب العربي للماصر » القسم الثاني ص ٧٩

هلوفى للشاعر، وتارة على كثرة ما روى من شعرهم وقتله، ومرة يعتبر الفن الشعري،
وأخرى يعتبر الموقع الجغرافى حصرا لما قدمته بمض القرى العربية^(١) من غول للشعراء،
ثم فى النهاية عرج إلى المقيدة الدينية فجعلها أساسا لإحدى الطبقات .

ويلاحظ أنه على الأساس الأول والثانى والثالث قدم عشر طبقات ، ذكر فى كل
طبقة أربعة شعراء، ثم على الأساس الرابع والخامس لم يلتزم بعدد محدد على ما التزمه
فى الطبقات السابقة .

الطبقة الأولى : امرؤ القيس بن حجر ، والثابتة الديباني زياد بن معاوية ، وزهير
ابن أبى سلمى المزنى ، وأبو بصير الأعشى ميمون بن قيس .

والطبقة الثانية : أوس بن حجر ، وبشر بن أبى خازم الأسدى ، وكعب بن زهير ،
والخطيئة أبو مليكة جرول بن أوس .

والطبقة الثالثة : أبو ليلي ثابتة بنى جمدة ، وأبو ذؤيب الهذلى، والشاخ بن ضرارة
وليبيد بن ربيعة .

والطبقة الرابعة : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة ، وعدى
ابن ريد . واستثنى هذه الطبقة من منهجه ، فقرر أن موضع شعرائها مع الأوائل ،
وإنما أدخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة .

والطبقة الخامسة : حداد بن زهير ، والأسود بن يهز ، وأبو يزيد اللخبل بن
ربيعة ، وتميم بن أبى بن مقبل .

والطبقة السادسة : عمرو بن كاثوم ، والحارث بن حلزة ، وعذرة بن شداد ،
وسويد بن كاهل . وذكر لكل واحد منهم قصيده هى التى ألحقته بهذه الطبقة .

والطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، وحصين بن الحجاج المرى ، والتلس وهو جرير
ابن عبد المسبح ، والمسبح بن علس . وذكر أن هؤلاء أربعة رهط محكون^(٢)
مقلون ، وفى أشعارهم قلة ، فذلك الذى أحرمهم .

والطبقة الثامنة : عمرو بن قبيصة ، والهمسر بن تولب ، وأوس بن خلفاء ، وعوف
ابن عطية .

(١) المقصود بالقرى هما المدن والحواسر .

(٢) محكمون - بضم فسكون فكسر - من إحكام القول .

والطبقة التاسعة : ضابء بن الطارث البرجمي ، وسويد بن كراع العكلى ،
والحويدرة قطبة بن محسن ، وسحيم عبد بن الحسحاس .

والطبقة العاشرة ، أمية بن حرثان بن الأسكر ، وحرث بن عفظ ، والسكيت
ابن معروف ، وعمرو بن شاس .

ثم ألحق بتلك الطبقات طبقة أصحاب للرأى ، وذكر فيها : متم بن نيرة ،
والخساء ، وأعشى باهلة ، وكعب بن سعد الغنوى .

وطبقة شعراء القرى العربية :

ذكر من شعراء المدينة : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ،
وقيس بن الخطيم ، وأبو قيس بن الأسات .

ومن شعراء مكة : عبد الله بن الزبيرى . وأبو طالب بن عبد المطلب ، وأبوسفيان
ابن الحارث ، ومسافر بن أبي عمرو ، وضرار بن الخطاب القهرى ، وأبو عزة الجمحى ،
وعبد الله بن حذافة السهمى ، وهبيرة بن أبي وهب .

ومن شعراء الطائف : أبو الصلت بن أبي ربيعة ، وابنه أمية بن أبي الصلت ،
وأبو عجمن الثقفى ، وغيلان بن سلمة ، وكفانة بن عبد ياليل .

ومن شعراء البحرين^(١) : المثقف^(٢) العبدى ، والممزق^(٣) العبدى ، والمفضل
ابن معشر السكرى^(٤) .

ثم طبقة شعراء يهود : السموأل بن عادياء ، والربيع بن أبي الحقيقة ، وكعب
ابن الأشرف ، وثرييح بن عمران ، وسمية بن القريص ، وأبو قيس بن راعة ،
وأبو الذبالي ، ودرهم بن زيد .

(١) البحرين : كانت قديما اسم مكان جامع لبلاد على ساحل الهند ، ما بين البصرة
وعمان ، وقسمتها هجر ، أما المعروفة الآن باسم البحرين هى جزيرة يحيط بها البحر
فى ناحية البحرين ، ركائز تعرف قديما باسم : « بضم الهمزة وفتحها » كان
هيا نخل كثير رباتين .

(٢) بكسر القاف المشددة . (٣) بفتح الزاى المشددة .

(٤) بضم النون وسكون الكاف .

وهكذا لم يستقر ابن سلام في عمله على منهج واحد ، فاضطربت تقسيماته ، وتمذر عليها أن عمد الباحث الدارس بالرأى المحدد الواضح ، ولو استقام على واحدة من تلك الأسس لأعاد كثيرا .

أما أبو عبيدة فرأى أن أشعر الناس أهل الوبر خاصة ، ورتبهم في ثلاث طبقات :
للطبقة الأولى : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة .

الطبقة الثانية : الأعشى ، ولييد ، وطرفة .

والطبقة الثالثة : كعب بن زهير ، والحطيئة ، وحداش بن زهير ، ودريد بن الصمة ، وعنترة ، وعروة بن الورد ، والنمر بن تولب ، والشماخ بن ضرار ، وعمرو بن أحمد ، والمرقس الأمغر وعمرو بن حرملة (١) .

وابن رشيقي استعرض طائفة من الآراء التي تفضل شاعرا على الآخرين للمحظ عام تارة ، وتارة أخرى لخصوصية فنية . وعرف في إيجاز بشعراء بمص القبائل التي اشتهرت بالشعر مثل ربيعة وقيس وتبم دون أن يرتبهم (٢) .

* * *

وإذا كان الدارسون من قبل قد اختلفوا هذا الاختلاف في تقسيم الشعراء العرب في العصر الجاهلي ، فهو ليس اختلافا في تقسيم الشعراء بحسب ، وإنما هو شامل للأدباء عموما شعراء ونائرين ، لسكن لما كان الشعر هو الفن الغالب على الأدب في تلك الآونة دار التقسيم حول الشعراء دون غيرهم .

والملاحظ أن هذه التقسيمات على اختلافها لا تقوم على أساس ثابت ؛ فتارة لجد التقسيم مبنيا على المنهج الزماني ، وتارة أخرى نجده مبنيا على المنهج المكاني ، ومرة ثالثة نجده مبنيا على المنهج القبلي ، دون مراعاة للبيئة وأثرها في الأدب والأديب ، على الرغم من وضوح أثر البيئة العربية - على اختلافها - في أدب العرب وضوحا لا يحق لدارس منصف أن ينازع فيه . حتى أصبح العصر الواحد يضم لوتين من الأدب على طرفي نقيض ، فهذا لين قريب ، ودالا حوشى قريب ، بحيث ينظر الناظر إليهما مجتمعين فلا يتصور أن يكون هذان ابني عصر واحد .

(١) جمهرة أشعار العرب لابن زيد بن الخطاب القرشي ص ٤٥ .

(٢) الممددة ج ١ ص ٨٦ وما بعدها .

الفصل الثاني

أجناس الأدب العربي

من المقرر أن الأدب العربي - على اختلاف أنواعه وفنونه - يلتقي مع آداب الأمم الأخرى في المشتركات الإنسانية التي لا تتميز فيها أمة عن أمة ، ولا يختلف فيها فرد عن فرد من انفعالات وعواطف ونزعات ؛ ففي الآداب جميعا ترى صورة الإنسان - أيا كان موطنه - في صراعه مع ما يصادفه من عقبات في حياته تموجه عن مواصلة المسار . . . لا يختلف في ذلك أدب عن أدب . وفي الآداب جميعا ترى القيم الإنسانية الفطرية تدور حولها الأحاسيس والشاعر والانفعالات رضائها واحتفالا ، أو سخطا عليها ونفورا ، دفاعا عنها وتبشيرا بها أو برماها وتحذيرا منها .

ومن المقرر كذلك أن البيئات - زمانية كانت أو مكانية - تباعد كل أمة عن أخها في أمور كثيرة، من أبرزها - في ميدان الأدب والتعبير عن الأحاسيس والشاعر - الرؤية العقلية والخيالية لما تصادف في الحياة الواقعية ، والإدراك التصوري للعلاقات القائمة بين عناصر موقف من المواقف المجابهة، وكيفية نقل هذا المعنى المرئي أو الصورة المدركة إلى الآخرين . ثم الأسلوب الأنسب في عملية النقل هذه .

فالأبوة والأمومة - مثلا - من العواطف الإنسانية المشتركة التي لا تختلف حول الاحتفاء بها أمة عن أمة ولا بيئة عن بيئة . بيد أن تصوير حرص الإنسان عليها ، أو الدعوة إليها ، أو أسلوب الاحتفاء بها يختلف من أمة لأمة ، ومن بيئة لبيئة ، بل من فرد لفرد ، وفقا للمزاج العقلي والخيالي الذي يشكل إدراكه التصوري لهذه العاطفة أو لتلك .

من هذا يتقرر أن أدب بيئة ما له من الخصائص ما يميز به عن أدب البيئة الأخرى وهو تميز تفرضه عليه ظروف البيئة بكل أبعادها من اختلاف في المزاج العام الذي تقوم عليه اتجاهات أفرادها ، وتشكل به منازعهم . فلا يصح - لذلك - أن يحمداً أدب أمة أو جيل لخصائصه ، ويذم أدب أمة أو جيل لخصائصه ؛ إذ هذه الخصائص وتلك من

ضروريات البيئة التي لاجهد لاحد فيها . إنما يحاسب أدباء أمة أو جيل ويذم أديبهم إذا تجاوزوا ماتمليه عليه يدينهم أو مجاهلوه . فجاء أديبهم غير ممثل لتلك البيئة ؛ لأن أديبهم عندئذ يكون مسخا مصروعا لا يعبر عن ذات أصحابه ، ولا يفيدهم في شيء عجيبه على نسق آخر ، بل جد التميز والجودة في بيئته .

* * *

ودارس الأدب العربي يلاحظ أنه يقوم على جنسيه المعارف عليهما - الشعر والنثر - بيد أن ظاهر الأمر يوحي بأن هذين الجنسيتين لا يكونان على قدم المساوي في جميع البيئات الأدبية ، مينا يطنى أحدهما في عصر بحيث يبدو أنه الأثير عند أهل ذلك العصر نجد الجنس الثاني يبرز حتى يطنى على الجنس الأول في عصر آخر .

ولا ريب في أن إثار الشعر أو إثار النثر لا يقصد إليه الأديب قصداً ، ولكن من فعل البيئة وعواملها للتغيرة ، وهي التي تعيل بالأديب - من غير قصد منه أو عمد - إلى أن يعبر عن مكنون نفسه ، وما يختلج بين جوانحه بهذا الجنس الأدبي أو ذاك . ولا يعني هذا أن يخلص أدب عصر أو جيل لهذا الجنس دون الجنس الآخر ، فهما دائماً موجودان مائلان في كل بيئة وجيل ، إلا أنهما - كما قررنا - لا يتساويان . وقد يطرأ على عصر مامن الظروف والعوامل ما يدعو إلى اختفاء أحد هذين الجنسيتين من بين آدابه الماثورة ، سواء كانت هذه الظروف والعوامل أصيلة في البناء الأدبي أو كانت عوامل ناقلة مساعدة . . . فتثور الشكوك حول وجود هذا الجنس أو ذاك كما ثارت حول أدب العصر الجاهلي بجنسيه - الشكوك - .

* * *

النثر : ولقد نوهم بعض دارسي الأدب الجاهلي أن هذا العصر خلا تماماً من أديب يعبر بالنثر ، فكل ما أثير عن أدبائه قائم على جنس الشعر ، حتى [قرر بعض هؤلاء أن العربي في هذا العصر كان لا ينطق إلا للشعر في جميع شئونه ، وليس] فقط في مجال التعبير الفني .

كما تشكك بعض الدارسين فيما حظته كتب الأدب العربي من نثر جاهلي ، وإن أقر بأن أدباء هذا العصر قد عرفوا فنونا من النثر عبروا من خلالها عما أرادوا التعبير عنه ، لكنهم قطعوا بأن شيئاً من هذا النثر لم يصلنا ، وكل ما وصلنا منه منه منقول

مصنوع ، قد يكون على نظام ما كان لهم في ذلك العصر ، يقول الله كتورطه حسين :
« وكل ما يمكننا أن نستخلصه من هذا النثر القدي يضاف إلى الجاهليين إما هو شيء
واحد ، وهو أن من الممكن أن يكون هذا النثر قد حاول قليلا أو كثيرا تقليد
ما كان للمرب في جاهليتهم من نثر ، حفظ لنا صورة مامن هذا النثر الجاهلي ، دون
أن يحفظ لنا نصا من نصوصه » (١) .

وأنا لاشك في أن العصر الجاهلي قد عرف النثر الأدبي باعتباره وسيلة من
وسائل البيان . ولا أشك كذلك في أن ماعرفه الجاهليون من فنون النثر لم يكن على
غرار ماعرفه غيرهم من الأمم ؛ إذ لكل أمة ما يناسبها من فنون المقال وفقا لدواعي
القول عندها - على ما قررنا - فلا يحق لنا أن نطلب في الأدب العربي من سون النثر
ما نجده في الأدب اليوناني أو الروماني أو نحو ذلك ، كما لا يحق لنا أن نطلب في الأدب
الجاهلي من فنون النثر ما نجده في الأدب الإسلامي أو العباسي أو نحو ذلك من عصور
الأدب العربي ذات البيئة المختلفة ، والظروف المتباينة .

أقرر ذلك على الرغم من آراء كثير من المستشرقين ومن تابعهم التي يرمعون بها
أن عرب الجاهلية لم يعرفوا النثر الفني ؛ لأن عرب الجاهلية لو كانوا يجهلون النثر الفني
لما كان لتعليمهم بالقرآن الكريم قيمة ؛ فالتحدي للمعجز لا يكون عن فقر وجهل بما
يجعل ميدانا للتحدي ، وإنما يكون عن مقدرة دائمة وتمكن مشهور في ذلك الحال .

هذا إلى أن عرب الجاهلية لو كانوا غرباء عن النثر الفني لما استطاعوا أن يتذوقوا
البيان القرآني ويحلوه المحل المؤثر في نفوسهم ، فيكون سببا في إسلام طائفة من أعلام
الأدب لديهم كما حدث في إسلام عمر بن الخطاب ، ويكون عاملا من عوامل التشكك
في نفوس طائفة أخرى على رأسها الوليد بن المغيرة وضربائه من الجاهليين الذين وجدوا
في القرآن ما يفهمهم إلى التروى في الحبح عليه ، ومعاودة النظر فيما يدعوهم إليه ،
لولا خوفهم من ثورة قومهم ، وخشيتهم من ضعف سلطانهم المورث .

ولاشك في أن أكثر نثر هذا العصر لم يصلنا ، لعدم تسجيله في كتاب يحفظه ،
ولمصادفته بالقرآن الكريم ، واشتغال العرب به - من أسلم منهم ومن لم يسلم - بما كان له

(١) في الأدب الجاهلي ص ٣٦٧ .

أبعد الأثر في الانصراف عن أكثر نثرهم الموروث « وضياعه بمرور الوقت وفقد من حفظوه ولعل ما حدث في العصر الإسلامي تجاه القرآن الكريم حين استعمر القتل في حفاظه أثناء حروب الردة . . . يقرر ما أقول في شأن النثر الجاهلي قبيل ذلك بأعوام قلائل ؛ إذ انتشار الإسلام ، واتجاه الكثيرين من أعلام العرب الجاهليين للدخول فيه أو مقاومته، وقتل من قتل منهم في الحروب التي نشبت بين الجاهليين والمسلمين . . . كل هذا كان من أسباب الاشتغال عن النثر الجاهلي .

كما لا أشك في أن القليل الذي وصلنا من نثر هذا العصر يمكن أن يلقى الضوء على هذا للجنس الأدبي عند الجاهليين . . . على الرغم مما قد اعتراه من إضافات وتغييرات في بعض عباراته ، وما قد أصابه من تحريف في بعض أصوله ؛ إذ هو — مع كل ذلك — يطلعنا على للفنون السائدة بينهم ، ويعرفنا بكثير من قصايم التي كانت تشغل تفكيرهم ، كما يقفنا على منهجهم البياني في ذلك الفن .

والناظر فيما تناقله الرواة من نثر هذا العصر يلاحظ أنه يدور في محورين متميزين:

أحدهما : محور التعبير الموجز الذي يعتمد على الإشارات اليبانية ، والذاكرة الحافظة في حمل الحدث القصصي ، دون إجهاد في بناء قصص أو في نقل حبرات الأديب بالحياة ، والتمبير عن خلاصة رأيه وعصارة فكره . . . وهذا وذلك ماتناقله الرواة تحت اسم (الحكمة والمثل) .

والثاني : محور التعبير الخطابي الذي يعتمد فيه صاحبه على وسائل التأثير الفنية في الوصول إلى عقل المخاطب وحمه . . . وهذا هو المعروف بالخطب والوصايا والمحاورات والناشرات ؛ فهذا كله تعبير فني ، قصد به الإثارة والتأثير ، حاض في هذا وذال المزاج قائم وما تأصل في نفسه من مبادئ وأفكار ، وتأثر به من أحداث بيته . أما الكتابة الفنية فلم يكن لها دور ملموس في هذا المحور الخطابي ؛ فقد آثروا فيه الخطاب المباشر على الرسائل لصعوبة وسائل الكتابة الفنية ومتطلباتها ، وليس لجهلهم بها ، فقد استغندوا للكتابة في غير الأدب من شئون الحياة ، كالسياسة والتجارة ، حيث كتبوا مآهدهم ، ودونوا وثائقهم المالية والتجارية .

فالفنون الأدبية التي قدمها النثر الجاهلي هي : المثل والحكمة ، والخطابة ، والوصايا والمحاورات ، والناشرات . أما ما روى من القصص فلا يستطيع أن أسلكها في ضمن

قون نثرهم ؛ لأنها من صياغة رواتها ، وإن كانت أحداثها جاهلية . . . فهي ليسـج
غير جاهلي يبالغ قضايا وأحداثا جاهلية ، أو هي أدب غير جاهلي يحوى مضمونا جاهليا .
يبد أنها — إلى ذلك — تشير إلى أن الجاهليين صاغوا هذه الأحداث في قصص ،
وتداولوها فيما بينهم ، متوسلين فيها بالقص والحكاية (١) .

ويلاحظ الناظر في النثر الجاهلي أن المثل والحكمة تعبير يائي موجز غير منسوب
لقائله في الغالب ، فهو تعبير سائر ، لا يرتبط بصاحبه قدر ارتباطه بمصره أى أنه تعبير
فى إخضاع لبيئة العامة التى نسب إليها ، أما البيان الخطائى — على تمدده — فهو فى الغالب
منسوب إلى من صدر عنه ، أى أنه تعبير فى إخضاع لبيئة قائله الخاصة ويتأثر بما تأثر
هو به منها ، على ما سنحاول أن نجليه إن شاء الله تعالى فى بحثنا هذا .

* * *

الشعر : أما الشعر الجاهلي فلقد كان أحسن حفا من النثر ؛ إذ صادف من أسباب
الحفظ والانتقال ماضن له الخلود والبقاء ، وإن لم يسلم من امتد يصيبه بالتغيير
والتحريف ، أو شاك متعصب يهـل عليه ماشاء من الظنون والتراكبات محاولا
طمسه وإنكاره .

والشعر الذى وصلنا من العصر الجاهلي يرجع إلى نحو مائة وخمسين عاما قبل
الإسلام ، فليس هذا العصر مبتدا قول الشعر العربى ؛ لأن ما وصلنا منه مثلا هذه
الفترة الزمنية شعر ناضج مستقيم ، يسير به الشاعر وفق منجز تمارف عليه الشعراء
من أقصى الجزيرة إلى أقصاها واستساغوه ومرنوا عليه ، وأقام القناد قواعدهم النقدية
على أصوله المرعية من الجميع ؛ سواء فى ذلك القالب العام — من بناء القصيدة على أبيات
فآت وخذة ، واعتمادها على قافية ثابتة لاتغير — والبناء الفنى للقصيدة الذى يلتم فيه
الشاعر غالبا بطلع يسكى فيه ويصف الأطلال ، وينقل منه إلى وصف الرحلة فى
الصعراء وما يتصل بذلك من حديث عن الناقة وقوتها وضخامة جسمها ، ووصف

(١) انظر ذلك فى نحو أمثال العرب للمفضل الضبي ، والأغانى لأبى الفرج ، ومجمع

الأمثال للسيدانى ، وجمهرة الأمثال للمسكوى ، والبيان والتبيين .

للطريق وما فيه من مشقات . ثم يخرج من ذلك إلى الفرض من القصيدة - مدحا كان أو هجاء ، أو نفرا أو رثاء - فينبى القصيدة بالانتهاء من عرضه .

ولاشك من أن هذا النظام الذى يقوم عليه الشعر الجاهلى ليس ابن يومه ولينته ، فهو نظام من أطوار ومراحل هذبت فيها حواشيه ، وتساقطت منه كل معوقات العمل الأدبى ، حتى وصلنا على ما نراه اليوم من التكامل والتناسق .

لكن متى بدأت تلك الأطوار ؟ وكيف هذب الشعر فيها ؟ وما العوامل التى أثرت فيه ؟ ومن كان له الدور الواضح من الشعراء ، فى ذلك ؟ إلى غير تلك التساؤلات التى تفرض نفسها وتطفو على السطح فى مواجئة من يدرس من شعر هذا العصر .

الإجابة على مثل تلك التساؤلات من الأمور التى لا يستطيع الدارس الموضوعى أن يقف على جواب لها ، بل ولا يستطيع أن يسلم بالافتراضات التى يجاب بها ، فليس بين أيدينا ما يدل على شيء من ذلك أو يرجحه ، مما كان سبيلا إلى تجرؤ بعض المستشرقين ومن تابعهم من العرب فتشككوا فى صحة وما وصلنا من شعر هذه المرحلة وشككوا فيه - بل بلغ بعضهم الجراءة أن أنكروه - معتمدين على فقدان الأثر المادى الذى يقطع بتلك النسبة مستبعدين ما على الشعر الجاهلى من أعراف فنية معقدة من المعانى والموضوعات ، وفى الأساليب والصيغات المحكمة ، وفى الوزن والقافية .

والملاحظ أن هؤلاء وأولئك بنوا شكهم أو إنكارهم على افتقاد الشعر الجاهلى الوسيلة المادية التى تقطع بنسبته إلى عصره ، ويقصدون بذلك المكتوبات . . . وهم فى ذلك يريدون أن يخضعوا الجاهليين لأعرافهم من العصر الحديث ؛ وفاتهم أن الجاهليين كانوا لا يثقون فى المدونات والمكتوبات ثقتهم فى الرويات ، لتقديرهم أن شعرهم من توثقه الرواية أكثر مما توثقه الكتابة ، حتى لقد صرح ابن سلام فى طبقاته بأن وثقته الرواية لا ينفى بما أخذ عن صحيفه (١) .

وأنهم - كذلك - بنوا هذا الشك أو الإنكار على أن ما بين أيدينا من شعر الجاهليين يمثل المرحلة الأولى من هذا الشعر ، ومن ثم فليس مقبولا ، أن تكون تلك المرحلة الأولى على مثل هذا النضج . وفاتهم أن هذا يمثل مرحلة سبقت بمراحل ، غير أن نتاجها الأدبى طوى مع الزمن كما يقطع بذلك العقل السوى .

(١) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٤ بتحقيق شاكرو .

وإذا كان منطق العقل السوى يقرر أن ما بين أيدينا من الشعر الجاهلي هو ابن
مرحلة سبقتها مراحل، فإن بمص شعراء الجاهلية أشار إلى ذلك في حديثه عن سبقهم
من الشعراء . مثل امرئ القيس في قوله :

عوجا على الطلل الحيل لأننا نبيكي الديار كما بيكي ابن خدام^(١)

فإن خدام هذا شاعر سبق امرأ القيس في بكائه ووقوه . بيد أننا لانعرف شيئاً
عن ابن خدام هذا أكثر من ذلك الذي جاء في بيت امرئ القيس ، قد يكون أول
من بيكى ، وقد يكون بمن تقدموا امرأ القيس إلى البكاء ، ولكنه ليس أولهم
ومثل زهير بن أبي سلمى في قوله :

ما أرابنا نقول إلا معاراً أو معادا من قولنا مكروراً

إذ يقرر أنه في قوله يحتذى سابقه ويكرر ما قالوا، ويستعير منهم . . لكن ما هذا
الذي استماره ؟ ومن هم الشعراء الذين سبقوه إلى القول على هذا الخط ؟ وكيف كانوا
يقولون ؟ ومتى وأين كانوا ؟ وبم اتصل هؤلاء بأولئك ؟

لما نجد إجابة شافية على هذه التساؤلات ونحوها ، لأننا حتى يومنا هذا لم نستطع
أن نجتاز بالتسقيب هذا المعسر إلى ماسبقه . وكل مانع إلى به من ذلك هو أن زهيراً
يترف بأنه سبق بشعراء عبيدين استقاموا على الطريقة ، وأنه ومناصروه تتلمذوا على
هؤلاء السابقين المحيدين . وهذا يعني - بالتبع - أن سابق زهير المحيدين سبقواهم
أيضاً بمن تتلمذوا عليهم ، إذ لا يمكن في تصور الأطوار الفنية إلا أن يكون الأمر هكذا.
حتى يصل بالشعر إلى مرحلته الأولى .

ومثل ذلك قرره عنتر بن شداد المسمى في قوله :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرمت الدار بعد توهم^(٢)

(١) عوجا : اعطفا روا حلسكا : على الطلل الحيل : الطلل الذي أرى عليه حول
قتنير ، لأننا - بفتح اللام - لعلنا . انظر ديوان امرئ القيس ص ١١٤ طبع دار
المعارف بمصر ، تحقيق محمد أبو الفضل .

(٢) المتردم : الموضع الذي يستترق ويستصلح لما عراه من الوهن . يقول : هل
ترك الشعراء موضعا مسترقما إلا وقد رقموه وأصلحوه . يعني : لم يترك الشعراء السابقون
لنا شيئاً نقول فيه قولاً جديداً شرح الملاحظات السبع للزوزنى ص ١٦٨ طبع صبيح بمصر .

ففترة يستنكر أن يكون الشعراء السابقون قد تركوا لمن لحق بهم - على عهده - شيئاً يقولون فيه ؛ فاللاحقون - ومن بينهم عنترة - يحتذون سابقهم ، ويأخذون عنهم ، ويتلمذون عليهم ؛ لأن السابقين بلغوا من أطوار الشعر - مرحلة مكنتهم من استيعاب الكثير من الفن الشعري ، بحيث يشعرون التلميذ - من جيل عنترة - بأنه عاجز عن الابتكار والانطلاق متحرراً من تقليد هؤلاء السابقين .

أى أن واقع الشعراء الجاهليين يبرز ما قرره العقول والنطق في سنة التطور من أني العصر الجاهلي يمثل مرحلة ناضجة من مراحل الشعر العربي ، وأن تلك المرحلة سبقتها مراحل متوالية ، تدرج الشعر فيها حتى نأى واستقام قبل مبتدأ هذا العصر .

• • •

والناظر في أدب هذا العصر - على عمومه - يلاحظ أن الشعر قد احتل من النشاط العربي مكان الصدارة ، ونال منهم أرقى درجات التقدير ، وسائر الفروسية لديهم ؛ فقد كان لهم الهديان الذي يحفظ تاريخهم وأيامهم ، وكان جهاز الإعلام المتنقل الذي ينشر آراءهم ويديع أنبياءهم ، وكان المحمس لفرسانهم في المعارك ، واللؤنس لرأئحهم وغادهم في وحشة الصحراء ، والمتنفس الذي يتمص من أعصابهم السكد والإرهاق ، له يجتمعون [وبه يسمررون .

من ثم كان الشعراء ذوي حظوة في القبيلة ، فهم الذين يسطقون بلسانها ، ويعبرون عن مشاعرها ، ويحفظون أمجادها ، ويدعمون الماديات عنها ، ويرهبون خصومها ، ولذلك حرصت كل قبيلة - لاهرق بين البداية في ذلك والحاصرة - على أن تضم أكثر عدد من الشعراء الذين كسب الركبان بشعرهم ، ضاماً لاكتساع سطوتها ، وانتشار سلطانها فومرت ، للناشئة من أبنائها كل أسباب النبوغ والتفوق ، واحتفت بمولد الشاعر من بينها فسكانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أتت للقبائل لتهنئتها بذلك ، ومدت الموائد واجتمع للنساء يلعبن بالزاهر كما يصنعن في الأعراس ، ويتباشرن الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذبح عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإعادة بذكورهم ، وكانوا الالهة دون الإلام يولد ، أو شاعر ينبيع فيهم ، أو مرس قلتج (١) . فلم تكن تختص بالشعر قبيلة دون قبيلة ، وإن تميزت فيه واحدة عن أخرى بكثرة الشعراء ، وسيرورة الشعر .

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٦٥ بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين طبع التجارية بمصر .

ولذلك يجد المدارس نفسه أمام فيض من الشعراء تابع من قبائل العرب - على اختلاف مواطنهم وبيئاتهم - لا يستطيع أن تحيط بهم . فقد كانوا كثيرين متنوعين ، تشرك الرجال فيه النساء ، ويتفوق فيه البدوي كما يتفوق الحضري ويذبح فيه الصعاليك كما يذبح السادة حتى يخيل له أن الشعر في هذا العصر كان شغل العرب الشاغل ، وأنه كان ميسورا للكثيرين ، يجري على كل لسان ؛ ولا يكاد يستعصى على أحد منهم ؟

وهل كان للعرب - في مجموعها - ما يشغلهم عن الشعر ؟ لقد كانوا محاطين بظروف اجتماعية وسياسية وبيئية تجردهم للشعر ونحوه من فنون البيان ، وتحقيرا لذواتهم ، واستجابة لحاجاتهم الطبيعية . ولقد قرأ ابن قتيبة ذلك في قوله : « والشعراء للمروءون بالشعر عند عشائرم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف وراء عددهم واقف ولو أنفد عمره في التنقيب عنهم ، واستفرغ مجهم - وده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها » (٢) وابن سلام في تدبيره له جدول شعراء العرب قدم أربعة وسبعين شاعرا من حول الجاهليين والحضرميين ، أربعين منهم في عشر طبقات ، كل طبقة يمثلها أربعة ، وخمسة في المدينة ، وتسعة في مكة ، وخمسة في اللطائف ، وثلاثة في البحرين ، وثمانية من اليهود .

والناظر إلى هؤلاء الشعراء يلاحظ أنهم ينطون مختلف البيئات العربية - من بدوية وحضرية - بيد أن القبائل المضرية كان لها أومر نصيب من الشعراء . يتضح هذا من إلقاء النظر في نحو الأغاني واللفظيات والأصمعيات . كما يتضح أن القبائل - مضرية أو قحطانية - متفاوتة كذلك في حظها منهم .

لقد كان للشعر أثره البالغ في حياة العرب ، به يتوسل صاحب الحاجة ، وبواسطته تستل السخائم من النفوس ، وعليه تقوم الملائق في المجتمع العربي ، روى أن الحارث ابن حلزة اليشكري - وكان أبرص - ارتحل بين يدي عمرو بن هند قصيدته التي مطلعها :
آذنتها بينما أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٦٠ بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ، طبع

دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٦

وكان يشد من وراء السجف للبرص الذي كان به ، وأمر عمرو برفع السجف بينه وبينه استحسانا لها (١) . وروى أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة ، فقالت له : إن الأعشى قدم ، وهو رجل مفوه ، محدود في الشعر مامدح أحدا إلا رفمه ، ولا هجا أحدا إلا وصمه ، فلو سبقت للناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له لرجوت لك حسن العاقبة . فسبق إليه المحلق ، فأنزله ونحر له وسقاه وبالغ في إكرامه ، ولكن الأعشى عرف بؤس حال مضيفه ، وكثرة بنائه ، فقال الأعشى : كفت أمرهن ، وأصبح بمكاظ يشد قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي ممسوق
وفيها يقول :

نفي الذم عن آل المحاق حفنة كجارية الشيخ العراقي تهوق
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
نشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهثون ، والأشراف من كل قبيلة ينسابون إليه جريا يخطبون بناته ؛ لمكان شعر الأعشى ، فلم تمس منهم واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف (٢) .

وقد يكون في هذه الروايات مبالغة ، لكنها على أية حال تكشف عن تقدير العرب للشعر والشعراء ، حتى لو كانت هذه الروايات مخترعة ، فهي تبين عن تصور مخترعيها لمكانة الشعر لدى العرب الجاهليين .



ولا ريب في أن شعراء العرب كانوا في مسيرتهم الشعرية خاضعين لمؤثرات بيئتهم العربية العامة ومتطلباتها ، فتحقق بذلك لشعرهم التميز عن شعر غيرهم من الأمم - دون قصد إلى ذلك - في قالبه ، وأنواعه ، وصوره ، وأخيلته ؛ وموضوعاته إلى غير ذلك من جوانب الاختلاف البيئي .

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٩٧ الطبعة السابقة ، والعمدة ج ١ ص ٤٣

(٢) للعمدة ج ١ ص ٤٨ ، ٤٩

وهي الرغم من توفر أسباب التميز تلك للشعر العربي في العصر الجاهلي ، نجد طائفة من الدارسين المعاصرين يحرمون على أن ينزرا هذا الشعر بموازين الشعر في البيئات الأخرى ؛ ويقيسوه - من ثم - بمقاييس غربية عليه ، مما يضطرهم إلى أن يطلبوا فيه مالا يحق لهم طلبه ، لأنه من نتاج بيئات غربية على البيئة العربية ، ولقد اشتهر عن الدارسين والنقاد الغربيين أنهم قسموا الشعر منذ اليونان أقساما ثلاثة هي الشعر الملحمي ، والتشيلي ، والغنائي ، ولكل قسم منها سمة ومميزاته .

والشعر الملحمي - على ما رأى هؤلاء النقاد في شعر أسلافهم - قصة في قصيدة طويلة تتجاوز ألف بيت ، وتعرض أحداثا متوالية تدور حول بطل واحد ، أو يشاركه في أدوار ثانوية منها عدة أبطال آخرون ، مثل إلياذة هو ميروس من الأدب اليوناني وإنيادة فرجيل من الأدب الروماني ، والراما يانا والمها بهارانا من الأدب الهندي ، والشهنامة من الأدب الفارسي . وأحداث هذه الملاحم خيالية أسطورية ، تتلى بالافعال الغريبة ، والأمور الخارقة .

والشعر التشيلي لون من الشعر القصصي ، ولكنه يتميز عنه بقيامه على الحوار بدلا من الحكاية ، كما يتمد على مسرح نبرز قوته الأحداث والمواقف .

والشعر الغنائي هو الشعر الذي يعبر فيه الشاعر عن حلجاته النفسية ، ومشاعره الوجدانية ، وأحاسيسه الذاتية ، فهو شعر ذاتي يمثل صاحبه ، ويصور ما يعتل في داخله وما ينعكس على مرآة نفسه من الأحداث والمواقف التي يواجهها في حياته .

ومن الواضح البين أنهم أقاموا هذا التقسيم وتلك التعريفات على أساس ملأوا أمامهم من إنتاج شعري ، فهي تقسيمات للشعر اليوناني والروماني وما تولى منها . ولما انصلت دراساتهم وتناولت الأدب العربي - شعره ونثره - نظروا في الشعر العربي بالمنظار الذي نظروا به إلى شعرهم ، وقاسوه بالمقاييس نفسه الذي قاسوا به الشعر العربي عديم ، ومن هذه النظرات والمقاييس قرروا أن الشعر العربي شعر ذاتي ليس غير ؛ إذ لم يجدوا فيه القصيدة التي تتجاوز في طولها ألف بيت ، والتي تتكون من أحداث متوالية في منطقية متتمة لتمرص الأساطير اليونانية وما اشتمله من أمور خارقة بالغة الغرابة . كما لم يجدوا في الحوار التشيلي الشخص .

وحاء الدارسون والنقاد العرب على أثر هؤلاء متعلمين عليهم ، فسار بعضهم على

طريق الغربيين نفسه دون مراجعة وتفهم لطبيعة الشعر هنا وطبيعته هناك ، ومتطلبات القوم هنا ومتطلباتهم هناك ، وطبيعة الحياة هنا وطبيعة الحياة هناك . . إلى غير ذلك من العوامل للأثرة في الأدب على عمومه ، وفي الشعر والشعراء بخاصة فأجروا التقسيمات الشعرية عند اليونانيين والرومانيين على الشعر العربي ، ونقوا من الشعر العربي ما لم يتطابق مع التقسيمات ، ثم نظروا فلم يجدوا بين أيديهم سوى القسم الثالث - وهو الشعر الفنائى - فقررروا أن كل الشعر العربي يدخل في هذا القسم دون سواه .

وكان على الدارس الموضوعى المنصف أن ينظر إلى الأدب فوق أرضه ، ومن خلال أهله ، وفي إطار بيئته ، ثم يتخذ لنفسه مقاييس عامة يقيس بها العمل الفنى فى كل بيئة على حسب ما يتناسب معها ، حتى يوفر لرؤيته المداخل الصادق الصادق ، ويضمن لقرارته للمدالة والقرب من الصواب .

وإذا نحن سرنا فى تفحصنا للشعر العربى فى البيئة الجاهلية على هذا الدرب الموضوعى المنصف كنا خليقين بالمعرف على طبيعة الشعر العربى فى هذا العصر ؛ وبذلك نستطيع أن نتابع المسار فى طريقنا إلى العصر الحديث لنكشف عن أطواره ، ومراحل نموه ، وتكيفاته فى تلك الأطوار .

فإذا كان دارسو الأدب العربى القديم قد قسموا الشعر - وفق مارأوا - ثلاثة أقسام ، فليس معنى ذلك أن الشعر فى عمومه خاضع لهذه الأقسام الثلاثة لا يخرج عليها؛ إذ هم إنما التزموا فى تقسيماتهم ما تحت أنظارهم ، ومن ثم فليس حتما علينا أن ندور حيث داروا . ونخضع الأدب العربى لهذه الأقسام دون غيرها .

والذى أراه أن الشعر العربى الجاهلى - وإن يكن خاليا من الملحمة والتشيل - ليس غنائيا فحسب ؛ لأنه لم يكن مقصورا على تنفى الشاعر بآلامه وآماله وتصوير أحاسيسه الغداتية - كما يقولون - بل كان منه الفنائى الذى يسير على هذا النهج ، ومنه القصصى - بالمفهوم العام للقصص - الذى يسير على النهج الموضوعى الخارجى ؛ ليقدم أحيانا متواليه ، ومنطقية فى تحركاتها وانتقالاتها ، ليعرض الحكايا التى تليق من بيئته ونفوسها على خياله وفكره قيم مجتمعه . وكان منه الوصفى الذى يعتمد فيه الشاعر على وصف مرآئه من خلال ذاته ، ومنه الوصف الموضوعى الذى يبرز الصورة فى دقة

الحاذق الداح . فالشاعر العربي كما توسل بالشعر لينقل لنا ما يهتمل في داخله ، توسل به لينقل لنا ما ينمكس على صفحات نفسه من المرأى المحيطة به ، وتوسل به ليحكى لنا من أيام العرب ما يصور البطولات العربية ، مارجا فيه الحقيقة بالخيال . وتوسل به كذلك ليقص علينا من واقعه ما يبرز قيمه ومشله وفضائله ، لكنه - مع ذلك كله - لم يأخذ نفسه بما أخذ به شعراء اليونان والرومان لنفسهم لا اختلاف البيئات وملاساتها ، ولو صنع الشاعر العربي ما صنع هؤلاء وسار في محاذاتهم لافقد عمله الصدق وأسقط عن قه أهم خصائصه ، ولـ كان مسخا من بناء غربي في زي عربي أو العكس

ونظرة إلى ما وصلنا من شعر هذا العصر بالمظار الموضوعى المترن تؤكد ذلك الذى نقول ، ويكفى النظر فى معلقة امرئ القيس لرى فيها أهم العناصر القصصية ؛ ففي هذه المعلقة لا تكاد تلمح شخصية الشاعر بقدر ما نرى فيها حياة طائفة من المجتمع الذى يعيش فيه . إذ بقص علينا طرفا من مغامراته التى كانت تملك عليه حياته ، وبخلص من ذلك إلى تصوير إحدى رحلات الصيد التى كانت امتدادا لبعض تلك المغامرات النسائية . وتبحث عن ذانية للشاعر بين تلك الأحداث والواقف ، فلا تجدد إلا ما تخلفه قصة من إيماءات وإشارات توحى بما ينطوى عليه من مهانة .

وليس امرؤ القيس وحده هو الذى يمثل هذا الاتجاه ، فعلى غراره تجدد الكثرة من الشعراء الجاهليين فى بعض ما قدموا ، مثل الأعمش فى مقطوعاته التى تحدث فيها عن الملوك والقرون الخالية ، ومثل لقيط بن يعمر الإيادى فى عينيته التى نمت بها إلى قومه يحذرهم من كسرى وما أعد لهم ، ويستنفرهم فيها ليستمدوا لمواجهة تلك الحرب ، وفى مطامها يقول :

أبلغ إبادة وحلـل فى سراتهم أنى أرى الراى إن لم أعص قد نصما
ومثل عمرو بن كلثوم فى معلقته ، ومثل الشنفرى فى تائيته التى يصف فيها إحدى غاراته ، والذى يقول فى مطلعها :

وباضة حمر القسى . عثها ومن يغز يغنم مرة ويثمت (١)

(١) الباضة : القاطمة ، ويريد بها رفاهه . عثها : غزوت بها . حمر القسى : يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس ، ويشمت : يخفق .

وفي اللامية المنسوبة إليه ، والتي تتضمن قصة حياته بمراحلها المختلفة ، وفي مطلعها
يقول :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل
بل إن بعض الشعراء استطاع أن يتعمق في أحوار النفس البشرية في لحظة من
لحظات صحتها ، ويرز صورها والصراع الدائر في داخلها في قالب قصصي متمم ، على نحو
ما صنع حاتم الطائي في قوله :

وداع دعا بعد الهدو كأعما يقاتل أهـوال السرى وتقاتله
دعا يائسا شبه الجبون وما به جنون ، ولكن كيد أمر يحاوله
فلما سمعت الصوت أقبلت نحوه بصوت كريم الجسد حلو شمائله
فأبرزت نارى ، ثم أثقت ضوءها وأخرجت كلى وهو فى البيت داخله
وقلت له : أهلا وسهلا ومرحبا رشدت ، ولم أقدم إليه أسائله
وقمت إلى برك هيجان أعده لوجبة حق نازل أنا فاعله
بأبيض حطت نعله حيث أدركت من الأرض لم تخطل على حمائله
فإن قليلا وإقانى بخيره سائما ، وأملاه من القى كاهله
نخر وظيف القرم فى نصف ساقه وذلك عقال لا ينشط عاقله

وعلى نحو ما صنع الخطيب الشاعر الخضرى فى قوله :

وطاوى ثلاث ، عاصب البطن مرمل ببغداد لم يسرف بها ساكن رسما
أخى جفوة ، فيه من الأنس وحشة يرى البؤس فيها من شرارسته نعى
وأهـرد فى شعب عجوزا إزاءها ثلاثة أشباح تخالهم إيهما
جفأة عراة ما اغتذوا خبز ملة ولا عرفوا للبر مسد خلقوا طعما
رأى شبيحا وسط الظلام مراعه فلما رأى ضيفا تشمروا هتما
فقال : هيا رباه إضيف ولا قرى ؟ بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحم
فقال ابنه - لا رآه بحيرة - : أيا أبت ! اذبحنى ويسر له طعما
ولا تعتدري بالمسدم على الذى طرا يظن لنا مالا فيوسمنا ذما
مروى قليلا ، ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما
فبينما عنت على البيد عانة قد انتظمت من حلف مسجلها نظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها على أنه منها إلى دمها أظما

فأمهلها حتى تروت عطاشها - فأرسل فيها من كنانته سهما
خفرت نحو ص ذات جعش سمينة - قد اكثرت لها وقد طبقت شعما
فياشره إذ جرها نحو قومه - وياشرهم لما رأوا كلها يدي
ويانوا كراما قد تضاوا حق ضيقهم - وما غرموا غرما، وقد عنموا عننا
وبات أبوم من بشاشته أبا - لضيقهم ، والأم من بشرها أما

وما صنع تأبط شرا (ثابت بن جابر الفهمي) في قصته مع الغول (١) :

تقول سليمان اجاراتها أرى ابنا يفسا حوقلا (٢)
لها الويل ، ما وجدت ثابتا ألف اليمين ولا زملا (٣)
ولار عن الساق عند الجراء إذا بادر الحملة الهضلا (٤)
يفوت الجياد بتقريبه ويكسو هواديا القسطلا (٥)
وأدم قد جيت جلبابه كما اجتات الكعاب الخيملا (٦)
إلى أن أن حدا الصبح أثناءه ومزق جلبابه الأيللا (٧)
على شيم نار تورتها فبت لها مدبرا مقبلا (٨)
فأصبحت والغول لي جارة فيا جارنا أنت أنت ما أهولا
وطاليتها بضمها مالتوت بوجه تهول فاستمولا
فقلت لها : يا انظري كي ترى فقلت فكنت لها أغولا

-
- (١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة - ١ ص ٣١٣ بتحقيق شاکر .
(٢) اليفن - بفتح الفاء - الشيخ الفاني ، والحوقل : الشيخ إذا فتر عن النكاح
(٣) الزمل : الضميف الجبان الرذل .
(٤) الجراء : الحارة ، الهضل : الجيش الكثير .
(٥) القسطل : النبار الساطع .
(٦) الخيملا : الفرو أو قميص لا كم له ، واجتاته : لبسته ، يقال : اجتبت القميص
والليل إذا دخلت فيه .
(٧) الليل الأليل . شديد الطلعة .
(٨) الشيم : النظر إلى الدار ، يقال : شام السحاب أو البرق شيا : نظر إليه أين
يقصد وأين يطر

فطار بحقف ابنه الجن ذو سفاسق قد أخلق المحملا (١)
إذا كل أمهيته بالصفاء حمد ولم أره صيغلا (٢)
عطاءة قمر لها حلتنا ن من ورق الطلح لم تنزلا (٣)
فمن سال أين ثنوت جارتى فإن لها باللوى منزلا
وكنت إذا ما هممت اعتزمت وأحر إذا قات أن أمهلا

* * *

لا يستطيع دارس موضوعي يعنى الحقيقة إلا أن يقرر بأن الشعر العربي في العصر
الجاهلي - شأنه شأن غيره من أشعار الأمم الأخرى - كان له مساره الخاص به، وسماته
التي تميزه من غيره ، والتي فرضتها عليه البيئة العربية ؛ بحيث تختلف أجناسه الفنية عن
أجناس الشعر العربي بالقدر الذي يربط كل شعر ببيئته .

من ثم لا يحق لدارس أن يطلب في الشعر العربي ما يطلبه في الشعر الغربي ، ولا أن
يطلب في الشعر الغربي ما يطلبه في الشعر العربي ولا يحق لدارس - بناء على ذلك - أن
يقارن شعر أمة بشعر أمة أخرى ولو في الجنس الواحد الذي يتفقان عليه ؛ إذ لمنشأ
الجنس في هذا الشعر ما ليس لمنشئه في ذلك . كما لا يحق لدارس أن يلزم شعراء أمة
بما يلزم به شعراء أمة أخرى ، ولا يحق لمنصف أن يقيس اتجاهات شعر أمة بما عليه
شعر أمة أخرى ، بل على المنصف أن يقيس هذا وذاك بمقياس عام محدد واضح ، ثم
يخص كل أمة بمقاييس تتلاءم مع متطلبات البيئة فيها بكل أبعادها . فبدلاً من أن
يطلب في الشعر العربي الهيئة القصصية التي كان عليها الشعر اليوناني ، يجب عليه أن

(١) القحف - بكسر القاف - المظم فوق الدماغ وما انقلب من الجمجمة نبان ،
ولا يدعى قحفاً حتى يبين أو ينكسر منه شيء ، ذو سفاسق : السيف ، وهي طرائفه
التي يقال لها الفرند ، الواحدة سفاقة بكسر السين .

(٢) أمهيته : أحدوته ورقته ، يقال : أمهى الحديدية : سقاها الماء وأحدها .

(٣) النطاءة : دويبة معروفة على خلفة سام أبرص ، أعظم منها شيئاً .

(٤ - الأدب العربي)

يلاحظ ما في الشعر العربي من الأجناس الفنية ، والطرائق البيانية دون مراعاة لما عليه غير الشعر العربي . . . فإذا وجد الشاعر يقص فلا يطلب منه أن يقص بهذه الطريقة أو تلك ، إنما عليه أن يتتبع قصصه وقصص غيره من أداء أمته ، ثم يتفحص مساره فيها ، ليحدد منهجه ، ويبين أبعاد القصة لديه ، ويقارن بين القصة عنده والقصة عند غيره ، بحثاً عن الموامل والوآثرات التي وجهت كلا وجهته الخاصة به^(١)

(١) أنظر الأدب العربي في الجاهلية وصدور الإسلام للمؤلف ص ٤٦ - ٥٦ .

الفصل الثالث

مصادر الأدب الجاهلي

لعبت البيئة العربية الجاهلية دورا فعالا في تحديد الوسائل التي تنقل آدابهم إلى الأجيال التالية ، بل لقد كان لها أثرها الواضح في تحديد الوسائل النافذة له من قبيلة إلى قبيلة في الوقت ذاته ؛ إذ طبيعة الحياة العربية في ذلك العصر لم تفرض على أهل الكتابة والقراءة إلا في أضيق الحدود ، حيث لم يشعروا بالحاجة إلى المكتوبات إلا في الأغراض السياسية والتجارية . أما بما عدا ذلك فلم تصادفهم فيه ضرورة تلجئهم إلى تدوينه وكتابته ، فالأديب منهم يعيش في كنف القبيلة بفننه البياني الذي يعتمد على الإلقاء أكثر مما يعتمد على أية وسيلة أخرى ؛ لأن العربي كان يشعر بأن صوته بكل أباده يصفي على ما يقول كثيرا مما يريد أن يبلغه سامعيه ، ولا تستقل الحروف المركبة وحدها بإيصاله . وإذا حدث أمر طارئ ، واحتاجت القبيلة إلى إبلاغ صوتها لمن يقيم خارج حدودها أوفدت من بينها الأديباء من يؤدي هذا الدور بنفسه خطيبا كان أو شاعر .

ودارس الأدب في هذا العصر حين يتدرج في - لم انتقال آدابهم إلينا من عصور التدوين إلى العصر الجاهلي . . . يلاحظ أن وسائل انتقال النثر تختلف بمصر الشيء عن وسائل انتقال الشعر بما يتناسب مع طبيعة كل جنس ومتطلباته ، بيد أنها لا تخترق في النثر بما يميزها عنها في الشعر .

وإذا كان الشعر سلك في طريقه إليها سبيلين متصلين هيأتهما له مكانته في نفوس العرب ، هما سبيل الرواية ، وسبيل التدوين ، فإن النثر - بفنونه المختلفة - قد سلك هذين السبيلين مع شيء من الاختلاف يتضح في استمرارنا مصادرهما فيما يلي .
وإنما سلك الأدب الجاهلي - بحجسه - في طريقه إلينا هذين السبيلين ؛ لأن الكتابة لم تكن عند العرب الجاهليين - بدوم وحضرم - قد أخذت مكانها معارفهم وآدابهم ، على الرغم من ثبوت معرفتهم بها وشيوعها بينهم في الجاهلية ، وإنما إلى الآن

لم تقف على دليل قاطع يؤكد أن الجاهليين اعتمدوا على الكتابة في حفظ آدابهم وسيورتها عبر الزمان والسكان ، ولم يعثر الباحثون والمقبولون بمد على وثائق جاهلية صحيحة تتضمن شيئاً من الفنون البيانية وكل ما وصلنا من أخبار عن وجود أدب جاهلي مكتوب - إن صحّت تلك الأخبار - إنما تتعلق بقطع شمرية تكتب على رحل أو حجر أدرق أو عظم لغاية من غايات الإبلاغ والتنبيه ، أو تتعلق ببعض حكم وأمثال مما نسب إلى لقمان على ما روى ابن هشام من أن سويد بن الصامت قدم مكة حاحاً ، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الإسلام ، فقال له سويد : لعل الذي ممك مثل الذي معي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذي ممك ؟ قال : مجلة لقمان . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعرضها علي ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا لكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ، قرآن أنزل الله على ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا القول حسن (١) .

قالخبر لا يفيد أكثر من أنه كان عند العرب في هذا العصر صحيفة بها بعض الحكم والأمثال مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ، ولكنه لا يدل على أنهم توسلوا بالكتابة في إذاعة بيانهم ونشره . ومناقشة هذه القضية - نفيًا أو إثباتًا - تعتمد على الفرض والحدس ، وليس هناك ما يدعونا إلى مثل ذلك في دراستنا مادامنا لن نستطيع أن نقدم الحقيقة من الواقع المقرر .

أي أننا لا نجد بدا من أن نقرر أن هذا الفيض الأدبي وصلنا من العصر الجاهلي أولاً عن طريق الرواية المنطوقة ، وامتدت - في جملتها - حتى أخريات العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، حيث بدأت الرواية تلتقي بالتدوين

* * *

والناظر في أثر هذا العصر يلاحظ أن رواه يدرون في ثلاثة محاور .
أحدها : العامة ، وهؤلاء هم رواة الحكم والأمثال الذين طوأم الشيوخ ، فلم تنسب حكمة أو مثل إلى راوٍ بشخصه ، وإنما هي أقوال أكثر دورانها على الألسنة

(١) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٨ طبعة الحلبي .

لا يجازها ، ودقة تركيبها ، وسمو محتواها ، وقوة تأثيرها في نفوس سادحيها ، لما تنطوى عليه من خبرة بالحياة وصدق تجربة .

لقد كان عمل الرواة في نقل الأمثال والحكم لا يمدد التمثل والاستشهاد في الموقف المشابه، إذ هي - كما هو معروف - عبارات تصرب في حوادث مشابهة للحوادث الأصلية التي صدرت فيها عن قائلها . فهو يجري على السنة المتمثلين كما جرى على السنة قائله ، بدون أي تغيير فيه ، مهما كانت دواعي التغيير ، كما هو الشأن في بعض الأمثلة التي رويت مخالفة لقواعد النحو والتصريف مثل قولهم . « أجنأؤها أبنأؤها^(١) » . وقولهم : « أعط القوس باريها^(٢) » وقولهم . « الصيف ضيمث اللين » بكسر اللين يخاطب به المدكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع ، دون تمييز ، من كل ما يقرر أن راوي المثل ملتزم بحرفه ومبناه ، مما ضمن لهذا الفن البياني انتشارا زمانيا ومكانيا مع الاحتفاظ بصورته الأصلية ، فأصبح - بذلك - أصدق فنون القول ، تمثيلا للأدب الجاهلي .

هذا إلى ما صادفه ذلك اللون الأدبي من اهتمام المدونين ، فسكان في مقدمة مادونه العرب من الأجناس الأدبية ، حيث سارعوا إلى تدوين الحكم والأمثال ، وبدأوا ذلك في أواخر النصف الأول من القرن الهجري الأول على نحو ما صنع حمار العبدي في عهد معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ) ، وهو أحد النسابين العرب ، فقد ألف كتابا في الأمثال ، كما ألف معاوية بن عبيد بن شريفة كتابا آخر في ذلك ، ذكره ابن النديم ، وقال إنه رآه في نحو خمسين ورقة^(٣) . فلما كان العصر العباسي ازداد إقبال العلماء والأدباء على جمع الأمثال والحكم وتدوينها ، والتغنى في عرضها ، فوفروا لنا مجموعة من الكتب التي حفلت بالأمثال ، وقامت على ترتيبها وشرحها وتفسير إيماءاتها مثل كتاب أمثال العرب للمفضل الصبي ، وتلاه أبو عبيد القاسم بن سلام فألف كتابا في الأمثال ، شرحه من بعده أبو عبيد البكري تحت عنوان . « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام » ثم لوات المؤلفات في هذا الباب ، وكان

(١) جمع جان وبان ، والقياس الصرفي . جناتها وبناتها ؛ لأن فاعلا لا يجمع على أعمال .

(٢) بتسكين الياء في باريها ، والأصل فتحها .

(٣) المهرست لابن النديم ص ١٢٢ .

من أبرز ما قدم فيه . كتاب « جبهة الأمثال » لأبي هلال العسكري ، وكتاب « مجمع الأمثال » للميداني ، الذي جمع مادته بالرجوع إلى ما يربو على خمسين كتاباً^(١) .

حقيقة كان للمنهج الذي سار عليه أكثر المدونين في كتبهم أثر كبير في اختلاط الأمثال ، فأصبح من العسير تمييز أمثال الجاهل من أمثال العصر الإسلامي ، وذلك لأن مدوني الأمثال ركزوا جهدهم في ترتيبها في أبواب على حسب الترتيب الأبجدي دون الاهتمام بذكر عصرها . اللهم إلا ما نسب من الأمثال صراحة إلى قائله ، فإن هذه النسبة تحدد عصره مادام عصر قائله معروفاً .

أضف إلى هذا ما يصاحب الحكمة والمثل - في هذه الكتب - من قصص ترجع إلى العصر الجاهلي ، أو ما يأتي المثل في ثناياه من قصص جاهلي ، فقد ذكر الميداني ثمانية عشر مثلاً وردت في أثناء قصة الزباء ، مثل : « يدي لا بيد عمـرو » و « لا يطاع لتفسير أمر » .

وأكثر من نسبت الأمثال إليهم صراحة كانوا من حكماء العصر الجاهلي ؛ إذ أن منهم من يوغل في القدم مثل لقمان عاد الذي رددت اسمه السنة عشرتهم وحكامهم ناسيين إليه الحلم والحكمة ، وبه يقول الجاحظ : « من القدماء بمن كان يذكر بالقدر والرياضة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والسكران . ، لقمان عاد . »^(٢) ، وهو غير لقمان الحكيم لدى ورد ذكره في القرآن الكريم كما نص على ذلك المفسرون^(٣) وصرح به الجاحظ^(٤) كما روى طرفاً من تعاليم لقمان الحكيم ذات الطابع الهدي^(٥) ، واهتم - كذلك - تذكروا وصايا وحكمه كتب الفقه والتفسير ، مثل موطأ مالك وتفسير أبي حيان ومنهم من يدنو من العصر الإسلامي ، كما مر بن الظرب السدواني ، وأكرم ابن صيفي التميمي ، وكان من العميرين ، حتى قيل إنه أدرك الإسلام ، ومات وهو في

(١) انظر مقدمة « مجمع الأمثال » للميداني .

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٣ وما بعدها .

(٣) تفسير أبي حيان ج ٧ ص ١٨٦ ، وقصص الأنبياء للثعالبي ج ٣٤٠ طبعة القاهرة

وانظر في ذلك خزانة الأدب للبغدادي ج ٢ ص ٧٧

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٤ .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٩ .

طريقه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لإعلان إسلامه^(١) وقد ذكر السيوطى طائفة من الأمثال والحكم للنسوبة إليه نقلا عن ابن دريد فى أماليه^(٢)؛ مثل : « لا جاعة لمن احتاف » ، « شر المصره التمدى » ، « كل ذات بعل سنثيم^(٣) » ، « لا تطمع فى كل ما تسمع » .

• • •

ثانها : القصاص . وهؤلاء هم المسامرون الذين كان يجتمع إليهم أبناء القبيلة طلبا للسر والتسلية حين يرخى الليل سدوله ، فينصتون إليهم ، ويتأبون ما تنبى به عنفاهم ، ولا ريب فى أن القاص كلما رأى من الحاضرين إنسانا وإقبالا بذل المزيد من الجهد ليظل على تسلطه وتمكته من السيطرة على الحاضرين ، فيفيض على القصة من خياله ما يبهى به سامعيه ، ويتحرك بمواطنهم كئها شاء من الإعجاب إلى الإشفاق ، ومن الحوف إلى الأمان والاطمئنان ، ومن الشفقة إلى القسوة . . .

وظل هؤلاء للقصاص على منهجهم يتوارثون ذلك الفن مع إضادة اللاحق على ما خلف السابق بالقدر الذى يلائم أذواق سامعية ، وفقا لأطوار الحياة فلما كان العصر العباسى لجأ الرواة واللغويون إلى تدوين ما نحت أيديهم من قصص تتضمن - فى أكثرها - أيام العرب ووقائعهم ، سواء فيما بين قبائلهم بعضهم مع بعض أو ما كان بين بعض القبائل العربية وغير العرب من الفرس أو الروم أو الأقباش ، مما نجده فى السيرة النبوية لابن هشام ، وفى تاريخ الطبرى ، والأغانى ، والأمالى ، وغير ذلك .

ولم يتوقفوا فى قصص البطولات عند قصص البطولة العربية ، فقد قصوا - كذلك - عن بطولات من الأمم المجاورة غير العربية ، على نحو ما كان يقصه الضر بن الحارث

(١) أنظر مجمع الأمثال للسيدانى ج ٢ ص ١٤٥ ، وجمهرة الأمثال للمسكوى على هامش مجمع الأمثال ج ١ ص ١٢٠ والممرين للسجستانى ص ١٠ والأغانى ج ١٥ ص ٧٠ طبعة ساسى .

(٢) الزهر للسيوطى ج ١ ص ١ طبعة الحلوى .

(٣) تنثيم : يهلك عنها زوجها .

في مكة بقصد صرف الناس عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تعلم في الحيرة أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم وإسفنديار ، فكان إذا جلس محمد صلى الله عليه وسلم مجلسا تذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خافه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله بامعشر قريش أحسن خديشا منه ، فهل إلى ، وأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار (١) . .

ولم تقتصر قصصهم على البطولات - العربية وغير العربية - فقد قصوا كذلك عن شمراتهم ، وساداتهم ، وكهانهم ، كقصة المرقش الأكبر مع أسماء بنت عوف ، وما حدث له حين تقدم لخطبتها من أبيها ، الذي طلب منه مالا يطيق ، فاحتمل في سبيلها المشتات ، ورحل ليحقق ما طلب منه ، حتى إذا عاد وجدها روجا لغيره . . الخ (٢) .

وقصوا عن الجن والعفاريت والشياطين والغيلان ، والحيات ، بل أقدم صنعوا حرافات عن الحيوانات ، مثل خرافة الحية والفأس . فقد رعموا أن حية قتلت رجلا ، فطلبها أحوه ليقتلها ، فاحتالت حتى صالحها وعاهدته على أن تترك له الوادي ، وتمطيه كل يوم ديناراً ، فلما كثرت ماله ، وأصبح من أحسن الناس حالا ، ذكر أياه ، وما أصابه على يدي الحية ، فأتجه إلى قتلها ، وعمد إلى رأس فأحدها ، ثم عمد للحية ، فلما مرت به تبمها ثم ضربها ، ولسكنه أخطأها ، فلما رآها تنجو من الصربة وتدخل الجحر رمى الفأس بالجبل فوقع فوق جحرها وأثر فيه ، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تمطيه ، ولما رأى ذلك تخوف شرها وندم ، وقال لها : هل لك في أن تتواثق ونعرد إلى ما كنا عليه ؟ قالت ، كيف أعاهدك وهذا أثر رأسك ، وأنت فاجر لا تبالي بالمهد (٣) ؟

ولا ريب في أن هذه القصص لا تمثل القمة الجاهلية بكل أبعادها ؛ فقد تنسب أسلوبها ونسقها البياني من قاص إلى آخر ، فتصاري هذه القصص أنها تقدم مضمون القصة الجاهلية وروحها وجانبا كبيرا من ملاحظها وطبيعتها ؛ وما ذلك إلا لأن شيئا من

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ٣٣١ طبعة الحلبي .

(٢) راجع القصة في الأغاني ج ٦ ص ١٢٩ وما بعدها طبع دار الكتب

(٣) أنظر أمثال العرب للضي ص ١٠٦

هذه القصص التي تضاف إلى الجاهليين لم يصل إلى المدونين مكتوباً ، ولا بطريق السقفة في الرواية ؛ لأن وكذا القاص أن ينقل مضمون القصة في إطار من حياله وألوانه ، دون حرص منه على شيء أكثر من ذلك .

ثالثاً : الأمثلة ذاتها ؛ وذلك لأن كثيراً من هذه القصص اعتمدت في روايتها على الإيجاء والإشارة للسبقة من بعض الأمثلة ، فيمكن أن يذكر مثل من هذه الأمثلة لتتوارد الأحداث على خاطر السامع ، على نحو ما رأينا في قصة الحية والفأس ، وقيامها على المثل السائر . « كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك »

أى أن المثل يقوم في ذلك المجال بدور الراوى الذى يعتمد على الإيجاء والإيجار . فهو محرن تخمرن طواياه أحداث القصة

وهذا يعنى أن المثل وظيفة أخرى إلى جانب وظيفة البيانية المهودة ، فمقد لجأ العرب الجاهليون إليه ، متوسلين به في نقل قصصهم وما تضمنته من أحداث ومواقف لم تتوفر لها في ذلك العصر من وسائل الإداعة سوى مثل ذلك .

أما ما عدا ذلك من فنون النثر كالخطابة والمعامرة والوصايا فقد اعتمدت في روايتها على الرواة المحصنين ، شأنه ذلك شأن الشعر ، بيد أن الشعر كان أيسر في روايته وانتقاله عبر الأزمان والأماكن . على ما سنرى في الصفحات التالية . أما فنون النثر تلك فلم يكن ميسوراً حفظها ونقلها بحالها كما نطق بها الخطيب أو اللوصى ، وإنما كل ما حرص عليه الراوى . فما زى . أن ينقل لنا نظرة قائمها وأدكاره ، في قالب قريب الشبه بالقالب الأصيل . . .

من ثم نستطيع أن نقرر أن فنون النثر الجاهلى توفرت لها من وسائل الرواية ما يناسب كل فن بحيث تمكن هؤلاء الرواة . على اختلافهم . من أن يربطوا العصر الجاهلى ونثره بما تلاه من العصر . وإن لم يكن بالنثر ذاته فهو . على أقل تقدير . بصورته العامة التي كان عليها . وعليه فلا حق لمن يذكر أن هذا الجنس الأدبى أو يشكك كون فيه ، إلا في تلك الحدود التي أوضحته .

أما الشعر الجاهلي فقد سلك في طريقه إلينا من العصر الجاهلي طريق الرواية الشخصية المنطوقة ، التي امتدت حتى أخريات العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، حيث بدأت الرواية تلتقي بالتدوين .

ولأهمية الشعر في حياة العرب قام على الرواية طائفة من الشعراء أنفسهم ، فقد اعتبرت الرواية وسيلة من وسائل المran على صوغ الشعر ، وأصبح على من يريد التفوق في الشعر أن يلزم شاعراً أو أكثر يأخذ عنه ما يقول ، ويذيع بين العرب ما يأخذ ، ويظل هكذا حتى بلين الشعر على لسانه ويتمكن منه ، ويشتهر أمره ومذهبه ويأتي من يتلمذ عليه ، ويروى عنه ، وهكذا راو عن راو في سلسلة متصلة .

فكانت رواية الشعر لهؤلاء شغلهم الشاغل ، وعملهم الذي يتقنون أنفسهم عليه ، والذي تدمعهم إليه القبيلة دفعا ، كما نرى اليوم في المدرسة الحديثة حيث تحتوي تلميذها بالتعليم والتلقين ، فإذا أتم تعلمه فيها ، تولى تعليم من يليه من الأجيال .

ولقد حرص العرب على ذكر الصلة بين الرواة في بعض الأحيان ، حتى استطاع الأصفهاني أن يقدم لنا في أغانيه بعض ما رقب عليه من تلك السلاسل ، مثل أوس بن حجر التميمي الذي روى شعره زهير بن أبي سلمى المزني ، حتى أجاد الشعر وبرز فيه ثم كان له رويتان هما كعب ابته والحطيئة ، وعن الحطيئة روى الشعر هذبه بن حشرم القندري ، وعن هذبه أخذ جميل بن ممر صاحب نسيمة ، وعن جميل أخذ كثير صاحب عزة (١) .

وبينا نلاحظ أن الرواة في السلسلة السابقة كانوا من قبائل مختلفة ، نخدم مرة أخرى مرتبطين بشاعر القبيلة ، وقد ذكر ابن قتيبة أن الأعشى كان واوية لحاله المسيب ابن علس (٢) ، وأن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لمساعدة بن جؤية الهذلي (٣) .

فلما كان عهد عمر رضي الله تعالى عنه الخليفة الثاني وأنشأ الدواوين ، مست الحاجة إلى الرواية والرواة للتعرف على الأنساب لتحديد رواتب الجند على أساسها ، فبدأ

(١) الأغاني ج ٨ ص ٩١ طبع دار الكتب المصرية .

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٧٤ بتحقيق شاكر .

(٣) للرجع السابق ج ٣ ص ٦٥٣ نفس الطبعة .

الرواية تتحول إلى حرفة يخلص لها بعض الأفراد أنفسهم تماما، ويجعلونها عملهم الذي تقوم عليه حياتهم ، وساعد على ذلك ما تميزت به الدولة الأموية ، فقد كانت ذات نزعة عربية متمسبة ، جمعت الخلفاء الأمويين حريصين على حفظ التراث الشعري ، وأقبلوا على الرواة ، وتبعوا وفود القبائل يسألونهم عن بعض الشعراء توطيئاً لسلطانهم على تلك القبائل

ونجدهم مرة ثالثة مرتبطين بوحدة سلوكية تضم أطرافهم ، وتجمع بين أبادهم ، كما نرى من بعض الصعاليك ، حيث يأوى الشاعر السملوك إلى مثيله الذي ضمعه من نفسه موضع الأستاذ في الصملمكة وفي الشعر ، فيتوهم على رواية شعره ، ويأخذ نفسه بأسلوبه في الصملمكة ، ليكون من غير شعور حلقة في تلك للسلسلة الممتدة ، فقد كان الشفري يتلمذ على تابط شعرا ويصحبه في كثير من غاراته وما زال إلى حواره حتى أم تدريبه ، وأصبح له في ذلك الميدان شأن (١) .

وكما نرى من الشعراء المرسان ، حيث يلزم أحدهم الآخر افتنانا بفروسية وجودة شعره ، فيأخذ نفسه بمنهجه وأسلوبه في حياته ، ويروي عنه ما يقول ، مثلما صنع زيد الجبل مع أبي دؤاد الإباري .

ويلاحظ الدارس أن رواية الشعر لم تسكن دفقا على الشعراء وحدهم ، فقد كان يشارك الشعراء في ذلك - في كثير من القبائل - أفراد القبيلة عامة ، إذ كان الشاعر هو المتحدث بلسان القبيلة ، لما يقوله إنما هو تعبير عن القبيلة وإعلان عن مكانتها من تسجيل لمفاخر أبنائها وانتصاراتهم ، ومرعى بأعدائهم ، وإبرار لما يشيهم من نوائص وممايب .

واستمرت الرواية حتى ظهر الإسلام، فلم يكن عائقا، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة كانوا يستنشدون الشعراء والرواة ويصفون إلى ما يشدون، قال الشريد ابن سويد الثقفي استنشدني النبي صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبي الصمات فأثدته فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يقول هيه هيه ، حتى أثدته مأه قافيه (٢) . وكان

(١) راجع الاغانى ج ٢١ ص ٨٧ طبع الساسى ، وحرارة الادب ج ٢ ص ١٤ .

(٢) طبقات ابن سمد ج ٥ ص ٢٧٦ ، وخرانة الادب ج ١ ص ٢٧٧ والمزهر

كثير من الصحابة يروون الشعر ويحفظون أنساب العرب وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق الذي كان يتمثل بالشعر في بعض خطبه كما صنع في خطبته يوم السقيفة . أما عمر بن الخطاب فكان حريصا على أن يلم بأخبار الشعراء ، وكان يسأل الوافدين من شتى مناحي الجزيرة عن شعرائهم ويستقصي أخبارهم ويردد أشعارهم حتى قال فيه ابن سلام : كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر (١) .

ومن ثم أصبح من مفاخر الشعراء في عصر صدر الإسلام وما تلاه أن يشتر الواحد منهم برواية الشعر ، فلم يكن هناك شاعر مبرر إلا وهو يعتمد على شعر الجاهليين رواية وإنشادا ونائرا ، حتى سمعنا صوت الفرزدق منبجرا بما ناله من هذا الشعر في قوله (٢) .

وهاب النضائد لي النوابغ إذ مضوا	وأبو يزيد ، وذو القروح ، وجرول (٣)
والفحل علقمة الذي كانت له	حائل الساوك كلامه لا ينحل (٤)
وأخو بني قيس وهن قتلته	ومهلل الشعراء ذاك الأول (٥)
والأعشيان كلاهما ومرقش	وأخو قضاة قوله يتمثل (٦)
وأخو بني أسد عبيد إذ معى	وأبو دؤاد فوله يتنحل (٧)
وابن أبي سلمى زهير وابنه	وابن الفريمة حين جد للمقول (٨)

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) الديوان ج ٢ ص ١٥٩ طبع بيروت .

(٣) النوابغ : الناقة الديباني والجمدي والشيباني ، وأبو يزيد : المحبل ،

وذو القروح : امرؤ القيس ، وجرول : الخطيئة .

(٤) علقمة بن عبدة الملقب بالفحل

(٥) أخو بني قيس : طرفة ، والمهلل بن ربيعة ، أخو كليب وأهل ، وهن قتلته :

يريد القوافي ، لأنه قتل بسبب أهليه .

(٦) الأعشيان : أعشى قيس ، وأعشى باهله ، والمرقش الأكبر ، وأخو قضاة :

أبو الطمجان القيني .

(٧) عبيد بن الأبرص ، وأبو دؤاد : جارية بن حمران الإباضي .

(٨) ابن الفريمة : حسان بن ثابت .

والجعفرى وكان بشر قبيلة لي من قمائده الكتاب المجلد (١)
ولقد ورثت لآل أوس منطلقا كالم خالط جانيبه الخنظل (٢)
والخارنى أخو الحماس ورثته صدعا كما صدع للصفاة الممول (٣)

ولم يكن الاهتمام برواية الشعر فى تلك الفترة وفقا على العرب ، ولا مقصورا على الشعراء ، فقد شارك فى هذا الميدان كثير من المسلمين غير العرب ، كما حرص على رواية الشعر من غير الشعراء كثير من أبناء هذا العصر ، خصوصا أولئك الذين كانوا يروون الشعر فى ثايات قصص صيغت من أخبار الجاهليين تقدم للطلاب فى حلقات المدرس المقامة فى المساجد الجامعة ، بقصد التعريف بالحدث التاريخى أو الكشف عن المدلول اللغوى لبعض الالفاظ

ومن ثم حرص هؤلاء الرواة على تتبع الشعر وأخبار العرب فى البيئات البدوية طلبا للدقة فى الرواية، وحرصا على الاخذ من المبع فأبدى هؤلاء فى عملهم هذا مهارة وتفوقا لم يعهد من قبل فى غيرهم

وإذا كانت الرواية فيما قبل الإسلام راجعة إلى حاجة القبيلة من الدعاية الإعلامية فانها فيما بعد الإسلام كانت ترجع إلى دوافع أخرى من أبرزها حفظ اللمة، والوقوف على معنى الفاظها وطرائق استعمالها فى سبيلهم إلى تفسير القرآن الكريم ، والوقوف على مقاصده، كما صنع ابن عباس ومن مسار مساره من بعده فى تفسير القرآن الكريم . والاستشهاد بالشعر الجاهلى على ما يرى .

لقد حمل الشعر الجاهلى إلى الاحيال التالية رواة كثيرون مختلفو الاغراض والوسائل متباينو النزعات والمواطن ، برز من بينهم فى أواخر العصر الإسلامى طائفة الرواة المحترفين ، الذين ترددت معيشتهم بين الكوفة والبصرة غالبا ، فكانوا اواة التجاهيين فى الرواية مختلفين ومتصارعين ، مرواه الكوفة فى الجملة متساهلون ، اشتهر من بينهم كثير من الناحلين والوضاعين ، وعلى رأسهم حماد . ولكن كان من بينهم رواة ثقات مثل الفضلى بن يعلى الصي ورواة البصرة فى الجملة متحفظون متشددون وعلى

(١) الجعفرى : ليبد بن ربيعة ، وبشر : هو بشر بن أبى خازم .

(٢) أوس : هو أوس بن حجر .

(٣) الخارنى : هو أخو الحماس النجاشى .

راسهم أبو عمرو بن الملاء (١) المشهور له بالأمانة والورع ، وهو أحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم ، وأحد مؤسسى مدرسة البصرة النحوية ، ولكن كان من بينهم الرواة للتمون ، مثل حنف الأجر الذى أقر على نفسه فى زعمه بأنه كان يخطى حمادا المتحول من الشعر ، وبزيف عليه فيزويه : يقول أبو الطيب اللوى : « والشعر بالكوبة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع وهــ رب إلى من لم يقله ، وذلك بين فى دواوينهم » (٢) .

وفى هذا الجو المتلاطم بمختلف الاتجاهات والزرعات نشأت طائفة ثالثة أحلصت نفسها وجهدتها لى ما يروى والتصدى لكل رواية يزيف أو ينحل كما كان شأن الأصمعى وأبى ريد الأنصارى .

هإذا كان بعض الرواة قد أدخل على الجاهيلين ما ليس لهم من الشعر ، ورور فى الرواية فنسب إلى بعض الشعراء ما ليس لهم . .

إذ كان هذا حال بعض الرواة ، فقد أتبع الأئمة العربية من أبنائهم من وقف نفسه على تحقيق الشعر المروى وتمحيصه ، فحكاوا للرواة بالمرصاد .

ومن ثم لمسنا فى حاجة إلى الشك فيما وصلنا من الشعر الجاهلى - على ما دعا إليه الدكتور طه حسين - لأن سلفنا سبقونا إلى ذلك فى فترة التحول من الرواية إلى التدوين ، وقاموا - عن قرب بمصووع الشعراء - بما يريدنا الدكتور طه حسين تأثرا بفلسفة (ديكارت) أن نقوم به اليوم وعلى بمد نحو خمسة عشر قرنا من الزمان

(١) ولد سنة ٧٠ هـ ، وتوفى سنة ١٥٤ ، وقيل ١٥٩ ، قال الجاحظ : « وكان أعلم الناس بالقرىب والعربية وبالقرآن والشعر ، وبأيام العرب وأيام الناس ، وكانت كتبه التى كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيانا له إلى قرىب من السقف . . ثم إنه تقرأ - أى تفسك - فأحرقها » البيان والتبيين ج ١ ص ٣٢١

(٢) مراتب النحويين ص ٧٤

٣ التدوين :

واضح بما بين أيدينا من المراجع الأدبية والعامية أن تدوين الشعر - عموما - لم يبدأ إلا في أواخر العصر الأموي ، وأن التدوين بدأ في أول الأمر تدويها من التلاميذ لما يعلّمه عليهم شيوحيهم في الأدب أو في النحو أو في التفسير . ثم تلاه هؤلاء طائفة من الرواة المدونين حرصوا على أن يكون عملهم منهجيا قائما على أصول وقوانين ثابتة ، فألزموا أنفسهم بتمحيص ما يسمعون عن طريق المقابلة والموازنة ، كما التزموا بالارتحال إلى الصحراء طلبا للعرب الحاص ليوثقوا ما يدونونه على ما اشتهر من أمر الأصمعي للتوفى نحو سنة ٢١٥ هـ وأبي عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ هـ .

أما فيما قبل العصر الأموي ، فقد كان اعتمادهم بالدرجة الأولى على الحافظة ؛ إذ لم يثبت أن الجاهليين اعتمدوا في حفظ شعرهم وغيره من الفنون الأدبية على الكتابة والتدوين .

وما روى من أن بعض المقطوعات الشعرية كانت مكتوبة لا يعنى - على فرض التسليم بصحته - أكثر من أن ذلك كان بقصد الإبلاغ ، وليس بقصد الحفظ والتدوين .

ولا ريب في أن الفسارق كبير بين ما كتب إبلاغا وما كتب تدويها ؛ إذ الأول نوع من الرسائل والمكاتبات توحه من شخص إلى آخر أو من قبيلة إلى أخرى أو إلى بعض أمرائها للأنباء بما وقع أو سيقع من أحداث على نحو ما روى من رسالة لقيط بن يعمر الإيادي وهو في أرض دارس إلى قومه ينبئهم بما يمد لهم كسرى ، ويحذرهم من الغفلة ، تلك الرسالة التي ضمنها قصيدته المينية ، ومطلعها يقول :

أبلغ إيادا وحل في سراهم أي أرى الرأي إن لم أعص قد نصما

ولقد قرر الجاحظ ذلك في قوله : وكل شيء للعرب فلما هو بديهية وارتجال ، وكأبه إلهام . . . فما هو إلا أن يصرف - يعنى العربي - وهم إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المماهي إرسالا ، وتمثال عليه الألفاظ اثمبالا ، ثم لا يقيدته على نفسه (١)

ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ونزل عليه القرآن الكريم بدأت حاجة المسلمين إلى تعلم الكتابة تظهر، واصطفى الرسول صلى الله عليه وسلم من بين المسلمين من يقوم بالكتابة له، وخص من بينهم طائفة بتدوين ما ينزل من القرآن الكريم، وطائفة بكتابة الرسائل والمهاديات التي تدعو حاج - الدولة الناشئة إليها . . . فكان ذلك تمهيدا وتأسيسا لحركة التدوين التي وضعت معالمها في العصر الأموي، وإذا امتدت في جهات متعددة، وتناولت موضوعات شتى، ولم تقف عند الحد الذي بدأت فيه في عصر صدر الإسلام .

أما الشعر فقد استمر العرب في نقله وترديده على ما كان عليه أسلافهم في العصر الجاهلي، ولم يؤثر عنهم تقييده إلا في القليل النادر - على اختلاف الداعي إلى ذلك - فإذا كان في الجاهلية صارفهم عن التدوين الجمل بالكتابة وندرة الكتاتيبين والقارئين، فإن صارفهم عنه في صدر الإسلام قللة اهتمامهم بالشعر، وإكبابهم على القرآن الكريم وكل ما يتصل بالدين الجديد .



كما يتضح من النظر في المدونات التي ظهرت منذ العصر الأموي أن مدونى الأدب اختلفوا عن مدونى اللغة والنحو، فلم يهتموا بالتدوين الشامل المستقصى، ولكنهم لجأوا إلى الاختيار والاتباع، ولكل منهجه في اختياراته، كما صنع حماد في (السموط) أو (الملقات)، وكما صنع الفضل بن محمد يعلى الضبي في مجموعته التي سماها (الاختيارات) والتي سميت فيما بعد بالمفضيات، وكما صنع الأصمعي في الأسمعيات، وكما صنع في جمهرة أشعار العرب الذي ينسب إلى ابن أبي ريد محمد بن أبي الخطاب القرشي، إلى غير ذلك .

ويلاحظ أن الذين كانوا يقوون بالتدوين في هذه الفترة لم يكتبوا - في الغالب - هم أصحاب المدونات، وإنما هم تلاميذهم الذين كانوا يدونون ما يتلقون عنهم من مختلف العيون البيانية شعرا ونثرا، أديبا كان أو عالما .

وستطبع أن نرى في ذلك مرحلة انتقال تقوم بين عهدي الرواية الخاصة والتدوين الكامل . فهو مسار طبيعي يرينا التدرج من الرواية إلى التدوين؛ فقد ذكر صاحب

الفهرست أنه « لم ير لحاد كتاب ، وإنما روى عنه الناس ، وصفت الكتبة
بمده » (١) .

ولم يقتصر هذا على الشعر والأدب ، وإنما كان هو المنهج العام الذي شمل كل فروع
المعرفة والفن المطوق ، فالذي دون أخبار محمد بن السائب الكافي هو ابن هشام ،
ولم يعرف أن الخليل بن أحمد دون كتابا في النحو ، ولكنه أملى إملاءات جمع منها
سبويه كتابه المشهور .

كما يلاحظ أن تدوين الشعر واجه في أول أمره مقاومة ؛ لما قد ينشأ عن ذلك
من تحريف وتصحيف لاشك يسلم منها الشعر المروي مشاهمة ؛ إذ الشعر يحتاج إلى
تلقين وسماع حتى يسلم من اللحن ، ولذلك صنف ابن سلام رواية من يعتمدون على
الكتب ، حيث يقول : « وليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفى » (٢) .

ومعنى هذا أن تدوين الشعر في تلك المرحلة لم يتم على منهج محدد المعالم ، واضح
الاتجاهات ، وإنما كان عملا تلقائيا ، يصدر عن صاحبه دون إعداد مسبق .

* * *

ولكن التدوين بعد ذلك يتخذ سماتا محتلما عن هذا سمت ، حيث يقترب به
المدونون من التأليف على نحو ما صنع أبو تمام في حماسته ، والجاحظ في البيان والتبيين ،
والمبرد في السكامل ، وابن قتيبة في عيون الأخبار ، والشعر والشعراء ، وكما صنع
أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأعاني الذي يقع في واحد وعشرين مجلدا فقد حرص
على أن يقدم الشعر الجاهلي - أو غيره - مصحوبا بالمادة التاريخية ، ممتددا على
الأسانيد التي توضح المصدر ، مع تقييم روايته ، والتلبيه إلى ما اشتهر وابه من صدق

(١) الفهرست لابن النديم ج ٣ ص ٣٠٢ طبع الرحمانية .

(٢) الصحفى - بضم الصاد والحاء - الذي يأخذ عن صحيفة ، لم يمرض على
الملاء ، ولم يتناق على بالرواية . راجع طبقات حول الشعراء ج ١ ص ٤ بتحقيق
وشرح محمود محمد شاكر .

أو كذب . وهو في ذلك كله يستند إلى ما قدمه رواة القرنين الثاني والثالث
المهجريين .

ومن ثم توسع المدارسون العرب في دراساتهم ، وتفننوا في تلويحها ، فكثرت
التأليف ، وتمددت أشكاله واتجاهاته ، لكنه في الغالب لم يخرج على منهج الأصمعي
من الالتزام بذكر الأسانيد وتسلسلها ، كما فعل ابن دريد وابن الأثير ، وأبو طي
القالي ، والمرزباني .

قضية نحل الشعر وانتحاله

هذه القضية من أخطر القضايا التي تصادف دارس تاريخ الأدب - على وجه العموم - إذ لا يكاد عمل أدبي يسلم من دخيل يضاف إليه - واء في ذلك الأدب العربي والأدب غير العربي ؛ لأن لعامل الزمن ، ووسائل النقل من الأجيال والأعصر النابرة أثرها في إحداث مثل هذه الإضافات والتغييرات .

وليس حتما أن حدوث هذه الإضافات يتم بدافع من سوء القصد المقصد يحدث هذا عن قصد ، وقد يحدث عن غير قصد .

وموطن الخطورة هو في نحل ما بين يدي دارس الأدب من نتاج أدبي للتعرف على الأصل منه والسخيل ، ولا ريب في أن مثل ذلك من أعق الأعمال التي تواجه الناقد في النتاج الأدبي المعاصر الذي يمايش أصحابه بظروفهم البيئية على اختلافها ، فإذا تباين زمان الدارس وزمان العمل الأدبي تضاعفت المشقات التي يواجهها في البحث ؛ لاحتفاء بعض معالم الحياة السابقة بين طوإا الزمن . أما إذا اختفت جل معالم تلك الحياة ، فإن الباحث عندئذ يصبح كمن يبحث عن غيظ في صحراء

فإذا اجتمع إلى هذا وذاك خلو الأجيال المجاورة لهذه الأعصر النابرة من دارس يقوم بتحصيص ونحل النتاج الأدبي لمن تقدمه من الأدهباء والشعراء ... فإن الوضول إلى حكم على ما بين أيدينا اليوم مما هو منسوب إليهم يصبح ضربا من المحسن والتعنين ، يفتح أمام كل مدقق باب التشكك والحذر الشديد في قبول أو رفض ما ينسب إلى أبناء تلك المصور السالفة .

أما إذا وجد من علماء المصور المتاخمة لهذه المصور من تحمل عبء المسؤولية ، وقام بفحص ما حله الرواة منسوب إليهم ، مستمينا في ذلك الفحص والتحصيص بالوسائل العلمية المقتنة ... إذن فلا مكان للشكك ، ولا مجال لإعادة البحث .

لا أقصد بذلك مصادرة الرأي الآخر ، ولا أريد أن أضع بين يدي الباحث المجدد .

عوائق أو موانع ، إنما أنا أقرر بذلك حقيقة واقعة ماثلة يلمسها كل باحث موضوعي ،
بمجرد عن الغرس .

وذلك لأنني أرى أن من يتشكك فيما بين يدينا اليوم من شعر الجاهليين على مدى
نحو ألف وخمسمائة عام إنما هو منكر لذلك كله يتستر خلف أسلوب علمي امخلص منه
إلى تقرير مآقر لهدية باسم العلم ، والعلم ومناهجه من مثل ذلك براء ؛ لأن الشك لا يصح
إلا بما يمكننا أن نستقل بالتعرف عليه إقراراً أو إنكاراً القربنا من آرائه ، وتمكننا
من التعرف على طبائهم ، وطبائع بيئاتهم الرمانية والمكانية والاجتماعية والفلسفية
عندئذ يستطيع المدارس أن يتشكك فيما وصله عن مثل هؤلاء ، ويقيسه بمقاييس تلك
الطبائع ويخلص من ذلك بما يصل إليه تقريراً أو إنكاراً

أما بما انقطعت دونه السبل فهو إما عائد في تشككه ذلك إلى الشك في روايته أو
إلى الشك في دارسيه المجاورين ولا ريب في أن هذا وذلك يعني من أول الأمر إنكار
كل ما ينسب إلى أسلافنا من أدب وعلم باسم المنهج العلمي أو الشك الديكارتي ، وذلك
لأن من يعطى نفسه الحق في أن يشك في رواية الأدب الجاهلي شكاً مطلقاً هكذا ، ويقوم
هو - على هذا البعد الزماني والمكاني - بتقييمهم ذاتياً وموضوعياً دون اعتداد على
مخلفات الأسلاف من المدارسين والباحثين والعلماء . أقول إن من يعطى نفسه هذه
الحق يريد أن يوم الآخرين بأن مآقر مسبقاً في هذا الشأن من غير حجة ولا بينة
إنما هو ثمرة ووارثة وبمحت علمي مجرد ؛ إذ الذي يشك في أمر هو في الحقيقة يشك
فيمن نقل هذا الشيء ، كما يشك في كل ما قيل في شأنه من إقرار أو إنكار ، ولا يثق
إلا بما يصل إليه هو . . . وعندئذ أسأل - مدهشاً - عن وسائله إلى ذلك .
أليس في كل ذلك يتمدد على ما وصله من تاريخ العرب عن هؤلاء الرواة ومن جاء
بهدم من المدارسين ؟

أنه إذا لحاجة في نفسه يقبل بعض ما روى عن هؤلاء ليتشكك في بعض ما روى
عنه ويتعبير أوضح يقبل من روايتهم ما يحقق غاية ، ويؤمن ببعض السكتاب ويكفر
ببعضه ، مخفلاً أن المنهج العلمي الحق يقول بأن من يتقبل البعض لا بد من أن يتقبل
البعض الآخر فيما أن أرفض كل ما جاءنا عن هؤلاء المدارسين ، وإما أن أتحرك بمقتضى
وعلمي بين المختلف من آرائهم لا أختار منه ما يقبله عقلي من خلال المآثور عنهم في جملة
أما ما أجمعوا عليه فلا مجال لأن أتشكك فيه من جديد على هذا البعد ، لأن هذا لا يبنيني

سوى الإنكار والرفض لكل ما يروى وينسب إليهم في شق المجالات فما ينطبق على الشعر لابد من أن ينطبق على اللغة والتاريخ وغير ذلك من ضروب العلم والمعرفة .



إن علماء العرب وأدباءهم قد بكروا بتمحيص ما نقله الرواة من أشعار ووقائع ، وتزودوا في ذلك السبيل بأساليب علمية لا تقبل في قوتها ودقتها عن أسلوب للشك الذي كارتى ، إن لم يكن هذا الأسلوب واحداً من أساليبهم في تلك المصور المتقدمة ، من كل ما يمنح الثقة لمجموع ما ضمته كتبهم من آراء في هذا الصدد وغيره ؛ فهم على قربهم للقريب من العصر التي تنسب إليها تلك الرويات ، كانوا من الحرص على الوصول إلى الحقيقة بالدرجة التي تفوق حرصنا نحن في هذا العصر على بمد ألف وخمسمائة عام .

بل لا أبعد عن الحقيقة إذا قررت أن هؤلاء العلماء والدارسين هم الذين أوقهونا على ما أدخل على الشعر الجاهلي من نحل وتزييف ، ولولا ما ذكره في ذلك الشأن لما تنبهنا إلى ذلك مناصر من الغربيين المستشرقين ، أو من الشرقيين المستقرين فلقد طلما نهوا وألحوا في التنبيه - الذي ضمهوه كتبهم - إلى أن كثيراً من الشعر الجاهلي قد دخله التزييف والانتحال ، ووصحوا بين أيدينا قوائم بأسماء هؤلاء الوضعيين الزينيين حتى نجد في التلقي عنهم ، وقاموا هم بنحل كل ما وصل إليهم من الشعر قبل أن يدونوه ، ولم يسكتوا إلا عما اطمأنوا إليه ، ولم يذكروا شيئاً مشكوكاً فيه إلا وأشاروا إلى ما يساورهم في شأنه مقرونًا بما يدفهم إلى هذا الشك ، فهو ليس شكاً قائماً على العاطفة أو العصبية كما يتوهم البعض .

إن الناظر فيما بين أيدينا من كتب علمائنا هؤلاء يلاحظ أن الحرص بلغ بهم درجة أهملوا معها كل ما يروى عن الرواة المتهمين من أمثال خلف وحامد . وكان في مقدمة هؤلاء العلماء الأدباء الدارسين المفضل الضبي^(١) المتوفى سنة ٧٨٠ م والأصمعي^(٢) المتوفى

(١) المفضل نحوي وشاعر من أبناء الكوفة ، كان يكتب المصاحف تكفيراً عما كتبه بيده من أهاجي الناس . له « المفضليات » . و « أمثال العرب » .
(٢) عبد الملك الأصمعي ٧٤٠ - ٨٢٨ م ولد في البصرة وتعلم فيها على الخليل وعيسى ابن عمر ، وأبي عمر بن الأهلبي ، وعليه تعلم أبو الفضل الرياشي ، وأبو عبيدة السكري

سنة ٨٢٨ م . ومحمد بن سلام الجمحي^(١) المتوفى سنة ٢٣١ هـ

ونظرة إلى ما ذكره ابن سلام في مقدمة كتابه (طبقات فقول الشعراء) يتأكد ما أقرر هنا من ذلك قوله : « وفي الشعر مصنوع مقبول موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجة في عربيته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقنع ، ولا نثر معجب ، ولا نسيب مستطرف وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يمرضوه على العلماء . وليس لأحد - إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه - أن يقبل من صحيفة ، ولا يروى عن صحفى^(٢) . »

« وقد اختلفت العلماء بعد في بعض الشعر ، كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه^(٣) . »

ابن سلام - على قربه من العصر الجاهلي - يسير في كتابه وفق منهج واضح محدد أملاء عليه دقة العالم الورع ، وبصر الأديب الشاعر ، حيث يلمن في صراحة عما يراه في بعض الشعر العربي - في ذلك الوقت - من دجيل منحول ، دون أن يكتم في ذلك بمجرد الإعلان ، ولكنه يمزق ذلك بالقرائن الفنية والعملية التي تثبت دعواه ؛ إذ هو شعر لا خير فيه ، ولا حجة في عربيته ، ولا فائدة أدبية في مضمونه ، ولا يحتوى على معنى أو مثل يضرب . . الخ ذلك ثم ينبه إلى مصدر ذلك الدخيل ، وسبب اختلاطه

حفظ لفة البدو ولهجاتها ، فأصبح من مشاهير لغوي العرب من مؤلفاته «الفرس ، و «الإراجيز» ، و «الميسر» ، و «الأصميات» .

(١) أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحي البصرى ولد بالبصرة سنة ١٣٩ هـ وتوفى سنة ٢٣١ هـ وسمع شيوخ العلم والحديث والأدب ، وسمع منه شيوخ العلم والحديث والأدب ، من شيوخه الأصمعي ، والمفضل ، وبشار بن برد ، وصروان ابن حفصة الشاعر ، والمسيب بن سعيد ، وسيدويه . ومن تلمذ عليه أحمد بن يحيى ثعلب وأبو حاتم ، والرباشي ، والملازني ، وأحمد بن حنبل ، وابنه عبد الله بن أحمد وغيرهم كثير .

(٢) الصحفى - بضم الصاد والحاء - الذى يأخذ عن صحيفة ، لم يمرض على العلماء ولم يتلق علمه بالرواية .

(٣) الطبقات ج ١ ص ٤ بتحقيق وشرح محمود محمد شاكر .

بغيره ، وذهول بعض الدارسين عن حقيقته ، حيث يقدر أن السر في هذا الخلط إنما جاء من تداول الشعر مكتوبا ، دون مشافهة وسماع من أهل الثقة - وهم في الأدب واللغة في ذلك الوقت أهل البادية - ودون عرضه على العلماء المتخصصين الذين يقومون بدور الناقد البصير ، والناضى العادل

ولا يفوته في هذا المجال أن ينبه إلى أن أهل العلم والرواية الصحيحة إذا اجتمعوا على إبطال شيء من الشعر فليس لأحد أن يقبل منه ما يجده محطوطا في صحيفة ، ولا يرويه عن يمين يأخذ عن صحيفة .

أى أن الشعر يواجه العديد من نقاط التنقيش والفحص لا بد له من أن يجتازها قبل أن يعتمد ويوثق . . . حيث ينقل إلى الأجيال اللاحقة .

وابن سلام لا يرى في هذا ما يريب الشعر العربي أو يمس قيمته الفنية من قريب أو من بعيد ؛ إذ الشك في بعضه ، ورد بعضه ليس خاصا به ، ولكن كل شيء لا يخلو من أن تثار حوله الشكوك مع مرور الأيام واختلاف الأماكن .

وهذا لا يعني - في رأى ابن سلام - التجرؤ على رفض ما اتفق عليه - من الشعر وغيره - وإنكاره

ومن هذا المنطلق لم يجد ابن سلام حرجا في أن يضع بين أيدينا أنواعا من الشعر المردود ، لكنه - وهو العالم الحريص على المنهج العلمي - لا يضع ذلك خاليا من التعليل والتفسير .

يمهد لذلك أولا ، فيقرر أن الشعر - كغيره من صنوف العلم والصناعات - له أدوات ومقاييس تمكن العالم من وزنه وتقييمه ، ومعرفة صحبته من زائفه ، وذلك قوله : « وللشعر صناعة وثقافة ، يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما تثقفه اللسان » (١) ثم يأخذ في ضرب أمثلة من أصناف العلوم والمعارف ، قارنا كل صنف بمقاييسه وطرق تثقفه ، ينتهي إلى الشعر بقوله : « فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به » (٢) .

ولا يفوته في هذا الصدد أن يفتتح حوارا دار بين واحد من العلماء بالشعر ، وأحد رواة للشكوك في روايتهم ، وذلك قوله :

(١) الطبقات ج ١ ص ٥ . (٢) المرجع السابق ج ١ ص ٧ .

وقال خلاد بن يزيد الباهلي (١) لخلف بن حيان أبي محرر (٢) - وكان خلاد حسن العلم بالشعر ، يرويه ويقوله - : بأى شيء ترد هذه الأشعار التي تروى ؟ قال له : هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا حير فيه ؟ قال : نعم . قال : أتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم قال : ولا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت ، (٣) .

ولم يقف ابن سلام عند حد التصريح بما أدخل على الشعر العربي من نحل ، كما لم يقف عند حد الإشارة إلى جهود العلماء ومناهجهم في بحث ما روى من الشعر وتمحيصه ، ورد ما نشور حوله شكوكهم لم يقف عند هذا الحد ، بل لقد أسهم بالفعل في هذا المجال ، فرد نحل الشعر إلى عاملين هما :

(أ) حرص بعض القبائل على التفوق والصدارة فاجأ طائفة من الشعراء إلى صنع شعر نسبوه إلى غيرهم ليسكون حجة فيما ضمن من وقائع ومآثرهم ومنافب .

(ب) وحرص طائفة من الرواة على وضع الشعر والإضافة إلى مروياتهم إرضاء لرغبات تلك القبائل أو لنير ذلك من الدوافع . وفي ذلك يقول : « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض المشائخ شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائهم وكان قوم قلت وقائهم وأشمارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشمار ، وقالوا على السن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشمار التي قيات » (٤) .

ولم يكن التزبد مقصورا على القبائل - كما صنعت قريش في شعر حسان (٥) - بل كان الأمراد يقومون بذلك من ذوات أنفسهم بحيث يخفى أمرهم عن معاشريهم . كما صنع ابن داود بن متهم بن نويرة في شعر أبيه ، قال ابن سلام : أح - برني أبو عبيدة أن

(١) خلاد بن الأرقط ، بصرى مات سنة ٢٢٠ هـ .

(٢) هو خلف الأحمر ، توفي سنة ١٨٠ هـ تقريبا .

(٣) الطبقات ج ١ ص ٧

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ .

(٥) أنظر ذلك في ابن سلام ج ١ ص ٢١٥ .

ابن داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوى من الجلب والميرة
ففرز النحيت^(١) فأثبته أنا وابن نوح المطاردي فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له
بمحاجته وكفيساه ضيفته ، فلما نقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصنمها لنا ، وإذا
كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتدى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ،
وإذا هو يحتدى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ،
فلما توالى ذلك علما أنه يقتله^(٢) ، وكان تمحيص هذا أشق على العلماء من تريد للقبيلة
كلها في شعر الشاعر ، لقربه من الشاعر . وفي ذلك يقول ابن سلام : « وليس يشك
على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضموها ، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن
يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك
بعض الإشكال »^(٣) .

ويضيف ابن سلام طائفة أخرى لم يوثق بما روت من الشعر ، بل لقد اشتهرت
بإفساد الشعر بما أضافت إليه دون نظر وتمحيص فيقول : « وكان ممن أسد الشعر وهجته
وحمل كل غناء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخزومه بن المطلب بن عبدمناف ،
وكان من علماء الناس بالسير ، قال الزهرى : لا يزال في الناس علم ما بقي مولى آل مخزومة
وكان أكثر علمه بالمنازى والسير وغير ذلك ، وقيل الناس عنه الأشمار ، وكان يستدر
منها ، ويقول : لا علم لي بالشعر ، أتينا به فأحمله ولم يكن ذلك له عذرا ، فكاتب في
السير أشمار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأشمار النساء فضـالاعن الرجال ،
ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكاتب لهم أشمارا كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام
مؤلف ممتود بقواف . . »^(٤) .

فلم يكن الانتقال في الشعر العربي راحما إلى سوء المقصد في كل أحواله ، بل
كان هناك من يذنبه إلى السحل قصد الوضع والتزييف كما كان شأن الرواة الوضاعين

(١) الجلب : ما يأتي به البدوى من الإبل والغنم في الأمصار . والميرة : الطعام ،
والنحيت : من قرى البصرة الصغيرة الدانية .
(٢) طبقات الشعراء ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧ .
(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٨ ، ٧ .

الذين كانوا يحسنون نظم الشعر وصفوه مثل حماد وجناد وحلف كما كان هناك من لا يحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي ، ولسكنها كانت تحمل كل عشاء وزيف في أثناء مروياتها من الأخبار والسير ، مثل ابن إسحاق راوى السيرة النبوية ، فقد اتخذها بعض آخر أداة لإذاعة ما يصنعون من الشعر فيدخله في أخباره دون تحرز أو تحفظ .

وكان موقف العلماء بالشعر ورواته الذين وقفوا أنفسهم على فحص وتمحيص مروياتهم قبل إداعتها - من أمثال هؤلاء الرواة واضحا جليا ، فقد رفضوا كل ما روى عن أى من هاتين الطائفتين ، إلا أن يأتيهم من مصادر أخرى موثقة ، وإلا أن يتخلوه بمقاييسهم الشعرية التي استطاعوا بها كشف كل زيف

بل لقد لجئوا إلى التحرز ففضلوا إسقاط بعض الشعر الذي يخالفهم فيه شك على روايته يقول ابن سلام : « ولأبي سفيان بن الحارث شعر كان يتوله في الجاهلية فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل . ولسنا نعد ما روى ابن إسحاق له ولا لغيره شعرا . ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم » (١) .



هذا ابن سلام أحد رواة الشعر العربي الثقات يكشف عن منهجه هو وصريائه - من مثل المفضل الصبي والأصمعي وأبي عمرو بن الملاء - في رواية الشعر وتوثيقه منذ القرن الثامن الهجرى ، فهل بعد ذلك يجد باحث أو دارس محالا لقول يشكك به فيما رواه هؤلاء أو يشكك به ؟ !

يبد أن طائفة من المستشرقين أناروا هذه القضية حين اتصلوا بالشعر الجاهلي . . وليس بعيدا أن يكون ذلك منهم تكرارا لمثل ما صادوا من كلام ابن سلام اعتمادا على جهل المحيطين بهم بما قاله علماء العرب الأقدمون ، كما لا أستبعد أن يكون ذلك منهم ابتداء على غير علم منهم بما جاء على لسان العلماء العرب ، وأنهم بمقاييسهم تشككوا فيما بين أيديهم من شعر الجاهليين .

(١) طبقات الشعراء ج ١ ص ٢٤٧

وكان في مقدمة من أثار قضية النحل تلك نولده سنة ١٨٦٤ ثم آلورد حين قام على نشر ديوان امرىء القيس ، والناظفة وطرفة وزهير وعمرة وعلقمة ، فأبدى تشككه في صحة الشعر الجاهلى في عمومه ، وحلص من ذلك إلى أن قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته على شيء من الشك كذلك في ترتيب أبيات كل منها والفاظها . وتابع آلورد في ذلك طائفة من المستشرقين منهم موير ، وباسيه ، وبروكان ، ومرحليوث (١) وعلى منهج هؤلاء المستشرقين سارت طائفة من العرب المستقرين ، وكان في مقدمتهم الدكتور طه حسين الذى ردد ما كتبه هؤلاء - خصوصا مرحليوث - دون روية أو تحييص أو مراجعة في كتابه « الشعر الجاهلى » سنة ١٩٢٧ م .

وإذا كان للمستشرقين عذرهم فيما قد ينزلون إليه من آراء - إذ هم مهمابالغوا من الاتصال بالعربية غرباء عليهم لا يستطيعون تعمق أسرارها ، ولا بحث أغوارها - فإننى لا أجد عذر العربى رل به القدم فيردد ما ردد غيره ، وبين يديه من أشباب الفحص والتحخيص ما يمكن أن يضمه في مصاف النضاة المدول .

ولقد سبقه في هذا الميدان مصطفى صادق الرافعى فعرض القضية بشيء من التفصيل والاستقصاء في كتابه « تاريخ آداب العرب » الذى نشره سنة ١٩١١ .

والمعجب من أمر الدكتور طه حسين الذى يكشف عن انزلاقه ومتابعته فيما كتب آراء المستشرقين - أنه بى شكه في الشعر الجاهلى ورفضه للكثير منه على مدى تمثيل الشعر الجاهلى حياة الجاهليين الدينية والعتبية والسياسية والاقتصادية واللغوية .



أما الحياة الدينية فيرى أن الشعر المنسوب إلى العصر الجاهلى برىء أو كالبرىء من الشعور الدينى القوى والماظفة المتسلطة على النفس ، والذى يمثلها من جميع جوانبها عميلا قويا إنما هو القرآن الكريم ، حيث أرانا مسجده اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وحادلهم وهاجمهم كما هاجم الوثنيين ، مظهرا في ثنايا ذلك معتقداتهم (٢) .

(١) انظر تاريخ الأدب العربى لبلاشير ج ١ ص ١٧٦ وما بعدها ، ومصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد ص ٣٥٣ وما بعدها .

(٢) انظر في الأدب الجاهلى ص ٧٧ وما بعدها الطبعة الرابعة .

ولا ريب في أن هـ - ذا يكشف - من أول الأمر - خطأ طه حسين في اتجاهه ،
وينقصر عليه ما يقول ؛ إذ كيف يتأتى لإباحث مفكر أو أديب متذوق أن يقيس الشعر
على القرآن الكريم ، مهذا من واد وذاك من واد آخر ، ولا يمكن بحال أن يجتهد ما .
ولا عذر له في ذلك بعد أن قرأ قوله تعالى في سورة الشعراء تمييزاً للقرآن عن الشعر :
« وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين
بلسان عربي مبين » (١) . وقوله بعد ذلك في السورة نفسها : « وما ننزلات به الشياطين
وما يلبثن لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع أمزولون » إلى قوله عز وجل : « هل
أبشركم على من تنزل الشياطين تنزل على كل فالك أنيم . يلقون السمع وأكثرم
كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تراهم في كل واد يهيمون وأهم يقولون
مالا يملون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثير وانتصروا من بعد
ما ظلموا » (٢)

فالقرآن كتاب سماوى له رسالته وأسلوبه ومنهجه الذى لا يمكن لعاقل أن يقيس
به أو عليه كلاماً آخر إلا أن يكون كتاباً مثله . فليس غريباً أن يمرض - كل - ما يتصل
بديانات من أوحى به إليهم لهدايتهم ومجادلتهم ، إنما الغريب الذى لم يكن ليقبله عقل
ناقذ أديب أن يرى في الشعر الجاهلى شيئاً من ذلك ، إلا أن نقدر أن قائله رسلاً
أو أنبياء مصاحين رصدوا شعرهم لهذا المرض .

إن الدكتور طه حسين لا يريد أن يكتفى بما جاء في شعر الجاهليين من إشارات
دينية ، ويرى أن قلة ذلك أو ندرته في شعرهم دليل على ريب نسبة هذا الشعر إليهم .
والأمر على العكس مما يرى ؛ ولو أن ما نسب إلى الجاهليين من شعر تضمن تفصيلاً
دينية أكثر مما جاء لكان دليلاً على زيفه ومحلّه ؛ لأنه عندئذ يكون من صنع مغرض
صاحب غاية دينية جاء بهم .

* * *

وكذلك طلب في الشعر الجاهلى بسطاً للحياة العقلية التي كان عليها عرب الجاهلية ،
فلما لم يجد ما يطلب أنكر أن يكون ذلك الشعر ممثلاً للمصر وتشكك في نسبتته
إلى الجاهليين

ولا أدري ماذا يقصد الدكتور طه بذلك ؟ أيطاب من الشاعر الجاهلي أن يحول شعره إلى كتاب أو بحث علمي يكشف به عن حياة عقلية منظمة يفترض وجودها في ذلك العصر ؟

ليس من شك في أن العرب في هذا العصر لم يكونوا ذوى فكر عقلى راق أو معقد بالصورة التي يطلب الدكتور طه أن يراها في شعرهم ، ولو أن شعرهم ضمن شيئا من ذلك لكان دليلا قاتما على نحلته وتزييفه ؛ فقد كانوا في مجموعهم يعيشون أحد أطوار الحياة البدائية التي لا تقوم على فكر معقد منظم .



كما رأى أن الحياة السياسية للعرب لا تبدو في شعرهم صورتها كما أوضحها القرآن الكريم ، حين أظهر أن العرب في العصر الجاهلي انقسموا فريقين ، فريق يناصر الروم ، وآخر يناصر الفرس ، على ما جاء في سورة الروم .

وفاته أن هذا التقسيم والتوزيع السياسي لم يكن شاملا للعرب جميعا ، وإنما كان مقصورا على قريش التي كانت على صلة دائمة بالفرس والروم لارتباط تجارتها في رحلتها بهاتين الدولتين .

كما فاته أن يتنبه لما تضمنه شعرهم من تهديد وتوعد حين نشبت الحرب بين بكر و فارس ، أو أن يتنبه لما غص به شعر طائفة منهم في مدح التساسنة أتباع الروم وللناذرة أتباع الفرس ، وما في ذلك من إشارات لتلك العلاقات .



وعلى الوتر نفسه قدم دعواه من الجانب الاقتصادي ؛ فقد بحث في شعرهم عن اتجاهاتهم الاقتصادية فلم يظهر منه بما يفيد ، كل ظفر من القرآن الكريم الذي قدم لنا العرب أغنياء يستأثرون بالثروة ، وفقراء لا يملكون شيئا .

وكان بالدكتور قد غفل عن شعر طرفة بن العبد الغنى المتلاف ، وشعر لصلالميك الثأرين على ما في المجتمع من ظلم ، والمنصبين أنفسهم موارد لإقامة العدل الاجتماعي بالسطر على الأغنياء ومساعدة الفقراء .

وأعجب ما في هذا أن الدكتور يزعم أن شعر العرب لا يتضمن إلا ما يفيد أن العرب جميعا كرام أجداد ، وفاته أنهم إلى جوار ذلك يذمون البخل والبخلاء ، ويتصلون من

الشع . . ولا يتصور أن يذم شاعر صفة غير موجودة في قومه ، إذ لو لم تكن موجودة لما كان لدمها من داع .

* * *

ثم يجلس الدكتور طه حسين من ذلك كله إلى الحديث عن أمة العرب ، فيقرر أن البحث الحديث أنبت خلافا جوهريا بين أمة الجنوبيين وأمة الشماليين ، ثم ينظر ويرى أن الشعر المأثور حميمه جاءنا بلغة الشماليين . . . مما يخطر عليه اليسليم بصحة الكثرة المطلقة منه .

وهو بهذا يفعل المجرات التي تمت من الجنوب إلى الشمال في عصور ما قبل العصر النجاشي كما كان شأن قبيلة كعدة الجينية ، كما يفعل سيادة لهجة قريش سائر اللهجات الشمالية واتخاذها لغة أدبية يخضع لها الجميع ليشكلك في صحة ما روى من أثمار هذه اللهجات باللهجة قريش .

إن الناظر فيما كتبه الدكتور طه حسين لينا كدليله أنه ما كتبه بروح العالم المذوق البعيد عن التحيز والمصيبة ، وإنما كتبه بروح المستشرق البصر الفنى يبيت لأمة العربية وآدابها والقرآن الكريم ما يبيت ، مما يضيق بحدنا هنا عن ثاوله بالتفصيل والتفديد .

الفصل الرابع

المقصود بالبادية والحاضرة

معلوم أن البادية - في مفهومها العام - تعنى السكان ذا القضاء الواسع ، والمرعى والماء ، أو البيئته التي لم تغير من أصل وجودها يد السكان الخلق ، فهي على هيئتها التي صادها عليها ساكنوها منذ القدم . وتوارثوها جيلا بعد جيل دون أن تمتد بدلتعديل شيء فيها ؛ فهي من البدء كما هي اليوم على ما بدت في أعين أبنائها أرض مفتوحة لا حدود فيها تقييد حركة ساكنيها ، ولا حواجز تمنع عنها من هواهر السكون شيئا ، تستوى في ذلك الحدود والحواجز المادية والمنوية ؛ مساكن البادية لا تقييد حركته الحدود المادية من منازل منقلة وقلاع محصنة ، كما لا تقييد حركته الحدود المنوية من نظم وقوانين وحكومات .

فساكنو البادية هم ناس يعيشون فوق أرض لم تخضع لمنفعة المخلوق ، وإنما هي أرض ما زالت على هيئتها الأولى التي خلقها الله تعالى عليها من أودية وجبال وكشبان ، وحيوانات ووحوش ، ومفاوز وقفار ، تظلمها السماء بما تحوى من كائنات دون حجاب أو ستار ، تستهوى النفوس بجمالها ولذات نجومها ، وسطوع بدرها وإشراق شمسها ، وتملح القلوب بأهوالها وثوراتها ، وتضئ الأجسام بقائظ حرها وموقر بردها وجفاف أرض ، ووعورة مسالكها ، وخشونة الحياة فيها .

هذه البادية بجمالها الطبيعي الذي لا يكدره وسائط من صنعة المخلوق ، وبينها وقوتها التي تهون إزاء ما تقدمه لساكنها من شعور بالذات ؛ فبيننا الهدوء يسعد كل شيء فيها إذا بالسماء تتبدل بالنيوم ، وصوت الرعد يدوي في آفاقها ، وومض البرق ينتشر في ضاحيها ، وأزيز الرياح يلشع الرعب فيها ، وسقوط الأمطار ينعيم أوديتها ويطنى غدرانها . . . وإذا بالحياة تعود من جديد كما كانت عليه من هدوء وسكون يحيم على كل البقاع .

هذه البادية بطبيعتها القاسية المتقلبة هي التي تضم البدوي وتستهوى دؤاده ، حتى

لتسكاد تستمبده ، فهو لا يرضى بها بديلا ، ولا يجد في سواها راحة البال وأنس النفس ،
فهو بالنسبة له كالماء للسماك يموت إذا خرج منها .

والتصاق اليدوى ببيئته على هذا المستوى . وحرصه عليها هذا الحرص ، جعل منه
مرآة مجلوة تبدو على سطحها صورة البادية بكل ما فيها من تقلبات ، فأنت ترى هذه
البادية وفي علائق الناس بها ، وأخلاقهم ومعارفهم وتقاليدهم ، ونظام حياتهم ؛ فإذا
كانت الطبيعة فيها مكشوفة واضحة ، فالناس الذين يقطنونها صرحاء واضحو المقاصد
دون التواء . وإذا كانت الطبيعة فيها متفردة العناصر يتضح كيان كل عنصر منها على
الرغم مما بين عناصرها مجتمعة من روابط ، فإن الفرد أيها يشعر بذاته أكثر مما يشعر
بمجتمعه ، فذاته أولا ثم بعد ذلك يأتي الآخرون . وإذا كانت الطبيعة في البادية فائرة
هادئة . عابسة بأسمه جانية رفيقة ، واجمة ناطقة ، غاضبة راضية ، مشرقة متجهمة ،
منيرة مظلمة . إن ساكنيها على هذا المثال يجتمع فيهم القيضان ، ويلقون على الضدين
ولذلك فهم يتسمون بالطبع الحاد ، لتستثيرهم الكلمة فتفيض بسببها الدماء ويستخفهم
الطيش فيندفعون دون أناء أو تعقل ، ويستفهم أنفه الأسباب فتشتمل الحروب أعواما
بين الأخ وأخيه .

والتصاق اليدوى ببيئته على هذا المستوى ، وحرصه عليها هذا الحرص جعله
لا يبدن إلا تبسنا له البادية مثل سقوط الأمطار ، وهدوء الرياح ، وكألا يضيق إلا
بما تضيق به البادية من حر قائلظ وبرد قارس .

إنه في بيئته تلك يدور في محور حاجاته البدوية ؛ هي التي تلفت نظره ، وتمحذبه
انتباهه ، فيتقبل عليها واصفا ، ويميش معها متفاعلا ، حتى يحيل إلينا أنه جعل منها
إنسانا يشارك الحياة ، ويتناسخ أهوالها ومتاعها .

وحاجاته البدوية قصرت نظره إلى تلك الأشياء ، فلم يتمد السطح المنادى . ولم
يتجاوز النظرة العجلى . اللحظة الحافظة . دون تعمق في دحائل هذه المظاهر الكونية
أو محاولة للكشف عن أسرارها . . وأنى له ذلك وتكوينه البيئى . واستعداد
الفطرى لا ينزع به إلى ما دون السطح من مثل عليا تقوم عليها تلك الظواهر ؟ !

ففي البيئة البدوية صفات توارثها ساكنوها ووقفوا أنفسهم للحفاظ عليها وضجروا

بالفيس والعال في سبيل الإبقاء عليها ، دون أن يقدموا تعليلا لاعتراهم بهذه الصفة أو تلك ، بل إنهم قيا بينهم وبين أنفسهم لا يدركون تفسيراً لاحتفالهم بها ، سوى أنها من الصفات المحمودة التي توارثوها عن الأسلاف ، فالجود ، والسجدة ، والشهامة ، والجرأه ، والهمة صفات يتمدحون بها ويتفاحرون باحتيازها ، ويتهاجون باستلابها ، وإذا سألت واحدا منهم عن السر في ذلك لم تجد لديه جواباً شاملاً . تعمق وراء الأسرار ، يعصل ويفسر ، ولكن قصارى ما تجده لديهم - في ذلك الصدد - أنها صفات محمودة ، وخلائق كريمة يعتر بها البدوي حلماً عن سلف ؛ فهم لا يعمون بالأسرار والعال قدر عنايتهم الآتار والمظاهر .



بيد أن ساكنى البادية لم يكونوا جميعاً على مستوى واحد في النظر إلى ما يحيط بهم ، وانتأر بيئتهم ، وذلك لأن الإمامة وحدها في البادية لا تسكى لتصبغ الإنسان بطابع البادية ؛ فقد يكون مقامه بالبادية لكنه يصعب لنفسه داخل البادية ، بيئة أخرى تعتمد على القومات الحضرية بكل طبائنها وأعرافها وسجاياها ، كأولئك البدر الذين أنشأوا الإمارات في داخل البادية وشيدوا القصور وجموا إليها من أسباب الحياة الحضرية ما نالهم من بيئتهم ، وإن كانوا مقيمين داخل الصحراء ، محاطين بأطرها ، خاضعين لأخلاقها ومقاييس الحياة فيها ، مثلما رأينا من قبيلة كندة حين أنشأ أنثاؤها إمارة كدة في مقابلة إمارة الحيرة والشام .

وليس من شك في أن مثل هذا الوسط - مع أن ساكنيه لم يخرجوا من البادية - لا يمكن أن يور لساكنيه ما تور به البادية الخالصة لساكسها من طبائع وسجايا ؛ لأن المقصود بالبادية ليس هو الأرض لذاتها ، ولكن المقصود بها الأرض ذات الظروف والطبائع والأعراف البدوية الخالصة من العننة ، الخالية من التهذيب .

ومن ثم فإن المقصود بالأديب البدوي ذلك الأديب الذي يعيش داخل إطار العطرة السادجة في سلوكه وثمانته وتفكيره ، وأخلاقياته ، وتوراته ، بحيث لا يتعارض في شيء من ذلك مع ما تعص به الأرض التي يدرج عليها ، بكل ما يصدر عنه من سلوك أو فكر يدور في هذا المحور البدوي ، كما أن كل ما يمر به عن مكود نفسه ، وبض مشاعره لا يشد عن مكوناته النفسية ، ومقوماته الخلقية ،

وإذا كنا لا نقصد بالأديب البدوي ذلك الأديب القدي يحيط نفسه داخل البادية
بجو حضارى من ثقافة وفكر وعلم وعرف ، فإننا - على عكس ذلك تماما - نقصد
بالأديب البدوي ذلك الأديب القدي يعيش داخل الإطار البدوى سواء كان يقطن
البادية بالعلم ، أو كان يقطن الحاضرة ، لكنه بأبى إلا أن يعيش فى الحاضرة عيشة
البدوى فى أعماق البادية .

ليس المقصود إذن بأدب البادية ذلك الأدب الصادر عن أدباء يقطنون البادية
فحسب ؛ فقد يكون أدبا حضريا ما يصدر عن أديب يقيم فى البادية، وقد يكون أدبا بدويا
ما يصدر عن أديب يقيم فى الحاضرة ؛ فليس الاعتداد فى هذا المجال بمقام الأديب فحسب ،
بل الاعتداد بمقامه وما يحيطه من مؤثرات ومقومات .

إن أدباء البادية الذين نتحدث عنهم هنا ، ونبحث أديبهم ، وتتبع خصائصه هم
أولئك الأديب الذين كتبهم البيئة البدوية بخشوبتها وجفافها وقضاياها ومشكلاتها ،
فأملت عليهم من الظروف ما يرمم عن ساكنى الحضر - سواء الحضر الطبيعي أو
الحضر المصنوع - وواجهتهم قضايا غير ما واجهت به الحاضرة أبناءها ، وهيات لهم
من الأساليب والوسائل فى معالجة أمورهم ما يبيع منها وما يتصل بمقوماتها . . بل وفرضت
عليهم معجما لنويا ، وتصورا للأحداث والمواقف منمكسا من طبيعتها بكل ما فيها من
خصائص ومميزات .

ولا ريب فى أن الطريق مختلف ؛ وبدا الحاضرة تفرض على ساكنيها أن يتزوا
بزي تسوده الأناة والنزوى والانتقاء والظفر العميق فى تفهم الأشياء ، تفرض البادية
على ساكنيها أن تسكن أرباؤهم شامة عما فى نفوسهم دون خفاء ، صريحة فى الإنباء
عن ضائرهم دون اتواء ، بسيطة فى النظره إلى القضايا دون تعميق أو تعاليل أو تفسير ؛
إذ لا يجدون ما يدهو إلى التخفى والستر ؛ أو ما يقتضى المواربة والالتزام ؛ كما لا تمهلهم
ظروف الحياة إلى البحث وراء الظواهر والتعاليل والتفسير .

وإذا كانت شبه الجزيرة العربية - على وجه التعميم - تعيش فى جو حرى إنان
المصر الجاهلى ، فإن البيئة البدوية كانت تتحمل فى ذلك العبء الأكبر ، وتقوم بالدور
الأعظم فى إمداد هذه الحروب بالفرسان المهيئين . هذا إلى أن الحروب بين أبنائها
كانت أشد اشتعالا ، وأحى سعارا منها بين البيئات المتحصرة أو المتصلة بالحضر ، ولم

يكن لإبناء البادية من شاغل يعرفهم عن الحروب انتقاما أو ثأرا أو عدوانا ، إلى غير ذلك من دواعي الحرب التي كانوا ينزعون إليها نزوعا ، وينهأون لها بكل ما أوتوا من الوسائل

وكان الأدب - خصوصا الشعر - عندهؤلاء هو التروم الملازم للفروسية ، فهو الوجه الثاني لها ، أو المرآة التي تمكس صنيع الفارس ، وتراوى على سطحها أدواته ربية وطرق إعداده ، وكيفية هجومه كرا وفرا .

يبد أن هذه البيئة البدوية لم تسكن على مستوى واحد ، بل كانت - في مجملها - متوزعة بين مستويين يتبايان أشد التباين - وإن لم يخرجوا عن البداوة - ويمختلفان أوسع الاختلاف في تمثل البيئة البدوية ، وذلك لأن ساكني البادية كان منهم السادة المستقرون في أرضهم ، المخاضمون لما أقروه - على مدى الأجيال - من أعراف وقوانين غير مكتوبة ، القائمون على حياة يسودها نوع من النظام يتلاءم مع ظروف الحياة وكان مهم الشواذ الخارجون على النظم والأعراف ، الفارون من وجه العدالة والمحاسبة إلى شماب الجبال ، يباشرون حياتهم كما يحولهم ، أو كما يتصورونه المسلك الأصلح وهؤلاء هم الذين عرفوا باسم (الصماليك) .

ولا ريب في أن لسلك من الوسطين خصائصه التي تميز تسكوين ساكنيه من ساكن الوسط الآخر ، وتعرض عليه من المشاعر والانفعالات والأفكار ما يختلف عما يفرضه الوسط الآخر على ساكنيه ، أى أن لسلك من الوسطين آثاره التي تنتجها بكل وجهة تتسق مع أبعادها وظروف الحياة فيها ؛ فتميز أدب هؤلاء عن أدب أولئك .

* * *

إذا حددنا مقصودنا بالبادية بأنها الوسط الذي يقوم على أخلاقيات البادية سواء كان في محيط البادية ذاتها أو خارج إطارها ، فإن باستطاعتنا أن نحدد المقصود بالمعاصرة - كذلك - بأنها الوسط الحضري الذي يقوم على أخلاقيات المعاصرة ، وأساليبها في السلوك والتفكير ؛ وما يفرضه ذلك الوسط على أبنائه من الفاظ يتسكون منها المعجم اللغوي لهم ، ونصير تبرز في أشكاله معانيهم ومدركاتهم للأمور والأحداث والمواقف وتنفذ تتلقى بها مشاعرهم وعواطفهم ، ويدور حولها بيانهم وتعبيرهم .

وليس حتماً أن يكون هذا الوسط الحضري خارج البادية ، فقد تشمل البادية على مقومات الحاضرة دون الخروج عن حدودها المكانية كما أن الحاضرة قد تضم المقومات البدوية بكل مؤثراتها على معنى أن البيئة الحضرية ليست مكاناً يطلق عليه ذلك وإنما هي وسط ذو سمات ومقومات خاصة تليق من السكان أو يضيفها عليه الزمان وما يحمل من أحداث ، بحيث يمكن أن يرى الحاضرة . بهذا المفهوم . في أعماق الصحراء ، مائة في وسط مخصوص محاط بمجموعة من الناس ذوي اتجاهات وميول وثقافات تقطعهم عما يحيط بهم في الصحراء .

والناظر في الشعر العربي منذ الجاهلية يلاحظ أن هذا الوسط قد استحوذ . بما يحويه من مظاهر الترف ووسائل النعيم وأسباب التدهور . على طائفة من شعراء العرب في العصر الجاهلي وما تلاه من عصور ، فشكل حياتهم بما ميزهم عن أبناء عموهم القديين يضمهم الوسط البدوي ، واتجه بهم وجهة نفسية وعقلية وسلوكية تباين وجهات أترابهم ومناصريهم في البيئة البدوية ، وصيغ أذواقهم الفنية بالأصباغ والألوان التي تمكسها حياة الترف والنعيم ، فلم يهتموا إلا بالأغراض التي تستجيب لها نفوسهم تلك ، ولم يقصدوا إلا إلى الفنون الشعرية التي تلي حاجاتهم ، وداروا بمآلهم وأخيلتهم في محيط هذا الوسط الحضري وما يضيفه على أفكارهم وخيالهم من انطباعات . حتى بدانهم الشعرى قريباً أو كالقريب على مقاييس الشعر البدوي ، فكان مدعاة للمهوين من شأنهم أو الطعن في صحة ما ينسب إليهم ، أو عدم الالتزام بمنهجهم وألذاهم ، أو حيرة الرواة في نفيته من الدخيل لاختلاطه به وقربه منه . الأمر الذي دفع ببعض الدارسين من أمثال الدكتور طه حسين إلى إنكار هذا الشعر والطمع في روايته ورواياته ، بل وفي وجود المنسوب إليهم ، بحجة أنه خارج على المنهج الشعرى . مصموناً وأسلوباً والفاظاً . المعروف للعرب البادين ، على تقدير أن هؤلاء البدو وحدهم هم يمثلوا الأدباء العرب شعراء ونأرين .

* * *

حقاً لم يكن أبناء الوسط الحضري جميعاً على مستوى واحد في التأثر به ، والاستجابة لتطلبات الحضارة ، بل إنهم ليتفاوتون في ذلك تفاوتاً بيناً ، ويتبايزون تميزاً واضحاً . وإن لم يخرجوا عن الإطار العام للحاضرة . وفقاً لمكان الوسط من الحاضرة ، ولمكان الأديب ذاته من ذلك الوسط ، وتبعاً لطبيعة صلة الأديب بالوسط الحضري

وملابسته به ؛ إذ ليس من المعقول أن يكون تأثير هذا الوسط فيمن ولد فيه ودرج بين أهله مماثل لتأثيره فيمن نزع إليه - بمد أن نمت البذور الفنية لديه في ظلال البادية - طمعا فما يتوفر فيه من أسباب الترف والنعم ، ومخلها وراءه البادية وما فيها ومن فيها . كما أنه ليس من المعقول أن يكون الوسط الحضري القائم في الحاضرة على المستوى التأثيرى نفسه الذى يشتمل عليه الوسط الحضري المصنوع في البادية مهما تطاول به الزمان ، كما كان الحال بين إمارة الحيرة التى أصبحت قطعة من الأرض الفارسية وبين إمارة كندة القائمة في الجزيرة العربية تحيطها الصحراء العربية من كل جهة ، والوطن العربى في عهده حين شمله الإسلام بمبادئه وأفكاره الحضارية .

الباب الثاني

الشعر البدوي

الفصل الأول

أعلام من شعراء البادية

أقصد بشعراء البادية أولئك الشعراء الذين كنفتم البيئة البدوية ، بخشوتها وجفاهها ، فأملت عليهم من الظروف ما يبرم عن ساكني الحاضرة ، وواجهتهم بقضايا غير ما واجهت به الحاضرة أبناءها ، وهيأت لهم من الأساليب والوسائل في معالجة أمورهم ما يلبغ منها ويتصل بمقوماتها

ولا ريب في أن الطريق مختلف ، فدينا الحاضرة تفرض على ساكني الحضر أو المتحضرين أن يتربوا بزى تسوده الأناة والتربوى والانتقاء ، تفرض البادية على ساكنيها أن تكون أزياءهم شامة عما في نفوسهم ، صريحة في الإنباء عن ضائرهم ؛ إذ لا يجدون ما يدعوا إلى التخفي والستر والمواربة .

وإذا كانت شبه الجزيرة العربية - على وجه التعميم - تمشي في جو حربي إبان العصر الجاهلي ، فإن البيئة البدوية كانت تتحمل في ذلك العبد الأكبر ، وتقوم بالدور الأعظم في إمداد هذه الحروب بالفرسان الممدين . هذا إلى أن الحروب بين أبنائها كانت أشد اشتعالا ، وأحمى سمارا منها بين البيئات المتحضرة أو القرية من الحضر ؛ فلم يكن لأبناء البادية من شاغل يعصرفهم عن الحروب انتقاما أو ثأرا ، أو عدوانا إلى غير ذلك من دوافع الحروب التي كانوا ينزغون إليها نزوعا ، ويتهاون لها بكل ما أوتوا من الوسائل .

وكان الشعر عند هؤلاء هو القوام الملازم للفروسية ، وهو الوجه الثاني لها أو المرآة التي تمسك صنيع الفارس ، ويتراءى على سطحها أدواته الحربية وطرق إهداده ، وكيفية هجومه كرا ومرا .

• • •

ودارس الحياة الجاهلية يلاحظ أن أبناء البادية لم يكونوا جميعا على مستوى واحد في الخضوع لقيم البادية وطبائعها ؛ فقد كان من أبناء البادية من تردد على الحاضرة ،

وخرج إلى المدينة ليقضى فيها بعض مرّات حياته بعد أن تسكّونت أحاسيسه وشاعره بين أهله في أحضان البادية ، فأثرت الحاضرة بمظاهرها المادية فيه فأصبح خاضعا لمؤثرين أحدهما بدأ معه منذ نمومة أظفاره فتغلّفت آثاره في ذات نفسه مكونة أخيلته وممانيه ، والآخر بدأ معه بعد أن وضع فكره ونعت مدركاته ، فطنت آثاره على سطح نفسه معكسة على الشكل والمضمون .

وكان من أبناء البادية من ظل على نشأته مقيما في البادية ، لا يعرف إلا ما عليه عليه ، لسكته استجاب للإسلام حين جاء بأفكاره ومبادئه ، واندمع إليه بقوة وإحلاص ، فتغيرت مفاهيمه ، وتبدلت أفكاره ، وهذبت ألفاظه ، لسكته لم يسلخ تماما من بيئته الأصلية ، على الرغم من تغير المعارف والأخيلة والشكل والمضمون لديه ؛ لأن الإسلام وكتابه الكريم لم يخرج في بعض تلك النواحي والمظاهر على البيئة العربية الخاصة التي تمثلها البادية أدق تمثيل .

ولا ريب في أن هذا وذاك أصبح بدويا متحضرا ، يجمع بين مؤثرات البادية والحاضرة ؛ فضمه إلى شعراء الحاضرة أولى ليتضح الفارق بينه وبين الحضري بمولده ونشأته .

إذن الشاعر البدوي الذي تقصد إليه في بحثنا هذا هو الشاعر الذي لم يخرج على البادية بجسده ولا بمقله وفكره ؛ فهو البدوي الخالص في أفكاره ، وفي ممانيه ، وفي أخيلته ، وفي ألفاظه ، وفي قوالبه الفنية ، سواء كان مقامه ظواهر القرى وأطراف الحضر أو كان مقامه في أعماق الصحراء .

بيد أن هذه البيئة البدوية الخاصة كانت تضم وسطين مختلفين ، فالإلى جوار السادة والدرسان البدويين الذين لم يشذوا على أعراف قبائلهم ، وقيم عشائهم ، وجد الصعاليك الثأرون الخارجون على عرف القبيلة ، وقيم المشيرة ، أنارون بما اعتنقوا من وجه الواخذة والمحاسبة ، بعيدا عن مواطن القبيلة ومستقرها ، متخذين من الجبال والفلوات مكانا لهم ومنازل .

فالمقصود بالصعاليك إذن أولئك المصروس من كانوا يتجردون في الجاهلية للثارات وقطع الطرق ، بقصد الثأر أو السلب والنهب ، فهم جيما - على اختلاف مواطنهم

وأزمانهم - خاضعون لظروف قربية الشبه من بعضها أثرت في منازعهم وتفكيرهم ، فوجهتهم إلى مسالك متميزة اختصوا بها من دون غيرهم في معالجة الأمور ، وفي التعبير عما يحيش بصدورهم ، وفي تقويم المواقف . . إلى غير ذلك من محلات شئون الحياة .
والمتابع لدشوء الصلابة في المجتمعات الجاهلية يلاحظ أن الدوافع لها تختلف من جماعة لأخرى ، وإن اتفقت في نتائجها .

فهناك رأى في الصلابة السبيل الأسير لتحقيق مآربه ، والوصول إلى الكسب من غير حاجة إلى عمل ، فالصلابة في رأى هؤلاء حرفة تدر عليهم ما يواجهون به متطلبات الحياة ، هذه النظرة يشترك فيه الأبرار والجماعات ، فقد عرفت شبه الحريرة قبائل تحترف الصلابة لهذه الساية مثل قبيلتي هذيل وهم ، كما عرفت أفرادا مثل عروة بن الورد العنسي .

وهناك من رأى في الصلابة مجالا يشبهون فيه رغباتهم ، ويستجيبون فيه لوزواتهم .
لكن تتمازج مع نظام القبيلة ، مثل أبي الطامحان القيني ، وحاجز الأردى ، وقيس ابن الحدادية ، وغيرهم ممن لفظتهم قبائلهم لشذوذ سلوكهم ، وانحراف تفكيرهم .
وهناك طائفة ثالثة رأت في الصلابة متناسلهم وميدانا تحقق فيه ذاتها ، حين يذم محتتمهم لأسباب لا يد لهم فيها مثل سواد أمهاتهم وغربتها عن البيئة العربية ، فقد كان الآباء يحذرون في إلحاق مثل هؤلاء الأبناء بنسبهم عارا ومساءة . وكان لا بد لهؤلاء الأبناء من مخرج ، إما أن مهتبل الأحداث فيصطر آناه إلى إلحائه كما فعل عنترة ، وإما أن يخرج على القبيلة ويأجأ إلى الصلابة كما فعل تأبط شرا ، والسليك ابن السليكة .

وأيا ما كان دافع الصلابة فقد كان الجميع يلتقون في الثورة الجارية على الأغنياء والأشعاع فيرددون دائما ما يملأون به مسلكهم من صيحات الجرع والفرح ، كما كان الجميع يمتاز بالقدرة للدائقة على تحمل المشاق ، والشجاعة البادرة في مواجهة الأخطار ؛ ولذلك لم يخضوا أنفسهم للوسائل التقليدية في ارتحالهم وانتقالاتهم وغاراتهم ، فاعتمدوا على أرجلهم كما اعتمدوا على خيولهم ، فامتازوا بالمدو حتى أطلق عليهم اسم المدائين ، وحتى ضربت ببعضهم الأمثال في سرعة المدو فقول : أعدى من السليك ، وذكر الرواة عنهم في ذلك أقاصيص تصور خصائصهم البدنية ، من ذلك ماروى عن تأبط من أنه كان أعدي ذي رجاين وذى ساقين وذى عييين ، وكان إذا جاع لم تقم .

له قائمة ، فكان ينظر إلى الغطاء فيلتقي على نظره اسمها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوت حقه يأخذه فيذبجه بسيفه ، ثم يشويه بأكله (١) .

وطبيعي أن يركز هؤلاء نشاطهم في الاطراف القريبة من طرق القوافل الدينية والتجارية ، فكانوا ينتشرون في جبال السراة المحيطة بالطرق للوصول إلى مكة مقصد الحجاج والتجار ، كما كانوا ينتشرون بالقرب من شمال اليمن ، وبالقرب من الطائف والمدينة .

كما كان طبيعيا أن يتنق هؤلاء في أشمارهم بأرقى مناخر العربي من حراة وكرم ، وترفع عما يرونه حسيسا دنيئا .

أى أن كلا من هذين الوسطين اللذين ضمتها البادية العربية كان له آثاره التي ميزت شعر أبنائه عن شعر الآخرين ، واتجهت بكل فريق وجهة تتسق مع أبعادها وظروف الحياة فيها .

ولقد قدمت البادية بشمبيتها شعراء كثيرين لا يمكن لدارس أن يلم بهم على وجه العصر والاستقصاء . وكل ما يمكن تقديمه في ذلك هو طائفة منهم تمثل الاتجاه الفنى العام ، وليس لدافع آخر غير ذلك .

ومن بين هؤلاء الكثرين وقع اختيارى في هذا البحث على خمسة شعراء هم عنترة ، والحارث بن حلزة ، وزهير بن أبى سلمى ، والشنفرى ، وعروة ، رأيت أنهم يمثلون اتجاهات الشعر البدوى في العصر الجاهلى المتصل بمحضرة الإسلام

١ عنتره

نشأته وحياته :

هو عنتره بن شداد بن عمرو، وقيل : عنتره ابن عمرو بن شداد بن معارية العبسي .
قال ابن السكيت : شداد جده أبو أبيه ، غلب على اسم أبيه فنسب إليه وقال غيره :
شداد عمه ، وكان عنتره نشأ في حجره ، ونسب إليه دون أبيه (١) . أما أمه فكانت
حبشية يقال لها زبيبة ، وقد ورث عنها السواد ، وكان أحد أعربة العرب المشهورين
في الجاهلية أسودهم ، وهم ثلاثة : هنتره ، وخفاف بن ندبة السلمي ، والسليك
ابن السلكة . وكان عنتره يلقب بعنتره الفوارس لشجاعته ، وعنتره الفاحاء (٢) لشقيق
شفتيه السفلى . ويكفي بأن المفلس لماراته في الفليس .

ولأن أمه أمة لم يلقه أبوه بنسبه - طى عادة العرب في ذلك - إلى أن أثار بعض
أحياء العرب طى بني عبس فأصابوا منهم ، فتبعهم المبيسون لمحقوم فكانلوم عما معهم ،
وعنتره فيهم ، فكان له أبوه : كر ياعنتره ، فقال عنتره : العبد لا يحسن السكر ، إنما
يحسن العلاب والصر ، فقال : كر وأنت حر ، مكر وهو يقول :

أنا المهجين عنتره كل امرئ يحمي حره
أسوده وأحمره والشعرات المشره
الواردات مشفره

وفائل يومئذ قتالا حسنا ، واستنقد ما كان بأيدي عدوم من الثيمية ، فادعاه
أبوه بمد ذلك ، والحق به نسبه

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٥٠ ، وطبقات خول الشعراء ج ١ ص ١٥٢ ،
والأغاني ج ٨ ص ٢٣٧ وما بعدها ، والخزانة ج ١ ص ٥٩
(٢) الفاحاء مؤنث الأهلح : المشقوق الشفة السفلى .

واجتمع إليه صفات شتى ؛ وكان أحرأ معاصريه فؤادا ، وأقواما تجملا ، وأسخام
يدا ، وأسرعهم إلى مواجهة الأخطار إقداما ، ولسكنه مع ذلك كله كان حليبا ، دمث
الخلق ، لين الطبع ، سميح المخالقة ، عما عن الدنيا .

روى صاحب الأغاني أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد قول عنزة :

ولقد آبيت على الطوى وأظله حق أنا به كريم المأكل

فقال صلى الله عليه وسلم : « ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنزة » :

ويبدو أن موقف أبيه وعشيرته منه كان له أثر في إعداده وتكوينه ، فلم ويسلم
نفسه إلى الحقد على عشيرته ، ولسكنه انصرف إلى بناء نفسه وإعدادها الإعداد الذي
يلفت الأنظار إليه ، ويفرض على الجميع احترامه وتقديره ، فكان الفارس ، والشاعر ،
والنبيل (١) .

وروى عن عمرو بن معد يكرب - وكان معاصرا له - أنه قال : لو سرت بظعينة
وحدى على مياء معد كلها ما حقت أن أعاب عليها ما لم يلقى حراها أو عبداها . فأما
الحران فعمار بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما المبدان فأسود بن عيسى
(يعنى عنزة) والسليك بن السليكة ، وكلهم لاقت ، فأما عامر بن الطفيل فسريع العطن
على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت ، وآخرها إذا آبت ، وأما عنزة
فقليل الكبوة ، شديد الجلب ، وأما السليك فبمبد العارة كالكليث الضارى .

وقال الهيثم بن عدى : قيل لعنزة : أنت أشجع العرب وأشدّها ؟ قال : لا . قيل :
فماذا شاع لك هذا فى الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزما ، وأحجم إذا
رأيت الإحجام حزما ، ولا أدخل موضعا إلا أرى لى منه مخرجا ، وكنت أعتد
للضعيف الجبان فأضربه الضربة المائلة ، يطير لها قلب الشجاع ، فأثنى عليه فأقتله .

ولقد أصبح عنزة - بعد أن ألحقه أبوه بنسبه - فارس عبس ، وشهد كثيرا من
المعارك المشهورة مثل حرب داحس والغبراء التى أبلى فيها أحسن البلاء ، وبها قتل
ضمضا المرى أبا حصين وهرم ، وفى ذلك يقول :

ولقد خشيت بأن أموت ولم ندر للعرب دأبة على ابنى صمضم

(١) راجع الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٥١

الشامى عرضى ولم أشتهمها والناذرين إذا لم ألقاهما دعى (١)
إن يفملا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل سر قشعم (٢)

وعزت بنو عبس بنى تميم وعليهم قيس بن زهير ، فانهزمت بنو عبس ، وطلبتهم بنو تميم ، فوقف لهم عنزة ، ولحقهم كبسكبة من الخيل فخامى عنزة عن الناس فلم يصب مدبر . وكان قيس بن زهير سيدهم ، فسأوه ما صنع عنزة يومئذ ، فقال حين رجع : والله ما سمى الناس إلا ابن السوداء .

وأحب عبلة ابنة عمه مالك بن قراد ، ونظم بها شعراً من أوراق النزل الجاهلى ، ولكن أباء عمه أنكروا عليه هذا ، وأبوا أن يستجيبوا لرغبته ، وأصر على أن ينالها وغامر من أجلها ، وبدل الكثير حق الحقه أبوه بنسبه ، ولكن دون حدود .

وهكذا توفر لمنزلة دافعين من أم دوافع الشعر ، هما الفروسية التى كان يمتيرها سبب تحريره وإخافته بنسب أبيه ، والحب العفيف لابنة عمه التى أبى أهلها عليه التزوج منها ، فارداد بها ملقاً وهيأها ، وأخذ يبتئها لواعج شوقه ، وآلام نفسه .

وما زال الفارس المرموق فى ميدان الحرب وفى ميدان الحب حتى مات عن تسمين عاماً تقرباً ، وانتقلت أخباره ، فتزيد فيها الرواة ، وأضيف إليه من المواقف الحربية ما ليس له ، ونسب إليه من الشعر ما لم يقله ، حتى اشتبه الصحيح بالموضوع

وقد اختلف الرواة فى سبب وفاته ، فقيل : إنه قتل وهو شيخ كبير فى غارة له على بنى زهران من طيء ، وقيل : إنه كان قد أسن وعجز بكبر سنه عن الغارات ، وكان له على رجل من غطفان بئر ، فخرج يتقاضاه إياه ، مهاجت عليه ربيع من سيف وهو بين شرج وباطرة ، فأصابته وقتلته .

شعره :

لقد كان لشاة عنزة وظروف يئته أثر بالغ فى ارتباطه بالفروسية العربية على اختلاف مظاهرها وكان لفروسية أثرها فى البناء الجسمى والنفسى والخلقى لعنزة ،

-
- (١) يريد أنهما يتوعدانه بالقتل فى عيبته ، فإذا حضر لم يجرؤا على الكلام .
(٢) جزر السباع : هرسنها . القشعم : اللسر المسن ، يقول : إن يتوعدانى أو يشتمانى فى غيبتي ، فلقد قتلت أباهما فليريانى ماذا هما فاعلان .

فقد أقامت نفسه على التسامح والترفع عن الدنيا ، والشعور بالمساواة الفردية والجماعية
فارتبطت في حياته بطائفة من الأخلاق الحميدة ، والحاصل الطيبة ، ظلت له مصاحبة وظل
هو لها ملازماً فانبعث منها سلوكه ، وانظم فيها شعره ، فإذا هو عقد حياته الشجاعة
والكرم ، والوفاء ، والحلم ، والأناة ، والعزة ، والصر على الشدائد ، وتحمل المشاق
والحفاظ على العهد ، وحماية الجار ، والشفقة . . إلى غير ذلك .

وهكذا تحولت الفروسية عند عنتره من مدلولها المحدود إلى معناها الشامل لكل
ما به تفوق وتميز من حميد الخصال .

ومن ثم أصبحت الفروسية بهذا المعنى الإطار الشعري لعنتره ، يدور بداخله ولا
يشده عنه ، تصفح ما وصلنا من شعره فتجدده واصفاً للمركة ، أو مفتخراً بانتصار ، أو
مصوراً حبه الطاهر العفيف . مثال ذلك ما قاله مفتخراً ، يجيب قيس بن رهيرس دعس
حين أراد محقيره بسواده على ما تقدم ذكره ؛ إذ يحكى أن صاحبه بادرته نخوة بما يمرض
له نفسه من السكره بسبب تماثله على الحروب ، ولسكنه يكر عليها ذلك مفنداً حاجتها
موضحاً أن السكره ليست وقفاً على من يشارك في الحرب ، وأن الموت كأس لا بد من
تجرعه موتاً أو قتلاً ، طالباً إليها أن تستحي بما تحاوله معه ، وأن يفضل الموت ماصلاً
شريفها مدافعاً عن حماه وحى عشيرته ، مزللاً بن يمتدى عليهم الدمار والهناء ، بحيث
لو أمكن إبراز الموت في صورة مادية جسدية لسكان على صورة عنتره . وعمد بذلك
لآخر شجاعته وفروسيته ، مشيراً إلى كرم أصله الأبوي ، لسكنه لا يقف عند الموروث
بل هو ينطى بماله ما قد يباب من أصل أمه غير العربية فهو المقدم حين تحجم السكتية
حق أصبح أفضل ممن عمه وخاله عربي سيد ؛ إذ لا ينفي القبيلة أحد غناءه ، ولا يقوم
أحد لها بمثل ما يقوم به ، ويكفي أن تسأل الخيل والموارس عما أوقمه بالاعداء فهو
لا يكون في أول المزمين ، بل إنه حاميتهم ومقدهم في وقت الشدة ، ويقتم الصوف
والخيل صامره متميرة من هول الحرب قد كلح فوارسها لشدة الحرب وأهوالها .
وقد مر عليه الليلة واليوم دون أن يطعم ما يسد حاجته حتى يطعم مالا يعاب به . فهو
كريم النفس ، نذيل الخلق .

بكرت مخسوفى المحتوف كأننى أصبحت عن عرض المحتوف بمزل(١)

(١) المحتوف : المهالك ، عن عرض : أى ما يمرض منها .

وأجبتها إن المنية منهل فأجبتها إن المنية منهل
فأقنى حياءك - لا أبالك - واعلمى فأقنى حياءك - لا أبالك - واعلمى
إن المنية لو تمثل مثلت إن المنية لو تمثل مثلت
إلى امرؤ من حير عبس منصبا إلى امرؤ من حير عبس منصبا
وإذا الكتبية أحجمت وتلاحظت وإذا الكتبية أحجمت وتلاحظت
والخيل تعلم والهورس أنى والخيل تعلم والهورس أنى
إذا لا أبادر في اللذين فوارسى إذا لا أبادر في اللذين فوارسى
إن ياحقروا أكرر، وإن يستلحمو إن ياحقروا أكرر، وإن يستلحمو
حين النزول يكون غاية مثلنا حين النزول يكون غاية مثلنا
والخيل ساهمة الوجوه كأنما والخيل ساهمة الوجوه كأنما
واقعد أبيت على الطوى وأظه واقعد أبيت على الطوى وأظه

أما غزله فهو به العفيف الذى يقدم الروة ويقدم الروسية على إشباع عريزته،
أو تلبية رغبة، ونظرة إلى ما قدمناه من شعره فى فن الغزل توضح ذلك؛ فهو فى غزله
الهارس العرى الذى يتسامى فى حبه كما يتسامى فى خلقه. وله فى ذلك الميدان شعر
كثير، حتى لقد ربط بين حبه ومعاركه، فكان يقدم لقصائده الحربية بحديث يبت فيه
شكواه ولو أعجبه؛ فذكره لها لا ينقطع، ولا يشغله عنها شاغل فى حرب أو سلم، بل
إن تذكرها فى معاركه لتجمله الأسد الضارى المستهين بالأهول.

- (١) المهمل : المورد
(٢) فأقنى حياءك : أحفظيه .
(٣) الضنك : الضيق . يقول : إن المنية لو حلقت مثالا لسكانت فى مثل صورتي .
(٤) النصب بكسر الصاد : الأصل . والمهمل بهم وسكون فضم : السيف
(٥) الكتبية : الجماعات إذا اجتمعت ولم تتأثر تلاحظت : نظرت من قد . على المدو .
(٦) اله يصل : الذى يفصل بين الناس .
(٧) لا أبادر فى المصيق فوارسى : لا أكون أول منهرم ولكنى أكون حاميتهم .
الرهيل : اللطامة من كل شيء
(٨) يستلحموا بضم الياء وفتح الحاء : يدركوا .
(٩) المستوهل بكسر الهاء : الضعيف الفزع . (١٠) ساهمة : ضامرة متعيرة .

ومن ثم نجد عترة في شعره الموحه لابة عمه عبلة حريصا على الفخر بقيمه وأخلاقه
ومثله العليا التي يدين بها؛ ففي ميميته يفخر باتصافه بكل خلق كريم ، فهو - إلى شجاعته
وسلانه وجرانه في الدفاع عن قومه - سمح الأخلاق وسهل المحالطة والمباشرة ، لا يقبل
أن يظلم أحدا كما لا يقبل أن يظلمه أحد ، فإذا اعتدى عليه أحد وناله بظلم أصبح
نارا مؤحجة تحرق من اعتدى عليه ، وإذا اكتنقه السلام فهو في سلوكه على وعي
دائم بما يحفظ عليه كيانه فقد يشرب الحمر ولكن بالقدر الذي لا يفسد مروءته
ولا يصيب عرضه بأذى ، ومع هذا فهو لا يقصر عن العطاء ، ولا يتردد في مساعدة
الاحتاج ؛ فهو يجود بما يملك عن طيب نفس ، وذلك قوله :

أنى على بما علمت إننى	سمح مخالفتى إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي بأسل	مر مذاقته كطعم العلقم (١)
وإذا شربت إننى مستهلك	مالي ، وعرضى وار لم يكلم (٢)
وإذا صحت فما أقصر عن ندى	وكما علمت شمائلى وتكرمى

ويواصل الحديث إليها عن مفاخره ؛ من مروءية ، وشجاعة ، وإقدام وسالة ،
ويصف لها كيف يواجه الأعداء الشداد في المعركة كأزه القواء النازل . ثم يعود إلى
الحديث عن سجاياه الخلقية ، من عمه وكرم وشرف ، وهو لا يقصد بحروبه كسبا ماديا
يجرى وراءه :

يحرك من شهد الوقائع أننى أعشى الوعى وأعب عبد المنعم

ولا يترك فرصة تمر به دون أن يستعرض طرفا من قيمه البدوية التي تميز مكانته
بين قومه ، من ذلك موقفه بإزاء النساء - عموما - سيئات وغير سيئات - ومحافظته على
حرماتهن ، ولا يمس واحدة - مهما كانت - إلا إذا قدم صداقها لأهلها إذا لم تكن
زوجة لغيره ، كما أنه نوى المزمعة يتحكم في عواطفه ومشاعره :

ما اسمت أننى نفسها في موطن حتى أوفى مهرها مولاها (٣)

(١) بأسل : كريبه .

(٢) يكلم : يجرح .

(٣) استام المرأة : راودها عن نفسها ، والمواطن هنا : موطن القتال .

أغشى فتاة الحى عند خليلها وإذا غزا في الحرب لأعشاها (١)
وأغض طرفي ما بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى مأواها
إني امرؤ سمح الخليفة ماجد لا أتبع - النفس البجوج هواها

فشعر عترة موسوعة لأخلاقيات البدو وقيمهم التي يمترون بها ، ويحرصون عليها في كل تصرفاتهم ؛ لأنه حرص على أن يتجه إلى عبلة في كل مناسبة مفتخرا بما تعرف عنه من أخلاقيات البادية ، فكلمة التقيا بشعره التقينا ببعض المعاني البديلة التي يقوم عليها سلوكه وتلك كبيرة ، بحيث يستطيع المدارس أن يرسم له صورة واضحة المعالم ، دقيقة التعبير ، تكشف عن حواجز نفسه ، وطوايا فكره ، ومكارم خلقه ، ولعل من أطرف ما تعرف عليه من أخلاقيات عترة الفارس المقاتل ومشاعره أنه ينطوى على مشاعر الرحمة والحنان حتى على خصمه ، فهو - في نظره - الكريم ذو القدر والمسكنة الذي يتحرج عترة ويألم حين طمه بالرمح ، يذكر أن ما صنمه به ليس محرما وإن يكن كريما :

وشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكرم على القنا بمحرم (٢)

كما يألم امرسه الذي أجهده في المركة وأصابه رماح الأعداء فكان يميل من طريقهما :

فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بكرة وتحمحم (٣)
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولو كان لو علم الكلام مكلمى

وبذلك يمكن أن يرى المدارس شعر عترة ذا وجهين : أحدها غنائى وجدانى يصور فيه أحاسيس ومشاعره ويجسم معاناته وآلامه ليمد عبلة عنه وحرمانه منها ، كما يجسم فرحته وسعادته حين تقع عليها عيابه . والوجه الثانى قصصى ملحمى ، يصور فيه وقائمه ومفاحره وبطولاته ، بيد أن أحد الوجهين لا يكاد يفصل عن الوجه الآخر ، فهما وجهان ممتزجان ، لا يقوم أحدهما بدون الآخر .

من ثم يتصح لنا مدنى تأثير بيئته فيه وفي شعره ، واتجاهها به متجها يختلف تماما عما كان عليه الشعراء الجاهليون في البيئات الأخرى

(١) أغشى : أروى

(٢) يكى بالثياب عن الجسد والبدن .

(٢) أزور : مال وانحرف ، واللبان - بفتح اللام - الصدر ، والتحمحم : بههليل

فيه شبه الأنين .

٢ الحارث بن حلزة

نشأته وحياته :

هو أبو ظليم الحارث بن حلزة بن مكروه بن يشكر البكري ، لا نجد في أيدينا من مرويات التاريخ ما يكشف عنه سوى الحادثة التي حوت وقائمه في حضرة عمرو بن هند ملك الحيرة ، وذلك أن عمرو بن هند أراد التوسط للإصلاح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس حين أهم التغلبيون بني بكر بأهم تسيبوا في قتل بعض أبائهم وغضبوا لذلك وطلبوا الديات من بكر ، فخرقهم ماتمهدوا عليه على عهد النذر . والد عمرو بن هند . ولكن البكريين أبوا الاستجابة لمطالب التغلبين واحتكموا إلى عمرو بن هند . ولما كان يوم التقاضي انتدبت تغلب للدفاع عنها شاعرها وسيدها عمرو بن كلثوم ، وانتدبت بكر للدفاع عنها أحد أشرفها النعمان بن هرم . وكان عمرو بن هند يميل إلى التغلبيين ، فجرى بينه وبين النعمان جدال غضب له عمرو بن هند وبأمره من حضرته . ولما أنشد عمرو بن كلثوم التملح قصيدته المطولة ، تقدم الحارث بن حلزة وأنشد مطولته كذلك وكان لها في نفس الملك وقع حسن جملة يجيب بها ، ويدي الحارث منه ، ويقصى للبكريين .

شعره :

لم يصل إلينا من شعر الحارث غير القليل ، وفي مقدمة هذا القليل مطولته التي أنشدها في مجلس التقاضي أمام عمرو بن هند . ويبالغ بعض الرواة في كرون أنه ارتجلها ارتجالا ، كما يزعمون أن عمرو بن كلثوم ارتجل قصيدته ، ولكن الناظر في انتقالات الحارث يتقرر لديه أن ارتجالها غير ممكن عقلا ؛ لما فيها من إعمال وروية يبدو أن هي ترتيب أمسكارها ترتيبا منسقا ، والبراعة في التعريض بالخصوم بطريقة تم من دهاء وحسكة ، وسرد للحوادث التاريخية سردا يحمل من الدلالات ما يجعله تنقطع بأن قائلها أعدها وأتم أدواتها .
وإذا رددنا نظرنا في هذه القصيدة تبين لنا أننا أمام شاعر على قدر كبير من

للشجاعة النفسية ، والدهاء السياسي ، وحدة العقل ، وقوة العارضة ، ورباطة الجأش . . فقد واجه بقصيدته تلك ميل الملك إلى التخليين الذي قواه ما حدث من الغمان بحضرتة .

هذا إلى أن في اشتمزاز الملك من رؤية الحارث ، وقيامه لمشدا من حاف ستور ما يكفي لأن يفقده توازنه ولكن الحارث الفارس تما لك نفسه وتما لك حتى تمكن من أن يستعوز على الملك ويستل من نفسه التضب على البكريين ، ويستميله إليهم .

والشاعر في معلقته يتدىء - على ما عليه شعراء الجاهلية - بالفزل وذكر الفراق ولكنه لا يطيل فيه ، ثم ينتقل إلى ناقتة التي يستعين بها فيذكر من أوصافها - في إيجاز - ما يهد به إلى غايته التي يقصدها .

فيصور أثر الدعوى التي افترها النخاليون عليهم إذ زعموا أن البكريين تقضوا أمهد ، ويوضح أن هذا الزعم أصابهم بالساء وأساء إليهم ، ثم يذكر أن إخوانهم التظيين بهذا الزعم يظلمونهم ويبالغون في ظلمهم ، هم مازالوا يطرون نفوسهم على هدوتهم . ولا يكفي بذلك التميم ، ولكنه يمرض لأوهامهم التي يؤسسون عليها دعواهم ، هم لا يفرقون بين برى ومذنب ، ويخلطون هذا بذلك ، يزعمون أن كل من أساء إليهم تابع لنا فيحملونا تيمة ما قدم ، ومن ذلك المنطلق في تصورهم قرروا تقض عهدنا ، وأخذوا في الإعداد للاقتنا فأصبحوا مستعدين لحربنا ، متأهين لقتالنا ، يعتلىء الجوبعما يصدر عن المقاتلين وحيولهم من أصوات وضوء .

وفي هذا القسم يبدأ الشاعر باستعراض ما ادعته تغلب على بكر واستمدادها ، للحرب وذلك قوله :

وأنا من الحوادث والأنا — بيا خطب نمنى به ونساء (١)
أن إخواننا الأرقام ينلو ن علينا ، في قيلهم إحقاء (٢)
يخلطون البرى منا بذي القذ ب ولا ينفع الخلى الخلاء

(١) نعى به ونساء : يصيبنا بسببه عناء وسوء .

(٢) الأرقام : بطون من تغلب ، ينلون . يجاوزون الحد ، الإحقاء : شدة

الإلصاح والاستقصاء .

زعموا أن كل من ضرب العيب ر سوال لنا ، وأنا الولاء
أحموا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ، ومن عجيب ، ومن تصه هال حيل حلال ذلك رغاء

ثم ينتقل من تسفيه شكوى التظليين إلى تهديدهم مائيا بذلك تبعه الحرب
وويلاتها عليهم .

فيقول : أيها الناطق عند الملك الذي يرب القول ، ويفترى علينا الكذب لا تحسبنا
جازعين لإغرائك الملك بنا ، فإن ذلك لن يقدح في أمرنا كما لم يقدح إغراء غيرك فيه ،
فبقينا - على بنضك لنا - في عزة ثابتة وحصون منيعة تحمينا من أذاكم ومكركم ، ولقد
أعمت عزتنا قبل يومنا الذي تمنح به عيون أعدائنا ، فنحن في منعة تجعل الدهر إذا
رمانا بأحداثه لا يؤثر فينا ولا ينال منا كأنما يرى جبلا عاليا بعيد المنال . فلتكونوا
واضحى المقاصد ، واكشفوا عن مرادكم ، وأي طريقة تجرون عليها في خصومتنا
فوضوا فيها سادنكم وسفراءكم وليأتوا إلينا لتبأحث فيها ، فإن أردتم أن تثيروا ما كان
بيننا وبينكم من القتل والأسر في المارك التي كانت بين أهل مدعة وأهل الصائب
ظهر لكم ماتكرهون ، وإن دققتم في البحث والاستقصاء في تلك الأحداث ، فإن ذلك
مع ما فيه من المشقة والكلفة يفضي بنا إلى صلاح أمورنا ، إن سكتكم عن ذلك فإننا
فصكت كذلك وتناسى ما كان على ما فيه من مرارة لأن الحق في جانبنا ، أما إن رفضتم
مالسألون فيه من الصالح والتراضى ظنا مسكم أن بمقدوركم إهانتنا فأنتم مخطئون فقد
علمتم معالمنا وحفظنا لأنفسنا أيام كان الناس ينهب بعضهم بمضا ويفير بعضهم على بعض
وفي كل حي صياح ، ولتدكروا ما قلنا حين طويبا ما بين البحرين والحساء إشارة على
للقبائل وأسرا النساءهم واتهاجا لأموالهم ، فلم ينبج أحد منا ولم يوقفنا عن ذلك إلا
دخولنا في الأشهر الحرم :

أيها الناطق الرقش عنا عند عمرو ، وهل لذلك بقاء؟ (١)

لا تخلنا على غرائك إنا قبل ماقد وشى بنا الأعداء (٢)

(١) الرقش بكسر القاف المشددة : المزين للقول بالباطل .

(٢) الغرات بفتح الغين والراء : اسم مصدر من الإغراء .

فبقينا على الشاة تنميه
 قبل ما اليوم بيضت بيون ال
 وكان للنون تردى بنا أر
 مكفهر على الحوادث لآر
 أيما خطة أردتم فادو
 إن نبشتم ما بين ملحمة فالصا
 أو نقشتم فالنقش يحشمه لنا
 أو سكتم عنا: فكنا كمن أع
 أو منتم ما تسألون فن حد
 هل علمت أيام ينتهب لنا
 إذا رفنا من سقف البيه
 ثم ملنا على تميم فأحرمه

نأحصون وعزة قساء (١)
 ناس فيها تميظ وإباء (٢)
 عن جونا يجاب عنه القاء (٣)
 توه للدهر مؤيد صماء (٤)
 ها إلينا تمشي بها الأملاء (٥)
 قبيه الأموات والأحياء (٦)
 س، وفيه الصلاح والإبراء (٧)
 مض عينا في جفنها أفداء
 تموه له علينا الصلاء (٨)
 س غوارا، لكل حى عواء (٩)
 رين سيرا حتى نهاها الحساء (٩)
 نا وفينا بنات مر إماء (١٠)

- (١) الشاة: البنض، تنمينا: ترفنا، القساء: الثابتة .
 (٢) ما: زائدة، بيضت بيون الناس: بيضتها أى أعمتها، والتميط - بفتح الميم
 وضم الياء المشددة - الترميع والإباء .
 (٣) النون: الدهر، تردى - بكسر الهمزة - ترمى، والأرعن: الجبل الذى له حدود
 وأطراف تخرج عن معظمه، والجون الأسود، يجاب عنه: ينشق عنه، الماء: السحاب الأبيض .
 (٤) المكفهر: الغليظ المترالكب بعضه على بعض، لا ترفوه: لا تنقضه، والمؤيد بضم
 فسكون فكسر: الشديد الأيد أى القوة، ويى به الدهاية .
 (٥) الخطة: الأمر يقع بين القوم، الأملاء جمع ملاء: الأشراف والرؤساء .
 (٦) ملحمة بكسر الميم: مكان، الماقب: جبل، إن نبشتم: إن أترتم ما كان بيدينا .
 (٧) نقشتم: استقصيتم، يحشمه بفتح الشين: يتسكفه على مشقة .
 (٨) غوار بكسر اللين: مغاورة بعض على بعض .
 (٩) رفنا الجمال فى السير: سرنا سيراً رفيعاً، والحساء جمع حسى: الرمل يكون
 الماء تحته قريباً، ويريد به مياه لبني فرارة .
 (١٠) أحرمتنا: دخلنا فى الأشهر الحرم فامتنعنا عن تناولهم، مر: أبو تميم .

لا يقم العزيز بانبيـه السم ل ، ولا ينفع القليل المنجاء (١)
ليس ينجى موثلاً من حذار رأس طود وحررة رجلاء (٢)

ثم يخلص من ذلك إلى الحديث عن المنذر بين ماء السماء وتماونهم معه ، منتقلاً إلى استعراض مواقف التغليبين التي تحسب عليهم ، مذكراً بين الحين والحين بما كان لهم من مواقف في مؤازرة المنذر وعمرو بن هند ، موضحاً بذلك صورة للتغليبين والبكرين التي تكشف عن غدر التغليبين وسوء مقصدهم وعداوتهم للملك ، في حين تكشف عن وفاء البكرين وحسن نواياهم وإخلاصهم للملك . وبذلك بلغ إلى ما يريد من نفس عمرو بن هند ، وتمكن من تحويله من جانب التغليبين إلى جانب قومه ، فكان المحامي البارع الذي عرف من أين تؤكل الكتف ، وسار في قصيدته بخطوات ثابتة على طريق واضح ، معتمداً على الحقائق والأحداث الواقعية في إقامة حججه وتفنيده آراء خصومه وتمديد مفاخره ومفاخر قومه ، والوصول إلى قلب وعقل عمرو بن هند .



نعم كانت خلائق الفروسية البدوية هي التي واجه بها الحارث بن حنزة الموقف هنا فحق النصر وعاد مرفوع الرأس معزواً مكرماً . بيد أن مظاهر الفروسية لم تقتصر لديه على ذلك ؛ إذ نراه في موطن آخر فارس الصيد والحرب والجود ، وذلك في قوله :

طرق الخيال ولا كلية مدلج سدكا بأرحلنا ولم يتمرج (٣)
أني اهتديت وكنت غير رجيلة والقوم قد قطعوا متان السجسج (٤)

(١) النجاء : الإسراع والفرار .

(٢) الموائل : الذي يطلب موثلاً يهرب إليه ، الحررة : كل موضع فيه حجارة سوداء ، والرجلاء : الصلبة الشديدة .

(٣) أدلج القوم : ساروا ليلاً ، سدكا بفتح فسكسر : ملازماً ، لم يتمرج : لم يعمل .

(٤) الرجيلة : اللقوية على المشي ، متان بكسر الميم : ظهر ، السجسج : الأرض

الواسمة ليست بسهولة ولا صلابة .

والقوم قد آتوا وكل مطبم	إلا مواشكة البجا بالهودج ^(١)
ومسدامة قرعتها بمسدامة	وطباء محنية ذعرت بسمهج ^(٢)
فسكانهم لن لآلى وكأنه	صقر يلوذ حمامه بالموسج ^(٣)
صقر يصيد بظفره وجناحه	فإذا أصاب حمامة لم تدرج
ولئن سألت إذا الكتيبة أجمعت	وتبينت رعة الجيمان الأهوج ^(٤)
وحسبت وقع سيفنا برء وسهم	وقع السحاب على الأطراف المشرح ^(٥)
وإذا اللقاح تروحت بعشية	رتك النعام إلى كنيف المرفج ^(٦)
الفيتنا للضيف خير عمارة	إن لم يكن لبن نمطف المدمج ^(٧)

والبيئة البدوية لا تظهر آثارها في أخلاقيات الحارث فحسب، بل هي إلى ذلك تظهر في صوره التي جمع فيها بين الصور الابتكارية من حيث المرض المستعصى للحدث ، وتقديم الموقف متحركا حيا ، كما رأينا. في معلقته يمرض الأحداث والمواقف التي نشأت بين قومه وخصومهم - وبين الصور التفسيرية التي اعتمد فيها على التشبيه والاستمارة المنتزعة من البيئة البدوية ، ونظهر في ألفاظه الجزلة للقوية التي تتردد بين الحشونة والسهولة ، وفقا لما يتطلبه الموقف ، ولعل ذلك يتضح من ألفاظه في المعلقة وألفاظه في

- (١) آن القوم يشينوا : تمبوا ، والمطى جمع مطبه : ما يركب من الهواب ، مواشكة مسرعة السير ، والنجا بفتح النون : الإسراع .
- (٢) قرعتها : نثيت كأسها بأخرى ، المحنية : منمطف الوادى ، السمهج : الفرس الطويل .
- (٣) الموسج : شجر شائك .
- (٤) أجمعت : أقدم على الحرب ، الرعة : الخوف ، الأهوج : الأحمق الطائش .
- (٥) الأطراف بكسر الطاء : بيت من آدم وهو من بيوت الأعراب . شرح الحباء أو الثوب وأشرجه : أدخل بعض عراها في بعض وشدها .
- (٦) اللقاح جمع لقحة : الناقة الحلوب ، رتك النعام بفتح الراء وسكون التاء : خطو النعام ، وهو خطو متقارب ، الكنيف : السائر ، والمرفج : شجر .
- (٧) العبارة بكسر العين : للشعبة من القبيلة ، المدمج بضم فسكون ففتح : القدح بكسر القاف وسكون الدال ، يعنى إذا لم يكن لبن فميل إلى القدح تجمال على الجزور لتتحر للضيف .

جيمته التي ينخر فيها ، كما تظهر في إيجازه القدي كان من أبرز خواص شعره ، ويكفي أن نردد النظر في شعره لنتأكد من ذلك ؛ إذ قلما نجد بيتا لا يحتاج إلى شرح مستفيض حتى إن علماء البيان يستشهدون بأحد آياته على الإيجاز الخلل ، وهو قوله :
والعيش خير في ظلال النوك بمن عاش كدا^(١)

يريد أن يقول : « والعيش الناعم في ظلال الخلق خير من العيش الشاق في ظلال العقل » ، وواضح أن ألفاظ البيت لا تنفي بالمعنى المراد .

(١) النوك بفتح فسكون : الخلق ، السكد : التعب .

٣ زهير بن أبي سلمي

نشأته وحياته :

هو زهير بن أبي سلمي ربيعة بن رياح المزني نسبا ، النطفاني مولدا وموطنا ، فأبوه ربيعة من قبيلة مزينة ، وروى أن ربيعة هذا خرج وخاله في ناس من بني مرة بن عوف يغيرون على طيء ، فأصابوا نهما كثيرة وأموالا ، فرجعوا حتى انتهوا إلى أرضهم ، فقال أبو سلمي لخاله وابنه : أفردا لي سهمي ، فأبيا عليه ومنعاه حقه ، فتناصبهم وخرج بأمه إلى بني مزينة ، فلبث فيهم حيناً ، ثم أقبل في جماعة من مزينة منيرا على بني ذبيان ، ولكنهم ما كادوا يتوسطون ديارهم حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده ، فأقبل حتى دخل في أخواله ، ولم يزل في بني عبد الله بن غطفان ، ومن ثم ولد له زهير وأولاده في بني غطفان (١) . ولعل في هذا تفسيرا لاضطراب الروايات في نسب زهير .

وكانت مزينة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية ، بين وادي القرى الواقع غربي نجد وبين نهامة الحجاز ، أي في الشمال الغربي من المدينة ، على مقربة من البحر الأحمر ، شرقي مدينة يلبع

أما غطفان فكانت في الجزء الشمالي من نجد في مكان يسمى العاجر (٢) .

ولا نستطيع أن نجزم بشيء عن مولد زهير وحياته الأولى ، وكل ما نستطيعه أن نتعرف على ميلاده على سبيل التقريب من بيت له في مملته يقول فيه :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا - لا أبالك - يسأم

فذلك يدل على أنه حين قال مملته تلك كان في نحو الثمانين من عمره ، فإذا لاحظنا أنه قالها في مدح من سميا في الصلح بين عيس وذبيان ، في أواخر حرب

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٩١ وما بعدها طبعة دار الكتب .

(٢) راجع كتاب الأصنام لابن السكبي .

داحس والعبراء التي يرجح أنها انتهت بين سنتي ٦٠٨ ، ٦١٠ م . كان باستطاعتنا أن نقدر ميلاد زهير في سنة ٥٣٠ م . وهذا يعني أنه نشأ في أخرىات العصر الجاهلي .

وقد أقام زهير في بني مرة سيدا مكروما مسوع الكرامة ، وكان كثير المال ، ومع ذلك فلم يؤثر عنه شيء يهاب به في خلقه ومسلكه ، فلم يعرف عنه أنه قامر ، أو شرب خمر ، أو صاحب طائشا فارغا ، بل كان عيوفا عن كل ما يلتصص خلقه ، أو يهاب به إلى حد المبالنة في الجد والتوقر .

ونبحث عن السر في ذلك ، ونقلب صفحات حياته ، فلا إستوقفنا منها في هذا الصدد إلا تتلذه على أوس بن حجر زوج أمه ، الذي يقول عنه الرواة بأنه كان كثير الوصف لمكارم الأخلاق^(١) . وإلا نشأته في ظل خاله بشامة بن الندير الذي كان مقعدا ناضج الرأي ، حازما . يرجع إليه في المضلات ، ويؤخذ برأيه في الشدائد ، من هذين منح زهير خلقه المحمود ، فلم يؤثر فيه تراؤه ، ولم يخدمه عن واقعه مكانه من أهله وعشيرته .

ويبدو أنه إلى ذلك عاش مستقرا هادئا ، فلم ينفص عليه حياته منحص ، ولم يخرجه عن أخلاقياته مؤثر ، وكما اختلف في تاريخ ميلاده ، اختلف في تاريخ وفاته ، فقد تضاربت الروايات في ذلك ، من ذلك مارواه صاحب الأغاني أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى زهير وله مائة سنة ، فقال : « اللهم أعذني من شيطانه » فمالك بيتا حتى مات^(٢) . وهذا يعني أنه أدرك سنة ٦٣٠ م الموافقة للسنة التاسعة للهجرة ، وذكر ابن قتيبة أنه كان جاهليا لم يدرك الإسلام^(٣) . وذكر البغدادي أنه مات قبل البعث بسنة ، والمرجح أنه لم يدرك الإسلام .

شعره :

أتبع زهير في ميدان الشعر ما لم يتبع لغيره ، مما كان له أبعاد الأثر في طبعه على الشعر وصقله فنيا ؛ فقد أحيط في بيته بأسرة شاعرة حرمت فيه نوازع الشعر ، وعملت

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٤١ .

(٣) الأغاني ج ١٠ ص ٢٩١ .

على غرس موهبة الشعر فيه منذ طفولته، فقد كان أبوه شاعرا، وخاله بشامة بن الغدير النطفاي شاعرا، وكان أخته سلمى والحناساء شاعرتين . وكما أتيح له أن ينشأ تلك للنشأ الفنية أتيح له أن يصل تلك الموهبة ويهذبها ، فقد تزوجت أمه من أوس بن حجر ، فكان زهير أستاذا موجهها ، وكان زهير له تلميذا وراويه ، فلم يكن مجرد راويه ، ل كان التلميذ الناقد المتأثر المحتذى .

ولم يقف أمره عند ذلك الحد ، فقد أتجه إبناه كعب ويحجر إلى الشعر ، وانتقل منهما إلى حفيده عقبة بن كعب المعروف بالضرب ، الذي أخذ عنه ابنه العوام ، فتحقق بذلك زهير اتصال الشعر في بيته على مدى خمسة أجيال متوالية ، قال ابن قتيبة : يقال إنه لم يصل الشعر في ولد أحد من النعمول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير (١) .

ومضى هذا أننا مع شاعر عاش للشعر ، بدأ حياته معه تلميذا ، وختما أستاذا مملما ؛ كان من أبرز تلاميذها - غير ابنه - الحطيئة .



وطى الرغم من أن زهيراً نشأ وعاش في بيئة بدوية إلا أن تراءه وفر له بيئة مترفة منعمة جمات منه الإنسان المطمئن الهادئ الوادع المتوقر ، فلم يفلت من يده زمام لسانه ليقول ما يصح وما لا يصح ، أو ليقول ما قد قال ، ولكنه كان المتروى فيما يقول ، ينظر فيه ويسيد النظر ، ويرجع إليه بالتنقيح والتهديب حتى لسكانه يتميد في محرابه ، الأوس الذي جعل النقاد يطلقون عليه وطى أمثاله لقب (عبيد الشعر) ، يقصدون بذلك البطء في قول الشعر ، ومما ردة حقه ، وإطالة التفتيش فيه ، قبل أن يظهره للناس ويذميه بهم ؛ ولذلك قال القدماء عنه : إنه عمل سبع قصائد في سبع سنين فكأنت تسمى حوليات زهير ؛ لأنه كان يحويك القصيدة في سنة (٢) . ونسب الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه ، فقال : « كان زهير بن أبي سلمى يسمى كبار قصائده بالحوليات ، ولذلك قال الحطيئة : خير الشعر الحولى المحكك ، وقال الأصمى :

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٣٧ .

(٢) الخصائص لابن جني ج ١ ص ٣٢٤ طبع دار الكتب المصرية .

زهير بن أبي سلمة والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جـ - ود في شعره ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات التصيدة كلها مستوية في الجودة (١) .

وهذا المسالك من زهير في شعره يعني أنه إنسان يشمر بمسئوليته عما ينسب إليه ، فهو يقدر المسئولية قدرها ، ويعمل كل ما وسعه العمل لينخرج عمله صحيحا مستقيا .

* * *

ولم يكن منهج زهير في شعره هو كل ما أُرثه بيئته الخاصة فيه ، فقد ، وضع أثر بيئته كذلك في فنونه الشعرية ، فلم يقل إلا في الأغراض التي تتلاءم مع ذوقه الخاص ، فسكاد يقصرها على الديبج والوصف والحكمة .

وهو في مدبجه يختلف عن غيره ، فهو لا يمدح إلا على مسلك محمود ، أو خلق كريم ، أو موقف فيه بطولة ؛ ولذا لم يخرج بمدائحه عن موطنه العربي ، فلم يتصل بمدائح العراق أو الشام ، ولم يمدح إلا من وجه خيره إلى صالح قبياته ، ولذلك كانت أكثر مدائحه وأفضلها في هرم بن سنان ، لأنه كان يحبه ويحمله ، وكان هرم يبره ويجزل له العطاء . وكذلك كان شأنه في مدح الحارث بن عوف حين آزر هرمًا وسميًا في الصلح بين عيسى وذيان ، وإنهاء الحرب التي طال مداها بينهما ، فأعلننا نحملمها ديات القتلى من القبيلتين حتى تضع الحرب أوزارها ، وتهدأ النفوس الشائرة . وتصادف في أثناء ذلك أن قتل الحسين بن ضمضم عبيسًا ليثار لأخيه هرم بن ضمضم الذي كان قد قتله ورد بن حابس العبسي ، فنارت عبس من جديد ، وشهرت سيوفها ، ولكن الحارث بن عوف أسرع إليهم وقدم مائة من الإبل مع ابنه ليختاروا إما الهدية وإما قتل ابنه نأرا لقتيلهم ، فقبلوا الهدية ، وواصلوا إتمام الصلح ، حتى أخدمت النيران السمرة ، ويملك هذا الموقف على زهير حسه ، فينطلق أسانه بمطلقته مشيدا بذلك المسلك النبيل ، لا هجاء بالثناء على السيدين لما قدما للقبيلة من فعال تذكر لها ، مسترضيا للحرب وأخطارها ، كاشفا عما تنطوي عليه من كوارث لكلا الطرفين المتحاربين :

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٣ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

سمى ساعيا غيظ بن مرة يمدها - تبرل ما بين المشيرة بالدم (١)
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال نوه من قریش وجرم
يمينا لنعيم السيدان . وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم (٢)
تدار كما عبسا وذبيان بعدما فافوا ودتوا بينهم عطر ملثم (٣)
وقد قلتما : إن ندرك السلم واسما عبال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بيدين فهما من عقوق ومائم (٤)
عظيمين في عليا معد هديتا ومن يستبح كبرامن المجدي نظم (٥)
فأصبح يجرى بينهم من تلادكم منانم شتى من إفال المرسم (٦)
تمنى السكوم بالئين فأصبحت ينجدها من ليس فيها بمجرم (٧)
يجمها قوم لقوم نغرامة ولم يهريقوا يدهم ملء محجم

ثم يحض الأحلاف (أسد وغطمان وطىء) على الإخلاص في الصلح ، والتوفيق بين باطنهم وظاهرهم ، واصنأ الحرب وما تجره عليهم ما مبرزا إياها في صورة مرعجة مخيفة ، تبدو في صورة وحش مفترس ، وفي هيئة نار مشتعلة ، وفي صورة رحي تمر ك الاس ، ثم في سورة امرأة ولود ، ولـسكها لا تلبد إلا الشؤم الذين يجرون على القبيلة الحسار والبوار .

- (١) الساعيان الحارث بن عسوف ، وهرم بن سنان ، سعييا في الجملة ، وغيظ ابن مرة : حى من غطمان ، وتبرل بالدم : تشقق .
(٢) السحيل : غير المبروم .
(٣) ملثم : قيل هي امرأة عطارة من حزاغة نغمس قوم أيديهم في عطرها وتماهدوا على القتال حق يموتوا ، نصار هؤلاء مثل أولئك في شدة الأمر .
(٤) خير موطن : خير منزلة ، والمهوق : قطعة الرحم .
(٥) عليا معد : رؤساؤها وأشرافها ، ويمعظم بضم الياء وكسر الظاء : يجيء بأمر عظيم ، وروى ويمعظم بفتح وضم : بصير عظيما .
(٦) الإفال جمع أفيل : اللصلان . والمزني : المعلم .
(٧) تمنى : تمنى ، السكوم : الجراحات ، والمئين : الإبل .

ثُمَّ مَبْلَغُ الْأَحْلَافِ عَنِ رِسَالَةِ وَذِيانٍ : هَلْ أَقْتَمْتُمْ كُلَّ مَقْتَمٍ
فَلَا تَكْتُمُنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يَكْتُمُ اللَّهُ يَكْشِفْهُ
يُؤَخِّرُ مَبِوَضِعٍ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يَجْعَلُ فَيَنْقَمُ
وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ وَمَا هُوَ عِنْدَ الْحَدِيثِ الْمَرْجُمِ (١)
مَقَى تَبِعْتُمُوهَا تَبِعْتُمُوهَا ذَمِيمَةٌ وَتَصْرُ إِذَا ضَرَبْتُمُوهَا تَضْرِمُ (٢)
تَمْرُكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِثِقَالِهَا وَتَلْقَحُ كَشَافًا ثُمَّ تَحْمَلُ فَتَنْمُ (٣)
فَتَنْتِجُ لَكُمْ عِلْمَانَ أَشْأَمَ ، كَلِّكُمْ كَأَحْمَرَ عَادٍ ثُمَّ تَرْضَعُ فَتَنْطَلِمُ (٤)
وَتَنْتَلِ لَكُمْ مَا لَا تَنْتَلِ لِأَهْلِهَا قَرَى بِالْمَرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدَرَاهِمِ (٥)

ولا يقف الشاعر عند ذلك الحد من التصوير المنهر من الحرب ، الكاشف عن
فصل هذين السيدين فيما صمما ، ولكنه ينتقل إلى الحديث عن ذلك الشاد الخارج عن
الجماعة مبيدنا ما سيجر إليه قومه من وحم العاقبة

تم يخلص من ذلك إلى الحديث الصريح عن ممدوحيه ثانية ، مظهرا ما لهم من
فضل على القبيلتين فيما قدموا ، دون أن يكون لهم في الأمر سبب أو نشب ، فهم
متطوعون متبرعون .

وفي سبيله إلى التأثير على سامعه ، والوصول بما قرر إلى أعماق نفوسهم ، يختم
مطلوته بالكشف عن وصوله إلى سن الحكمة ، والتجربة ، نائرا في أثناء ذلك طائفة
من حكمة التي تجمع خلاصة آرائه وأحكامه وتجاربه :

سئمت تكاليف الحياة ومن ييش ثمانين حولا - لا أبالك - إسأم

(١) المرجم : المطون .

(٢) تبعثوها : تهيجوها ، تضر : من صرى الأسد إذا تهبأ الفريسة ، تضرم : تشتعل .

(٣) تمركم : تطحنكم ، الثمان بكسر التاء : جلد يجمل تحت الرحى حين تطحن

تلقح كشافا : تحمل كل عام ، تنم : تلد نرأما .

(٤) أشأم : مشثوم .

(٥) القفير : مكبال عراقي .

رأيت المدايا خبط عشواء من تصب
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله
ومن لا يصانع في أمور كثيرة
ومن يك ذا فضل ويبتخل بفضله
ومن يجعل المروف من دون عرضه
ومن لا يند عن حوضه بسلاحه
ومن هاب أسباب المنايا ينله
ومن يهص أطراف الزجاج فإنه
ومن يوف لا يذمهم ومن يفض قلبه
ومن يفترب يحسب عدوا صديقه
ومهبأ تسكن عند امرىء من خليقة
ومن لا يزال يستحمل للناس نفسه
تنته ومن تحطىء يصر ويهرم (١)
لكننى عن علم ما في غد عم
يضرس بأنياب ويوطأ بمنس (٢)
على قومه يستغن عنه ويذمم
يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم (٣)
يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
ولو نال أسباب السماء يسلم
يطيع الموالي ركبت كل لهدم (٤)
إلى مطائن البر لا يتجمعجم (٥)
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
وإن خالها تخفى على الناس تعلم (٦)
ولم يفنأ يوطأ من الناس يسأم (٧)

لقد كان زهير في مدائح السيد الشريف السرى الذى لا يمدح إلا على شريف ؛
فهو في مدحه لا يناق ، وإنما هو يخدم مبدأ يؤمن به ، ويحرص على ذبوعه وانتشاره
أى أنه يمدح سلوكا مثلا فيمن يقوم به حاضا بذلك من يقوم بهذا المسلك على الاستمرار
عليه ، وحاتا غيره على التقليد فيه ؛ فهو صاحب رسالة أ كثر منه فاجرا يتكسب بمناقته
من يستحق المدح ومن لا يستحقه .

(١) خبط عشواء : تأنى على غير بصيرة .

(٢) يضرس بتشديد الراء المفتوحة : يعض ، والملمس بفتح الميم وكسر الحين :

البعير مثل الظفر للانسان .

(٣) يفره مضارع وفر عرضه : حماه وصانه

(٤) الأرج بضم الراءى : مالا يطمئن به من الرمح ، واللهندم : بفتح اللام والذال ،

الماضى ، يقول : من عصى الأمر الصغير صار إلى الأمر الكبير .

(٥) البر : الصلاح ، والتجمعجم : التردد .

(٦) الخليقة : الطبيعة والسليقة .

(٧) يريد : من لا يزل يثقل على الناس ويستحملهم أموره استثقلوه وسئموه .

ومن ثم فهو في مديحه حريص على الاعتدال في ثنائه ، دقيق في التعبير عما في نفسه ، واضح في إبراز ما يرضيه وما يسخطه ، مقتصد في القول فلا يسرف ولا يفلو . وهذا ملاحظه قديما عمر بن الخطاب فقال : هو أشعر الشعراء لأنه كان لا يماطل (١) في الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه (٢) .

وكذلك كان في وصفه الدقيق المتمكن من لنته ، البصير بأبعاد ما يصف الذي يقع من الصفات على ما يتطلبه الموقف ، فيقدمه في عبارات مصورة تجمع بين الخيال الابدكارى والخيال الوصفى أو الإضافى ، ونظرة إلى وصفه للحرب في مطولته التي سبق ذكر أبياتها - اتريك الشاعر في هذا المنهج الوصفى ، كما تراه في وصف بعض مظاهر الطبيعة .

حيث يصف مطرا تساقط على بعض المرتفعات ، بينما هو مقبل مع بعض رفاقه على فرس محكم الخلق ، شديد قوى لم يصبه مرض يحوجه إلى علاج البيطرى . وينقلنا في حركة قصصية إلى مشهد الصيد، فيصور كيف جاء الغلام الذى كلف باستطلاع الحيوانات متخفيا مستترا ليده بالصيد الذى رآه ، ومن ذلك يأخذ في وصف الصيد الذى رآه الغلام غير بعيد : ثلاث آتن وحشية ، ضامرة كأفواس السراء ، ومعها حمارها الذى أقبل على الطعام من الثبات حتى اخضرت مشاهره . ثم ينتقل من ذلك إلى وصف رفاقه معه قبل مواجهة الصيد في دقة دقيقة لا تنقل هاجسة من هواجسهم في هذا الموقف التأهب المتحفز المتخفى ، فهم منذ أجبرهم الغلام يسيطر عليهم الحرص على اقتناص الصيد ، وقد أحس الفرس بذلك منهم وانتقل إليه منهم ما هم فيه فأصابه الاضطراب كذلك وأخذوا يجاهدونه وهو يجاهدهم حتى تمكنوا منه وأحضوه ، فبدأ - من هيئته الجسدية - مطمئنا ، لكنه ما زال يستحود عليه الفزع والخوف الشديد؛ فاصلا بذلك بين الهيئات الجسدية والأحوال النفسية وكما صور أحوالهم وأحوال جوادهم ، صور حال الغلام وكشف ما يعمل في نفسه فيشمله عن وصاته له في مطاردة الصيد ،

(١) يماطل الكلام : يحمل بفضه على بعض ، ويتسكلم بالرحيغ من القول، ويكترز اللفظ والمعنى ، أو يمتده ويوالى بفضه على بعض ، وكل شيء ركب شيئا فقد عاظله .

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٨٩

ثم يرينا صورته وهو منصب على الأذن وحرارها انصباب الشؤبوب ، ولكن الآن
تثير الحصى في وجهه فرارا منه ، غير أن ذلك لا يموق عن اللعاق بها وتمكنه من
إفراذ الحمار من صواحيبه ، وعوده به جريحا ينزف دمه :

وغيث من الوسمى حو تلاعه	أجابت رواييه النجاء هواطله (١)
صبحت بمسود النواشر سابح	بمر أسيل الخدنهد مراكله (٢)
أمين شظاه لم يخرق صفاه	بنقبيه ولم تقطع أباجله (٣)
قليل علفناه فأكل صنعه	فتم وعزته يداه وكاهله (٤)
إذا ما غدونا نبتنى للصيد مرة	متى نره فإننا لا نحائله (٥)
فبيننا نبنى الوحش حاء غلامنا	يدب ويخفى شخصه ويضائله (٦)
فقال : شياه راتعات بقرة	بمأسد القرين حومسايه (٧)
ثلاث كأقواس السراء ومسحل	قد احضر من لس الغمير جحائله (٨)

(١) الوسمى - أول المطر ، حو بضم الحاء : تضرب إلى السواد من شدة خضرة
نبتها ، والتلاع : مسيل ما ارتفع من الأرض إلى بطن الوادى ، النجاء بكسر الون
جمع بجوة : المسكان المرتفع ؛ المواطل جمع هاطلة : المواطر .
(٢) صبحت : أتيت غدوة ، المسود : شديد القتل ، النواشر جمع باشرة : عروق
باطن الذراع ، ممر : شديد القتل ، أسيل : ناعم أو طويل ، نهد : ضخم ، المراكل
جمع مراكل : جنيا الفرس حيث يركله الفارس بركله .
(٣) الشظى : عظم مازق بالذراع ، الصفاق بكسر الصاد : الجلد السفلى تحت
الجلد الذى عليه الشعر ، والمنقبة : حديدة ينقب بها البيطار ، الأباجل جمع أبجل :
عروق نى اليد .

(٤) عزته : قوته ، السكاهل : مجتمع السكتفين هى أصل المنق .
(٥) محائله : تحدهه (٦) نبتى بضم الون وفتح الباء : نبتنى ، يضائل : يصخر .
(٧) الشياه هنا : الحخير ، الميت المستأسد . الذى طال وتم ، والقرين بضم القاف
جمع قرى بفتح القاف وكسر الراء : مجارى الماء إلى الرياض ، الحو : الضارب إلى السواد .
(٨) السراء بفتح السين : شجر تصنع منه القسى ، ناشط : يخرج من بلد إلى بلد ،
الغمير : نبت يطول ثم يصيبه مطر فيخرج تحته نبت أحضر ويكون غميرا لهذا الطويل
أى منمورا ، والس بفتح اللام : الأخذ بمقدم الفم .

وقد خرم الطراد عنه جبحاشه
 وقال أميري: ما ترى رأى ما ترى
 فبتنا عراة عند رأس جوادنا
 منضربه حق اطمأن قذاله
 وما جئنا ما إن ينال قذاله
 فلأيا بلأى ما حملنا وليدنا
 عقلت له : سدد وأبصر طريقه
 وقلت : تعلم أن للصيد غرة
 فأتبع آثار الشياخ وليدنا
 نظرت إليه نظرة فرأيت
 يثرن الحصى في وجهه وهو لاحق
 فرد علينا العير من دون إلفه
 فلم يبق إلا نفسه وحلائله (١)
 أختله عن نفسه أم نساوله (٢)
 يزاولنا عن نفسه ونزاوله (٣)
 ولم يطمئن قلبه وخصائله (٤)
 ولا قدماه الأرض إلا أنامله
 على ظهر محبوبك ظمأ مفاصله (٥)
 وما هو فيه عن وصاتي شاغله (٦)
 وإلا تضيعة فإنك قائله (٧)
 كشؤبوب غيث يحفش الأكم وابله (٨)
 طى كل حال مرة هو حامله (٩)
 سراع تواليه ، صياب أوائله (١٠)
 طى رعمه يدعى نساء وفائله (١١)

- (١) حرم : فرق . الطراد : الميادون ، حلائله : زوجته من الآن .
 (٢) أميري : الذي يؤمرني ويستشيرني . نساوله : نجاهمه .
 (٣) عراة : متجردين للفرس من صعوبة ، يزاولنا : يجذبنا .
 (٤) القذال بفتح القاف : موضع العذار وهو أرفع مكان في رأسه ، والخصائل جمع خصيلة بفتح الخاء .
 (٥) محبوبك : مدمج ، ظمأ مفاصله : ليست مترهلة .
 (٦) سدد : قوم صدره لا تمل عينه ولا يسرة .
 (٧) غرة : عقلة .
 (٨) الشؤبوب : الدفعة الأولى من المطر ، يحفش : يسيل ما فيها ويخرجه .
 (٩) يقول : نظرت إلى الفرس فرأيتَه والسلام يحمله من السير طى كل حال مما أحب أو كره .
 (١٠) التوالى : الأواخر يريد رجله وعجزه ، والأوائل : يدها وصدره وصيابه جمع صائب : قاصدة .
 (١١) رد العير : قطعة من إلهه ، نساء : عرق في رجله ، والفائل : عرق في الفم .

وهو كما ترى وصف قصصى ، يعتمد فيه الشاعر على حس دقيق ، ونظر متفحص .
فيقدم لوحة حية ، ترى فيها الحركات ومشاهد الطبيعة بألوانها ، وتسمع الهمس كما تسمع
الصياح ، بل تسمع حديث النفس وتلمح الأحاسيس والشاعر بادية على الوجوه ،
ظاهرة في التحركات .

والناظر في هذه اللوحة يرى ذقة الشاعر وبراعته في ملاحظة للمشاهد والأحداث .
والوقوع على المواقف ، وإدراك الأحوال النفسية ، وحشد ذلك كله مستخدما في ذلك
كل وسائل التصوير التي كانت تسلفه بها قريحة فنية متيقظة ، وذهن متوقد للمح يهديه
إلى مكنونات الصورة ، ونظمه في سلك واحد فيرسمها كما يراها ، أو يبرزها من خلال
نظيرها وعيبتها .

ولعل أنارة زهير ورويته لها دخل كبير في تميزه في ذلك السبيل .
كما أعانته ظرونة البيئية على هذا المسار الوصفي ، مكنته كذلك من تحويل المعنويات
إلى مادة فلس وتري . فبهش لها أو ينفر منها ، كما بدا ذلك في حكمة التي لا تسكاد
تخلو منها قصيدة من قصائده ، والتي استطاع بها أوتيه من مقدرة فنية أن ينفث
خبراته للكثيرة المتنوعة في الكلمات المحدودة فإذا بها حبة تركزت فيها كل
هناصر الملاج .

* * *

تلك كانت أم فنون زهير الشعرية ، أو بتعبير أدق : كانت الفنون التي قال فيها عن
طبع وسجية ، بيد أنه إلى ذلك اضطر إلى الهجاء فانبعث يسه على تردد وتوفر ، فلم
يلجأ باب الهجاء إلا دفعا لمعتد ينوشه .

من ذلك ما روى أن الحارث بن ورفاء الصيقلوى من بني أسد أغار هو وقومه
على بني عبد الله بن غطفان وأخذوا إبل زهير وراعيه يسارا ، فأندبهم زهير في
شئ غير قليل من اللين وضبط النفس ، وضمن إنذاره ذلك كافيته المشهورة التي
يقول فيها :

يا حار لا أرمين منكم بداهية لم ياهها سوقة قسلى ولا
فأردد يسارا ، ولا تعنف على ولا تمك برضائك (بأذر الملك) (١)

(١) الملك يسكون العين : المثل ، وبكسرهما : المطول .

ولا تكونن كأفوام علمتهم يلوون ما عندهم حتى إذا نهكوا (١)
 طابت نفوسهم عن حق خصمهم عخافة الشر فارتدوا لما تركوا (٢)
 تعلماً ها لعمر الله ذا قسما فاقصد بذرعك وانظر أين تملك (٣)
 لئن حملت بجو في بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فذلك (٤)
 ليأتينك منى منطلق قدع باق ، كادنس القبطية الودك (٥)

وكما كان في مديحه واقعياً لا يمدح إلا بما هو كائن في الشخص ، كان كذلك في هجائه لا يتعرض إلا لما يعيبه في مهجو ، وهجاء من أجله ، فهو ليس إلا وسيلة يحقق بها غرضاً شريفاً ومقصداً نبيلاً ، كما رأينا في موقفه من الحارث ، وكما صنع مع بني عليم أحد أحياء كلب ، فقد روى أن رجلاً من بني عبد الله بن غطفان تزل بهم وكان مولماً بالقار ، فهو عه فأبى إلا المقامرة فقمر مرتين ، فردوا عليه ، ثم فمر الثالثة ، فلم يردوا عليه ، فانطلق إلى قومه زاعماً أنهم أثاروا عليه ، فقال زهير وبهم همزيتة المشهورة في هجائهم وفيها يستخف بهم ويتوعدهم في مثل قوله :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء
 فإن قالوا النساء محببات فحق لكل محصنة هداء

قال الأصمعي : فلما بانهم قول زهير بشوا الإبل إليه ، وأرسلوا إلى زهير يخبرونه بخبر صاحبه ، ويمتدرون إليه ، ولاموه على ما فرط منه ، فأرسل إليهم زهير : والله لقد فعلت وهجات ، وأيم الله لا أهجو أهل بيت من العرب أبدا .

-
- (١) نهك بضم فسكسر : شتم وبلغ منه في الهجاء .
 (٢) لما أوذوا بالهجاء دفعوا الحق إلى صاحبه وارتدوا إلى إعطاء ما كانوا تركوه .
 (٣) تعلماً منونة : اعلموا لعمر الله ذا قسما ، وها : للتنبيه ، الدرع : الاستطاعة ، والأنسلاك : الدخول في الأمر ، كأنه يقول : اقصد الأمر بما تملكه أنت لا بما يملكه غيرك .
 (٤) جو : واد في بني أسد ، وعمرو : ابن هند بن المنذر بن ماء السماء ، ودين عمرو : طاعته ، فذلك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة بسير الإبل .
 (٥) القدع : التبيح ، والقبطية : كل ثوب أبيض . الودك : الدسم ، يريد : لئن حملت بحيث لا أدركك تحت راية هذا الملك العظيم ليردن عليك هجري ، ولادنس من مرضك كما يدنس الودك القبطية .

وهكذا يتقرر لدينا بما لا يدع مجالاً للشك . أن زهيراً جعل من شعره وسيلة لإقرار السلام والحق والخير ، كما جعله معرضاً للذوق الرفيع ، والجمال الساحر .

* * *

وبماودة النظر في شعر زهير ، يتبين لنا أن شاعرنا كما كان متناسقاً في فنونه وأفكاره مع طبيعته وسجيته وبيئته ، كان متناسقاً في أساليبه والفاظه وصوره وموسيقاه . وفي سبيله إلى ذلك وجدنا الشاعر متمكناً من لغته ، مسيطراً عليها ، يلتقي منها أنسب اللفظ والعبارة ، حتى تصبح عباراته ماسقة منضدة ، تراءى أخاذة رائحة . وكما كان متمكناً من أمته كان متمكناً من موسيقاه ، فاستوفى من ضرورها ما يتلاءم مع موضوعه ، فلا تجدد في موسيقاه اشاراً من إقواء ، ولا نحس فيها إكراهاً يصيب الشعر بالجمود أو الاضطراب .

ومن ثم يجد الدارس في شعر زهير كثيراً من التناسق اللفظي الذي عرّفه علماء اللبيان فيما بعد باسم البديع من جناس وطباق كما في قوله :

هم يضربون حبيك البيض إذ لحقوا لا ينكسون إذا ما استلحموا وحموا^(١)

حيث جناس بين كلقى (استلحموا) ، و (حموا) ، وكما في قوله :

كان عيني وقد سال السليل بهم وجيرة مام لو أنهم أمم

فقد جناس بين (سال) ، و (السليل) ، وكما في قوله :

تقى نقي لم يكتر عنيمة بنهكة ذى القربى ولا بمقلد^(٢)
وقوله: وقد قلنا: إن ندرك السلم واسما
وقوله: رأى الله بالإحسان ما فعلنا بكم
وقوله: متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
بمال ومعروف من القول نسلم
فأبلاهما حير البلاء الذى يبلى
وتضر إذا صريرتموها فتضرم

(١) الحبيك - بفتح الحاء - الطرائق ، والبيض : الخوذة المستعملة في الحرب .

استلحموا : من التلاحم والمخالطة في القتال ، وحموا : اشتد غضبهم .

(٢) النهكة : الإضرار ، والمقلد - بفتح الحاء والقاف - البخيل السوء الخلق .

يقول : إنه لا ينمى ماله بإضرار أقربائه وظلمهم ، وليس ببخيل لثيم .

وحيث طابق وقابل في قوله :

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله
وقوله: رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ، ومن تخطى يعمر فيهرم
وقوله: يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
وقوله: وقد كنت من سلمى سلينا ثمانيا على صير أمر ما يمر وما يجلو (١)

بيد أن ذلك كله في شعر زهير لا يشعرك بأنه هناك إكراها للفظ ، ولا شذوذا
عن مألوف في التعبير ، فأنت مع زهير تشعر بالفوية في التصوير أو التجميل .
وفي الحق : أن شعر زهير يحتاج إلى دراسة مستوعبة فاحصة ، ليرى أسرار التفوق
التي لديه ، وتعرف على مظاهر ذلك في دقة واستقصاء .

(١) صير الأمر : منتهاه وما يسير إليه .

الشنفرى

نشأته وحياته :

هو ثابت بن أوس الأزدي ، ولقب بالشنفرى لعظم شفتيه ، وهو من عشيرة الإواس بن الحجر بن المناء بن الأزدي اليمنية ، وقيل إنه لم ينشأ بئسما ، فقد وقع أسيرا وهو صبي في بني شيبابة بن فهم ، فانتسب إليهم ، ولم يزل فيهم حتى أسر بنو سلامان ابن مفرج - من الأزدي - رجلا من بني شيبابة ، فلقبت بنو شيبابة هذا الرجل بالشنفرى ، وكان في بني سلامان لا تحسبه إلا واحدا منهم ، حتى أساء إليه رجل كان الشنفرى خطب إليه ابنته ، فنار عليهم ، ورجع إلى بني فهم ، وواصل إغاراته على بني سلامان حتى قتل منهم كثير .

وقيل إن سبب ثورته على بني سلامان أنهم قتلوا أباه ، فقرر أن يثأر له منهم ، وما زال على ذلك الحال حتى قتل منهم تسعة وتسعين ، فرصدوا له كميناً وقع فيه فقتل ومثلوا به .

وكان يصاحبه في كثير من غاراته تأبط شرا ، حتى قبل إنه هو الذى درب الشنفرى على الصلابة وقطع الطريق ، وما زال إلى جواره حتى أصبح له شأنه في ذلك الميدان (١) وتسكاد الروايات التى بين أيدينا تتفق في عدم تحديد زمن ولادته وزمن وفاته ، بل الجيل الذى عاش فيه ، بيد أن هناك من الشواهد التاريخية ما يرجع أنه عاش في الفترة القريبة من مجيء الإسلام في العصر الجاهلى .

ويردد الباحث نظره في منشأ الشنفرى فيجد أن المنشأ السكاني له كان في المنطقة

(١) الأغاني ج ٢١ ص ٨٧ طبع الساسى ، وخزانة الأدب ج ٢ ص ١٤ ، وذيل الأمالى ص ٢٠٨ وما بعدها ، وشرح الفضليات لابن الأنبارى ص ١٩٥ وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربى لبر وكرمان ج ١ ص ١٠٥ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

الجبيلية الواقعة بين مكة والمدينة ، والمعروفة بـجبال السراة . ويجد أن اللشأ الاجتماعى له كان بين قوم لا يترفون به واحدا منهم ، فكان مكانه منهم نايبا ؛ فهو منذ طفولته تضطره ظروفه ثم مجتمعه إلى أن يتقلب بين الحرمان والامتهان ، فأحس بـسراة الحياة ، وقسوة النذل منذ صباه .

وهكذا تتجمع المؤثرات التى تفرض على الشنفرى تفكيره وقيمه وسلوكه ، وتفرض عليه أسلوبه فى معالجة الأمور ، وأسلوبه فى التعبير عما يجيش بصدوره ، وما يضنط على حسه وشموه .

شعره :

واضح من حياة الشاعر ونشأته أنه صادف من ألوان القسوة وضروب الحشونة ما جعله يأوى إلى الجبال ، ويشذ على حياة الجماعة ، ويأنس إلى الصخر الأصم فرارا من صخر القلوب الى لفظته ، ويرتاح إلى القرب من وحوش اللذرات ؛ فهو ثورة عارمة على كل ما ورث وتعلم فى صباه ليس فى منهج الحياة فحسب ، بل فى منهج التعبير . من ثم يلاحظ الناظر فى شعره أنه أمام شعر ذى سمات وخصائص تختلف كثيرا عن شعر معاصريه .

هو شعر بدوى خشن غليظ الطباع ، يستمد معانيه وخيالاته من طباعه وأخلاقه ومن بيئة الحشنة الوحشة التى آثر الحياة الحرة فيها على حياة النذل والحمران فى مجتمع مستأنس .

وهو شعر فردى حر جريء ، لا بهاب أحدا ، ولا يخضع لقانون جماعة ، ولا يلتزم إلا بما تمليه عليه حياته . انه هو من قيود وعادات ، فهو فى ألفاظه ساذج لا يلبجأ إلى التهذيب ، ولا يضطر إلى الانتقاء ، وهو فى عباراته فطرى لا يعتمد التلسيق أو الزين .

وهو شعر نأثر خارج على ما اعتاده الناس من تقاليد مأثورة ، وعادات متوارثة ، فهو فى أسلوبه الشعرى متجاوز ما الرمه الآخرون من مطالع يبدأون بها مصاندهم ، أو أفكار بنتقلون بواسطتها إلى غرضهم الأصيل . . . ولكنه بتأثير ثوريته وفطريته لا يجد ما يدعو إلى التمهيد والتقديم ، بل هو - فى الغالب - يواجهك بموضوعه صريحا فى غير موارد ، واضحا فى غير عمل أو تصنع .

ثم هو شعر صعلوك فانك ، يقتل ويصلب ، فهو لا يفخر إلا بما يمارس ، ولا يمتز
إلا بما تقوم عليه حياته ، فهو إن وصف حياته ، وما يتصل بجزأه من غارات ومفاجآت
وقتل وتشريد وتأيم نساء ، وتبقيم أطفال . وهو إن خر ، خر بقيمة وبما ارتضاه
لنفسه من ألوان السلوك ؟ فهو يفخر بفقره وجوعه ، وحربته وإبائه وعزة نفسه ، وبما
اضطرته إليه حياته من إهمال لظافة جسمه حتى أصبح مشعث الشعر تدلق به الأوساخ
وأبمار الإبل ،

وقد تماثلت كتب الأدب أشعارا متفرقة له في الفخر والحماة ، ومن أشهرها
قصيدته اللامية المعروفة بلامية العرب ، وفي نسبتها إليه شك فقد نقل أبو علي الفاي
عن ابن دريد أنها من صنع حالف الأحمر (١) ، وقد كلف بشرحها كثير من الدارسين
العرب مثل اللبرد ، وثعلب ، والزمخشري ، والتمريزي ، والملكبرى ، وفيها يقدم
صورة حية ترى فيها حياته البدوية الوحشية ، وتشعر أنك تصاحبه في مفاخراته ومفاجآته ،
وليست اللامية هي القصيدة الوحيدة التي تقدم هذه الصورة من بين شعره ، بل هكذا
شعره كله ، مثال ذلك ما قاله في تائيته الطويلة التي جاءت في المفضليات يعرف إحدى
غاراته التي قام بها في جمع من الصماليك على سلمان :

وباضمة حمر القسي بمشها ومن يفتز بفتن مرة ويشمت (٢)
خرجنا من الوادي الذي بين مشعل وبين الجباء هيات أنشأت سريرتي (٣)
أمشي على الأرض التي لن تضرنني لأنسكي قوما ، أو أصادف حتى (٤)
أمشي على أين الغزاة وبمسدها يقربني منها رواحي وغسودتي (٥)

(١) الأملالي ج ١ ص ١٥٧

- (٢) الباضمة : القاطمة . ويريد بها رفاقه ، بمشها : غزوت بها ، حمر القسي : يقال
إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس : يخفق .
(٣) أنشأت : أظهرت من مكان بعيد ، السرية بضم السين وسكون الراء : الجماعة .
(٤) أسكي المدو بفتح فسكون مكسر : أمرمه ، الحمة بضم الحاء : المية .
(٥) الأين : التعب :

يشير في مبتدأ حديثه إلى أنه كان يقود الجماعة ويعرفهم الطريق الذي سلكوه ، كما يشير إلى أنهم كانوا في تلك الغارة راجلين • ولا يجحد غضاظة في أن يعترف بأن الغارة مرة له وأخرى عليه ، وهذا من السمات ، ولذلك فإخفاقهم في غزوة لا يعنى إحتجامهم عن معاودتها ، بل إن ذلك يدهمهم إلى إعادة الغارة ، لتحقيق المراد ، دون أن يكون لمشقات الطريق ولا لتوقع للوت أثر ، ثم يعصف ببعض ألوان الحياة التي تنتظم جماعتهم في أثناء تحركهم للغارة في صورة تكشف عن ترابطهم الأسرى بحيث يقوم أحدهم وهو تأبط شرا بدور الأم في البيت :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم	إذا أطعمتهم أو تحمت وأذات (١)
تخاف عليا الميل إن هي أكثرت	ونحن جياع ، أى آل تألت (٢)
مصمكة لا يقهر الستر دونها	ولا ترجى للبيت إن لم تبيت (٣)
لها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً	إذا آنت أولى المدى أقشمرت (٤)
وتأنى المدى بارزا نصف ساقها	تجول كبير العانة المتأنت (٥)
إذا فزعوا طارت بأبيض صارم	ورامت بما في جفها ثم سلت (٦)
حسام كلون الملح صاف حديده	جراز كأقطع الخدير النعت (٧)

- (١) أم عيال : يقصد تأبط شرا ، أرتمت : قترت وأذات •
(٢) الميل بالفتح : الفتر ، أى آل تألت : أى سياسة ساست ، من آله بمعنى : ساسه •
(٣) مصمكة بكسر اللام : صاحبة صماليك • لا يقهر الستر دونها : لا يغلظ أمرها .
(٤) الوفضة بفتح فسكون : الجعبة ، السحف بفتح السين والحاء : السهم عريض النصل ، المدى بفتح فسكون : العداون ، وأولى المدى : طلائع الأعداء ، أقشمرت : تهيأت للقتال •
(٥) بارزا نصف ساقها : كناية عن الجند في الأمر ، غير العانة : حمار الوحش في الأثن •
(٦) الجفر بفتح فسكون : الجعبة ، رامت بما في الجعبة : أى بسهامها •
(٧) جراز بضم الجيم : قاطع ، أقطع الخدير : الماء فيه •

تراها كأذئاب الحسبل صوادرا وقد نهات من الدماء وعلت (١)

يذكر أنهم في أثناء معامراتهم يخضعون لنظام قاس تفرضه ظروف معيشتهم ، فيصور مايقوم به تأبط سرا - الذي كفى عنه بألم العيال مداعبة - من توريع الطعام بقدر خشية أن تطول بهم أيام الفسارة فينضب زادهم ، وينتقل من ذلك إلى توضيح حقيقة تلك الأم ، فيبين أنها ليست أما حقيقية تستر وتبيت في الخيام ، بل هي صاحبة صماليك ، لها جمية سهام - تواجه بها المعتدين - في جد وعدة .

ويواصل الشمرى حديثه ، فيقدهما على مقصدهم من تلك النار ، وهو النار لأبيه من بنى سلامان :

جزينا سلامان بن مفرج قرضا	بما قدمت أيديهم وأزلت (٢)
وهيء بي قوم وما إن هنأتهم	وأصبحت في قوم وليسوا بمنبقي (٣)
عفيننا بهد الله بعض غليننا	وعوف لدى الممدى أو ان استهات (٤)
إذا ما أتتني ميتى لم أبالها	ولم تذر خالاتي الدموع وعمق
وإني لحلو إن أريدت حلواتي	ومر إذا نفس المزوف استمرت (٥)
أبي لما آبي سريع مباءتي	إلى كل نفس تلتحى في مسرتي (٦)

يخبر بأنه قام على رأس جماعته فنأر لأبيه من بنى سلامان ، ورد لهم دينهم ، وذلك بقتل رجلين من أم رجالهم هما عبد الله وعوف ، نشقى بعض غايله . ثم يوضح

-
- (١) الحسيل جمع حسيطة : أولاد البقر ، النمل : الشرب الأول ، والعمل الشرب المكرر .
(٢) أزلت : قدمت .
(٣) يعنى أن قومي الأزديهم شون بشجاعتي ، بينما أنا لا أهنتوهم لأنهم لا يذمتعون بي ، فأنا أعيش بين قوم ليسوا أهلي ، إشارة إلى نزوله في بنى قهم .
(٤) اللليل : العطش ، وهو هنا العطش إلى القتل ، الممدى : موضع المدو ، ويريد به : ساحة المعركة ، أو ان استهات : في وقت ابتدائها .
(٥) العروف : المنصرف عن الشيء ، استمرت : من المرارة .
(٦) المباءة : الرجوع ، تلتحى في مسرتي : تجدد في سروري .

أنه لا يهاب الموت ، ولا يشفق على من يبكيه من خاله أو عمه ، لأن أحدا من هؤلاء لن يبكيه ، وأنه ليس بظرفه محبا للقتل ، وإنما هو على حسب من ياملونه ، يحلون يريد حلاوته فلا يمتدى عليه ، ويعر إذا أهين أو مست كرامته ، لا يقبل ما يكره ، ولكنه سريع الرجوع إلى من يسمي بجده في مسرته .

وهكذا سار الشنفرى فيما وصلنا من شعره يصور غاراته ، ويفخر بما ارتضاه الصالحين من قيم ، وما تخلفوا به من خلال ، معبرا عن ثورة نفسه على مجتمعه ، مصورا ما يمتاز به من صفات جسمية اكتسبها من نظام حياته ، وتطلبها ما ارتبط به فيها .

٥ عروة بن الورد

أشأته وحياته :

هو عروة بن الورد بن ريد العسوي ، لقب بعروة الصماليك لجمعه إيأهم ، وقيامه بأمرهم إذا أحفقوا في غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا مقرى . وقيل : بل لقب بذلك لقوله :

لحى الله صملوكا إذا جن ليلته مصافى المشاش آلفا كل معجزر (١)
يمد الغنى من دهره كل ليلته أصاب قراها من صديق ميسر (٢)
ولله صملوك صنيحة وجهه كضوء شهاب القابس المنثور (٣)

كان لأبيه دور كبير في نشوب الحرب بين عبس ووزارة (حرب داحس والغبراء) فهو الذى راهن حذيفة (٤) أما أمه فكانت من نهد من قصاعة ، وكانت عشيرة وضيمة ، لم تعرف بشرف ولا خطر ، فأذى ذلك عروة ، وأحس بأن عاراً يلحقه من قبلها ، فقار (٥) :

وما بي من عار إخال علمته سوى أن أحوالى - إذا نسبوا - نهد

ونبحث عن السر الذى دفع عروة إلى الصمالة ، فلا نعثر على ما يشفى ، إذ نلاحظ أن أباه كان من أشرف قبيلته ، فهو لم يكن الصملوك عن فقر واحتياج ، ولا كان عن شذوذ في الخلق والسلوك ، ولا كان عن غربة من قبيلته يدم بها وبماب . ولكنه على ما يبدو - اتجه إلى الصمالة استجابة لثوره في نفسه على مسلك بعض الأعياء

(١) لحى الله فلانا : قبحه ولعنه ، المصافى بضم الميم : الملازم المؤلف المشاش بضم

الميم وفتح الشين : كل عظيم هش دسم .

(٢) يسر الرجل بفتح السين الضمعة : سهات ولادة إبله وعنمه .

(٣) الأغاى ج ٣ ص ٧٣ . (٤) الرجع السابق ج ٣ ص ٨٨

(٥) الديوان ص ١٥٧ .

في مجتمعه ، فاحترف الصلابة باعتبارها وسيلة لاداية هي في ذاتها أبرز مظاهر البطولة والهروسية ، فيما ينال من مال النفي ما يلبى مطالبه ومطالب ذوى الحاجة ممن تقصر أيديهم عن الوصول إليها ، وكان يجمع الفقراء الصماليك ويقوم بشأنهم ، يصحب القادر منهم في غاراته ، ويؤوى الآخرين في مأمن يمدد إليهم فيه بنصيهم من مقامرانه (١) .

وهكذا قضى عروة حياته في حماية الفقراء والمرضى والمستضعفين من غائلة الفقر وعناء الحاجة ، متخييرا مريسته - في أغلب الاحيان - من بين من عرفوا بالشح والبخل والقسوة ؛ فالصلابة في رأيه وسيلة من وسائل التكافل الاجتماعي ، يأخذ بواسطتها ممن لا ينفكر إلا في نفسه حقوق الضعفاء والمحتاجين ، وبهذا فارق غيره من الصماليك .

شعره :

يتضح من شعر عروة مذهبه في صلابته ؛ فهو دائم التردد لمبادئه ، حريص على الإشارة إلى عايتسه من غاراته ، حتى نال إعجاب من جاءوا بهمداه ، كما نال إعجاب معاصريه ؛ سميها معاوية (٢) : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم ، وسميها عبد الملك بن مروان يقول : ما يسرى أن أحدا من العرب ولدى ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله

إني امرؤ عاقى إنائي شركة وأنت امرؤ عاقى إنائك واحد (٣)
أنهزأ مني إن سميت وأن نرى يجسمى شعوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمي في جسم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد (٤)

فهو إنسان كريم يؤثر على نفسه ، ويشرك معه غيره في طعامه بل قد يكتفي بشرب للماء الخالص ، مؤثرا غيره بكل طعامه حتى أصبح كمن يفرق جسمه على أجسام الآخرين

(١) الأغاني ج ٣ ص ٧٨ وما بعدها .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٧٣ ، ٧٤ والشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٧٥

(٣) الماقى : طالب المعروف، وأنت امرؤ عاقى إنائك واحد كناية عن أكله وحده .

(٤) أحسو : أشرب شيئا بعد شيء ، القراح بفتح القاف : الخالص الذي لا يخالطه

لبن ولا غيره .

ومن جيد شعره رائيته التي رواها له الأصمعي (١) ، يحكى فيها ما دار بينه وبين امرأته سلسى ، ليصور في أثناء ذلك همته ونبل خلقه :

تقول : لك الولايات هل أنت تارك ضبوءا برجل تارة وبمسر (٢)

يقول إن سلسى تستحى على ترك الصلابة والكف عن الغارات ، وتملن عن ضيقها باستمرارى في ذلك ، وخوها من أن ألقى حتفى في إحدى تلك الغارات . فأجيبها بقولى .

أبى الخفض من يشاك من ذى قرابة ومن كل سوداء المعاصم تسمى (٣)
ومستهىء ، زيد أبوه ، فلا أرى له مدهما ، فاقى حياءك واصبرى (٤)

إن روجك لا يرضى بلين الميش والدعة لشموره بأن عايه لأقربائه المحتاجين واجبات لا بد له من أدائها لهم ، فالزى حياءك واصبرى على ما أحمل ، لآنى لا أعزو إلا وفاء بحق هؤلاء ، فأنا لست من هؤلاء الصماليك الذين لا يهمهم من مجتمعهم أحد ، مهدا بذلك لتقديم صورتين لتموذجين مختلفين من الصماليك .

أولها صيف الهمة ، يرمى بالهدون ، حامل ذليل ، يمشى عالة على الآخرين .

لحى الله صملوكا إذا جن ليله مصافى المشاش آلفا كل مجرر
مد التنى من دهره كل ليله أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء تم يصبح قاعدا يحث الحصا عن جنبه المتعقر (٥)
يمين نساء الحسى ما يستعنه ويصحى طليحا كاليمير المحسر (٦)

(١) الأصمعيات ص ٣٥ طبع دار المعارف .

(٢) الضبوء بضم الضاد . الغزو ، والرجل بفتح الراء جمع راجل . ضد الراكب ، المنسر كعجاس ومنبر . الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٣) الخفض . الدعة ولين الميش ، سوداء المعاصم يريد به التى أحدها الجوع والهزال ، تسمى . تفتى .

(٤) مستهىء . طالب المنء وهو المطاء ، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه ،

فاقى حياءك . الرمية . (٥) بحث . يحرك .

(٦) الطليح . المعى ، ومثله المحسر بضم الميم وفتح الحاء

والصورة الثانية ترى الصعلوك الشريف القدي يعجب به عروة ، أعماله مجيدة ،
يظفر من أهدائه بكل ما يريد ، على الرغم من صياحهم به ، وبدمهم عنه . . . ومثل
هذا الصعلوك محمود الذكرى ، جدير بأن يشجعه الآخرون ويثنوا عليه :

ولله صعلوك صحيفة رجهه كضوء شهاب القابس التنسور
مطلا على أهدائه يحروره بساحتهم زجر الميبح المشهر (١)
وإن بهمدوا لا يأمنون اقترا به تشوف أهل المائب المنتظر (٢)
وذلك إن يلقى الميعة ياقها حميدا ، وإن يستنن يوما وأجدر

ثم يقرر أنه من الصنذ الثاى ، فهو لا يقبل أن يرى عشيرتى معتم وزيد تهلك
ولا يخاطر من أجهامها ، لذلك هو ينتحم مع بعض رفاقه حمى بعض القبائل ليسوقوا
منها ما يقومون به على حاجة الأضياف والمحتاجين :

أيهلك معتم وزيد ولم أقم على نذب يوما ولى نفس مخطر (٣)
ستفرع بمد اليأس من لا يخافا كواسع فى أحرى السوام المفر (٤)
بطاعن عنها أول القوم بالقنسا ويض حفاف ذات لون مشهر
ويوما على غارات نجد وأهله ويوما بأرض ذات شت وعرعر (٥)
يربح على الليل أضياف ماجد آريم ومالى سارحا ، ال مقتر (٦)

وصفة القول كان عروة صعلوكا شريفا ، جعل من الصعلوك سبيلا للسيادة والروعة ،

(١) اللطل : المشرف ، يجرونه . يصيحون به ، الميبح بفتح الميم ، قدح سريع
الخروج ولا نصيب له المشهر : المذهور .

(٢) التشوف : التطلع ، المنتظر بفتح الظاء : المنتظر قدومه .

(٣) معتم وريد : بطنان من بطون عبس النذب : بفتح النون والعدال : الخطر .

(٤) الكواسع : الخيول تطرد الإبل وتكسما ، السوام : الإبل السائمة ، المفر

بفتح الفاء : المذهور .

(٥) الشث بفتح الشين ، والمرعر بفتح العينين : من أشجار البادية .

(٦) يربح . يرد ، ويكى بالماجد الكريم عن نفسه ، السارح : السائم فى المرعى ،

المقتر : القدير المقل .

ومظهرا من مظاهر الدروسية ، حقق بها ما كان يصبو إليه من ارتفاع بمستوى
الثقراء ، وما كان ينطوى عليه من إثمار للأهل والعشيرة ، وما كان ينزع إليه من حياة
إجتماعية تقوم على التكافل والتعاون . ولقد استطاع عروة أن يقرر كل ذلك في
شعره ، إذ كان وسياته التي يصور فيها مبادئه ومغامراته . بحيث تكاد لاتمثر في شعره
على غير ذلك من فنون الشعر . كما كان صريحا في الكشف عن مكثون نفسه ، واضحا
في عرض أفكاره ، دون التواء أو إبهام ؛ فشعره نموذج للأدب الإنساني في قيمه
وأخلاقياته ، وفي منهجه في عرض أفكاره ، وبناء صورته ، وتركيب عباراته ؛ فشعره
مرآة صافية تمكس صورة نفسه وأسلوب حياته .

الفصل الثاني

فنون الشعر البدوي

الناظر في الشعر البدوي يلاحظ أن الشعراء استجابوا فيه لمتطلبات البادية وأخلاقياتها ، بحيث لا تجد حروجا من الشاعر على وسطه الذي يخاطبه ، أو يستجيب لمؤثراته ؛ فهو ملتصق تماما بمن يردد شعره على آذانهم ، حريص كل الحرص على أن يكون متلائما مع ما يرضيهم .

والناظر في متطلبات البادية وأخلاقياتها يلاحظ أن ظروف الحياة في العصر الجاهلي فرضت عليها أن تعيش في جو حربي شبه دائم ، فالقبيلة لا تخرج من حرب إلا لتفزع في أخرى ، إن لم يكن لدفع عدو فهي لفرض سلطان ، أو انتقاما من معتمد إلى غير ذلك من الأسباب التي كانت وراء اتصال الحرب بين ساكني البادية في تلك الفترة؛ والحرب وما يتصل بها هي الشغل الشاغل للبدوي ، حتى في وقت السلم - على ضيقه - هو في استعداد وتأهب ، يقتنص السيوف الماضي ، ويسمى بالحصول على الرمح القوي ، ويمتد بالجواد المدرب . فإذا خرج من ذلك الإطار لم يجد لإقليم قبيلته وأعرافها مأخذ يدور حولها ، يستمرضا ويفخر بها ، ويصف أبنائها . وأقصى ما يخرج به شاعر البادية عن جو الحرب أن يصطحب امرأة يميل إليها ليجعل منها مثالا يتعبد في محرابه ، ويدور في فلسكه ، فهي سماء يتطلع إليها . وهي طهر يحمية من أي دنس يمسه ، وهي رمز بندفع بسره إلى الموت غير مبال ولا هيب ، وإذا غابت عنه أو ارتحلت استوقف للنوق أمام ديارها ليمتع النفس بالحياة في كنف منازلها تمريضا لما أصابها من فرانها .

ولقد نظر الأقدمون في الشعر العربي للتعرف على فنونه وموضوعاته وتسميتها ووضع كل منها تحت العنوان الذي يناسبه فاحتلوا اختلافا كبيرا لاختلاف المنهج .

فأبو تمام - مثلا - يقدم الشعر العربي من خلال عشرة موضوعات هي الحماسة ، والمراثي ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ومهم المديح ، والصفات ، والسير والبماس ، والملح ، ومذمة النساء .

وصاحب البرهان يقدمه في أصناف أربعة هي : المديح ، والمهجاء ، والحسكة ،
واللهو ، ثم يفرع عن كل صنف منها فنونا (١) .

أما صاحب العمدة فينقل عن بعض العلماء أن أركان الشعر أربعة هي : المدح
والمهجاء والنسب والرثاء (٢) . وجعل أبو هلال العسكري أبرزها ستة هي المدح ،
والمهجاء ، والوصف ، والنسيب والمرأى ، والفخر (٣) .

يبد أن الناظر في مظاهر ذلك الاختلاف يدرك أنه اختلاف شكلي يرجع إلى
الإجمال والتفصيل ، وليس مرجسه إلى إنكار غرض نسب إليهم ، أو إضافة غرض
أيس لهم . حق إن باستطاعتنا أن ترجع كل هذه الفنون إلى غرضين اثنين هما :
المديح والمهجاء ، على عد الحماسة والنسيب والمرأى وبعض الوصف وبعض الاعتذار
مدحيا ، وعد بعض الوصف وبعض الاعتذار مهجاء لكن إذا كان التفصيل المبسوط
غير مقبول لما فيه من التصنيع والتريد ، فإن الإجمال كذلك غير مقبول لما فيه من
الإخلال بصورة الشعر ، والطريق الأمثل مما أرى هو أن نراعى في التقسيم مبعث
الشعر ومسار الشاعر فيه وغايته التي يريد أن يصل إليها من تعبير . ومن هذا المطلق
وبالنظر فيما أتبع لي من الشعر البدوي أستطيع أن أقرر أن فنون الشعر البدوي فد
العصر الجاهلي هي الفخر . والمهجاء ، والمدح ، والرثاء ، والغزل ، والوصف وذلك
لأن باعت الشاعر البدوي إلى قول الشعر لا يكاد يخرج عن هذه الفنون الستة ؛ حيث
ينطلق لسانه مادحا قومه ونمسه ممتخرا بما فيهم من قبائل وصفات ومالهم من مكانة
وعزة بين غيرهم من قبائل البادية ، والشاعر في أثناء ذلك يحس دسار قومه ويختمهم
على الانتفاض في وجه عدو أو لشجدة مظلوم ، أو للتأثر من ممتد . أو هاجيا خصما
تعداد مثالبه وعيوبه ، أو باكيا عزيزا مات أو قتل ، أو باسطا القول في امرأة نشأت
بينه روابط عاطفية ، أو مقبلا على ما يلهت النظر ويحتذب الانتباه بالوصف .
والشاعر البدوي في تناول كل من أسلوبه الذي يتناسب مع وسطه الفنى ، ويحقق له
اللائم الفنى ، على اختلاف بين الشعراء في ذلك .

(١) البرهان في وجوه البيان لابن وهب السكاتب ص ١٣٥ بتحقيق الدكتور حفي شرف

(٢) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٠ بتحقيق الشيخ محمد عبي الدين .

(٣) كتاب المناهاتين لأبي هلال العسكري ص ١٣٧ بتحقيق علي محمد البجاوى

ر محمد أبو الفصل إبراهيم .

الفخر :

الفخر تعداد ما يشتمل عليه الإنسان من الفضائل والحمد ، والتباهى بمميزه بين أفراد قبيلته أو مجتمعه بذلك . وميدان الفخر أمام الشاعر أرحب ، وخوض الشاعر فيه أسره إذ هو فيه متبوع للصفات التي يوجب بها مآصروه ليفخر باتصافه بها أو انصاف قومه ، مستقص للشمائل التي يحتفل بها مجتمعه ليفخر باشتتاله عليها أو باشتغال قومه :

من ثم كان الفخر مرآة تمكس على صفحتها قيم الشاعر ومجتمعه ، وأبرز الصفات السائدة ، والفضائل التي يسمى القوم إلى كسبها والحمد التي يودون الانصاف بها .

فإذا نظرنا في شعر الفخر البدوي ، وجدنا من أبرز الصفات التي يحرص كل شاعر بدوي على الفخر باتصافه بها هو وقيلاته :

١ - الفروسية وما يتصل بها من إقدام وشجاعة وقوة وتمكن من الأساليب الحربية ؛ وذلك لأن ظروف الحياة في البادية فرضت على ساكنيها لونا من الصراع الدائم مع الوحش ، ومع الطبيعة ، ومع الإنسان ، فهو لا يخرج من معركة إلا ليدخل في أخرى .

ولا ريب في أن الصفة المثل التي تسود مثل هذه البيئة هي الصفة التي يمسكها هذا اللون من الحياة :

ولا ريب في أن كل مرد في هذه البيئة متعلق منذ الطفولة بكل صفة تتطلبها تلك الصراعات والحروب ، والتي تجتمع في صفة الفروسية والإقدام .

فهذا عمرو بن كلثوم يفخر بشجاعة قومه - في قصيدته المعلقة - ويمجد فرسان قبيلته ، فيصف ما يحدثه هؤلاء الفرسان الأبطال في حصومهم من دمار وهلاك ، ويقرر أن مثل هذا ليس بغير على قوم مدربين على الحرب أحسن تدريب ، حياتهم سلسلة من الحروب لا تتوقف ، وأسلحتهم من أجود الأسلحة .

وفي سبيله إلى ذلك يذكر الشاعر لنا أحداث معركة وقعت بين قومه وبين خصومهم

في قالب قصصى يكشف فيه عن شجاعتهم في مواجهه خصمهم العنيد المدحج بالسلاح،
مثل قوله فيها :

أيا هسد فلا تمسجل علينا وأنظرنا تخبيرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدر هن حمرا قد روينا
وأيام لنا غير طوال عصينا الملك فيها أن ندينا
وسيد معشر قد توجهه بتاج الملك يحسى المهجرين^(١)
تركنا الحيل ما كفة عليه مقسدة أعنتها صفونا^(٢)

* * *

متى نقتل إلى قوم رحانا يكونوا في القاء طحيننا^(٣)
يكون ثمالها شرقي نجد وطوتها قضاة أجمعينا^(٤)
نزلت منزل الأضياف منا فأعلمنا القرى أن نشتونا
قربناكم فمجاننا قراكم قبيل الصبح مرداة طحونا^(٥)
نعم أناسنا ونعم عنهم ونحمل عنهم ما حملونا
وطاعن ماتراخي الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشينا
بسر من قنا الخطى لن ذرايل أو بيض يختلينا
كان جهاجم الأبطال فيها وسوق بالأماهز يرتعينا^(٦)
نشق بها رؤوس القوم شقا ونختلب الرقاب فتختليا^(٧)

-
- (١) المهجر - بضم الميم وفتح الجيم - الملجأ ، يقال : أحجرته إذا ألجأته .
(٢) المكوف : الإقامة ، والصفون جمع صافن : الفرس إذا قام على ثلاث قوائم
وثنى سلبكه الرابع .
(٣) الرحى : أراد بها الحرب .
(٤) الثفال : خرقه تبسط تحت الرحى ليقع عليها الدقيق ، اللهموة : التقبضة من الحب
تلقى في فم الرحى .
(٥) المرادة - بكسر الميم - الصخرة التي يكسر بها الصخور .
(٦) الوسوق جمع وسق : حمل البعير ، والأماهز جمع أمهز : المكان كثير الحجارة
(٧) تختلب : تقطع بالخباب .

وإن الضغن بعد الضغن يبدو عليك ويخرج الداء الدفيننا
كأن سيوفنا مينا وفيهم مخاريق بأيدى لاعبيننا
كأن ثيابنا منا ومنهم خضبن بأرجوان أو طلينا

والناظر في هذه الأبيات يلاحظ أن الشاعر فيها يعتمد في عرض مفاخره ومفاخر
قومه على الأسلوب الوصفي والأسلوب القصصي ، هي قصة وصفية ، يميل الشاعر في
تقديم أحداثها إلى الإيجاز النسبي القائم على الإيجاعات والاستدعاءات ، والتذكير
بالماضي المشهور ، فيكفي أن يوجه إلى أحداث الماضي في قوله : (وأيام لنا غير
طوال . . الخ) ليستحضر المخاطب أحداث تلك الأيام ووقائعها ، ويقف على ما كان
فيها من فرسان قوم الشاعر .

* * *

وهذا دريد بن الصمة يملن في قصيدته البالية بصوت جهوري أنه ثار لأخيه
عبد الله ، فأتزاح الكابوس الذي طالما كنتم أنفاسه ، ولكنه لم يسترح تماما ، فما زال
في نفسه أشياء لا يشفيها إلا مواصلة الانتقام .

فالشاعر يذكر أنه وجمع من قبيلته ظفروا بأعدائه من مرارة ، فأعملوا فيهم
السيف من كل جهة ، وبكل كيفية ، حتى ثار لأخيه عبد الله بقتل أفضل رجل يقاربه
في السن ، وأوقموا بمحسومهم جميعا ، حتى أشبعوا الوحوش الجائعة من جثثهم ، ولا يكتفى
بما صنع ، بل يواصل بعد ذلك تهديده ويملن أن سوف يمد الكرة عليهم متى سنحت
الفرصة ، وذلك في قوله :

وبارا كيبا إما عرضت فباتن أبا غالب أن ثأرنا بنـالب (١)
قتلت بعبد الله خير لهاه ذؤاب بن أسماء بن ريد بن قارب (٢)
فليوم سميتم فزارة فاصبروا لوقع القنا تنزون نرو الجنادب (٣)

(١) عرضت : أتيت المروض ، يريد مكة والمدينة وما حولهما .

(٢) اللدات جمع لدة : من ولد مملك في وقت واحد .

(٣) النرو : الوئب . والجنادب جمع جندب : ضرب صنير من الجراد

تكر عليهم رجلى وفوارسى وأكره فيهم صمدتى غيرنا كعب^(١)
فإن تدبروا يأخذنكم فى ظهوركم وإن تقبلوا يأخذنكم فى الترائب
وإن تسهلوا للخيل تسهل عليكم بطمن كبايزاغ الخاض الضوارب^(٢)
ومرة قد أخرجنهم فتركنهم بروغون بالصلماء روغ الشمالب^(٣)
وأشجع قد أدركنهم فتركنهم يخاقون خطف الطير من كل جانب
وعلبة الخنى تركنا شر يدهم نملة لاه فى البلاد ولاعب
فليت قبورا بالمخاضة أحبرت فتخبر عنا الخضر خضر محارب^(٤)
رد سناهم بالخيل حتى تملاّت عوافى الضباع والذئاب السواغب^(٥)
خزيفى أطوف فى البلاد لعافى ألقى بإثر نلة من عارب

* * *

ومثل قول عترة مفتخرًا بنفسه ، ممتازًا بقوته وجراته وشجاعته ؛ مقررًا أنه من أفضل قبائمه ، وكأنه يرد بذلك احتقارهم إياه لسواد لونه :

إنى امرؤ من خير عبسًا منصبًا شطرى ، وأحمى سائرى بالمنصل^(٦)
وإذا السكتبة أحجمت وتلاحظت الفيت خيرا من مغم محول^(٧)
والخيل تعلم والقوارس أنى درقت جمهم بضربة فيصل^(٨)

(١) الرجل جمع راجل : المشاة ، والصددة : القناة ، وغير ناكب : غير عادل عنهم .
(٢) أسهل : نزل السهل من الأرض ، والمخاض : الحوامل من النوق ، والضوارب :
الواقع ، وإيزاغها : أن ترمى بيوطها ، شبه رشاش المدم من الطمئة برشاش بولها .
(٣) يرغون : يذهبون هنا وهناك * والصلماء : مكان معركة مع مرة .
(٤) المخاضة : موضع من ديار ذبيان ، وخضر محارب - بغم الحياء وسكون
الضاد قبيلة .

(٥) رد سناهم : رميناهم ، والضباع العوافى : الجوائع ، وكذلك الذئاب السواغب .
(٦) المنصب - نكسر الصاد - الأصل ، والمنصل - بغم فسكون بغم - السيف .
(٧) السكتبية : الجماعة إذا اجتمعت ولم تنتشر ، وتلاحظت : نظرت من يقدم على العدو .
(٨) الفيصل : الذى يفصل بين الناس .

وكثيرا ماتمحلوا بشعرهم الفخرى يخصصوه لوصف آلات الحرب ، من رماح
وسيوف وحياذ ، على نحو ما صنع أوس بن حجر في لاميته المشهورة ، وسوف نعرض
لتلك في دراستنا للفن الوصف إن شاء الله تعالى .

* * *

٢ - الكرم ، وعفة النفس ، والجدة ، وفي الغالب يجمعون هذه الصفات أو
بعضها إلى الفروسية ، حيث لا يفرقون بين الفخر بالفروسية وهذه الشئائل ؛ إذ كل
هذه الشئائل في تصورهم مظاهر للفروسية لانفصال عنها .

والشاعر البدوي كما يخصص نفسه بفخر بهذه الصفات ، يفخر باتصاف قومه جميعا
بها ، فهو لا يقطع نفسه من قبيلته ، وإذا حُر بنفسه فهو إنما يفخر بفرد من قبيلة ، وإذا
حُر بقبيلته فهو إنما يفخر بأصل نبت هو منه . ولم يشذ من ذلك سوى عترة في الفترة
التي أنكر نسبتها فيها قومه وأبوه ، فقد ركر فيها حُرّه بنفسه فروسية وعفة نفس
وسخاء ومجدة إلى غير ذلك . كما في قوله يخاطب ابنة عمه مالك ، ممددا مفاخره ،
مباھيا بما السم به من شجاعة وعفة نفس ، وذلك قوله :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك	إن كنت جاهلة بما لم تلمى
يخبرك من شهد الوقائع أنفى	أغشى الوعى وأعف عند المنم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم	يتدامرون كررت غير مدمم (١)
يدعون عنتر والرماح كأنها	أشطان بشرى لبان الأدم (٢)
مازلت أرميم بغيره وجهه	ولبانه حق تسربل بالدم
هازور من وقع القسا بلبانه	وشكا إلى بمسيرة وتحمم (٣)
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى	ولكان لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها	قبل الفوارس؛ ويك عنتر أقدم (٤)

(١) يتدامرون : يحض بعضهم بعضا على القتال .

(٢) الأشطان جمع شطن - بفتحين - جبل البئر شبه الرمح به لطوله، واللبان

- بفتح اللام - الصدر ، والأدم : الفرس الأسود .

(٣) ازور : مال ، والتحمم : الصوت المقطع دون الصهيل

(٤) ويل : كلمة يقولها للمتدم إذا ندم على ما فرط منه ، وللكثرة استعمالها ألحقت

بها الكاف . وقيل : (وى) بمعنى أعجب أو عجب لك يا عنتر .

ويلاحظ أن الشاعر في تصوير فروسيته ما دقيق الحس ، يقظ الشاعر ، متمكن من مادته الشعرية ؛ إذ يستخدم من أساليب التصوير ما يضمن للصورة الحياة والصدق ، ويحقق لها السطوة والقدرة على جذب الأنظار ؛ فقد استخدم فيها الحركة المختلفة على حسب الأشخاص الصادرة عنهم ، وأرانا قوة أعدائه في رماحهم الطويلة التي بلغت صدر فرسه . ثم أرانا كذلك مواجهته لأعدائه وقسوته على حصانه الذي تتبعهم به حتى اكتسى بالدم ، ومال بمنقه من شدة ما أصابه ، واتجه إليه شاكيا ما يعاني بصوت الحال . وماهدأت نفسه وارتاحت إلا حين سمع الفوارس يملنون - في عجب ودهشة - عن إقدامه وحسن بلائه .

فإذا كان عنزة يمدد مفاخره الشخصية على هذا النحو - لظروبه الخاصة - فإن عمرو بن الإطناية يفخر بقومه وما يقومون عليه من أخلاق ، وما يعترفون به من شمائل ، حيث يتجهون وجهة إنسانية في سلوكهم ، وذلك قوله :

إني من القوم الذين إذا انتدوا	بدأوا بحق الله ثم النائل (١)
المانعين من الحنا جارائهم	والحاشدين على طمام النار (٢)
والخالطين فقيرهم بنينهم	والباذلين عطاءهم للسائل
والقاتلين لدى الوغى أقرانهم	إن المنية من وراء الوائل (٣)

وعلى هذا النحو يسير ربيعة بن مقرم في ميميته التي يتغنى فيها بصفاته وصفات قومه من كرم ، وإباء ، وفروسية ، ووفاء ونجدة ، كما في قوله (٤) :

وإن نسألني فإني امرؤ	أهين اللثيم وأحبو الكريما
وأبى المصالي بالمكرمات	وأرضى الخليل وأروى البديما

(١) انتدى القوم : جلسوا في النادي ، والنائل : كثرة العطية ، يريد أنهم يؤدون الواجب ثم النفل .

(٢) الحنا : الفحش من الكلام ، يعني أنهم يحفظون جارائهم ويوفون بحق الضيف .

(٣) وأل : لجأ ورجع ، يريد الفرار من الحرب ، يعني إن الفرار من الحرب

لا ينبغي من الموت .

(٤) المفضليات ص ١٨٢ .

ويحمد بذلي له معتف إذا ذم من يعتفيه اللثام^(١)
وأجزى القروض وفاء بها بيؤسى بثبؤى ونعمى نعميا^(٢)
وقوى إن أنت كذبتى بقسولى فاسأل بقوى علما
يهينون فى الحق أموالهم إذا اللزبات انتحين المسيا^(٣)
طوال الرماح غداة الصباح ذو نجدة يمنون الحرما

وكذلك سار الحارث بن حلزة فى جيميته التى ذكرنا جزءا منها فى ترجمته .

وصفة القول أن الشعراء البدويين فى العصر الجاهلى عكسوا لنا صورة محتهم
البدوى فى أخلاقياته التى يمتاز بها وينتفى باتصافهم بها وقيامهم عليها ، دون تكاف
أو مغالاة ، ودون تخرج أو تردد ؛ إذ الفخر فى البيئة البدوية كان أسلوبا من أساليب
الحياة التى تقرررت فى ذلك العصر ، أو أصبحت عرفا سائدا يمثل أعاط الحياة لديهم .

(١) المعتى : السائل فى غير طالب .

(٢) البؤسى والبثبؤى بمعنى واحد ، يقول إنه يجزى بالسيئة مثلها ، وكذلك
الحسنة والنعمى .

(٣) اللزبات : الشدايد ، وانتحين : تصدن ، والمسيم : الكثير الإبل والظنم .

الهجاء :

الهجاء مصدر هجا يهجو : يعنى السب وتمديد المايب ، واستتلال المناخر ، وهو على النقيض من الفخر والمدح ، وكل هذه الفنون تضرب بمعوق في النفس البشرية ، وترجع إلى الصفات الطبيعية فيها ؛ إذ هي استجابة لمناطق الرضا والسخط لدى الإنسان الفطرى ومن ثم كان فن الهجاء واحداً من فنون الشعر العربى البدوى فى العصر الجاهلى .

والناظر فيما أثر من شعر البدويين فى هذا الفن يلاحظ أنهم كانوا يتمدون على سلب الفضائل البدوية ، والرمى بالقائص البدوية ، والرمى بالقائص المتعارف عليها بين أهل البادية من الجبن والبخل والتعاس عن مجددة اللأند ، والامتناع عن حماية الضعيف ، والتمدى على المحارم ، والتعرض للنساء . . إلى غير ذلك مما يأنف منه البدوى ، وتأباه الفطرة الساذجة .

لقد كان الهجاء سلاحاً يضارع أسلحة الحرب الأخرى مضاء وقوة ، وكانت القبائل فى البادية تحرص على أن توفر لنفسها منه ما تذود به عن محارمها وأبنائها كما تحرص على أن توفر من أسلحة الحرب التقليدية ما يمكنها من الدفاع عن محارمها وأبنائها . يوضح ذلك عبد قيس بن خفاف البرجمى فى أبياته التى ينحدر فيها بأسلحته التى أعدها لمواجهة الخصوم والأعداء ، من لسان ماض ، ورمح طويل القناة ، ودروع سائفة جيدة تسمى من صرب السيوف (١) :

وأصبحت أعددت للمائبات	عرضاً بريثاً وعضباً صقيلاً (٢)
ووقع لسان كحد السنان	ورمحا طويل القناة عسولاً (٣)
وسائفة من جيساد الدرو	ع تسمع للسيف فيها صليلاً

(١) المفضليات ص ٣٨٦ .

(٢) العضب : السيف للقاطع ، والصقيل : المصقول الحاد .

(٣) العسول : اللين المعنى .

كأه الفدير زفته الديور بحر المدجج منها فضولا (١)

وكانوا يتوعدون خصومهم بالهجاء في ميادين القبول كما يتوعدونه بالضراب في ميادين الحرب ، وكانت ميادين القبول عندهم تتمثل في الأسواق وغيرها من أماكن الاجماع التي يلتقي فيها القوم ، وإلى ذلك أشار راشد بن شهاب اليشكري في قوله لقيس ابن مسعود الشيباني (٢) :

ولا توعدني إنني إن تلاقني معي مشرفي في مضاربة تضم (٣)
وذم ينشئ للره خزيا ورهطه لدى السرحة المشد في ظلها الأدم (٤)

كما يلاحظ أن شعراء البادية في هذا العصر لم يكونوا يبالغون بهذا الفن إلا في معرض الفخر بالفروسية ، حيث يتناولون خصومهم بالطمع والدم ، كأنهم يمتدون موازنة بين سماء ما يتفنون به من شمائل ، وما عليه هؤلاء الخصوم من ضمة وحقارة وحسة . ونظرة مما قدمنا من شعر عمرو بن كاثوم ، ودريد بن الصمة في الفخر بالفروسية تكشف طائفة من الصفات الهجائية التي يحرص الشاعر على أن يلمصها بمجوه أو ينهتها . ويقرر ذلك قصيدة ربيعة بن عمرو التي يتغنى فيها بأجداد قبيلته وما صنعه في أيام بزاحة واللسار وطخفة والكلاب وذات السليم ، وفيها يقول :

وكذاك بشر بن أبي حازم للأسدي في قصائده التي يتحدث فيها عن حروب قومه مع بني عامر في يوم اللسار ، ومعهم ومع أحلافهم من تميم في يوم الجفار ، والتي يتغنى فيها بانتصارات قومه على كثير من القبائل مثل جرم ، والرباب ، وجدام ، وبني سليم ، وبني كلاب ، وبني أشجع ، ومرة بن ذبيان . مثل قوله :

(١) زفته - بفتحين - حر كته ، والدبور : ربيع غربية تقابل الصبا ، والمدجج : قام السلاح ، ويجر منها فضولا : كناية عن أن هذه الدروع سائفة تنطى الفارس وتفضل عن أطرافه .

(٢) المفصليات ص ٣٠٨ .

(٣) المشرفي : السيف ، والقضم - بالتحريك - الملول من كثرة الطعن مصدر قضمق السن قضم بفتح الضاد .

(٤) السرحة : الشجرة ، وهو يشير بذلك إلى شجرة عظيمة كانت بمكاظ والمشاء الخفيفة يبحث عن معنى المشاء يناسب المقام غير الخفيفة .

على أن من هؤلاء البدو من كان يسخطه موقف قومه منه في بعض الأحداث أو في بعض الأحيان ، فينبغي في حدة البدوى ها جيا قومه ، كما فعل قريظ بن أنيف العنبرى حين لم ينهض قومه لنجدته ومعاونته في استنقاذ إبله من أيدي الشيمانين ، حيث عرض بمدح أعمداء قومه وهم بنو مازن ، فقال إنه لو كان من بني مازن هؤلاء لحامهم هؤلاء الشيمانين ولما استباحوا إبلى ، وإلا لقمهم فرسانهم الأشداء الأقوياء بمعاونتى في استرداد مالى ، دون أن يطلبوا منى برهانا على ما أقول كما طلب قومي منى :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى	بدو القبيطة من ذهل بن شيانا
إذا لقام بعصرى معشر خشن	عند الحفيظة إن ذو لولة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدا نا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في الدائبات على ما قال برها نا
لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
كأن ربك لم يخاق لحشيتيه	سوام من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا	شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

وكأنه بذلك يضمن على قومه حتى ينصروا لنجدته ومعاونته ، أو يحاسبهم على ما كان منهم .

فالمجاء - كما ترى - يكاد لا ينفك عن الفخر والحماسة في شعر البدو الجاهلين ، والشاعر فيه يعتمد على مقومات قريبة من مقومات الفخر - التي سبق الإشارة إليها - ومقومات المدح التي ستعرف عليها عند الحديث عن فن المدح .

المدح :

برر من فنون الشعر البدوى فى العصر الجاهلى - على تحفظ - فن المدح . والمدح إبراز فضائل إنسان آخر ، وتمداد مفاقيه ومحامده .

وإنما قلت إن هذا الفن برز فى الشعر البدوى على تحفظ ؛ لأن البدوى بطبيعته الفطرية خاضع لشعور بالمزة والأنفة يجعله دائماً يتأبى على الخضوع للغير ، ويرفض الاعتراف بالقصور أو النقص ؛ فهو دائماً يرى نفسه فى المكان الأرفع . من ثم كان من الصعب عليه أن يتحول من تلك الطبيعة إلى إنسان يقر لغيره بالسبق إلى المكرمات ، بله الإفصاح عنها فى شعره ، وإخلاص النفس لتمدادها والتغنى بها .

من ثم حرص البدوى فى هذا الفن أن يلائم بين هاتين الوجهتين المتقابلتين - الرغبة فى ذكر مآلته من الفضائل فى مسلك الآخرين ، والرغبة فى الحفاظ على الأنفة والمظمة الشخصية - فلم يتجه بمداخحه لشخص مفرد ، ولكنه كاد يقصر مدحه على الجماعات من قبائل وعشائر - التى اشتهرت بمحمدة من الحامد من حصال كريمة ، وأخلاق رفيعة ، وقيم سامية ، ومبادئ عظيمة كالكرم والشجاعة والمزة والأنفة أو التى قامت بعمل محمد عليه من رعاية للجار ، أو نجدة لمستغيث ، أو حماية لمظلوم ، على نحو ما قاله ابن دارة - أحد بنى عبد الله بن عطفان - فى مدح طيء (١) :

جزى الله خيراً طيئاً من عشيرة ومن ناصر تلقى بهم كل مجمع
هم خلطونى بالنفوس ودانموا ورأى بركن ذى مناكب مدفع
وقالوا : تعلم أن مالك إن يصب تمدك ، وإن يحبس نرك ونشفع

فإذا اضطر إلى مدح فرد فلاًه أحد السادة الذين يقومون على مثل تلك القبيلة العظيمة ، ويرعون شئونها ، ويحافظون على أخلاقها ؛ فهو يمدح القبيلة ممثلة فى هذا السيد الذى مارس السلوك الخلق الحميد ، أو هو يمدح إنساناً قدم ما يمدح عليه من

(١) الوحشيات لأبى تمام ص ٢٤٩ بتحقيق عبد العزيز الميمى .

طبيب الأعمال ، طي نجو مقال المثقب للعبدى فى مدح خالد بن أنمار القدى انتك شاسا
ابن أخت المثقب (١) :

إنما جاء بشاس خالد بمد ما حافت به إحدى الظلم
من منايا يتخاسين به بيتدرن الزول من لحم ودم (٢)
مترع الجفنة ربهى للنسدى حسن مجلسه عـير لطم (٣)
يحمل المال عطايا جمـة إن بعض المال فى المرض أمم (٤)
لا يبالى - طيب النفس به - تلف المال إذا المرض سلم

وقد يمدح الفرد لعمل كبير يحقق طابئشده الشاعر من قيم ، وما يصبو إليه من
مسلك محمود أو حلق كريم ، أو موقف بطولى ، كما صنع زهير بن أبى سلمى مع هرم بن
سان والحارث بن عوف حين تعاونا فى المسمى الحميد ليصلحا بين عبس وذبيان ،
وينهى الحرب التى طال مداها بينهما ، فأعلنا تحملهما ديات القتلى من القميتين ، حتى
تضع الحرب أوزارها ، وتهدأ النفوس الشائرة ، وكان ثمرة ذلك من زهير مملقته
للشبهة والنق يقول ديا :

سمى ساعيا غيظ بن مرة بمد ما تبزل ما بين المشيرة بالدم (٥)
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رحال بسوه من قريش وجرم
يمينا لنعم السيدان . وحسدتما على كل حال من سحيل ومبرم (٦)

-
- (١) المفضليات ص ١٤١ بشرح حسن السدوى .
(٢) يتخاسين : يترامين ، الزول : الشجاع الداهى .
(٣) مترع الجملة : ممتلىء القدر ، ربهى الندى : باكره
(٤) الأمام : القصد .
(٥) الساعيان : هرم بن سان ، والحارث بن عوف ، وغيظ بن مرة من ولده
عبد الله بن غطفان ، وقبرل : تشقق .
(٦) السحيل : حيط واحد لا يضم إليه آخره ، والمبرم : حيطان يفتلان حتى يصيرا
خيطا واحدا ، معنى : على كل حال من شدة الأمر وسهولته .

نداركما عسا ودياز، امد ما قفانوا ودقوا، بنهم عطر مدشم
وقد قلنا : إن يدرك السلم واسما عمال ومروف من القول نسلم

فهو مدح لسلك - وإن كان موحها لشخص - يعلن به الشاعر عن إعجابيه بما
صدر عن هذين الشخصين من مكررات ، وأيس مدحا لذات المدح ، ولا رعية في
تحقيق كسب ، أو الحصول على موالا

من ثم عبرت مدائح زهير بتجنب المبالغات المقوتة ، والتزام الحقائق الواقعة في
اعتدال بين ، فهو يبظر في صنائع الشخص ، ويتفحصها بحس الشاعر المهذب ،
ويلتقي منها الصفات التي يمتاز بها البدوي ويحتفل بمن ينتمت بها ، ليقدّم الصورة المثالية لها
من خلال رؤيته تلك .

ويشهد لذلك أن الشاعر لما رأى بنى حارثة قوم هرم لا يقولون عن هرم في مسلك
محمود قال فيهم :

هنالك إن يستخبوا للال يخبوا وإن يسألوا يمطوا، وإن ييسروا ينفوا(١)
وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية يتسابها القول والفعل(٢)
قال صاحب الصاعتين(٣): ولما استتم وصفهم بحسن المقال ، وتصديق القول بالفعل،
وصفهم بحسن الوجوه ، ثم قال :

طى مسكترهم حق من يمتريهم وعند المقلين الساحة والبدل
فلم يحل مكثرا ولا مقلا منهم من بر وفضل ثم قال :

لإن جثتم ألفيت حول بوتهم محالس قد يشق بأحلامها الجهل
وإن قام منهم قائم قال قاعد : رشدت فلاغرم عليك ولا حدل

(١) الاستخبال : أن يسألهم شيئا فيملكهم إياه ، وييسروا : يقامروا بالميسر ،
ويفلوا : يقامروا على غوالي الجزر .

(٢) المقامات المجالس ، ويتسابها القول والعمل : يقال فيها الجليل ويعمل

(٣) كتاب الصاعتين ص ١٠٧ بتحقيق البجاوى وأبو الفضل إبراهيم ، وانظر

للمعدة ج ٢ ص ١٣٤ بتحقيق الشيخ محمد محي الدين .

(١٠ - الأدب العربي)

فوصفهم بالحلم وبالتضافر والتعاون ، فلما آتاهم هذه الصفات النفسية ذكر فضل آياتهم فقال :

ومايك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آياتهم قبل
وهل يثبت الخطى إلا وشيجه وتفرس إلا فى منابتها للنخل^(١)

فالدح - فى الشعر البدوى - لا يخرج عن الوظيفة الاجتماعية ، شأنه شأن للفنون
اللى سبق الحديث عنها ، يستجيب الشاعر البدوى به لحاجة قومية ، ويسير فيه وفق
ما تمليه عليه البيئة ، دون انحراف أو تجاوز .

(١) الخطى : الرماح الضخمة، نسبة إلى الخط وهو جزيرة بالبحرين، والوشيح: القنا.

الرثاء :

ومن الفنون التي تشغل جانبا عظيما من شعر البادية في العصر الجاهلي فن الرثاء . والرثاء من الفنون الشعرية التي تميزت فيها البادية عن الحاضرة ، سواء في شيوعه أوفي منهجه ، وذلك لأن الرثاء - في عمومه - بكاء الميت ، والتفجع عليه ، والالتئاع لفراقه ، وذلك بتمداد مناقبه ، والإشادة بمخلاله للكريمة ، بيد أن الجو النفسي للشاعر ، والموقف الاجتماعي الذي تقوم عليه العلاقة بينه وبين الميت يؤثر في مسار الشاعر في رثائه ، من ثم صبغت الرثية بألوان ثلاثة تمكن من تمييز كل منها عن غيرها ؛ فالرثاء يتردد بين الندب والتأبين والعزاء ؛ ولكل مقوماته التي يمتد عليها ؛ إذ الندب يقوم على تفجع الشاعر وتحسره لفقد الميت ، والتأبين يقوم على تمديد مآثره وأفضاله على القبيلة أو الأسرة أو المحيطين به ، والعزاء يقوم على التسلو والتعزى والنظرة التأبئية المتألمة في الكون ونظام الحياة .

ولا ريب في أن الشاعر المطبوع يقع في مجالته فن الرثاء على اللون الملائم مع الموقف الذي يضمه ، دون قصد إلى لون لغاته :

والناظر في مرأى البدو الجاهليين يلاحظ أن أكثر مرثيهم كانت ندبا وتأبينا . كما يلاحظ أن صوت الشعراء إنما يملو ويمتد بالرثاء في الغالب إذا كان المرثى مقتولا ؛ فهم في البادية إنما يتخذون من الرثاء وسيلة إثارة وتحسيس للشار والانتقام .

ومن ثم شارك في هذا الفن نساء كثيرات ، وكان لهن دور واضح ملموس في إثارة الحروب وإشمال نارها ، ونزرة الجيوش لملاقاة خصومهم والانتقام لمن قتل منهم ، فما تزال المرأة تنوح على القتيلى وتبكيه الشجاعة والنجدة والفروسية ، حتى تنهض القبيلة وتتأثر له وما صنيع الحنساء شاعرة بنى سليم بخاف على أحد ، ومادافمها إلى هذا البكاء المتواصل بمجهول لأحد ؛ فقد كانت تخرج إلى عكاظ تندب أخويها صخرأ وممازية وتمدد مآزها ، وتبعث بين سامميها عن فارس مقدم بشنى نفسها بالتأرلها . وحاكنها في ذلك هند بنت عتبة في بكاء أبيها (١) .

(١) راجع الأغاني ج ٤ ص ٢١٠ طبع دار الكتب .

ولم تكن المرأة تسكتني يبكاء ميتها يوما أو أياما ، بلى قد يمتد بها الزمان أعواما .
تظل على ، حالها ، حتى يتحقق لها ما تهفو إليه من الثأر والانتقام .

وكان للنساء في ذلك وسائلهن اللاتي يقصدن بها إثارة المشاعر ، واستنفار الهمم ؛
فكهن يحلقن شعورهن ، ويقفن على القبر ، ويدرن على مجالس التقييلة ، ويشهدن
المواسم والأسواق ، يلطمن خدودهن بأيديهن وبالعمال والجلود . وقد تحصل من
هرأى الخنساء ديوان شعر يدور كله حول رثاء إخوانها . ومما قالته في ندب
صخر وبكائه ،

قذى بمينيك أم بالمين عوار أم ذرقت إذ خافت من أهلها الدار (١)
كأن عيني لذكراه إذا خطرت فيض يسيل على الحدين مدرار (٢)
فالمين تبيكي على صخر ، وحق لها ودونه من جديد الأرض أستار (٣)
تبكي حناس ، وما تفك ما عمرت لها عليه رنين وهي مقتار (٤)
بكاء والهة ضلت اليتمها لها حنينان : إسغار وإكبار (٥)
ترعى إذا نسيت حتى إذا ذكرت بما هي إقبال وإدبار
وان صخرًا لتأم الهداة به كأنه علم في رأسه نار (٦)

ومن ذلك ما قالته جلييلة بنت مرة - أخت جساس وامرأة كليب - حين قتل
أخوها جساس زوجها كليباً (٧) :

ياينة القوم إن لمت فلا تمجلى بالوم حتى تسألى
ماذا أنت تبينت الذى يوجب اللوم بلوى واعذلى
إن تكن أخت امرىء ليمت على شفق منها عليه فاهلى

(١) العوار : الرمد ، ذرقت : قطرت قطرا متتابعا .

(٢) المدرار : الكثير .

(٣) الأستار : الأحجار ، وفي قولها : جديد الأرض كناية عن حداثة موته .

(٤) مقتار : ضئيلة . (٥) الإسغار : خفض الصوت بالحنين ، والإكبار : رفعه .

(٦) العلم : الجبل . (٧) الوحشيات لأبي تمام ص ١٢٨ ، ١٢٩ بتحقيق عبدالعريز الميمني

جل عندي وهل جساس ، فيا حسرتي عما أنجبت أو تنجلى
فهل جساس على وجدى به قاطع ظهري ومـدن أحلى
يا قتيلا قوضت صرغته صقف يبق جيبا من عل
قوضت يبق الذى استحدثته واتثنت فى هدم يبق الأول
خفى قتل كليب بالظى من ورأى ولظى مستقبل
درك الثمار يشفيه وفى دركى نأرى ثكل المشكل
إننى قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرقح لى

والشاعرة تدرك أن نكاهها زوجها يعنى استنراض قومها للنار من قاتله ، وتدرك
ماذا يعنى الثأر من قاتل زوجها وهى ملتاعة حائرة لا اختصاصها من دون الرائيات
بهذه الحالة .

ومن ذلك أيضا ما قاله دريد بن الصمة فى رثاء أحية :

دعاني أخى ، والخيال بينى وبينه فلما دعاني ، لم يجدنى بقعد
أخ أرضعتنى أمه من لبانها بشدى صفاء بيننا لم يجد
جئت إليه والرماح تنوشه كوقع الصياحى فى النسيج الممد
وإن يك عبد الله حلى مكانه فما كان وقاما ، ولا طائش اليد
قايـل التشكى للمصيات ذا كر من اليوم أعقاب الأحاديث فى فد
تراه خيمس البطن والزاد حاصر عتيد ، ويندو فى القميص المقدد
وإن مسه الإقواء والجهد زاده سماحا وإتلافا لما كان فى اليد
صبا ما صبا حتى علا للشيب رأسه فلما علاه قال للبطل : أبعد
وطيب نفسى أنى لم أقوله كدبت ، ونم أبحل بما ملكت يدي

ولعل أوضح مثال لذلك ما قاله العباس بن مرداس فى رثاء أحيه عمارة ، حين قتل
فى حقل صعدة فى بلاد اليمن بعيدا عن موطنه ، فقام يرثيه ويتهدد قاتليه ويتوعدهم بالثأر
صنهم ، ومنها :

أبعد عمار الخير نرجو سلامة وقد بتكت آرابه ومفاصله
فلا وضعت عندى حصان خمارها ولا ظفرت كفى بقرن أنازله

فمن مبلغ عمرو بن عوف رسالة ويعلى بن سعد من تهور يراله
بأني سأرمي الحقل يوما بنارة لها منسكب حاب تدوى زلازله

فالرثاء البدوى يكاد يكون أسلوبا تمهيديا ، يشير به الشاعر سامعيه أو يهيه نفسه
للاقدام على عمل حربي يثار به لقتيله الذي يبكيه ، ويلتقم بمن اعتدى على الأخلاق
والقيم والصفات الحميدة التي كان يمثلها القتل أدق تمثيل .

من ثم يلاحظ أن الرثاء في البادية كان أكثره مصروما إلى سادات المشيرة
وفرسانها الذين لهم عليها اليد الطولى في حمايتها وقيادتها والقيام على مصالحها ؛ فهم الذين
يستحقون البكاء بهذا الصوت العالى ؛ شحذا لهمم الأحياء ، وتحريكا للقبيلة حتى
تثار لهم .

ولعل هذا يفسر لنا قلّة رثاء من يموت حتف أنفه في الشعر البدوى . وهو على
قلته يدور حول الملاصقين من الأهل والأصدقاء - خصوصا الأبناء - وينتاب عليه
التفجع والتحصن المسحوب بالمواساة والنعزية والتسلى ، فهو في الغالب يقوم عليه عنصرى
الندب والمزاء . من ذلك ما قاله أبو ذؤيب الهذلى في أبناءه الخمسة الذين فقدهم في
عام واحد (١) :

أمن المنون وريها تتوجع ؟ والدهر ليس بمعتب من يجزع (٢)
قالت أميمة : ما لجسمك شاحبا منذ ابتذات ومثل مالك يفع (٣)
أم ما لجيبك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذلك المضجع (٤)
فأجبتها أن ما لجسمى أنه أودى بنى من البلاد فودعوا (٥)
أودى بنى وأعقبوني غصة بعد الرقاء وعبرة لا تقلع (٦)

-
- (١) ديوان الهذليين ص ١ طبع دار للكتب المصرية .
(٢) المنون : النية ، وريها : حواشيها ، ليس بمعتب : ليس بمرض .
(٣) ابتذل : امتحن نفسه في الأعمال لموت من كان يكفيه .
(٤) أقض المضجع : صار كأن به حجارة صغيرة . (٥) أودى : هلك .
(٦) يشير بقوله « بعد الرقاد » إلى أن حزنه يمنه النوم حين ينام الناس .

سبقوا هوى وأعقوا لهوام فتخرموا ولكل جنب مصرع (١)
فغرت بدمعهم بيمش ناصب وإخال أنى لاحق مستتبع (٢)
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المية أقبلت لا تدفع
وإذا المية أنشبت أظفارها أقيت كل تيممة لا تنفع
فالمين بدمعهم كأن حدائقها سملت بشوك فهي عور تدمع (٣)
لا بد من تلف مقيم فانتظر أبارض قومك أم بأخرى المصرع
ولقد أرى أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكاء من يفرج
وليأتين عليك يوم مرة يبيكي عليك مقنعا لا تسمع (٤)
كم من جميع الشمل ملتئم الهوى باتوا بيمش ناعم فتصدعوا
فلئن بهم جمع الزمان وريبه إني بأهل مودتي المنجع

والشاعر البدوي أمام ميتة غيره أمام قتيله ؛ إذ الدافع إلى الرثاء هنا غيره هناك ، وهو في كلتا الحالتين يمبر عن مكنون نفسه في صدق ، غير أنه في رثاء القتلى يدرك أن لراثته وظيفة اجتماعية تتمثل في الإثارة والتحميس ، ويضمن رثاءه ما يحقق ذلك ، ويدرك أنه في بكاء الموتى حتف أنوفهم إنما يصور مشاعره الذاتية ، وانفعالاته الوجدانية .

(١) أعقوا : أسرعوا ، فتخرموا : أخذوا واحدا .

(٢) غبرت : بقيت ، ناصب : ذى تعب ، مستتبع - بفتح الباء - متلحق ، يقال :

استتبع فلان ذهب به .

(٣) الحدائق . جمع حدقة ، وسملت : فقتت ، وعور - بضم معين - جمع عوراء

من العوار بضم أوله وكشديد ثانية وهو ما يصيب للمين من رمد أو قذى .

(٤) مقنعا : ملففا بأ كفانك .

الغزل :

حديث الشاعر عن المرأة يطلق عليه (غزل) ، وهذا الحديث يتنوع ويختلف من شاعر إلى شاعر ومن بيئة إلى بيئة ، وتارة يقف الشاعر بحديثه عن المرأة عند حد اجترار ذكرياته الماضية في علاقاته بالمرأة ، وتارة يخلص حديثه لوصف محاسن المرأة ، وبيان مفااتها التي استهوته ، ومرة أخرى تراه يخاطب المرأة مستمطفا ، يكشف لها عن حبه لها ، واقتنانه بها ، ويذكر ما يفعله فيه بمدها عنه من لو اعج الشوق ، وما يكابده من جراء ذلك . والشاعر أمام هذه الأحوال الثلاثة خاضع لطروف بيئته وأخلاقيات مجتمعه بحيث لا يستطيع أن يتجاوز أعراف قومه وقيمهم ؛ إذ المرأة عند العربي تمثل الحرم الذي يجب على الصغير والكبير أن يبذل حياته في حمايته والإبقاء عليه نظيفا من كل ما يشين ؛ فليس الشاعر مطلق الحرية في الحديث عن المرأة ، إنما هو - على خلاف للفنون الأخرى - هنا ملتزم بالترام التام بما تقره القبيلة من ذلك .

والناظر في الشعر البدوي في العصر الجاهلي يلاحظ أن الشاعر البدوي - في الجملة - يتحفظ في الحديث عن المرأة دائما ؛ فهي في نظره أمل مقدس لا يحق له أن يكشف من مفااتها إلا الأشياء العامة التي تليء عن سر تعلقه بها دون أن يس حرمانها المقررة ، إلا أن تكون أمة لا حرمة لها .

فالنزل البدوي - في جملة - غزل عفيف ، لا يخرج على إطار القيم البدوية ، حتى لقد أطلق رواة الأدب العربي على هؤلاء الغزليين البدويين اسم (التميميين) تمييزا لهم من المشاق الماديين ، وأصبح قرين كل اسم منهم فتاة عرفت به وعرف بها كالمرقش الأكبر وأسماء ، والمرقش الأصغر وهاطمة ، والحبل وميلاء ، وعبد الله بن المعجلان وهند ، ومالك بن الصمصامة وجوب ، وقيس بن الخدادية ونعم ، وعبد الله بن علقمة وحبيشة ، وعمرو بن كعب وعقيلة . وكان أشهر هؤلاء جميعا عنزة وعبلة .

* * *

ومن نماذج الشعر التي توضح ذلك ما قاله المرقش الأكبر مصورا حيرته النفسية ،

وصراعه الحاد ، وما يمانيه من قلق وعذاب ؛ إذ يسائل نفسه عن مدى صموده أمام
صبوات قلبه وهيامه بأسماء التي أصبحت كل شيء في حياته ، فهي الأمل الذي يرتجيه ،
ونجوى الفؤاد التي يمشي معها ، كما ذكرها اضطرب جسده وتملكته الرعدة كأما
مسته حى شديدة :

أغلبك القلب اللاجوج صبابة وشوقاً إلى أسماء أم أنت غالبه ؟
يهم ولا يمينا بأسماء قلبه كذاك الهوى إمراره وعواقبه (١)
وأسماء هم النفس إن كنت عالماً وبأدى أحاديث الفؤاد وغالبه
إذا ذكرتها النفس طلت كأنى يزعر عن قفائف ورد وصالبه (٢)

وما قاله عمرو بن كعب يصور فيه إقبال الليل عليه بميدا عن محبوبته ، وما يمانيه
فيه من أحزان تذيب مهجته ، وتسيل دموعه ، وتنتزع الزهرات الحارة من صدره :

إذا جن ليلى فاضت العين أدما على الحد كالندران أو كالسحاب
وما أسفى إلا على ذوب مهجتي ولم أدر يوماً كيف حال الحباب

وما قاله ابن العجلان مصورا استسلامه - على الرغم من شدة بأسه وعلو همته -
أمام لحاظها الى ترسل سهامها لتصيب قلبه ، دون أن يستطيع لها دوما :

لقد كنت دأ بأس شديد وهمة إذا شئت لسا للساء لستها
أتقى سهام من لحاظ فأرشتت بقلى ، ولو أستطيع رداردتها

وما قاله قيس بن الحدادية مصورا الغمض للتلاطم من الأحزان التي يطويه حين
تبعده عنه ، حتى يفضل الموت العاجل على الحياة وحيدا مع أحراره وهمومه .

فليت المنايا صبحتى عدية بدسح ولم أسمع لبين مناديا
وود أيقمت نفسي عشية مارقوا بأسفل وادى الدوح أن لا تلاقيا
إذا ما طواك الدهر يا أم مالك فشان للمايا القاصدات وشانيا

(١) إمرار الهوى : مرارته أو شدته .

(٢) الورد - بكسر الواو - الحمى ، والقفائف : الرعشة ، والصالب : شدة

للحرارة مع رعدة .

وما قاله عنثرة مصورا لواعج نفسه ، كاشفا عن الأهواء المتدفقة فيها ، وما يعانى من الفراق ومرارة الحرمان ، حين ارتحل أهل عبلة إلى بنى شيدان :

يا طائر البان قد هيجت أحزاني وزدتنى طربا يا طائر البان (١)
إن كنت تندب إلنا قد فجمت به فقد شجاك الذى بالبين أشجاني
زدنى من الفرح واسعدنى على حزنى حق ترى عجبا من فيض أجناني
وقف لتنظر ما بى لا تكن عجلا واحذر لنفسك من أنفاس نيراني
و طر لملك فى أرض الحجاز ترى ركبا على عاج أو دون نعمان (٢)
يسرى بجارية تمهل أدمعها شوقا إلى وطن ناء وجـيران
ناشدتك الله يا طير الحمام إذا رأيت يوما حول القوم فأنماني (٣)
وقل : طربحا تركناه ، وقد فنيت دموعه وهو يـيـكى بالدم القانى

بيد أن الناظر فى شعر عنثرة يلاحظ أنه - على الإجمال - يمزج فيه بين الغزل والفخر ووصف معاركه الحربية وروسيته وإقدامه ، وكأنه جعل من كل ذلك وسيلة إلى قلب عبلة يصل إليه عن طريقها ، أو كأنه جعل من حب عبلة دافعا إلى جلائل الأعمال وحافزا إلى محمود الأعمال من عفة ونجدة وشجاعة وتضحية ، يوضح ذلك قوله :

سلى يا عبـل قومك عن معالى ومن حضر الوقيعة والطرادا (٤)
وردت الحرب والأبطال حولى تمـز أ كـفها السمر الصمادا (٥)
وخضت بمهجتى بحر المنايا ونار الحرب تتقد اتقـاد
وعدت مخضيا بدم الأعداى وكر الحرب قد حضب الجوادا

وقوله عازيا لعبلة الفضل فى لقائه الصباب ، وصموده أمام عمرات الحروب ،

(١) البان : اسم شجر يشبه المنصاف .

(٢) عاج ونعمان : مكانان .

(٣) حمولة - بضم الحاء - جمع حمل : الهودج أو البعير الذى عليه الهودج .

فانماني أصلها فاننى ، وهو تجوز للشعر .

(٤) الوقيعة : القتال ، وبجمع على وقائع . والطراد : المطاردة .

(٥) السمر : الرماح ، والصماد - بكسر الصاد - جمع صعدة وهى القناة المستوية ،

يريد بها الرماح

مفتخرا بأنه لم ينهزم في أية معركة خاضها بقوة دمه التي يرجو من ورأها النظر إليه
بمعين الرضا :

ياعبل لولا أن أراك بتساخري ما كنت التي كل صعب منكر
ياعبل كم من غمرة باشرتها بمثقف صلب القوائم أعر
ياعبل هل بلغت يوما أنفى وليت مهزما هـ زيمة مدبر
ياعبل دونك كل حى فاسألى إن كان عندك شبهة في عنتر

* * *

غير أن الغزل البدوي لم يكن وفقا لى هذا الاتجاه الماطف الميف . فقد كان
من شعراء البادية من أباح لنفسه أن يتحدث عن خلال المرأة الحيدة ، وصفاتها
الكريمة ، ناظيا بنفسه عن أن يمس جسدها وما يتصل به لأن لهذا الجسد حرمة أن
ترعى وتضان ، كقول الشنفرى في امرأته أميمة :

لقد أعجبتنى لا سقطا قناعها إذا مامشت ، ولا بذات تلمت
تبيت - بميد النوم - تهدى غبوقها لجاراتها إذا الهدية قات (١)
تحمل بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما يوت بالمذمة حلت
كان لها في الأرض نسيا تقصه على أمها وإن تكلمك تبت (٢)
أميمة لا يخزى نثاها حليلها - إذا ذكر النسوان عفت وجات (٣)

لقد نال من الغزل عناية الشعراء البدويين ، وشده اهتمامهم ، وأقبلوا عليه يصبون
فيه مشاعرهم ، ويمرضون من خلاله رؤيتهم للمرأة ، حتى فرضوه على فنون الشعر
المختلفة ، وجمالوه تمهيدا ينقلون به سامعيهم من حياتهم العامة إلى ما يقصدون إليه ؛
فأصبح من أعرافهم الفنية أن يلقانا الشاعر مع مطلع القصيدة منتزلا بيكي ديار أحبابه

(١) النبوق : اللبن الذى يشرب فى المشى .

(٢) النسي : الشيء المنسى أو المفقود ، تقصه : تتمتع أثره ، أمها - بفتح الهمزة -

قصدها ، تبت : - بفتح فسكون - أوجزت .

(٣) نثاها : ذكرها وماذاع عنها .

الذين ارتحلوا ، ويقف على أطلالهم الدارسة بمد أن تركوها ، مستعيدا في هذا الموقف ذكريات الشباب وأحلام الصبا ، ثم ينتقل من ذلك إلى عرضه الأصيل من مدح أو رثاء أو شعر . الخ .

ولا ريب في أن هذه المقدمة الغزلية لآمد الدارس برؤية ذاتية للمرأة بقدر ما عده برؤية عامة لها ، فلولا احتفال المجتمع الفنى بالمرأة وبالحديث عنها لما أفر هذا المنهج الشعري ، الذي أصبح تقليدا يستهين به الشاعر على الوصول إلى عرضه ، وإن لم يتم على واقع حقيقي . إنما الذي يمد الدارس برؤية الشاعر للمرأة هو الشعر الذاتى الذى يصور لواعجه وأحزانه ، وأدراجه فى البعد عن المرأة أو القرب منها .

الوصف :

تكاد تنون الشعر الجاهلي - بدوية وحضرية - تقوم على الوصف؛ فالوصف هو الوسيلة المثلى لدى شعراء البادية، حتى إنهم اعتمدوا عليه في أعمالهم القصصية، وأسسوا عليه نمو الأحداث فيها، وتطور المواقف، وبنوا عليه الحركة القصصية (الدرامية)، مما دعا كثيرا من الدارسين إلى أن ينفوا عن الشعر الجاهلي من القصة، متوهمين أن هذا الوصف جميعه ناشئ من تغنى الشاعر وميله إلى القافية .

وفي الحق أن دارس الشعر البدوي في هذه الفترة يجد فيه وصفا للذاتيات، كما يجد فيه وصفا للموضوعيات على اختلاف أجناسها وأنواعها، وتباين أشكالها وهيئاتها . ويجد فيه وصفا للمعنويات والمدرجات العقلية والخيالية، كما يجد فيه وصفا للماديات والمدرجات البصرية والحسية

ترى الوصف القادى في نحو قول المرقش الأكبر يصف ما يمتل في داخله، وما شعر به حين مر به طيف محبوبته سليمى ليلا، وأبرز هذه الانفعالات النفسية في صورة مادية تعكس ما اضطرب به نفسه، معتمدا على المقابلة بين مظهره الخارجى ومظهر أصحابه الذين لا يمانون مثل معاناته (١) .

سرى ليلا خيال من سليمى	فأرقنى وأصحابى هجود
مبت أدير أمرى كل حال	وأرغب أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفى لنار	يشب لها بذى الأرقطى وقود (٢)
حواليها مهاجم الدراقى	وأرآم وغزلان رقود (٣)

(١) المنضليات ص ١٠٤ بشرح السندوبى .

(٢) الأرقطى جمع أرقطة : نبات شجيرى ينبت في الرمل، ويخرج من أصل واحد، ورقة دقيق، وثمره كالعنب .

(٣) المها جمع مهاة : بقرة الوحش . وأرآم جمع رثم : ولد الظبي أو الظبي خالص البياض .

نواعم لآءالج بؤس عيش أواس لا تروح ولا ترود
يرحن مآ بطاء المشى بدا عليهن المجاسد والبرود (١)
سكن ببلدة وسكت أخرى وقطمت الموائق والمهود
فما بالى أى ويخان عهدى وما بالى أصاد ولا أصيد ١٢

وترى وصف الموضوعيات فى نحو تائية للشنفرى الى يصف فيها عارته فى جمع من الصعاليك على سلامان ، فيقدم صورة حية واقمية ترى فيها تحركة ومن معه بأسلحتهم للانتقام من سلامان ، حتى يجملك تصاحبهم وتميش معهم أدق تحركاتهم وحياتهم ، وفيها يقول واصفا طرفا من حياتهم الاجتماعية فى أثناء تحركهم للغارة ، وكيف أن رابطة أسرية قوية تشدهم إلى بعض ، بحيث يقوم على خدمتهم واحد منهم - وهو تأبط شرا - فيقدمه فى صورة الأم التى تقوم على رعاية أبنائها ، ويخضعهم لطام قاس ، تفرضه ظروف مديتهم حتى لا ينضب زادهم :

وأم عيال - قد شهدت - تقوتهم إذا أطعمتهم ، أو تحت وأقلت (٢)
يخاف علينا للميل إن هى أكثرت ونحن جياع ، أى آل تألت (٣)
مصمكة لا يقصر الستر دونها ولا ترنحى للبيت إن لم تبيت (٤)
لها وههه فيها ثلاثون سيحما إذا آست أولى المدى اقشمرت (٥)

وترى الوصف المعنوى التجريدى فى كثير من الحكم التى امتلأ بها شعرهم ، ولقى يمثلها قول رهير فى مملقته عارضا رأيه فى الحياة وحلاصة تجاربه فيها ، ووصاياها ونصائحها المترعة من هذه للمعرفة المحررة :

(١) المجاسد جمع مجسد - بكسر الميم - الثوب الملامس للجسد ، والبرود جمع برد : كساء مخطط ينحف به .

(٢) أم عيال : يقصد تأبط شرا ، أو تحت : قترت وأقلت

(٣) الميل - بفتح الميم وسكون الياء - الفقر ، أى آل تألت : أى سياسة نسوسنا ،

يقال : آله : ساسه .

(٤) مصمكة - بكسر اللام - صاحبة صعاليك ، لا يقصر الستر دونها : لا ينفى أمرها .

(٥) الوصية - بفتح فسكون - الجمعية ، والسيحف - بفتح السين والحاء - السهم

عريض النصل ، وأولى المدى : طلائع الأعداء ، واقشمرت : تهيأت للقتال .

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تحطىء يعمر فيهم-رم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يفتس بأنيساب ويوطأ بعنسم
ومن هاب أسباب المنايا يمله وإن يرق أسباب السماء يسلم
ومن يفترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن لا يزل يستحمل الناس أمره ولا ينفها يوما من الدهر يسأم

هذه طائفة من الحقائق المردة تراءت أمام عقل زهير فتقدمها في ثوب مادي من الشعر لتصبح أمام متلقي شعره مائلة ، لا تتحوج إلى مساواة فكرية ، ولا إلى جهد عقلي ، بل تصل إلى نفس المتلقي في يسر ؛ لوضوحها ودقة وصفها .

وترى الوصف المادي الذي يصور فيه الشاعر ما تقع عليه عينه من أسباب الحياة التي اشتمل عليها البادية ، من مفاوز بعيدة يجوبونها مما فيها من انقطاع عن أسباب الحياة ، وإبل يقطعون بها تلك اليا في ، وجياد يواجهون بها الخصوم في حروبهم بين كروفر ، وأدوات حرب من سيوف ورماح ودروع ؛ فهذا الشنفرى يصف سلاح تأبط شرا أحد أصحابه وقد شبهه بالأم في إدارة شئون الجماعة ، فالسيف أبيض صارم يشبه الملح في لونه ، حديده صاف كأنه الماء الصافي :

إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ورامت بما في جفرها ثم سلت (١)
حسام كلون الملح صاف حديده جرار كأقطع المدير المنمت (٢)

وهذا زهير يصور رحلة صواحيبه في الصحراء ، يلفت الأنظار إليهن وهن رااحلات يصعدن الروابي ، وهبطن الوديان ، في هودج مكللة ووردية الحواشي كأنها الدم ، فإذا كن في وادي السوبان من ديار تميم تدين أرجلهن للراحة بادية عليهن آثار النعمة والترف . بدأن الرحلة في الصباح ، ورحلن في السحر ، دون أن يخطئن وادي الرس

(١) فزعوا : دهمهم محاربون وتهاؤوا لقتالهم ، وأبيض صارم : سيف قاطع ، الجفرة : الجمبية ، رامت بما فيه أى بسهامه ، سلت السيف . شهرته .
(٢) جراز ، بضم الجيم وفتح الراء - قاطع ، أقطع المدير : قطع الماء فيه ، شبه للسيف بها في اللعنان والبريق .

الذى تصدن ، فقد حملان جبل القمان ومن أرضه الصمبة عن يمينهن قطون هذه الرحلة
من وادى السوبان على رحل جديد واسع رحب ، وكلا زلن بأرض للاستراحة خلفن
وراهن قنات الصوف التى تشبه عنب الثعلب ، حتى إذا انتهين إلى الماء الذى يطلبنه
للاقامة القين عما الرحال ونزلن به :

- | | |
|-----------------------------|--------------------------------|
| تبصر حليلى هلى ترى من ظمائن | نحملن بالعلباء من ورق حرثم (١) |
| علون بأنماط عتاق وكلة | وراد حواشيها مشا كفه الدم (٢) |
| وركن فى السوبان يملون متته | عليهن دل الناعم المتوسم (٣) |
| ويهن ملهى للصديق ومنظر | أزبق لعين الماظر المتوسم (٤) |
| بكرن بكورا واستحرن بسحرة | فهن لوادى الرس كاليد للقم (٥) |
| حملن القمان عن يمين وحزنه | ومن بالقمان من محل ومحرم (٦) |
| ظهن من السوبان ثم جزعه | على كل قيني قشيب ومأم (٧) |
| كان قنات العهن فى كل منزل | زلن به حب القما لم يحطم (٨) |
| لما وردن الماء زرقا جامه | وضمن عصى الحاضر المتخيم (٩) |

- (١) الظمائن : السماء الراحلات فى الهوادج ، والعلباء : اسم موضع ، وجرثم ،
- بضم الجيم - ماء لبني أسد أحلاف ذبيان .
- (٢) الأنماط : السائر على الهوادج ، وراد - بكسر الواو - حجر ، ومشاكفة : مشابهة ،
- (٣) وركن : ثنين أرجلهن للراحة ، والسوبان : واد فى ديار بني تميم واليمن :
الظهر ، ودل الناعم : أثر العمة .
- (٤) المتوسم : المتفرس فى الوجه .
- (٥) بكرن . رحلن فى الصباح الباكر ، واستحرن : رحان سحر ، كاليد للقم :
أى إن ما تصدنه لا يحطئه كما لا تخطىء اليد القم .
- (٦) القمان - متح القاف - جبل لبني أسد ، والحزن : الأرض المصيبة المليظة ،
والحل - بضم الميم - الحليب صد المحرم .
- (٧) جزعه : قطعه ، والقيني : الرحل ، والمأم - بضم الميم - الواسع الرحب .
- (٨) العهن : الصوف ، وحب القما : عنب الثعلب .
- (٩) الحمام - بكسر الجيم - السطح والمجتمع ، ووضع العصى كناية عن الإقامة

وزهير في استقصائه وصف رحلة صواحيبه هما قريب الشبه بأستاذه أوس بن حجر في وصف القوس، حيث تتبع القوس مذكان غصنا في شجرة بعيدة للنال وذلك قوله :

ومبضوعة من رأس مرع شظية بطود تراه بالسحاب مجللا
على ظمـر صفوان كأن متونه علقن بدهن يراق المتزلا
يطيف بها راع يحشم نفسه ليكلاً فيها طوره متأمـلا
على حير ما أبصرتها من بضاعة للتمس بيما بها أو تبكلا
فويق جبيل شامخ الرأس لم تكن لتبناه حتى تسكل وتمسلا

إلى آخر القصيدة ، ولنا لقاء بها في موطن آخر من بحثنا هذا إن شاء الله .

وترى الوصف المادى لما يحيط بالشاعر في بيئته مائلا - كذلك - في وصف البقرة الوحشية التي شبهه به ليبد بن ربيعة العامري ناقتة ، تلك البقرة التي افترس السبع ولدها لما خذلتها وذهبت ترعى مع صواحيبها ، وأخذت تبحث عنه طائفة صائحة بين الرمال ، فلما لم تجده اشتد حزنها وبانت في مكانها تبحث عنه وقد أسبل مطر واكف علاظها في تلك الليلة التي احتفت فيها النجوم ، فاشتد الظلام ، فحاولت الاستتار من البرد وللطر بأغصان الشجر ، ولكنها كانت تنقص وتنال كشيان الرمل عليها فلا تحميها من البرد والمطر ، وتمدو في قلق متبدو في الظلام كأنها لؤلؤة سل نظامها ، حتى إذا انكشف ظلام الليل بكرت البقرة من مأواها تبحث عن إبنها ، ولكن قوائمها نزل عن التراب للندى لكثرة المطر الذي أصابه ليلا ، تتمعن في الجرع ، وتتردد متحيرة في وهاد هذا الموضع ومواضع عدرانه سع ليال بأيامها ، حتى إذا يئست البقرة من العثور على ولدها وصار ضرعها الممتلىء لبنا خلفا لا تقطع الابن لمدم إرضاعها ، سمعت صوتا ولم تر صاحبه فخافت ، فعدت فزعة مذعورة لا تعرف منجأها من مهلكها . عندئذ يئس الرماة من وصولهم لها ، فأرسلوا كلابهم في طلبها ، ولحققت بها ، ولكن البقرة تصدت لتلك الكلاب وطمنتها بقرها الذي يشبه الرمح دفاعا عن نفسها :

أنتك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها(١)

(١) مسبوعة : أصابها السبع بافتراس ولدها ، والصوار: القطيع من بقر الوحش .

خفساء ضيقت الفرير فلم يرم	عرض الشقائق طوفها وبنامها (١)
للمسر قهد تنازع علوه	غس كواسب لايعن طامامها (٢)
صادهن منها غيرة فأصبها	إن المنايا لانطيش سهامها
باتت وأسبل واكف من ديمة	يروى الخائل دائماً تسجامها (٣)
يملو طريقة متنها متواتر	في ليلة كفر النجوم ظلامها (٤)
تجتاف أصلا قالصا متبذا	بمحبوب أنقاء يعيل هيامها (٥)
وتغى في وجهه الظلام مفيرة	كجامة البحرى سل نظامها (٦)
حق إذا حسر الظلام وأسفرت	بكرت نزل عن الثرى أزلامها (٧)
علمت تردد في نهاء صمائد	سبعا تؤاما كاملا أيامها (٨)
حق إذا يئست وأسحق حالق	لم ييله إرضاعها وعطامها (٩)
فتوجست رر الأيس فراعها	عن ظهر غيب والأيس مقامها (١٠)
فقدت كلا الفرجين تحسب أنه	مولى الخافة خلفها وأمامها (١١)

- (١) الفرير : ولد البقرة الوحشية ، فلم يرم : فلم يبرح ، والشقائق جمع شقيقة : الأرض الصلبة بين رملتين ، والبنام - بضم الباء - صوت رقيق .
- (٢) القهد - بفتح القاف - الأبيض ، والشلو : العضو ، والغبس - بضم الغين - جمع أعبس : لون كالرماد .
- (٣) الواكف : القطر ، والديمة : السحابة التي يدوم مطرها ما لا يقل عن نصف يوم .
- (٤) المتن : الظهر ، كفر النجوم : سترها .
- (٥) الاجتياف : الدخول في جوف الشيء ، والتنشير : التنعى ، والمحبوب جمع عجب : أصل الدنب ، وهو هنا أصل النقا ، والنقا : كثبان الرمل ، والهيام : مالاتماسك به من الرمل .
- (٦) الجامة : درة مصوغة من الفضة .
- (٧) الأزلام : القوائم . (٨) الملة والملع : الانهماك في الجزع ، والنهاء - بضم النون - جمع نهى : التندير ، وصمائد - بضم الصاد - موضع ، والتؤام جمع تؤم .
- (٩) أسحق : حاق ، والحالق : الضرع المتلىء لبنا .
- (١٠) الرز - بكسر الراء - للصوت الخفى . (١١) تنرج : الواسع من الأرض ، أخبر أنها خائفة من كلا جبينها ، مولى الخافة : للموضع الذى فيه الخافة .

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غضفا دواجن قانلا أعصامها (١)
فلحقن واعتكرت لها مدرية كالسمهرية حدها وتامها (٢)
لتنودهن وأيقنت إن لم تزد أن قد أحرم من الحقوف حمامها (٣)
تقصدت منها كساب فخرجت بدم وعودر في المكر سخامها (٤)

وصفة القول ، لقد وصف البدويون في أشعارهم كل شيء وقمت عليه أعينهم
أو مرعيا لهم ، أو أحسوا به من خلال مشاعرهم في براعة فنية ودقة ، كما توجهوا
بنظرم الفاحص إلى دخائل نفوسهم ومحصول عقولهم معكسوه على مرآة شعرهم في
صدق وبساطة .

-
- (١) الكلاب النضف : المسترجية الآذان ، والدواجن : الملمات ، والقفول : اليبس ،
والأعصام : البطون .
- (٢) اعتكر : عطف ، والمدرية : طرف قرنها ، والسمهرية من الرماح : الرماح
المنسوبة إلى سمير رجل اشتهر بمحذق صنعها من قرية خطا بالبحرين .
- (٣) الدود : الكف ، والإحمام : القرب ، والحنوف : قضاء الموت ، والحمام :
تقدير الموت .
- (٤) كساب : اسم كلبة ، وكذلك سخام .

الباب الثالث

الشعر الحضري

الفصل الأول

أعلام من شعراء الحضارة

أقصد بشعراء الحضارة أولئك الشعراء الذين مرضت عليهم ظروف حياتهم أن يعيشوا في الحضارة فترة من الزمان مكنت لقيمها وأخلاقياتها ومظاهرها وعاداتها أو لبعض ذلك من تقوسهم، جعلت منهم عربا غير العرب المجاورين لهم في البادية حسا وهمورا، وسكرا واعتقادا، وأسلوبا في الحياة، وتصورا وخيالا... إلى غير ذلك من الآثار التي تفرضا الحضارة على قاطنينا أو من ينزلون بها.

ولعلنا نذكر مما قدمنا أننا نرى شاعر الحضرة واحدا من ثلاثة هم الذين تصورهم واقعين تحت سطوة الحضارة بمؤثراتها وقيمها.

أولهم: ذلك الشاعر العربي الذي ولد في كنف الحضارة سواء كانت حضارة عربية خالصة، وهي التي تستقي حضاراتها من بقايا الحضارة العربية القديمة المزوجة بما يصلها من الحضارات المجاورة عن طريق الرحلات التجارية، والجلاليات الأجنبية الوافدة إلى أرض العرب، والجماعات العربية الزائرة لبـلاد فارس والروم والحبشة ومصر على اختلاف الدوام إلى ذلك - مثل يثرب، والطائف ومكة، وما بين النهرين، وعمان، والبحرين، واليمن، وكندة، أو كانت حاضرة عريية تكاد تذوب في جيرانها من غير العرب - وهي التي تقتبس حضارتها من الحضارات المجاورة لشبه الجزيرة العربية من فارسية، ورومية، ومصرية، وحبشية... الخ - مثل الحيرة والشام.

وثانيهم: ذلك الشاعر البدوي الذي خرج من باديته إلى إحدى الحواضر العربية بعد أن شب ونما حسه وتكوفت أفكاره ومشاعره، تخلت مظاهر الحضارة الطارئة ليه، لكنه لم يستطع أن يتلاءم معها تماما، ولم تتمكن آثارها منه تمكنا يسلخه من بيئته الأصلية، فوقف في تأثره بالحضارة الجديدة عند حدود الشكل والضمون، أما المعارف والأخيلة والماني فظلت عربية بدوية خالصة.

ثالثهم : ذلك الشاعر العربي الذي أدرك الإسلام - بدويا كان أو حضريا - فاستجاب له ، واندفع إليه بقوة وإخلاص ، مؤمنا بأفكاره ، مكبا على كتابه ، أو مارضا رافضا ، فاندفع في مقاومته متأثرا بمنهج شعرائه ، فإذا مفاهيم غير المفاهيم ، وأمكار غير الأمكار ، وأساليب غير الأساليب ، والفاظ غير الألفاظ ، وأخيلة غير الأخيلة ، ومعان غير المعاني ، وإن لم تكن غريبة عن سابقتها ؛ لأن الجديد عربي هذبته حضارة الإسلام ، التي اعتزت بالمرية المهدبة سواء كانت بدوية أو حضرية .

* * *

لقد كان حياة الحضارة وماحتويه من مظاهر الترف ، ووسائل النعيم ، وأسباب التحضر للمادية والفكرية - أكر الأثر في الشعر الجاهلي ؛ فقد استحوذت هذه الحياة على طائفة من شعراء هذا العصر - على امتداده - فشككت حياتهم بشكل يختلف عن طبيعة الحياة في البيئة انجاهلية عامة ، وأجهت بهم وجهة نفسية وعقلية وسلوكية تنابر وجهات أقرابهم وإخوانهم في البيئات العربية الأخرى ، وصبغت أذواقهم الفنية بالأصاغ والألوان التي تمكسها حياة الترف والتنعم في الحضارة المادية ، وحياة التسامى والترقى في الحضارة الإسلامية ، فلم يهتموا إلا بالأغراض التي تستجيب لها نفوسهم تلك ، ولم يقصدوا إلا إلى الفنون الشعرية التي تلى حاجاتهم ، وداروا بمآثرهم وأحيلتهم في محيط الحضارة التي تضمهم وماتصفيه على أمكارهم وخيالاتهم من انطباعات .

فلم يكن شعراء الحضارة هؤلاء على مستوى واحد في درجة تأثرهم تلك البيئة ، بل إنهم ليتفاوتون في ذلك تفاوتا كبيرا - وإن لم يخرج عن إطار البيئة - يرجع إلى صلة الشاعر بالحضر وطبيعة تلك الصلة وملاساتها وطبيعة الحضارة وأبعادها ؛ إذ ليس من المعقول أن يكون تأثير البيئة فيمن ولد ودرج بين أهلها مماثلا لتأثيرها فيمن نزع إليها ، طالما فيما تقدم له من أسباب الترف والنعم ، خلفا وراءه بيئته الأصلية وما فيها ومن فيها ، وليس من المعقول أن يكون تأثير الحضارة المادية مساويا لتأثير الحضارة الفكرية والمقيدية .

وكان من أشهر شعراء هذه البيئة عدى بن زيد، وأبو داود الإيادي وأمرؤ القيس وطرفة بن العبد ، والمابتة الندياني ، والأعشى ، وأوس بن حجر ، وعبيد بن الأبرص ، والعباس بن مرداس ، والمثقف المبدى ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير .

وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وأمّية بن أبي الصامت ، والسموأل بن عادياد ،
وكعب بن الأشرف . . الخ غير أننا سنتناول بالمرض ستة شعراء من هؤلاء يمثلون
الاتجاهات المختلفة التي وضحت في شعرهم تأثيرا بظروفهم البيئية الخاصة ، وهؤلاء
الشعراء الستة هم عدي بن زيد ، وامرؤ القيس ، والنابغة ، والعباس بن مرداس ،
وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير .

لقد جاء الإسلام فبدا اثره واضحا على عقل العربي وسلوكه ، بحيث أصبح كل
دارس متخصص يرى تأثيره من وجهة تخصصه أبرز التأثيرات ؛ ودارس الديانات
يرى في الإسلام مؤثرا هـمـالا في الحياة الدنيوية حول العرب من الشرك إلى التوحيد ،
ومن الوثنية المادية إلى التجريد . ودارس الاجتماع يرى الرؤية نفسها في المجال الاجتماعي ؛
فقد تحول به العرب من القبلية إلى الدولية ، ومن المصيبة الأسرية إلى المصيبة الروحية ،
ودارس الثقافة يلمس التأثير ذاته ؛ فقد تنازل العربي بالإسلام عن الخيال المجهج في
تمبيراته وأمسكاره وانتقل إلى أسلوب آخر في التعبير والتفكير يمتزج فيه الخيال بالواقع ،
والمحافظة بالفكر ، والشعور بالمقل . وقد رأينا مظاهر ذلك التأثير في النثر العربي على
اختلاف صوره .

والناظر في القرآن الكريم ، وشعر صدر الإسلام ، يخيل إليه أنه أمام مخاصمة
من القرآن للشعر ، خصوصا حين يقرأ قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر
أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » (١) . حتى لقد بلغ الوهم ببعض
الدارسين أن قرروا أن الإسلام يحرم الشعر أو يكرهه ، مغفلين ما كان من رسول الله
صلى الله عليه وسلم من تقدير للشعر إلى حد جملة يجمع برده على الشاعر كعب بن زهير
أثر إنشاده قصيدته (بابت سعاد) ، قائلا : « إن من الشعر لحكمة » (٢) ، وما روى
من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا بقتل الضمر بن العمارت أحد أسرى بدر
الذين طالما آذوا الرسول ، فلما قتل عرضت ابنته (قتيلة) لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو بطوف ، فاستوقفته وحذت رداءه حتى انكشف منكبه ، فأشدهت أبيضاً
جاء في آخرها :

(١) الشعراء : ٢٢٤ ، ٢٢٦ .

(٢) الشعراء : ١٩٢ ، ١٩٥ .

أحمد ولأنت ضنء نجيبية في قومها ، والفحل فحل معرق
ماكان ضر لومنتت ورعا من الفسق وهو المفيظ المنق
والضر أقرب من أخذت برلة واحقهم إن كان عنق يعتق
لو كنت قابل هدية لفسديته بأعز مايفدى به من ينفق

فلما مرغت قال صلى الله عليه وسلم : لو سميت هذا قبل أن أقتله ماقتلته إلى غير ذلك من اللرويات التي تكشف عن احتمائه صلى الله عليه وسلم بالشعر والشعراء ، ولو كان ماجاء به القرآن الكريم حصومة للشعر وتحريما له أو كراهية لما قابل الرسول الأمين الشعر والشعراء بهذا الاحتفاء .

ومن يتأمل الآيات الكريمة يحد القضية التي يعرضها القرآن تبدأ قبل ذلك حيث يلبه تعالى إلى الفرق بين الشعر والقرآن ، ردا على زعم المشركين وادعائهم بأن ماجاء به محمد شعرا أو كهانة أو سحرا تنزلت به الشياطين ، فقال جل شأنه معرفا بالقرآن الكريم : « وإنه لتنزىل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين » (١) . ثم قال تعالى : « وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون » (٢) . إلى أن يقول موضحا الفرق بين القرآن والشعر : « هل أنبشكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفك أئيم . يلتقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » فالوارنة صريحة بين القرآن والشعر ، أجاب بها تعالى على دعوى أن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم من قبيل الشعر الذى يلبب بالمواطنف ، ويستحوذ على المشاعر . وضح فيها أن القرآن ليس من ذلك الضرب الخادع ، القائم على الساطفة ، وإنما هو كلام صبيغ بلسان عربى لبيين الحقيقة ، ويكشف الطريق لدوى العقول التي تقدر على وزن الأمور ، وتسعى لاختيار الحق منها ، فهو وسيلة إنذار وتمييز ، لا استحواذ وتأثير . كما وضح فيها الفرق بين طائفتين من الناس ، إحداهما تهيم وراء ما يامب بمشاعرها وعواطفها ، أم سماتها الغواية والخيال المنح حيث يقولون

(١) سورة الشعراء آية ٢١٠ ، ٢١٢ .

(٢) سورة الشعراء آية ٢٢١ ، ٢٢٧ .

ملايفلون ، والثانية تقف على أرض صلبة تطلق منها في تفكيرها ، وتسير عليها في سلوكها ، هي أقرب إلى الواقع ، والصق بالحقيقة ، فهم مؤمنون ، يعملون الصالحات ، ويذكرون الله ، وينتصرون من بعد ظلم ، ليسوا محدرين ولا مستسلمين لأوهام الخيال .

فالقضية ليست قضية الشعر ، بحيث تدبني منها موقف الإسلام من الشعر ، ولكنها قضية الإدعاء بأن ما جاء به محمد شعرا ، ففرق سبحانه بين الشعر وآثاره والقرآن ورسالته وآثاره ، وفرق بين الشعراء المستسلمين لخيالات الشعر واتجاهاته ، وبين الشعراء المؤمنين الذين لا يبعدهم الخيال الشعري عن الواقع .

ويقرر هذا أنهم كانوا حريصين على وصف محمد صلى الله عليه وسلم بالشاعر، إيماء إلى أن دعوته تلك رهن بحياته ، فإذا مات خبا سلطانه على النفوس وضمف حتى أصبح أثره لا تأثير له ، ومن ثم فهم يتوقعون أن الموقف سيتغير حين يموت محمد ، ولا يكون ثمة ذلك التأثير الشعري الساحر : « فذكر لما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نترصب به ريب للذون . قل ربصوا فإني معكم من المترصبين » (١) هذا وهم المشركين بنوه على حسب تصورهم في القرآن واعتقادهم أنه نمط من الشعر لا يابث أن تنطفئ جذوته ؛ فإنهم لما رأوا للقرآن ذلك التأثير البالغ على السامع والتساريء - ومدروا أن هناك قولا غير الشعر يبايع في التأثير هذا المبالغ - لم يكن أمامهم إلا أن يصفوا على القرآن صفة الشعر وإن كان غير مطابق في الشكل لما عهدوا وعرفوا من الشعر ، فهو في وهمهم شعر بتأثيره وليس ببائنه وشكله . ولو كانوا - في ذلك - يريدونه شعرا من كل الوجوه لما كانوا في حاجة إلى ذلك الإعلان المتكرر ؛ إذا لعل يعرف فيه تلك الصفة ، إنما هم فكروا وقدروا فلم يصلوا إلى غير ذلك .

من هذا المنطلق الواحي بمقاصد القرآن الكريم احتفل الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر والشعراء دون أن يجد في ذلك عضاة أو كراهية ، واحتفل معه الصحابة وسائر المسلمين شعراء وغير شعراء .

فالشعر في ظلال الإسلام وسيلة من وسائل متعبير يخضع لما خضع له سائر الوسائل

التعبيرية من مبادئ الإسلام وقيمه وأحاديثه . والشعراء في ظلال الإسلام كالشعراء في كل عصر وبيئة متهيئون للتأثر بما يظلمهم من موجبات المواطن والتفكير والخيال .

* * *

لا ريب في أن العصر الإسلامي إمتداد زماني للعصر الجاهلي ، فما كان عليه الشعر في العصر الجاهلي لا يمكن أن يتغير طغرة ، وإنما هو خاضع لقوانين الفطرة التي تقوم على التدرج في الانتقال والتنير فالعرب - حين بدأت الدعوة الإسلامية - هم عرب الجاهلية شعرا وحلقا وسلوكا . إلى غير ذلك وإنما بدأ أثر الإسلام في شعرهم حين دأبت دعوته : خلقت في السماء .

العربية مبادئ غير المبادئ ، وقيم غير القيم ، وجدت على الأرض العربية ظروف وملابسات غيرت شكلها أو كادت . وقد وضع ذلك كله بعد الهجرة إلى المدينة ، حيث اشتعلت نار الحرب بين مشركي مكة ومسلمي المدينة ، وكما شرعت الرماح واستلت السيوف في هذه الحرب ، سلت الألسنة ، وأذيمت القصائد من الجانبين . وقد لمع في هذه الحرب من حارب مكة أسماء شعراء كثيرين لم يكن لهم قبل ذلك ذكر - مثل صرار بن الخطاب الفهري ، وعبدالله بن الزبير ، وأبي عزة الحمصي ، وأبي سفيان ابن الحارث ، وهبيرة بن أبي وهب المخرومي - وجهوا شعرهم لهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وللصد عن الدين الجديد ، موقف من شعراء المدينة حسان بن ثابت يرد عليهم ، مدافعا عن الرسول وعن الإسلام ، ومعه كعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة وكانت معركة حامية الوطيس قدمت كثيرا من الشعر ، بيد أن الذي وصلنا منه قليل مشكوك في صحته ، لأن رواية ابن إسحاق لم يكن دقيقة في الرواية والنقل ، وقد نبه إلى ذلك ابن سلام في قوله عنه : « كان بمن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غشاء منه (١) »

وتضامن جماعة من شعراء اليهود مع شعراء مكة هجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ودعوا العرب إلى الإعراض عنهم ، وكان في مقدمتهم كعب بن الأشرف ، الذي بكى قتلى بدر ، واشتط في عداوته وشبب بدعاء الرسول ونساء المسلمين ، مما دفع

محمد بن مسلمة إلى قتله^(١) وإلى جرار هؤلاء وأولئك وقف كثير من شعراء العرب مع قريش ليكون قتلاهم ، وبهجون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وبخرضون قريشا على مواصلة الحرب ، ومكاشفة هذه الدعوة ، مثل أمية بن أبي الصلت الذي رثى قتلى بدر من قريش^(٢) ، والأسود بن يعقوب بن عبد الأسود الذي مدح قريشا وأشاد بانتصارهم في أحد^(٣) .

ولما فتحت مكة أقبل كثير من شعراء العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين معتذرين عما بدر منهم . طالبين العفو عما قالوا ، مثل كعب بن زهير ، وأبو ابن زهير وأبو سفيان بن الحارث ، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضيعه ، وكان شديد المداوة لرسول الله ، ثم أسلم عام الفتح ، وشهد حديبا فأبى فيها بلاء حسنا ، وبما قاله بمد إسلامه^(٤) :

لمـمـرك إني يوم أحمل راية لتغلب حيل اللات خيل محمد
لكاله لـج الحيران أظلم ليله مهذا أو ان حين أهدى وأهدى

* * *

واستمرت الحرب بلونها المسكرى والكلامى بمد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مع اختلاف الخصوم ، وفي عهد الصديق كانت بين المسلمين والمرتدين من قبائل العرب مثل أسد وغطفان رعيمة وحنيفة ، وفي عهد عمر كانت الحرب بين المسلمين ، وبين الفرس والروم ، حيث أقبل المسلمون جميعا على تلك الحروب . وكان من يتخلف عن الحرب لضرورة يحس في نفسه بأثم وضيق ، فخرج كثير من الشبان تاركين وراءهم آباء شيوخا يمولونهم ، مما دعا عمر إلى أن يسترجع أمثال هؤلاء ، من ذلك ما رواه صاحب الأغاني أن الخليل السعدي جزع حزنا شديدا حين خرج ابنه شيبان مع سعد ابن أبي وقاص ، وكان قد أش و صمف ، فمضى إلى عمر وأنشده أبياتا منها :

(١) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣

(٢) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٢٦٣

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٧

أيها كنى شيان في كل ليلة
وإن يك عصي أصبح اليوم ذابوا
فأني حنت ظهري حطوب تتابعت
إذا قال صهي : ياربيع ألا ترى ؟
وخببرني شيان أن لن يعقني
فلا تدخلن الدهر قـمرك حوبة
لقاي من خوف الفراق وجيب
وغصنك من ماء الشباب رطيب
فمشي ضعيف في الرجال ديب
أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
تمسق إذا فارقتني ونحوب (١)
يقوم بها يوما عايـك حبيب

وبكى عمر ورق له وكتب إلى سعد يأمره برد شيان على أبيه ، فعاد إليه مكرها ،
ولم يزل عنده حتى مات (٢) . وذكر ابن سلام أن أمية ابن حرثان بن الأسكر هاجر
إبناه كلاب وأحوه إلى البصرة بعد ما كبر وكف بصره فقتل لعمر :

لمن شيخان قد شـددا كلابا كتاب الله إن حفظ الكتاب (٣)
إذا هنت حمامة بطن وج طي بيضاتها ذكرا كلابا (٤)
تركت أباك مرعشة يدها وأمك ما لسيغ لها شرابا

فـكتب عمر إلى أبي موسى بإشغاصه إلى أبيه (٥) . وقال النابغة الجعدي لامرأته
حين أظهرت تأثرها لخروجه في حرب للفـرس (٦) :

بانت تذكري بالله قاعدة
يا ابنة عمي كتاب الله أخرجي
فإن رجعت رب الناس يرجعني
ما كنت أخرج أو أعمى فيمذرتني
والدمع ينهل من شأنهما شيلا
كرها ، وهل أمنع الله ما صلا
وإن لحقت بربي فابتغى بدلا
أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا

-
- (١) محوب : تأثم
(٢) الأغاني ج ١٣ ص ١٨٩ وما بعدها .
(٣) لمن شيخان : يعني لمن ترك شيخين كبيرين ، نشدا كلابا كتاب الله : استعملها
كلابا بكتاب الله ، حفظ الكتاب : رعى له حرمة وأطاعه .
(٤) وج - بفتح الواو - اللطائف .
(٥) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ١٩٠ وما بعدها .
(٦) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٩٣ .

ولما تولى عثمان الخلافة راحل سياسة عمر ، فأتم فتح إيران وإفريقية ، وفي أثناء ذلك اندلعت الثورة ضده ، وكانت فتنة راح الخليفة ضحيتها ، فبكاه كثير من شعراء المسلمين ، وتولى على رضى الله عنه الخلافة من بعده ، ولم يقر له قرار ، إذ خرج عليه طلحة والزبير ومعاوية ، وآررتهم السيدة عائشة أم المؤمنين ، واشتدت اللتان وتولت ، والتقى المسلمون في عدة معارك طاحمة ، لم تتوقف حتى قتل على فبكاه أصحابه وقد كانت هذه الحرب ميدانا لتصاول الشعراء ، وتفننهم في إسقاط المسلمين على الطرف الآخر ، واستشارتهم ضده ، وكل طائفة تحاول أن تقيم الحججة على الآخر .

(١)

إمرؤ القيس

نشأة :

امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو السكندی . ذكرت كتب الأدب له أكثر من إسم ، فاسمه حندج - بضم فسكون - وعدي ، ومليكة - بضم ففتح - وكما تعددت أسماؤه تعددت كناه ، فقيل : أبو وهب ؛ وأبو زيد ، وأبو الحارث . ولقب بامرئ القيس ، ودي القروح ، والملك الضليل . ولقد اتخذ بعض الدارسين هذا التمدد سبيلا إلى التشكيك في وجوده . مغفلين أن ذلك من طبيعة العرب ، إذ يطلقون على الشخص من الأسماء والسكنى والألقاب ما يتناسب مع الأحداث والمواقف التي يتعرض لها ، والصفات التي يكون عليها . هذا إلى أن كثيرا من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان للواحد منهم من الأسماء والسكنى والألقاب ما يفوق الذي أثر لامرئ القيس بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى بعشرات الأسماء .

لم تعرف سنة مولده ، ويقدر أنه ولد مع مطلع القرن السادس الميلادي .

ولد في بيت الملك مأيوه وأجداده ملكوا كندة النجدية ، تلك الإمارة العربية التي أقيمت في مقابلة إمارة المناذرة في الحيرة الخاضعة لسلطان الفرس ، وإمارة الغساسنة في الشام الخاضعة لسلطان الروم .

ويعتبر الحارث جد امرئ القيس أهم أمراء الأسرة ، فقد كان حريصا على الساع نفوذها ، فأكثر من الإغارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته أبناء حجر ومعد يكرب ، ومن بين غاراته تلك غارتان على فلسطين الخاضعة للدولة الرومانية في عامي ٤٩٧ ، ٥٠١ الميلاديين (١) .

وسنحت له فرصة التوسع حين غضب (قباذ) ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة لرفضه مذهب المزدكية ، فعزله وولى الحارث مكانه ، الذي حرص بدوره

(١) راجع تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ٣ ص ٢٤٥

على أن يحمى نفسه ، وينشر سلطانه ، فولى ابناءه على القبائل ، فحمل حجرا على أسد
وغطفان ، وشرحيل على بكر وحظلة والرباب ، ومعد يكرب على تغلب والبرن قاسط
وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن حنظلة والصنائع وهم بنو رقية قوم كانوا
يكونون مع الملوك ، وسلمة على قيس (١) ولكن الحارث لم يهأ بما وصل إليه طويلا ،
فقد توفى قباذ وخلفه كسرى أنو شروان الذي كان يكبره المزدكية : فعزل الحارث .
وأعاد المنذر إلى الحيرة ، مدارت بينه وبين الحارث حروب طاحنة انتهت بمقتل الحارث
وتتبع المنذر ابناءه بالإيقاع بينهم والهدس ، وتآلب القبائل عليهم ، فسقط شرحبيل في
معركة بينه وبين أخيه سلمة ، وسقط معد يكرب وسلمة في معركة تعرف بيوم أواره
الأول (٢) أما حجر فقتلته قبيلة بني أسد ، على اختلاف في أسباب ذلك وكيفية ، فقد
ذكر صاحب الأغاني في ذلك أربع روايات مختلفات ، روى الأولى عن هشام بن الكلبي
المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وبها يرجع مقتله إلى أن كان له على بني أسد إتاوة ، فلما تل أبوه
منعوها وضربوا جياته ، فسار إليهم حجر بجند من ربيعة وقيس وكساعة ، فاستسلموا
له ، ولكنه أساء إلى سادتهم وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم في جنوبي وادي
الرمة إلى تهامة ، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود الأسدي ، وشاهرهم عبيد بن الأبرص
فاستعطاه عبيد بن مسعدة يقول فيها :

يا عين فابكي ما بني أسد فهم أهل الدامة
أهل القباب الحمر والذ سقم المؤبل والمدامة (٣)
حلا أبيت اللعن حـ لا إن فبا قلت آمه (٤)
إما زكت زكت عـ وا أو قتلت ملا ملامه
أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٤٣ وما بعدها ، والأغاني ج ٩ ص ٩٠ وما بعدها
طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) نقائص جرير والفرزدق ص ٨٨٧ طبعة بيهان ، وابن الأثير ج ١ ص ٢٢٨

(٣) المؤبل بضم الميم وفتح الهمزة : المقتنى .

(٤) حلا : أى تحال من يمينك ، والآمة : العيب

ذلوا لسوطك مثل ما ذل الأشيقر ذو الخزامه (١)

فاستجاب حجر لهم ، وعفا عنهم ، ولكنهم أضروا له الانتقام ، ولما سمحت لهم للفرصة قتلوه ، وانهبوا أمواله .

وروى الثانية عن أبي عمرو الشيباني المتوفى سنة ٣١٣ هـ ، وتلخص في أن حجرا لما حاف من بني أسد استجار بموير بن شجنة التيمي لبنته هند وأهلها ، ثم مال على بعض بني سعد بن ثعلبة فأدركه علباء بن الحارث الأسدي وغابله وقتله .

وروى الثالثة عن أبي الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، وفيها أن حجرا لما استجار بموير بن شجنة تحول عن بني أسد وأقام في كندة مدة ، جمع منهم حمما عظيما سار به إلى بني أسد ، فتآمرت بنو أسد بينها ، وقررت مهاجمته ، وساروا للقائه ، فاقتتلوا قتالا عييفا ، فحمل صاحب أمرهم علباء ابن الحارث على حجر فقتله ، وانهمزت كندة ، وهيم يومئذ امرؤ القيس ، فهرب على فرس له أشقر ، ولكنهم قتلوا من أهل بيته طائفة ، وأسروا أخرى ، ونهبوا أموالهم .

ونقل أبو الفرج الرواية الرابعة عن ابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ ، وتقول إن حجرا رجع بعد موت أبيه إلى أسد ، وكان قد أساء ولايتهم فاجتمع أمر بني أسد على مهاجمته والخروج عليه ، فخرج إليه بعض شجعانهم ، وقتلوا من كان يقدم ركبه من غلمانهم وسبوا جواريه ، ولما علم حجر بما صنعوا قاتلهم مهزموه وأسروه ، ووثب بق منهم كان له عندئذ ثأر فقتله (٢) .

* * *

ولقد كثرت الروايات والأقاصيص التي تناولت حياته بالوصف والتعليل ، ولكننا لا نجد رواية منها تسلم من الطعن أو الشك فيها ، وما ساعد على ذلك تشابه اسمه مع غيره من شعراء الجاهلية ، فقد روى أنه كان في الجاهلية ستة عشر شاعرا كلهم يسمى امرؤ القيس .

(١) الأشيقر تصغير الأشقر : الأحمر من الدواب ؛ والخزامة حلقة من شعر تجمل في وترة أنف البعير يشد بها الزمام ، فإن كانت من صقر فهي برة .
(٢) الأغانى ج ٩ ص ٨٣ وما بعدها طبعة دار المكتب المصرية .
(١٢ - الأدب العربي)

وتسكاد تلتقى الروايات على أنه لم ينشأ في كنف أبيه ، فابن قتيبة يروي (١) أنه رأى من أبيه جفوة فلهق بعمه شر حبيبل ، فأقام في بني دارم حيناً ، ويذكر مرة أخرى أن أباه طرده لما صنع في الشعر بفاطمة ما صنع ، وكان لها عاشقا ، فطلبها زمانا فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرة ، حتى كان معها يوم الغدير بدارة حلجل ما كان قتال : (قمانيك من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ حجرا أتاه دعا مولى له يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس واتى بمينيه ، فذبح جوذرا وأتاه بمينيه ، فندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن إني لم أقتله ، قال : فأمتى فانطلق فإذا هو قد قال شعرا في رأس جبل ، فرده إلى أبيه . فنهاه عن قول ، الشعر ، ثم إنه قال : (ألا أنعم صياحا أيها اللطل البالي) مبلغ ذلك أباه فطرده ، فبلغه مقتل أبيه وهو يتمون

وصاحب الأغاني يروي عن ابن السكلي أن حجرا كان طرد امرأ القيس وآلى ألا يقيم معه أتفة من قوله الشعر ، وكانت للوك تأنف من ذلك ، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طىء ، وكلب وبكر بن وائل ، وإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقام ، وغنته قيانة ، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى غيره ، وظل على هذا الحال إلى أن بلغه مقتل أبيه (٢) :

وكان لشأنه هكذا بعيدا عن رعاية أبيه أثر بالغ في انحراف سلوكه ، وحلوده إلى اللهو والمبت ، وبعده عن مسؤوليات الحكم والحياة ، حتى إنه حين بلغه مقتل أبيه وجه إليه اللوم على ما كان منه في شأنه ، إذ أهمل إعداده وإشرافه في معالجة للشكلات فافتقد الحرة بالحياة ، والتجربة ، فقال : ضيعى صغيرا ، وحملنى دمة كبيرا (٣) .

وسواء صححت هذه الرواية أو تلك ، أو لم تصح واحدة منها ، فإن حياته تشير إلى أنه حرم التوجيه والإعداد ، وترك حبله على غاربه دون رعاية أو تقويم ، فاطلق يحر يد مستندا إلى حاهه وبراء أسرته الذى يجد فيه للمعين الثر ، فسار ومن خلفه طائفة من الشذاذ يتلقفون للتمعة من حوله ، ويتسقطون الدم في جواره .

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠٧ ، ص ١٢٢ بتحقيق أحمد محمد شاكر .

(٢) الأغاني ج ٩ ص ٨٧ .

(٣) الأغاني ج ٩ ص ٨٨ ، الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠٧ .

ومارال على هذا الحال إلى أن قتل أبوه ، فأسقط في يده ، وحال أن يجد لنفسه
سيلا ايثار لآبيه أو يحتفظ بكيانه وسلطانه ، فكأنح في سبيل ذلك وجاهد ، وظل
ينتقل بين القبائل يطلب منها العون على بنى أسد ، ولكن دون جدوى إلى أن مات ،
ويذاب على الظن أن موته كان في الفترة بين سنتي ٥٣٠ و ٥٤٠ م

شعره :

على الرغم مما أحاط بشعر امرئ القيس من ملاحظات تشكك فيه، وتشير إلى أن
من بينه الكثير المنحول . فإن فيما نظم إلى نسبه إليه من ذلك الشعر ما يمس حياة
صاحبه ، ويبين ما كان عليه قبل مقتل أبيه ، وما آل إليه أمره بعد ذلك : فإنه تقسم
شعره قسمين ترى في أحدهما الميث واللاهو ، وترى في الآخر الحزن والجهد
والحيرة والتلق

ومع هذا التغير الطارئ على حياة الشاعر ؛ تنظر في شعره فلا تكاد تجد فيه
خروجاً على مؤثرات بيئته الحضرية المترمة الفارغة ، التي وقعت بخبراته عند حد معين
ضيق لا يكاد يتجاوزه .

يتمثل ذلك في معانيه وأخيلته المكررة المعادة من قصيدة لأخرى ، حتى كأنه
مقد القدرة الشعرية ، أو نصب فكره فلم يمد يده على الجديد من المعاني، وفي الحقيقة
أنه ما كان هذا ولا داك ، بل إنه كسل للترف المنصرف عما دون لتأنيده عن تحريك
عقله وإعمال فكره اعتماداً منه على ما سبق له . مثال ذلك قوله في معلقته :

وقد أعتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
وقوله في مطولته الثانية اللامية .

وقد اعتدى والطير في وكناتها لنيت من الوسمى رائده خال
وقوله في بائته :

وقد أعتدى والطير في كنانها وماء الندى يجرى على كل مذنب
بمنجرد قيد الأوابد لاحه طراد المهوى كل شأ ومترب

- وقوله في ضاديته :
وقد أغتدى والطير في وكرانها بمجرد عبل اليدين قبيض (١)
ومثال ذلك - كذلك - قوله في مملته :
فعاذى عداى بين ثور ونعجة درا كا ولم ينضج بماء فينسل
وقوله في مطولته اللامية :
فعاذى عداى بين ثور ونعجة وكان عداى الوحش منى على بال
وقوله في البائية :
فعاذى عداى بين ثور ونعجة وبين شبوب كالقضية قرهب (٢)
ومثال ذلك قوله في مملته :
فمن لنا سـرب كأن نجاه عداى دوار فى المساء المـديل
وقوله في لاميته :
ذعرت بها سـربا نـقيا جـلوده وأكرءه وشى البرود من الخال
وقوله في بائيته :
فينا نـماج يـرتمين خـيـلة كـشى العـذارى فى المـلاء المـهذب
وقوله في ضاديته :
ذعرت به سـربا نـقيا جـلوده كما ذعر السرحان جنب الـريـض (٣)
ومثال ذلك قوله في المعلقة في وصف فرسه :
له أـيـطـلا ظـبى وساقا نـمامة وإرخاء سرحان وتقريب تنقل
وقوله في البائية :
له أـيـطـلا ظـبى وساقا نـمامة وصهوة عير قائم فوق مرقب

* * *

وتتراوى محدودية امرىء القيس في سوبه الشعرية التي وقف بها عند حد

- (١) اللبل : الضخم ، والقبيض : الشديد ، وقيل : السريع .
(٢) الشبوب : الشباب ، والقضية : المحيفة البيضاء ، والقرهب : يفتح فسكون
فلقحج : المسن
(٣) السرحان بكسر السين : الدئب ، والرييض : الغنم .

الاستعدادات الحيوية ، فأنت في المرحلة اللاهية من حياته لا تكاد تنثر في شمره إلا على صورة اللاهي المابث المفرد من مجتمعه الذي لا يشارك عشيرته مشا كلها ، بل ولا يحس بما يدور حوله ، فهو في شمر تلك المرحلة مقصور على مطاردة امرأة يستعطفها ويستميلها بشق الوسائل ، فتارة ياجأ إلى وصف مفاخراته النسائية وطورا يلجأ إلى الحديث عن اشتغاله بها ، والسهر معها ، والتفكير الدائم فيها ، وثالثة يستمر من ملاحيه وسياحاته العابثة وما يحدث فيها من لهو وإمتاع جسمي ؛ سكان بحق السابق إلى هذا الغزل الفاحش صريح الذي دار بالبطولة في نطاق المرأة وتمتع الجسم وغير ذلك من الماديات .

ومطولته المشهورة بالملكة خير ما يمثل شعر تلك المرحلة وقد سار فيها مسارا خاصا . فقد بدأها بمطلع عده القدمات من مبتكراته ، استوقف فيه من معه ليستعيدوا ذكريات الأحباب ومنزلهم ، ومستعرضا هذه المنازل وما آتت إليه بمد ارتحال أهلها ، متذكرا حاله يوم ارتحلوا ، منتقلا من ذلك إلى تعداد مواقفه النسائية المائلة ، مستثيرا بذلك عيرة صاحبه فاطمة لملها تستجيب له .

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول وحومل (١)
فتوضح فالمقراة لم يف رسمها لما سجتها من جنوب وشمأل (٢)
ترى بمر الأرام في عرصاتها وقيمانها كأنه حب فلل (٣)
كأني غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الهى ناقب حنظل (٤)

(١) السقط : منقطع الرمل ، واللوى بكسر اللام : حيث يلتوى ويرق ، وإنما خص منقطع الرمل والرمل وملتواه لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في صلابة من الأرض ليسكون ذلك أثبت لأوتاد الأبنية ، وأممكن لحفر النوى . والدخول وحومل : موضحان .

(٢) توضح والمقراة : موضحان ، لم يف : لم يدرس ، والرسم : الأثر ، والجنوب : الريح القبلية نسبة إلى القبلة ، والشمال : الريح الجوفية نسبة إلى الجوف في شمال مكة .
(٣) الأرام : الظباء البيض : وعرصة للدار ساحتها ، والقيمان جمع قاع : المستوى من الأرض .

(٤) السمرات جمع سمرة بضم الميم : شجر الصمغ العربي . والناقب : المستخرج حب الحنظل ، والحنظل له حراره تدمع منها البين .

وقوفا بها محسى طي مطيهم يقولون : لانهك أسي وتجمـل
وإن شفاؤى عبرة إن سفحتها وهل عند رسم دارس من مهول (١)
كدينك من أم الحويرث قبلها وحارثها أم الرباب بمأسـل (٢)
ففاضت دموع للمين منى صباية طي النحر حتى بل دمعى عملى (٣)

ويواصل الشاعر فى ذلك السيل ، فيذكر ما كان فى دائرة جعل بينه وبين عبـرة
وصواجها ، ثم يخلص من ذلك ليتجه إلى صاحبتـه معانبا فى رقة ، مذكرا بما يكنه لها
من هوى ، متقربا منها بشئى الوسائل معتربا بصيواته وما فى سلوكه من ضعف أمام
النساء ، طالبا منها قبوله على علاقته ، وذلك فى قوله :

أفظم مهلا بعض هذا التـدلل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجملى (٤)
وإن كمت قد ساءتـك مى حليقة سلى ثيابى من ثيابك تنسل (٥)
أعرك منى أن حبك قاتلى وأبك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرت عيناك إلا لتقدحى سهميك فى أعشار قلب ممتل (٦)
ويضـة خدر لا يرام خباؤها تمتت من لها غير معجل (٧)

-
- (١) المول : المتمد ، من التعويل على الشئ ؛ أى إن البكاء عند رسم دارس
لا يجدى شيئا .
(٢) الدين بكسر الـدال : للدأب والعادة ، مأسـل بفتح السين : اسم جبل ، وبكسر
السين اسم ماء .
(٣) الحمل : سير يحمل به السيف .
(٤) بعض هذا التـدلل : كفى عن بفضه ، وأزمت : عزمت والصرم : القطع
والفراق ، فأجملى : من التجمل وهو ترك ما يبيع .
(٥) سلى ثيابى من ثيابك : أخرجى أمرى من أمرك ، وتنسل : تسقط .
(٦) ذرفت : سال دمعا ، والقدهج : الحرق والتأثير فى الشئ ، والأعشار جمع
عشر بكسر العين : القطع والأجزاء .
(٧) شبه صاحبتـه بالبيضة لبياضها ورقتها ، وأضافها إلى الخدر لأنها مكنونة غير
متبدلة . غير معجل : لم أهمل عنها بغيرها .

تجاوزت أحراسا وأهوال معشر على حراس لو يشرون مقتلى (١)
إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل (٢)
خفت وقد نضت لوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفصل (٣)

وبواصل حديثه ، فيذكر خوفها عليه وعلى نفسها الفضيحة وانكشاف الأمر ، وكيف خرج بها من البيوت منتحيا مكانا مأمونا ، ويفصل ما كان بينه وبينها في تلك النجوة ، واصفا محاسنها ، ومصادر الإثارة فيها ، ومظاهر جمالها ، ومفاتيح جسمها وأطرافها ، ويخلص من ذلك إلى أن تلك التي أذكر لا تستطيع أن تنزعني من حبك والاشتغال بك ، إني على الرغم مما أسمه عنك من الخصوم ، لا أنقطع عن التفكير بك ، والاهتمام بأمرك ، فليلى مظلم ثقيل يحتويه بأنواع الموم ويمتدني فلا أكاد أجد ما ينسئ عن نهايته ، وما طرأ على الليل طول ولا ثقل ، ولكنها هموم الحب وشقوته تجلجلى أشعر بما لا يشعر به غيري وهكذا أظل ليلي قلقا أرقب زواله وهو لا يتحرك ، حتى حبل إلى أن مجومه شدت إلى الجبال والأحجار الكبيرة فأصبحت ممنوعة من الحركة والزوال :

الارب خصم فيك ألوى رددته نصيح على تعذله غير مؤتل (٤)
وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الموم ليبتلى (٥)
مقات له لما تعطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل (٦)
إلا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

(١) يشرون بكسر الشين وتشديد الراء : يظهررون .
(٢) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للمنيب فأرتك جانبها
مثلا ترى من جانب الوشاح حين يتلفك بتأحية مه ، والمفصل : الذي حمل بين كل
خرزتين فيه أولؤة .

(٣) نضت : نزعنت ، لبسة بكسر اللام : هيئة اللبس ، وللتفضل : من يلبس ثوبا واحدا .

(٤) الألوى : شديد الخصومة ، وللؤتلى : المقصر .

(٥) السدول : الستور

(٦) تعطى : امتد ، والصلب . الظهر ، وناء بكلكل : نهض بصدرة .

فيالك من ليل كأن نجومه بكل منار القتل شدت يذبيل (١)
كأن السثريا عاقت في مصامها بأمراس ككتان إلى صم جندل (٢)

ومع هذا السهر الطويل المصنق ، ومع هذا الألم الممعن ، وإني قد أباكر الصيد
قبل خروج الطير من أعشاشها بفرس قوى عنيف ، لا يملك زمامه إلا فارس مدرب ،
فلا يتصور من يراني على هذا الحال أني قضيت ليلي مؤرقا مسهدا ؛ وأنا مع ما أعاني
قوى فتي :

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل (٣)
مكر مفر متبيل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل (٤)
كفيت يرل الابد عن حال متنه كما رلت الصفواء بالمتزل (٥)
مسح إذا ما السابجات على الونى أرن عباراً بالكديد المركل (٦)
على العقب حياش كأن اهترامه إذا جاش فيه حميه على صرجل (٧)

- (١) المغار : شديد القتل ، ويدبيل : اسم جبل .
(٢) المصام : مكاتها الذي لا تبرحه . والأمراس جمع مرس بفتحين : الحبل ،
والجندل : الحجارة الكبيرة ، والعم جمع أصم : الصلب الشديد .
(٣) الوكنات جمع وكمة بضم الواو : مواقع الطير ، والمنجرد : العرس قسيير
الشعر ، والأوابد جمع آبدة : الوحوش ، والهيكل : الضخم .
(٤) الجلمود : الحجر العظيم الصلب ، حطه : أسقطه .
(٥) الكفيت : الفرس الأحمر في سواد ، يرل : يسقط ، المتز : الظهر ، الصفواء :
الصخرة المساء ، المتزل : النازل عليها .
(٦) مسح : يسح المدوم مثل سح المطر ، السابجات : الخيل المسرعة ، الونى :
الفتور ، الكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الدلى ركلته الخيل بحوارها . يعنى
أنه في جريه لا يثير غبارا كما تصنع السابجات لأن حواره لا تكاد تلمس الأرض .
(٧) العقب بفتح العين وسكون القاف : جرى بعد جرى ، حياش : يحيش في
جريه كما تحيش القدر على النار ، الاهترام : صوت الجوف عند الجرى ، والحمى بفتح
الحاء وسكون الميم : الغلى ، والمرجل : القدر .

يطير الفلام الحف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المنقل (١)
درب كخذروف الوليد أمره تقلب كفيه بخيط موصل (٢)
له أبطلاطى وساقا زمامة وإرخاء سرحان وتقريب تنقل (٣)
كان على الكتفين منه إذا انتحى مدالك عروس أو صراية حنظل (٤)
فمن لنا سرب كأن زمامه عذارى دوار فى الملاء المذيل (٥)
فأدبرن كالجزع للفصل بينه يجيد مسم فى العشرة محول (٦)
فالقما بالمهاديات ودوبه جواحرها فى صرة لم تزيل (٧)

ويصف مشهد الصيد وما يشتمله من صراع بين مرسه هذا وبين جماعة البقر ينتهى بصيد ثور ونمجة يقوم الطهاة بإعداد لحومها للطعام .

ثم ينتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التى ألت بهم فى رحلهم تلك ، وكيف بدأ وميض البرق الذى يشبه انتشاره وتشعبه فى السحاب المتراكم حركته اليدى

(١) يطير : إسقط ، والصهوات جمع صهوة : موضع اللبد من ظهره ، يلوى بأثواب العنيف : يذهب بها ، والعنيف : الأخرق ، والمنقل : الثقيل الذى لا يحسن الركوب . (٢) درب : سرب ، الخذروف : حصاة مثقوبة يجمل الصبيان فيها خيطا يديرها ، وجمل حيط الخذروف موصلا لانه قد اذب به كثيرا حتى حب وأخلق وتقطع خيطه فوصل ، فذلك أسرع لدورانه .

(٣) الأبطل . الحاضرة ، والسرحان : الذئب ، تقلب : الثعلب ، والارحاء : المدو ، والتقريب : التقز .

(٤) مدالك العروس بفتح الميم : حجر تسحق عليه طيبها فيبرق . والصراية : بفتح الصاد : الخنظة الصفراء البراقة . شبه حارك الفرس إذا اعترض بهدين فى الملاسة والبريق . (٥) عن : ظهر ، دوار بضم الدال : صنم يدورون حوله ، الملاء الملاحف ، المذيل : الطويل المهذب .

(٦) الجزع : الخرز اليماني ، الجيد : العنق ، مسم محول : كريم العم والحال ، شبه بقر الوحش فى بريقتين وما فيهن من البياض والسواد بالخرز المنفصل بالؤلؤ النفيس فى عنق صى كرم أعمامه وأخواله .

(٧) المهاديات : المتدمات من البقر ، الجواحر . المتخلفات منها ، والعرة : الجماعة التزيل : التفرق .

وتقليهما أو يشبه مصاييح راهب منقطع في الصحراء يتوهج نورها في الظلام الدامس بما يمدّها من زيت . وكيف قعد هو وأصحابه ضارج والمذيب يتأملون ، وميض البرق وثألقه في السحاب متمججين من بعد ما يتأملون . ثم كيف أضحى هذا السحاب يسح الماء للمرة بعد المرة في غزارة فيقتلع الأشجار العظام ويسقطها على رؤوسها ، ولم يدع هذا السيل بقرية تباء شيئا من جذوع النخل ولا شيئا من القصور والأبنية إلا ما كان منها مرفوعا بالصخور أو محصا . والتفت السيول وما تحمل من عثاء بجبل الهيمر في أرض فزارة فبدأ كأنه ملكة مغزل ، أما الجبل أنان فبدأ من هذا السيل والثناء كشيخ ماتف في كساء محطط ، وألقى هذا المطر ثقله بصحراء النسيط فأثبت السكّاء وضروب الأرها مبدت من خرفة زاوية كأنها الثياب التي ينشر التاجر النجاني حين يعرضها للبيع . وأصبح للناس فوجدوا السباع غرقى في المياه تبدو رؤوسها فيها من بعيد كأنها جذور البصل البرى . وقد راكمت السحاب وأحاطت بنا من كل جانب ، حتى يمتد من يتأمله أن أيمنه على الجبل قطن في ديار بنى أسد ، وأن أسره على جبل الستار ويذبل مما يلي بلاد البحرين . ولقد عم المطر جبل بسبان حتى اضطرب الأوعال المستقرة فيه إلى الذبول منه :

أحار ترى برقاً كأن وميضه	كلمع اليدين في حوى مكمل (١)
يضوء سناه أو مصاييح راهب	أهان السليط في النبال المفتل (٢)
قعدت له ومجئني بين حامر	وبين إكام بعد ما متأمل (٣)
وأضحى يسح الماء عن كل فيقة	يكب على الأذقان دوح الكنهيل (٤)
وتباء لم يترك بها جذع نخلة	ولا أظما إلا مشيدا بمجدل (٥)

- (١) حار : ترخيم حارث ، يعنى يا حارث ، الوبيض : لمع البرق ، الحوى : معارض من السحاب وارتفع ، والمكمل : السحاب في جوانب السماء يشبه الإكليل .
- (٢) السا : الضوء ، السليط : الزيت ، والذبال : الفتائل : وأهان السليط : كثر منه
- (٣) حامر ، وإكام : موضعان ، بعد ما متأمل : يضم الباء : يريد بعد ما تأملته ، أى تأملته من مكان بعيد .
- (٤) الميقة بكسر الفاء : ما بين الحلبتين ، الكنهيل : ما عظم من شجر الغضاء ، والدوح جمع دوحه : الشجرة كثيرة الورد والأغصان .
- (٥) الأظم بضمين : البيت المسطح .

كأن طمية الحجير غدوة	من السيل والماء فلكة منزل (١)
كأن أنا في أفانين ودقه	كبير أناس في بجاد مزمل (٢)
والتي بصحراء الغبيط بماعه	نزول اليماني ذي العياب الخول (٣)
كأن سباعا فيه غرق غدية	بأرجائه القصوى أنا يمش عنصل (٤)
على قطن بالشيم أين صوبه	وأيسره على الستار فيذبل (٥)
والتي بيسان مع الليل بركة	فأنزل منه العصم من كل منزل (٦)

* * *

كما تترأى تلك المحدودية في صورهِ البيانية التي قامت على التفسير والإضافة في أكثر شعرهِ ، بحيث أصبح التشبيه من معالم امرئ القيس المميرة له عن غيره من معاصريهِ ، فكان - على ما قال ابن سلام - أحسن طبقة تشبيها (٧) . ففي شعر امرئ القيس نجد التشبيهات متلاحقة متوالية ، حتى يخيل إليك أنه ما قال الشعر إلى لية - دم هذه التشبيهات المتراكمة .

(١) طمية : اسم جبل ، والحجير : أرض لبني وراة ، النشاء : ما حملهُ السيل ، وفلكة المنزل بفتح الفاء : ما استدار فوق رأسه .

(٢) أبان : اسم جبل ، أفانين : الودق : ضروب المطر ، البجاد : كساء مخطط ، ومزمل : نعت لكبير أناس ، يعنى هو ملتف بديابه .
(٣) الغبيط : موضع ، البماع بفتح الباء : الثقل واستماره لكثرة المطر ، العياب بكسر العين : الحقائب ، الخول بالواو المشددة المفتوحة : كثير المتاع والقلدان الذين يصحبونه .

(٤) غدية بضم الغين وفتح الدال : حين يصبح الناس ، الأنايش جمع أنبوش : أصول البت ، والعنصل بضم العين والصاد : البصل البرى .

(٥) قطن : جبل في ديار بني أسد ، الشيم بفتح الشين المشددة : النظر إلى البرق والمطر ، والستار ويذبل : جبلان مما يلي البحرين .

(٦) بيسان بضم الباء : جبل ، والبرك بفتح الباء وسكون الراء : الصدر : العصم بضم العين وسكون الصاد : الأوعال .

(٧) راجع طبقات حول الشعراء ج ١ ص ٥٥ بتحقيق شاكر .

وقد لفتت كثرة التشبيهات في شعر امرئ القيس وجودتها أنظار الباحثين القدماء ، حتى لقد أفرد ابن سلام المستحسن منها فصلا في طبقاته^(١) ، بيد أنه لم يبين نواحي الحسن فيما ذكر ، وإنما اكتفى سردا ، على نحو يشير إلى كثرتها في شعره كثرة ملفتة ، والذي أدهى في تلك السكثرة التشبيهية أنها أمارات من أمارات محدودة امرئ القيس ، فقد رأى فيما لديه من موارف يئنه ما يكفي لاستغلاله في تفسير أخيلته وتقديمتها إلى الآخرين ، ومن ثم ركز عليها ، ودار في محورها ، حتى لا يرهق نفسه بكبد الخواطر في التصوير والابتكار وما يتطلبه من نظر محص مستقص متابع ليرسم الصورة من مكنها الحقيقي .

ويلاحظ أن امرأ القيس يستمد تشبيهاته من واقعه المادى المزرف ، ومن يئنه للبرية المتحضرة ، بحيث تجد في تشبيهاته البدوى القمع إلى جوار الحضري الطارىء فالمرأة عنده تشبه البقرة الوحشية في جمال عيونها ، وتشبه البضة في رنمها ولونها ، وشعرها يشبه عذق النخلة للتداخل في غزارته ، وحصرها كالزمام في اللين ، وتربها كالمرأة ، وسافها كالبردى في بياضه ، وأصابها كساويك شجر الإسحل . والفرس عنده يشبه مذاك المروس ، والصخرة الملساء تسقط من عل ، وحذروف الوليد ، وصراية الحنظل والمقاب وحاصرتاه تشبه خاصرة الطبي ، وسالاه تشبه النماذة . ولم يقف في تشبيهاته عند حد المرأة والفرس فقد شبه دم الوحش الذي لطح صدر فرسه حين صاده بمصارة حناء صبغ بها شيب في قوله :

كأن دماء الهاديات بحره عمارة حناء بشيب مرجل

شبه قلوب الطير الرطبة بالعناب وقلوبها اليابسة بالتمر الرديء الجاف ، مطروحة أمام وكر العناب بمد أن يأكل لحم الطيور التي يصيدها .

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

* * *

هذا ويلاحظ الدارس أن امرأ القيس لم يقصر صورته على التشبيه ، فقد استعار وجانس وطابق كما في قوله .

فقلت له لما تظني بصدبه وأردف أعجازا وناء بكامل
وقوله مجازيا :

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
وقوله : وإن كنت قد ساءت مني خليفة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل
وكتوبه مطابقا :

مسكر مقر مقبل مدبر مما كجهدود صخر حطه السيل من على
وقوله : غداؤه مستشزرات إلى الملا تضل المدارى في مثنى ومرسل

* * *

وفي الرحلة الثانية بعد مقتل أبيه تجد فيه الحزين المهموم الحائر الذي لا يجد من خبراته ما يعده بمخرج لازمه لثق فوجيء بها على غير توقع ؛ فهو طالب للنار ، يسعى بين القبائل في تجنيد قوة يحقق بها غايته ، يمدح هذا لأنه استجاب لمطلبه ، ويهجر ذلك لأنه سخر منه ، ويفخر بأجاده وفروسيته لإصراره على النار لأبيه . مثل قوله :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطام وبالدمراب (١)
عصاهـير وذبان ودود وأجرا من مجلحة القذاب (٢)
وكل مكارم الأخلاق صارت إليه همق وبه اكتسابي
فبعض اللوم عاذلق فلاني ستسكيني للتجارب وانتسابي

(١) موضعين بكسر الضاد والعين : مسرعين ، لأمر غيب : يريد به الموت ،
ونسحر : نلهم ونخدع .

(٢) القذاب المجلحة : السممة على الشيء التي لا ترجع عما تريد . يعنى : نحن في
للضعف مثل هذه المخلوقات ، وفي ركوب الآثام أجرا من مجلحة القذاب .

إلى عرق الترى وشجت عروقي وهذا الموت يسلبني شباني (٩)
ونفس سوف يسلمها وحرى ويلحقني وشيكاً بالستراب (١٠)
ألم أبيض المطى بكل خرق أمق الطول لماع السراب (١١)
وأركب في اللهم المحرق أنال ما كل القمح الرقاب (١٢)
وقد طوقت في الآفاق حتى رصيت من القيمة بالإياب (١٣)
أبعد الحارث الملك بن عمرو وبمد الحير حجر دى القاب (١٤)
أرجى من صروف الدهر لينا ولم تغفل دن الصم الهضاب (١٥)
وأعلم أنى عما قليل سأنشب في شبا ظفر وناب (١٦)
كما لاقى أبى حجر وحسدى ولا أسى قتيلاً بالكلاب (١٧)

يضاف إلى هذا ما يتضح في شعر امرئ القيس من ميله إلى الصورة التفسيرية أو الإصامية وهي القائمة على ربط شيء بشيء، في هيئة تشبيه أو استمارة؛ إذ ذلك يتلاءم مع ظروف حياته وما فيها من نرف يدعو إلى الهدعة والراحة ولا ريب في أن الصورة المسيرية أسير من الصورة الابتكارية التي يضطر معها المصور على الرجوع إلى العناصر المختزنة في الذهن ليكون منها مجموعة ويلبها من شتات ليصنع منها صورة تكشف عن إحساسه الداخلي تجاه الموقف أو المشهد.

حقيقة هذه السمة التصويرية تكاد تلازم أكثر شعراء الجاهلية، ولكن كل شاعر يحيط به من الظروف ما يبتعثه على سلوك هذا الطريق دون غيره والذي أراه دفع

-
- (١) وشجت عروقي : اشتبكت واتصلت ، يقول : إن أصله في حسبه ثابت راسخ
 - (٢) الجرم : البدن ، والشيك : السريع .
 - (٣) ألمى المطى : أهزلها ، الخرق : العلاء ، الأمق : واسع الطول .
 - (٤) اللهم بضم اللام الجيش الكثير الذى يسير كل شيء لكثرة فكأنه يلهمه ويبتلمه ، والمجر : الكثير ، والقمح بضم القاف وفتح الحاء جمع قمحه دومة من شرف ومنزلة ينالها وهي من الانتعام وهو التزاحم في شدة ، والرقاب : الواسعة المكيئة .
 - (٥) طومت . أكثرت الطواف ، والمشى فى نواحي الأرض حق شق على ذلك .
 - (٦) الصم . جبال ليسب بالشوامخ ، والهضاب : الصلية .
 - (٧) شبا كل شيء حده ، سأنشب . أى أعلق وأثبت بأظفار المنية .
 - (٨) الكلاب بضم الكاف . اسم واد كانت فيه رقعة قبل هيا عمه شر حليل .

امراً القيس إلى هذا المسلك التصويرى بالإضافة إلى الدوافع العامة ، هو ميله إلى السهل الميسور الذى يحقق له التفوق والامتياز .

وإذا ذكرنا أن امرأ القيس من أوائل شعراء العصر ، وذكرنا ما كان عليه في مساره الشعرى ، اتضح لنا أنه تسم كرسى الأستاذية لمن أتى بعده من الشعراء ، فلما كانوا مسلكه ، فأصبحوا مقتدين به في الأغراض ، أو في التصوير . وفي ذلك يقول ابن سلام : «سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها، استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء، منها استيقاف محبه ، والبكاء في الديار ، ورقة السب وقرب المأخذ ، وشبه للنساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالمقبان والمعصى ، وقيد الأوابد وأحادى التشبيه، ووصل بين النسب وبين المعنى ، وكان أحسن أهل طبقاته تشبيهاً» (١)

وصفوة القول أن امرأة القيس على الرغم من محدوديته التى اضطرتة إليها ظروف بيئته كان شاعراً أوتى من أسباب التعبير والتصوير ما جعله فى مقدمة شعراء الجاهلية .

(١) طبقات قول الشعراء - ١ ص ٥٥ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ١١٠

عدى بن زيد

عدى بن زيد العبدي التيمي ، وهو إنما يشتهر بالنسبة الأولى ، وهي نسبة دينية لا عرقية أطلقت على طائفة من العرب - على اختلاف قبائلهم - اجتمعوا بالحيرة على النصرانية فسموا عبادا لأنهم عباد الله تمييزاً لهم من الوثنيين أو أئمة من أن يطلق عليهم « عبيد » إلى غير ذلك من التعليقات التي زخرت بها كتب الأدب القديمة والحديثة (١) .

أما النسب الثانية فهي نسبة عرقية قبلية تشير إلى أنه من تميم ، وبعض المؤرخين يقف به عند ذلك ، والبعض الآخر يصل منها إلى مضر بن نزار .

ولد ونشأ بالحيرة في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي في أسرة ذات علاقات وطيدة بالأكاسرة ملوك فارس والداذرة عمالم على الحيرة فقد تولى جده حماد للكتابة للزمان الأكبر ، واستطاع أبوه زيد بن حماد أن يحدق الكتابة المرية في حياة أبيه ، فلما توفي حماد انتقل زيد إلى رعاية صديق والده من الدهاقين المرازبة المظلم (٢) فعلمه الفارسية ، ومكن له من أن يكون على البريد لكسرى ، فكثرت يتولى ذلك زمانا .

ولما مات الزمان الأكبر والى كسرى على الحيرة واحتلف أهل الحيرة حول من يملكونه عليهم حتى يختار كسرى ملكاً آخر ، أشار عليهم الدهقان أن يختاروا زيد ابن حماد ، فملكوه عليهم إلى أن عقد كسرى للسدر بن ماء السماء .

(١) راجع في ذلك الأغاني ص ١٥٦ ج ١١ ، وممجم البكري ج ١ ص ٢٣ وما بعدها وسمط اللالي للبكري ص ٢٢١ والاشتقاق لابن دريد ص ١١ والمعصر الجاهلي لشوقي ضيف ص ١٠٠ الطبعة السابعة .

(٢) الدهقان فارسي يعنى التاجر ، والمرازبة جمع صربان وهو المارس الشجاع .

ملكه ويريه عطفته ، وكان من بين البلاد التي طاف بها بلاد الشام ، ولكنه لم يجد فيها ما يشغله عن الحيرة فقال مواربا بين دمشق والحيرة مفضلا الأخيرة على الأولى :

رب دار بأسفل الجزع من دو مة أشهى إلى من جيرون
ونداى لا يفرحون بما لنا لوا ، ولا يرهبون صرف اللون
قد سقيت الشمول في دار بشر قهوة حزة بماء سخين (١)

وبينا كان عدى في سفارته بالشام ، تبرم أهل الحيرة بالمدنر حاكمهم من قبل كسرى وعزموا على قتله لجوره وظلمه ، فلما أحس المدنر بالخطر بعث إلى زيد بن حماد والد عدى مستنجدا ، فحدثه بما بلغه وعرض عليه تنازله عن الملك له ، فرفض زيد واستمهله حتى يكشف الحقيقة ، فلما اتقى بالناس ووجد منهم الاصرار على التخلص من المدنر هدا من ثأرتهم ، وأشار عليهم برأى يكشف عن دهائه وحسبته السياسية أرضى به الثأرين وطمان الملك إلى احلاصه وحبه له ، فقال لهم : تدعون المدنر على حاله يابه من أهل بيت ملك ، وأنا آتية فأخبره أن أهل الحيرة قد احتاروا رجلا يكون أمر الحيرة إليه ، إلا أن يكون غزو أو قتال ، فلك اسم الملك وليس إليك سوى ذلك من الأمور ، فرضى أهل الحيرة بذلك ولوا زيدا على كل شيء سوى اسم الملك ، فإتهم أقروه للمدنر ومرح المدنر بذلك الحل لأنه حمظ عليه كيانه ، وشكر زيدا عليه ، واعتبره يدا له عليه أقسم أن يحفظها له في قوله : إن لك يا زيد على نعمة لا أكفرها ما عرفت حق سيد (٢) .

وكان من أبرر مظاهر حفظ المدنر لهذا الصبيح أنه بعد أن مات زيد وصاحبه الدهقان ورجع عدى إلى المدائن من سفارته إلى الشام استأذن كسرى في الألباس بالحيرة فأذن له ، فتوجه إليها ، ولما بلغ المدنر خبر قدومه خرج في جمع من الناس لاستقباله والترحيب به .

ولما أراد المدنر أن يختار مرييا بعد ابنه النعمان الأصغر ليتزوج ملكا بعده لم

(١) الأغاني ج ٢ ص ١٠٤

(٢) الأغاني ج ٢ ص ١٣٠ وسيد صنم كان لأهل الحيرة

يجد أفضل من عدى يقوم بهذه المهمة ، لما اجتمع له من العلم والمعرفة والخلق الطيب والدراية بأمور الدولة والسياسة ، ولقربه من قلوب الناس وإدراكه أقرب السبل إليهم ، فكان عدى بذلك أستاذ النعمان بن المنذر ومرثيه ومؤديه ومعلمه .

حتى إذا مات المنذر وتنافس أبناؤه على خلافة احتال عدى للنعمان مولاه كسرى مكان أبيه ، وضم عدى بذلك فضلا إلى أفضاله على النعمان بن المنذر ، فلم يكن غريبا أن يصبح عدى الأثير عند النعمان ، يجالسه ويناديه ويصحبه في رحلات صيده ، كما لم يكن غريبا أن يؤخر بذلك صدور شائيه من يطعمون في المجد والمكانة خصوصا بني مرييا الذين كانوا ياصرون ربيهم ورضيهم الأسود بن المنذر ، ويسعون لتوليته ملك الحيرة خلفا لأبيه فأفسد عدى تدييره تدييرهم ، فنفسوا عليه ، وظلوا وراءه حتى أثاروا عليه حقد النعمان وسجنه ثم قتله في سجنه حين علم برسالة كسرى لاطلاق سراحه .

* * *

تلك هي بيته عدى بن زيد وظروف حياته التي أرى أن لها علاقات مؤثرة في اتجاهاته السبية على اجمال لا يخل بما واجهه وبتمبير أوضح أقول : تلك هي مقومات عدى الخارجية .

أما مقوماته الداخلية الذاتية فلا نستطيع - على هذا البعد الزمى والمكانى - إلا أن نتبعها في سيرته وأخباره لئلم على قدر الإمكان بصورة قريبة مما كان عليه ، لأن لها علاقة - كذلك - تؤثر في منه واتجاهاته .

وقال صاحب الأغانى : « كان عدى حسن الوجه ، مديد القامة ، حلو العينين ، حسن البسم ، بقى الثغر (١) وإذا قرنت هذه الصفات بما حققه لجسده ونفسه من مران وتدريب في سبيله لتعلم الفروسية وجمه بين صروبها العربية والفارسية . . . أمكن أن تدرك ما كان عليه من فتوة وأناقة وحبال مما جعله مهوى أئنده الفتيات ، ومحرك قلوب النساء ، وموضع إعجابهن

ويبدو أنه كان يدرك هذه السمات في نفسه ويحس باشتتاله على تلك السمات ، فقال إلى مجالس اللهو والترف ، وهنأ قلبه إلى معاشرة الفيد الحسان في ظلال ما أتبع له من شباب ومكانة وحاه وثرأه ، بصور ذلك قوله :

(١) الأغانى ج ٢ ص ١٣٠

أيها القلب تعال بدون أن همي في سماع وأذن (١)
وشراب خسرواني إذا ذاقه الشيخ تقي وارجمن (٢)
وقوله وأصي طباء في الدمقس خواصما
بنات كرام لم يربن بضرة دمي شرفات بالمبير رواوعا (٣)
لهوت لمن بين سر ورشده ولم آل عن عهد الأحية خادعا
يسار بن من الأسفار طرفا مفترا ويررن من تتق الحدور الأصابعا

يبد أنه سرعان ما يجذب نفسه من ذلك المطق ، ويميدها إلى التوفر والتحتم على
الرغم منها حشية العواقب فيقول :

قد آن أن تصحو أو تقصر وقد آني لما عهدت عصر
عن مبرقات بالبرين وتبـ دوى الاكف اللامعات سور (٤)
بض عليهن الدمقس وفي الأ عناق من تحت الأكفة در (٥)
كاليبص في الروض النور قد أفضى بها إلى السكثيب نهر
يأرج من أردانهن مع الـ سك الزكي زنبق وقطر (٦)
حاريتهم في الشباب واد قلبي بأحكام الحوادث غر

ولعل سرعته في معاودة نفسه ، والنأى عن الانحراف في تيار اللهم والعبث . .
راجمة إلى ما كان يشعر به الشاعر من أنه عريب يعيدش في غير موطنه وبين ناس ليسوا
أهل وعشيرته ، لهم من الأخلاق والأعراف والمادات ما يدعو إلى التحفظ في
القول والمسلك .

(١) الدون - بفتحيتين - اللهم والعب : والأذن - بفتحيتين - الاستماع .

(٢) ارجمن : مال واهتز .

(٣) شرفات بالمبير : ممتلكات به . والرواع جمع راعة : المتدهنة بالطيب .

(٤) البرين جمع برة : الخلخال ، وسور - بضميتين - جمع سوار .

(٥) الاكفة جمع كفاف : وهو من الشيء الحرف الذي يحيط به .

(٦) يأرج : يفوح . قطر : العود الذي يتبخر به .

وما كان يدركه من أنه يمشى في جو مليء بالهدس والمؤامرات يتطلب التحسين والتوجس والترقب والاحتراس في كل حركة وسكنة ، حتى لا يعطى الفرصة لمن يسعى لضربه والتخلص منه .

اجتمعت هذه القومات وتلك إلى عدى بن زيد فصاعت شخصيته الفنية صياغة ميزتها عن الشخصيات الجاورة له والقريبة منه في الزمان والمكان ، بحيث تفرد في فنونه الشعرية التي تناولها شعره ، وفي منهجه وأسلوبه ، وفي معانيه وأفكاره ، فلم يرض بالوقوف عند الحد الذي رأى سائقيه من الشعراء العرب الجاهلين عليه ، بل لقد كان لما صادف من أحداث وماترود به من ثقافات مختلفة وعلوم ومعارف متعددة ، وما اطلع عليه من طبائع وعادات شتى تختلف من موطن إلى موطن . . . لقد كان لذلك وغيره أبعاد الأثر في احتلاؤه عن الشعراء الجاهلين من تقدمه ومن عاصره .

لئن يجهد الباحث نفسه كثيرا في التعرف على مظاهر التميز في ميون الشعر لدى عدى بن زيد ، إذ يكفي أن يتصفح شعره ليلس ما فيه من ميون شعرية جديدة أو فنون شعرية جديدة تكاد تكون جديدة في الشعر العربي الجاهلي .

وأول ما يلفت نظر الدارس من تلك الفنون الشعر الدينية والوعظي :

وشعر المواعظ والدينيات عند عدى يوحى بأننا أمام صاحب رسالة دينية يستغل كل سائحة ليقدّم فيها ما يرى أنه ضروري ، فأنت في شعره تجد القصائد الخالصة لهذا الغرض تماما ، كما تجد القصائد التي لونها الشاعر بالمعظة يشد بها أسماع المتلقين عنه ، وبدلا من الوقوف على الأطلال وبكاء الديار ، وقف بالمتلقى على المصائر والنهايات العامة للسكون ولفّت نظره إلى ما في الحياة من أطوار يحمل كل طور منها طابعا خاصا ، لينتهي من ذلك إلى عرض ما يريد من مواعظ وحكم . من ذلك ابتداءه بوصف معاناته وآلامه وأرقه في قوله :

طال ليلى أراقب التنويرا أرقب الليل بالصباح بصيرا
شط وصل القدي ترديدن مي وصير الأمور يجي الكبرى

وتوجيه حبيته إلى العقل ، والتأني في الاختيار ، لتبميز بين الأعرار والمقلاء .
فتعسّن الاتجاه في قوله :

ألقى الفتيان مالكة نصحة مني وأخبرارا
أنسى رمت الخطوب فـقـي وجدت العيش أطوارا
ولفت التلقى إلى نهاية كل حي ، ومصير كل مخلوق في قوله :
أرواح مسودع أم بكور لك ؟ فاعمد لأى حال نصير

والناظر في هذا الفن الشعري يجد أن الشاعر فيه لم يكتف بتأملاته الخاصة ونظراته الشخصية ، ليقم عليها بناءه الفني ، بل لقد جمع إلى ذلك حصيلة من المعارف الدينية ، والمعلومات التاريخية ، فأصبحت دعائم ثلاثة لشعر المواعظ والدينيات . ولعلنا ندكر أنه جمع في ذلك الميدان للدين بين المعارف المسيحية التي كان يدينها والمحوسية التي يدين بها حكام البلاد وملوكها ، والوثنية التي يدين بها أكثر العرب . ولا ريب في أن لكل من هذه الديانات أعرافه وحدوده وقوانينه ، كما أن لكل من هذه الديانات مقوماته وانكاساته .

وهو في ذلك يتمدد على التصوير الدقيق .

١ - إما عن طريق الاستفهام الذي يقبل للماضي إلى الحاضر ليرى التلقى ما وقع فيه من مواطن العبرة والعظة ، ويذكر ما كاد ينسى مثل قوله :

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بسدم وعمود
أين آباؤنا وأين بنوهم أين آباؤهم وأين الجدود
سلكوا مهيج المنايا مسادوا . وأرانا قد حان مما ورود

٢ - وإما عن طريق إبراز الخطوط المنتقاة بحاسة الشاعر من أحداث الماضي لتشكل منها الصورة التي يريد تقديمها مثل قوله :

فبت أهدى كم أسافت وغيرت وقوع المنون من مسود وسائد(١)
صرعن قبـاذا رب فارس كلها وحشت بأيديها بوارق آمد(٢)

(١) أهدى : أعدد بعد إبدال الدال الأخيرة يا . وأسافت : أهلكت .

(٢) قباد : ملك من ملوك الفرس . حشت : قطعت . بوارق آمد : أعظم مدن ديار بكر .

وغصن على الحيقار وسط جنوده ويبتن في لثاته رب مارد^(١)
وجئن بترك من قرار بلادهم يسير بجمع كالدبا المتساعد^(٢)
وأخرجن يوم الحوض سيد حمير بحربة جنى من الحبش حارد^(٣)
وملك سليمان بن داود زلّات ويريدان قد ألحقته بالصمائد^(٤)
وخاف بنى الناصور لم يبق منهم بقية مولود ولا ذكر والد
وكان ملوك الروم يحسب إليهم قناطير مال من خراج وزائد
ولا تنبطن إنا بشيء يناله من الدهر، لآمال ولا عيش واجد

أو إرار الخطوط المنتهية بحماسة الشاعر من المؤلف الواقع الذي تمود الناس
رؤيته فنفلوا عما يحمل من عظات مثل قوله :

من رأنا فليحدث نفسه أنه موف على قرن روال
وصروف الدهر لا يبقى لها ولما تأتي به صم الجيال
رب ركب قد أناخوا حولنا يمزجون الخمر بالماء الزلال
والأباريق عليها قدم وحياد الخيل تردى في الجلال
عمروا دهرنا بعيش نضر آمنى دهرم غير عجال
ثم أضغوا عصف الدهر بهم وكذلك الدهر يودى بالرحال
وكذلك الدهر يرمى بالفق في طلاب العيش حالا بمدحال

٣ - وإما عن طريق الوقوع على مفارقات الحياة وإبرازها المتناقض ، فإذا بها مرآة
تتمكس عليها صورة الحياة على الأرض كما يراها الشاعر من خلال تجاربه الشخصية
ومعارفه الدينية ومعلوماته التاريخية ، مثل قوله :

فأسأل الناس : أين آل قبيس طحطح الدهر قبلهم سابور^(٥)

-
- (١) الحيقار : ملك من ملوك فارس . مارد : حصن بدومة الجندل .
(٢) الدبا بفتح الدال : أصغر الجراد والنحل .
(٣) الحارد : النضبان . (٤) ريدان : حصن في قنسرين .
(٥) آل قبيس : بطن من قبيلة . طحطح : بدد وأهلك . سابور : ملك من
ملوك الفرس .

ولقد عاش ذا جنود وتاج تهرب الأسد صوته أن تزيروا
خطفته منية وتردى وهو في الملك يأمل التعميرا
وسو الاضمر الملوك كذالم يترك الدهر منهم مذكورا
أين أين الفرار مما سيأتي لا أرى طائرا نجا أن يطيرا

ومثل قوله :

ما بعد صنماء كان يعمرها ولاية ملك جزل مواهبها
رهبها من بني لدى قزح الـ وزن وقتدى مسكا محاربا
محفوفة بالجبال دون عرى الكي د ما ترتقى غواربها (١)
يأس فيها صوت النعام إذا حاوبها بالمشى قاصبها (٢)
سأقت إليها الأسباب حند بنو الأح رار فرسانها مواكبها (٣)
وكان يوم باقي الحديث وزا لت أمة ثابت مراتبها

حق صنماء المدينة المامرة بأهلها وخيراتها ، الزاهية بمضاربتها ومكانتها . أصابتها نوب الرمان وتقلبات الأيام في هيئة جيش فارسي غاز ، يزال عنها مظاهر النعم والخير ، وأصبحت اطلالا . ومثل قوله يقارن بين حالي الإنسان في حياته وبعد مماته :

بيننا هم على الأسرة والآن - ما ط أهدت إلى التراب الخدود (٤)

٤ - وإما عن طريق البناء القصصى حيث يقدم تأملاته الواعظة في ثنايا قصة تاريخية تنوع مادتها من أحداث التاريخ الكثيرة التي يترأى على صفحاتها الملوك والسادة مطحونين بين حجري الزمان الذي لا يجامل سيذا ولا ملكا . مثل قوله :

أين كسرى ، كسرى الملوك أنوشر وان أم أين قبله سابور (٥)

(١) غواربها : أعاليها .

(٢) النعام - بضم النون - ضرب من الطير والقاصب : الناصب في القصب أى الرامز

(٣) بنو الأحرار : يريد الفرس .

(٤) الأتباط جمع نبط : ضرب من البسط .

(٥) سابور الجنود هو ابن أردشير وسابور ذو الأكتاف وهو ابن هرمز ، وكلاهما

من ملوك المعجم .

ونو الأصفر الكرام، ملوك الر
وم لم يبق منهم مذكور ا
وأخو الحضرم إذ بناه وإذ ده
شاده مرمرًا وجله كل.
لم يهبه ريب المنون فباد ال
وتذكر رب الخورنق إذ أش
سره ماله وكثرة ماء.
فارعوى قلبه فقتل وماغب.
ثم بعد الفلاح والملك والأمة.
ثم صاروا كأنهم ورق ح.
وم لم يبق منهم مذكور ا
للة تحى إليه والخابور (١)
سأ اللطير في دراه وكور (٢)
ملك عنه فبأبه مهجور
رف يوما وللهدى تكبير
لك واليحر معرضا والسدير (٣)
طة حى إلى المات يصير
ة وارنهم هناك القبور (٤)
ف ألت به للصبا والديبور (٥)

نماذج من الحياة يقدمها الشاعر في صور حية من خلال تساؤلات منبهة ،
ومعارقات مثيرة ، وقصص منسقة ليغذبها إلى الملتقى فيذكره بالصبر المحتوم ، ويقف به
على حافة الحياة الدنيا ليرى ما ينتظره في عاجله أو آجله .

* * *

ولم يحقق عدى لنفسه التميز والتفوق في الدينيات واللواعظ حسب ، بل إن له في
ميدان التفوق جولات أخريات ، نرى في مقدمتها ماروى له من اعتذاريات
وخمريات وقصص .

لقد أصبح أقرب إلى المسلمات أن رأس فن الاعتذار - وربما مبتكره في الشعر
العربي - نابعة بنى ذبيان أبو أمامة زياد بن معاوية . لكن دراسة عدى ، والوقوف

-
- (١) الخابور : اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة .
(٢) الكلس : الصاروج وهي النورة وأحلامها التي تصرج (تطل) بها المنازل ،
وهو بالفارسية جاروف عرب ثقيل : صاروج .
(٣) معرض : متسع ، ومنه أعرض الثوب أى السع وعرض .
(٤) الامة - بالكسر - النعمة .
(٥) ألت به: ذهب به، والصبا - بفتح الصاد - ربح تهب من المشرق، والديبور:
رياح تقابلها .

أمام انتذاره للنعمان بن النذر واستعطائه تفرض على مؤرخ الأدب أن يعيد النظر فيما شاع واشهر وقارب المسلمات في هذا الصدد . وذلك لأن عديا تقدم النابغة في السن ، وصحبه للنعمان تسبق صحبة النابغة ، فقد أسلفنا أن النذر والهد النعمان أسند إلى عدى أمر تنشئة ابيه النعمان وتربيته وإعداده ليخلفه في حكم البلاد لما رأى في عدى من صلاحيات لذلك ، وأن عدى بن زيد هو الذى وقب وراء النعمان حتى ولاء ملك الحيرة بهد أبيه .

وهذا يعنى أن عدى بن زيد كان في صحبة النعمان قبل أن يلتقى به النابغة الذى لم يلتق به إلا وهو ملك يمدح ويمطى على مدائحهم .

كما يبنى أن عديا كان يصحب النعمان بشعور الربى ذى الفضل ، في حين كان يصحبه النابغة بشعور المتفجع للتطلع إلى تعطف سيده ورضاه ، فقد كان وسيلة قومه لدى النعمان ليتمكن لهم .

* * *

والذى أوقف عدى بن زيد في موقف المتذمر المستعطف يختلف عن الذى دهم بالنابغة إلى الموقف ذاته على ما سنوضحه في الحديث عنه .

وقد انطلق لسان عدى بالاعتذار للنعمان لما ألقى به في السجن حين دس له مناهسه وأثاروا عليه حقد النعمان ، وهكذا رأى عدى نفسه بين لحظة وأخرى ينتقل من حياة الدعة والعميم إلى خشونة السجن وذلك وقسوته فكان الألم على نفسه أقسى مما يحتمل من في مثل مكانه وأحس بالمسألة والضياع ينهشان في كيانه نهشاً فتفجرت بين حناياه أمات الألم ، وترددت في نفسه أصداه الشكوى ، فانطلق لسانه شاكياً في حيرة مما وقع به ، متحسراً متمنياً أن لو سبق الموت إلى اختطافه قبل أن يقع به ما وقع من صديقه وتلميذه .

ويذكر الأصفهاني أن أول ما قاله عدى وهو محبوس من الشعر لا ميتة التي منها (١) :

ليت شعري عن الهمام ويأتيتك بخير الأبياء عطف السؤال

ابن عنا أخطارنا المال والأب - فس إذا همدوا ليوم الحال (١)
ونضالى فى جيبك الناس يرمو - بن وأرمى وكلنا غير آلى (٢)
فأصيب الذى تريد بسلا غش - وأربى عليهم وأوالى
ليت أنى أهدت حتى بكفم - ي ولم ألق ميتة الأقتال (٣)
محلوا محلمهم لصرعتنا الما - م فقد أوقموا الرحا بالثقال (٤)

وهى قصيدة طويلة يتضح من مطلعها أن الشاعر مارال على شيء من تماسك النفس ورباطة الجأش فى مواجهة ما نزل به، إذا بدأ تمنيات ولساؤلات متحسرة متألمة، تذكر بما كان منه من عون بالنفس والنفيس حتى حقق للنعمان ما أراد من غير حذاع ولا غش، وينتهى من ذلك المقطع بتمنيته أن لو كان قتل نفسه بيده حتى لا يلقى من صديقه الذى ضحى فى سبيله ما لى فيموت فى السجن كما يموت المدو :

ليت أى أخذت حتى بكفى ولم ألق ميتة الأقتال

ويرز مادبر حصومهما لهما من كيد فى صورة بارعة تكشف عن مدى ضيقه وألمه لتجاحهم فى الوقية بهما مما، مشيرا بذلك إلى أن الايقاع به هو فى الحقيقة إيقاع بالنعمان كذلك، لأن من غيبة عدى يسهل عليهم اقتراس النعمان والقضاء عليه :

محلوا محلمهم لصرعتنا الما م فقد أوقموا الرحا بالثقال

وليست الروعة فى كنياته البدوية عن الوقية حسب، بل فى الإيحاء بتقاربه مع النعمان ومساواته إياه حيث جعل الوقية بينه وبين النعمان إيقاعا بين الرحا وثمالها .

ويستمر على فموحه فى اعتذاراته، ونائها على ما قدم من مساعدات للنعمان حتى أقامه على ملك أبيه، فيلسى ميميته التى يستهلها بتصوير ما يمانى من ذوق، وما أصابه من هموم وأهوال أقضت مضجعه، وأدهبت النوم عنه :

(١) أخطار المال والنفس : بدلها وجملها خطرا والمناهدة فى الحرب : المناهضة والمحال - بكسر الميم - السكبد والمسكر .

(٢) غير آلى : غير مقصر .

(٣) الأقتال جمع قتل - بكسر القاف - المدو .

(٤) محل ملان بصاحبه : سعى به إلى السلطان والثقال : الجلد الذى يبسط تحت رحا اليد ليقى الطاحين من التراب، وقد يطلق على الحجر الأسفل من الرحا

قد نام صحيحي وبت الليل لم أتم من غير عشق تمني ولا سقم
إلا تأوب هم قبل أدغمه والهم يأمر حين السكر بالأم

وقها يتجه إلى النعمان ملثاعا مسكروبا مما ألم به يتودده ويستعطفه ، مذكرا إياه
يريب الزمان ، وثقابات الأيام ، مشيرا إلى أنها سنة تصيب كل إنسان وليس إنسانا بعينه
وأما قد أصابت من قبلنا من الآباء والأمم محاولا بذلك أن يبعث فيه نبض الرحمة
والاشفاق الذي حرص - أبان صحبته - على أن يفرسه في قلبه بمواعظ التي طالما
رددتها على سمعه . وذلك قوله :

أبا شريح فلا تحزبك عثرنا طارء رهن لريب الدهر والحسم
إن الأسى قبلنا جم ونعلمه فيما أزيل من الأجداد والأمم
منهم رأيت شيانا ، أو تحدثه وما تنبأ عن هاد وعن إرم
وقبل ذلك من ملك ومقبلة ادوا ، فكانوا كيء الظل والحلم

ولا يكتفى بتلك الايقاعات النمسية التي يبسه بها الغافل من عواطف النعمان تجاهه ،
فيواصل السير على النهج نفسه ، ويوصى إلى ما بينهما من أواصر تكاد تماثل الأخوة
حتى لسكنهما اينام واحدة :

إن ابن أمك لم تنظر قنيتيه لما نوارى ورامى الناس بالكلم (١)

وإذا قر لديه أن النعمان هو نفسه للسمع منه أخذ يمدد ما نحمل في سبيل توليه الملك
دون إحوته في إخلاص يعلم الله وحده مداه ، مرتكزا على تعداد خلاله وصفاته التي
تأبى عليه أن يخون من اصطنق - ممززا ذلك كله مشهدا الله على ذلك مقها برب الحل
والحرم على صدقه وبره فيما يقول :

فأله يعلم في رسل وفي أرف وأله أعلم بالآلاء والنعم (٢)
بل رب عبء تقابل قد نهضت به فما تزل إذا عديته قدمي

(١) القافية : السكرامة . رامى الناس بالكلم : ظنوا به .

(٢) الأرف : العجوة

وإرته قد علا كبدي معاقها ليست بوفرة مأفون ولا برم (١)
وما بدأت خليلا أو أخانقه بخنمة ، لاررب الحل والحرم (٢)
يأبى لى الله خون الأصفياء وإن خانوا ودادى ، لأنى حاحزى كرمى
ولا بخات بمالى عن مداهبه فى حاجة الررة إن كانت ولا الذمم

أنه يمتدري عزة ، ويأسف لأخ قبل أن يكون ملكا ، ويحرص على ودلا على
عطاء ، ويأمل ألا يبال خصومه منه ويشمتوا به ، فإذا وجد من النعمان إصرارا على
سجنه ، وانصرافا عن النظر في أمره . فأصم أذنيه عن صرخاته للتوالية اللتاعة ،
ولم تحدث قرعاته النفسية أثرا ، كرر المحاولة وعاود الشكوى ، وصعد التآلمات
والتحصرات ، حريصا على تبرئة نفسه مما ألصق بها فى بائيته التى يبتدئها بقوله :

أرقت لكفهرمات فيه بوارق يرتقين رءوس شيب
تلوح المشرفية فى ذراه ويحلو صفح دخدار قشيب (٣)

إذا أعلن عن أرقه ومماناته النفسية أنجه مباشرة إلى الحديث عن أعدائه ومساعدتهم
للإيقاع به حتى يتخلصوا منه وينتقموا لهميتمهم بتتويج النعمان دون من يباصرون من
إخوته ، حيث يقول :

سمى الأعداء لا يألون شرا على ورب مكة والصليب
أرادوا كى تمهل عن عدى ليسجن أو يدهده فى القلب (٤)
وكنت لزار خصمك لم أعرد وقد سلكوك فى يوم عصيب (٥)
أعالهم وأبطن كل سر كما بين اللحاء إلى العسب (٦)

(١) الإربة : الحاجة . والمماقم : المفاصل . والمأفون : ضعيف الرأى . والبرم :
الثلثم البخيل .
(٢) الخنمة : الرية .
(٣) الدخدار - فارسية معربة - الثوب المصون .
(٤) يدهده : يحدر من علو إلى سفلى تدحرجا .
(٥) لزار خصمك : لا أدته يخالف أو يعاند ، والتعريد : الإحجام وسلكوك : أدخلوك
(٦) اللحاء : ما على الود من القشر ، والمسبب : جريد النخل إذا نحرى عنه حوصه

فهرزت عليهم لما التقينا بتاجك فوزة القدح الأريب (١)
وما دهري بأن كدرت فضلا ولكن ما لقيت من العجيب (٢)

ويخلص من ذلك فيتمنى أن يصادف من يبلغ النعمان شكواه وتحذيره ممن يكيدون
له ، مستكرا أن تكون مكافأته - بمد تضحياته - سلسلة وقيدا وعلا وأمراضا
تحتاج إلى طبيب . . . ثم إهمالا لاعتدالاته التي تتوالى . وشكواه التي لم تقطع
حيث يقول :

ألا من مبلغ النعمان عني وقد تهدي النصيحة بالمعيب
أحظى كان سلسله وقيدا وعلا ، والبيان لدى الطبيب
أناك بأني قد طال حبسي ولم تسأم بسجون حربي (٣)

ثم يدود إلى تحريك نفسه ، فيصعب في اسكسار ما آل إليه بيته وآله بمد غيبته
تلك ، أملا في أن يوظف فيه عاطفة الاشفاق بمد أن قسى عليه هذه القسوة التي لم يكن
يتوقعها أو ينتظرها منه فقال :

ويدي مقرر إلا نساء أراذل قد هلكن من النجيب
بيادرن الدموع على عدي كشن خانه حرز الريب (٤)

فإذا رجا أن يقبل النعمان عليه ، ويستمع إلى شكواه هدا صوته بمض الشبه ،
وسلك طريق الماشة الجادة المتأنية في منطقية رجو الصفع عما قد يكون أخذ عليه ،
وتعلن عن تمازله عما قد يكون أصابه من ظلم وصر :

هإن أخطأت أو أهمت أمرا فقد يرم المصافي بالحبيب
وإن أظلم فقد عاقبتموني وإن أظلم فذلك من نصبي
وإن أهلك نجد فعدى وتحذل إذا التقت للموالي في الحروب

(١) الأريب : ذو الدهاء والفظنة .

(٢) وما دهري : ما إرادتي وغايتي .

(٣) الحريب : الذي سلب ماله وعقاره .

(٤) الشن : الخلق من كل آية سمعت من جلد . والريب : المصالح .

خهل لك أن تدارك ما لديا ولا تضاب على الرأى المصيب
فإنى قد وكلت اليوم أمرى إلى رب قـريب مستجيب

وطى هذا المنهج سار عدى فى اعتذاراته إلى السمان بن المنذر، لم يذكره بما كان له من أباد، وشكا حرارة ما يقاسى فى السجن، وصور قلق نفسه على أهله ونسائه المأتمات، ونبهه إلى ما يكيدده المحيطون به له وللسمان، وأنسم له أيماننا بمد أيمان على برائه مما ألقى به وإخلاصه له . . . فنلون أسلوبه بذلك، وبدأ تاره رقيقا هادئا حين يستسلم ويستكبن ويستطف وتارة أخرى يبدو جزلا خثما حين يذكر مكاته وما قدم من تصحيات فى سبيل توليه ملك الحيرة، وحين يتحدث عن نفسه وحلاله التى كان يمتربها وبذلك رى عديا فى اعتذاراته - كما رأياه فى مواعظه وديبانه - للشاعر المصور البارع فى التصور، الصادق اللين الصدق، الأصيل الذى يتمسح من نفس شاعرة .

* * *

وعدى فى خمرياته يقدم لنا لونا جديدا فى هذا الفن يعلمن به تميزه - كذلك فيه . بيد أن تميزه فى الخمريات ليس فى السبق إليه كما رأينا فى مواظفه واعتذاراته، ولكن فى إيراد القصيدة أو القطعة الشعرية للخمر، وعدم إثراك غرض آخر معها فيه، على ما كان معروف فى الشعر الجاهلى، فقد كان الشاعر يتناول الخمر فى أثناء القصيدة باعتبارها حزبية من جزئيات موضوعه .

أضف إلى هذا أن خمريات عدى تتميز كذلك عن غيرها بالحديث اللستيفى الذى يتناول فيه كل ما يتصل بالخمر من ألوان وتمتبق، وطعم، وشكل، وهيشة، وأكواب، وزجاج، ومجالس، وندمان، وأجواء وما فيها من أحوال إلى غير ذلك مما يكشف عن حس شاعر، واستقصاء ماهر، وتمكن من العبارة، واقتدار على التصوير والتعبير .

ولعل من أجل شعر عدى وأرقه وأجوده قاميته الخمرية التى يقول فيها :

بكر الماذلون فى وضع الصب ح يقولون لى ألا تستفيق
ويلومون بك يا ابة عبد الله والقلب عندكم موهوق

لست أدري إذا كثروا المذل عندي أعدو يلومني أم صديق
زانها حسنها ووسرع عميم وأثيث ملت الجبين أنيق
وثنايا مفلجات عذاب لا قصار ترى ولاهن روق
ثم ادوا إلى الصبوح فقامت قينة في يمينها إبريق
قدمته على عقار كمين الد يك صبي سلافها الراووق
صاحبها التاجر اليهودي حوايـ في فأركي من نشرها التعبيق
هوق عليها لا يسأل ذراها يلعب الدر دونها والآووق
حزة قبل مزجها فإذا ما مزجت لظمها من يذوق
وظفا هوقها فقايع كاليا قوت حمر يثيرها التصفيق
ثم كان المراج ماء سماء غير ما آجن ولا مطروق

مشهد رائع بصورة الشاعر، فتسمع صاحب العاذلين مجتمعين حول وراشه يوقظونه من سكره، ثم يبدأ التصوير مجلس الشراب، حيث ترى القينة تحمل في يمينها إبريق الخمر الممتعة التي اخبرتها اليهودي حولين، ليصفي عليها الشر الركي العبق، فإذا مزجت لظمها، وطمت الفقاعيع على سطح الكأس بلونها الأحمر الذي يشبه لون الياقوت.

ولا يقل عنه زوعة ذلك المشهد الذي يقدمه عدى من حلال صاديقته التي قال فيها للمعري (١): «إنها بديعة في أشعار العرب، والتي يبتدئها بالحسين إلى مجالس الأانس والشراب التي كان ينهل فيها اللذات في مطلع حياته، وفيها يقول:

أبلغ حليلي عبد هند مـلا زلت قريبا من سواد الخصوص (٢)
موازي القرة أو دونها غير بعيد من عمير اللصوص (٣)
يجني لك الكأة ربمية بالحب تندي في أصول القصيص (٤)

(١) رسالة الغفران ص ٧٠ .

(٢) الخصوص : موضع في الحيرة .

(٣) القرة وعمير اللصوص : قريتان من قرى الحيرة .

(٤) الربمية : أول ما يجتنى، والحب - بفتح الحاء - سهل بين حزينين تكون فيه

الكأة . والقصيص جمع قصيص : شجرة تنبت الكأة في أصلها .

تقنعك الخيل وتصطادك اللط	ير ، ولا تسكع لهُو القنيس (١)
تأكل ما شئت ، وتمتلها	حمرء من الخص كالون الفصوص (٢)
غيت عن عيني في ساعة الك	مر وخببت أو ان المويص (٣)
لا تسين ذكرى على لذة الـ	كأس وطوف بالخذوف النحوص (٤)
إنك ذو عهد ودو مصدق	محالف عهد الكذوب اللدوص (٥)

في هذا الشهد الراحر باللوحات الحية المتحركة يرينا الشاعر الجري وراء الصيد ، والطوف حول الكأس المترعة يمتلها الشارب من الخص حمرء كالون الفصوص ، ويظل الشاعر في رسم لوحات المشهد فريتا في بقية أبيات التصيدة تجمع الشرب في بيت خمار شهيد من الدان العارغة ، وظلال بالخوص والنفيد الحسان فيه يمشين رويدا في استحياء كأن في أرجلن صدوعا ، وقد حسرن عن سواعدهن البضة ، وتصاعدت من أرداهن روائح المسك والتمر والمود . بينما الكأس يدور على الشرب السامر ملاهى مترعا بالخر الأخضر اللون المروج البارد . في قوله :

يألت شمري وان دو عجة	مق أرى شربا حوالى أصيص (٦)
بيت جلوف بارد ظله	فيه طباء ودواحيل حوص (٧)
والربرب المسكوف أردانه	يمشى رويدا كمشى الرهيص (٨)

(١) وتقنعك : تصيدك ، ومثلها تصطادك ، على الحذف والايصال مثل : رحبتك الدار أى رحبت بك . ولا تسكع : لا تمنع

(٢) الخص : حيد الخمر (٣) المويص : الشديد من كل شيء .

(٤) الخدوف : الأتان الوحشية السمينة والنحوص من الاين : القى لا ولد لها ولا لبن .

(٥) اللدوص : الخداع .

(٦) وأن : وأنا ، واصل همرة القطع ، وحذف الألف التى بعد النون ، والمعجة

بفتح العين : الحدين ، والأصيص : أسهل دون مكسور .

(٧) الجلوف بضم الجيم جمع جام : الدن الفارغ ، والطباء جمع ظبية ويصدها

هذا الأباريق الضخام ، والدواحيل جمع دوحلة : سقينة من خوص يوضع فيها التمر والرطب .

(٨) الربرب : القطيع من بقر الوحش وتشبه به النساء ، والرهيص : المصدوع .

ينفخ من أردانه المسك ، والد منبر ، والنلوى ، ولبنى قفوص (١)
والشرف المندى نسقى به أخضر ، مطوئا بماء حريص (٢)

ويبدو من جزالة الألفاظ ، وما تخلل القصيدة من حكم أن الشاعر قالها في لحظة
اجترار للماضى وهو في سجنه أيما كان فلقد مرض الشاعر بخمرياته تلك وغيرها
— فما يضيق بذكره المحدث — استأديته لشعراء الحجر الذين جاءوا بعده سواء في الجاهلية
أو بمد الإسلام مثل الأعشى والأخطل والوليد بن يزيد وأبي نواس وغيرهم ، ويقرر
هذا ما ذكره صاحب الأغاني (٣) من أن الوايد بن يزيد شاعر الحجر الأول في العصر
الإسلامي كان على صلة بشعر عدى بن زيد من نديه القاسم بن طويل العبّادى القدي
كان ينشده شعر عدى ، ويفنيه للمنون في مجالسه ، وأن مبدأ غي القافية أمامه ذات
يوم فاستحسنها وأحبها ، وجعل يشرب على أنفاسها مدسرحا متشيا طربا .

والملاحظ في خمريات عدى أنها تجمع بين اللوحات التممددة المشاهد والمواتم .
وبين اللوحة التي تمرض الصورة الجزئية في سرعة حاطفة . . . واللونان من العصور
يشهدان لمدى بالدقة في جمع أطراف الصورة والتركيز منها على الجانب المطلوب ، في
خفة واثاق كما يبينه المدارس أنه أمام مصور عربي نشأ وشب في بيئة حضارية ناعمة ،
ويذكر دائما بأنه في صحبة رجل مثقف نال من الثقافات المختلفة ما جعله يتميز على
معاصريه في مختلف الاتجاهات . ونظرة إلى تلك الصورة تبرز ما نقول :

هذا ورب مسرين سقيتهم من خمر بابل لذة للشارب
بكروا على بسحرة نصبتهم من ذات كرب مثل قصب الخالب (٤)

(١) النلوى : أخلاط من الطيب تفل ، ولبنى : عود طيب الرائحة ، وقفوص :
بلد يجاب منه هذا العود .

(٢) المشرف : أناء كانوا يشربون به ، والمطوئ : المسوس ، وأراد به الممزق ،
والحريص : البارد .

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٥ ، ٦٦

(٤) القصب . القدح الضخم الجافى .

بزحاجة ملء اليدين كأنها قدبيل نصح في كنية راهب

* * *

زاه - أولا - في دوران القصة حول موضوع واحد . تسلسل أحداثه ، وترتيب ترتيبها منطقيا في هيئة تبرر القصة متكاملة ، لتؤدي الغاية منها ، وتخصه - في العنكب - يقدم العبرة والعظة من خلال واقع تاريخي أو ديني فالقصة في شعر عدى امتدنت لشعره الوعظي أو هي موعظة في ثوب القصة .

مراه - ثانيا - في منهجه القصصي الذي اعتمد عليه في تقديم الحوادث ، فإنه يعتمد في قصه على ماته ور له من معلومات تاريخية ودينية ، وما ناله من ثقافات حضارية عميقة حصل عليها من منابع ثقافية متعددة متباينة جمع فيها بين ثقافات العرب والفرس والروم . في حين اعتمد سابقوه ومناصروه من الشعراء الجاهلين في شرح القصص على المشاهد الواقعية ، والملاحظ الحسية ، فأصبحت القصة مجموعة من اللوحات الوصفية والاشارات التاريخية التي يعتمد فيها على ذاكرة التلقي ليتكامل البناء القصصي . ومن أبرز قصصه الديدية قصة الخلق ، التي تناول فيها حاق آدم وحواء وهبوطهما من الجنة ، وفيها يقول :

عن ظهر غيب إذا ما سائل سألا	أسمع حديثا كما يوما تحدثه
فيما ، وعرفنا آياته الأولا	إن كيف أبدى إله الخلق نعمته
وظلة لم تدع فتقا ولا حلالا (١)	كانت رياح وماء ذو عرائية
وعزل الماء عما كان قد شتلا	فأمر الظلمة للسوداء فأنكشفت
تحت السماء سواء مثل ما فعللا	وبسط الأرض بسطا ثم قدرها
بين النهار وبين الليل قد فصللا (٢)	وحمل الشمس مصرا لاخفاء به
وكان آحرها أن صور الرجالا	قضسى لستة أيام حليقتـه

وهكذا في تسلسل تاريخي - استقاه مما توفر له من كتب ديدية ، ومعارف ثقافية حصروا التوراة والإنجيل - يحكي قصة خالق آدم وادخاله الجنة هو وزوجه التي خلقها من ضامه ، وكيف أطلق له حرية الاستمتاع باستثناء شجرة واحدة . . . الخ

(١) ماء ذو عرائية - بضم العين والراء المخففة - ماء كثير مرتفع

(٢) المص : الحد .

ولولا ما عرفناه عن عدى بن زيد في نشأته الدينية التي كان لتعمقه فيها أكبر الأثر في نسبه إلى المباد . . . أقول لولا ذلك لما توقعنا منه أن يقص علينا مثل هذه القصة ، أما وقد نشأ هذه للنشأة التي تسمى إلى وطيسد اتصاله برجال الدين لليهود والصارى والمجوس وغيرهم ، فلا غرابة فيما قدم .

وله قصيدة أخرى رائية يحكى فيها قصة إبليس مع آدم وسميه لإعرائه وطرده من الجنة متوسلاً بهواء .

أما قصصه التاريخية فمن أبرزها قصيدته الرائية التي ذكرنا طرفاً منها في الشعر الديني والتي يقول في مطلعها :

أيها الشامت المعبر بالدهر أنت المبرأ الوفور

وفيها يحكى من قصة ملوك الفرس والروم ما يمتط السامع ويعيده إلى الله ، وينأى به عن الاغترار .

ومن قصصه التي ضمنها شعره قصة ابن بخت نصر الذي تخير لوزارته من رعى شئون مملكته ونصح له وكنتم سره فماش مهيباً محبوباً منيماً ، ولقد ساق هذه القصة في قصيدة أرسلها إلى العمان من سجته وفيها يقول :

ألا في الأول الماضي اعتبار	لقدى عة - ل أحى فهم بصير
تخير للوزارة من رعا	باشفاق ونصح في الأمور
وحسن سره فعلا مهيبا	يجازى القتل بالجلم الكثير
وواتاه الزمان فماش دهرا	منيما في السهول وفي الوهور

* * *

وفي الحق لم يقف عدى في تميره وسيفه التي عند ذلك الحد ، فليما نسب إليه من الشعر ما يشير إلى أن له سبقاً كذلك في الحكمة الشعرية ، تبدو في نمايا هورة شعره الديني والوعظي على الخصوص ، متناثرة هنا وهناك ، شأنه فيما شأن أضرابه من شعراء الحكمة الجاهليين مثل أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى والناظرة .

يبد أننا نجد عدنيا يبرز سابقه ومما صر به في دالته التي خصها للحكمة ، والتي يبدؤها

بتساؤل موجه إلى من تمذله وتلومه على كرمه واتفاقه دون أن يعمل للزمن حساباً ،
ومن هذا المنطلق يأخذ الشاعر في الرد على عاذلته موضحاً نظرتة إلى الدنيا ، وما يترتب
عليها من سلوك ، ممللاً اقباله على اتفاق ماله حرصاً على أن يظل الكريم الذي يبذل في
غير حرص ولا تردد بالمصير المحتوم الذي لا يستثنى منه أحد ، وبأن الاتفاق في الحياة
خير من تركه للوارث يستمتع به :

أعاذل : ما يدريك أن منيقي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
ذريتي إنى إنما لى ما مضى أأى من مالى إذا خف عودى
وحمى ليقتانى إلى منبلى وغودرت أن وسدت أو لم أو سد
وللوارث للباقي من المال فانركى عتابى إنى مصلح غير مفسد

وليس ذلك هو الدافع إلى الاتفاق لحسب ، بل يدفع إلى الاتفاق أيضاً ما يحققه
العكرم للانسان من مراكز مقبول محبوب بين أخلائه وأصدقائه :

ولا تلح إلا من ألام ولا تلم وبالبدل من شكوى صديتك ما تمد
وللخلى إذلال لمن كان باحلا ضنيا ، ومن يبخل يدل ويزهد
وللبخلة الأولى لمن كان باخلا أعب ، ومن يبخل يلم ويرهد

كما يدفع إليه حرص الإنسان على البعد بنفسه عن النقى وتجنبها مواطن الشبهات .
حتى يكون من الصفوة الذين لا يندم من يقتدى بهم :

فنفسك فاحفظها عن النقى والردى متى تفوها بنو الذى بك يقتدى
وإن كانت الذمء عندك لا مرىء فتمسلا بها فاجز المطالب وازدد
ومن هذا يوجه نصحه ، فيرسم منهجه الذى ترفضيه فى اختيار الأصحاب :
إذا كنت فى قوم صاحب حيارم ولا تصحب الأردا فتردى مع الردى
عن المرء لا تسأل وصل عن قرينه فكل قرين ما تقارن يقتدى

وعلى هذا للدرب يسير عدى فى داليتة ، حريصاً على أن تكون نفسه هى المدد
الذى يأخذ من تجاربه لىكون قريباً من سامعيه ، فيضمن أقبالهم عليه ، على الرغم
من طول القصيدة وجفاف معانيها .

وريادة منه فى الاحتياط حفلت القصيدة بتلك الأصباغ والألوان الجذابة المتناسقة

التمثلة في الصيغ المتلوثة المتنوعة من استفهام ، وتمجيب ، وأمر ، ونهى ، ونداء ،
وشرط ، والتفات ، إلى غير ذلك من أسباب الجذب والاقناع العاطفي ، إلى جوار
الاقناع العقلي ، من كل ما تضافر مع صدق الشاعر ، وقربه من النفوس ، ليحقق جمال
الأداء ، ويمنع المعاني رخاوة ، وايضاً على الأفسكار الانسجام والتسلسل .
وليس هذا مقصوداً على الدالية الحسكية ، بل أن حكمته المتأثرة في ثنايا . واعظه
التي قدمنا طرفاً منها لا تخلو عن بعض ذلك الذي مجده في دالته (١) .

(١) لمزيد من الدراسة الناقد راجع للمؤلف بحث (عدى بن زيد ظاهرة متميزة
في الشعر الجاهلي) المنشور بمجلة كلية اللغة العربية - العدد الأول .

(٢)

النابعة الذيباني

نشأته وحياته :

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع ويرتفع نسبه إلى غيظ بن مرة ، ثم إلى ذيبان ، ثم إلى غطفان . لقب بالنابعة واشتهر به قيل : لقوله في بعض شعره : « فقد نبئت لهم مناشئون » ، وقيل : لأنه قال الشعر بعد أن كرت سه ، ومات قبل أن يهتر ويذهب عقله (١) . وقد يكون تلتبيه بذلك راجعا إلى وصفه بالنبوغ في الشعر والتفوق فيه ، ويرشح ذلك أنه قد لقب بذلك اللقب جماعة من الشعراء غيره ، مثل النابعة الجمسدي ، والنابعة الشيباني ، والنابعة التليبي ، وهم ليسوا جميعا جاهلين ، بل منهم المخضرم ومنهم الإسلامي .

ولم يكن النابعة أحسن حالا من أصحابه الجاهلين ؛ إذ لا نكاد نعرف عن نشأته أكثر من أنه عاش في أواخر العصر الجاهلي ، وامتد به العمر حتى قبيل ظهور الإسلام ، فقد قيل إنه توفي سنة ٦٠٤ م .

أما حياته فيخبرنا الرواة كما يخبرنا شعره أنه قضاه في السياحة بين بلاط النعمان بن لنذر أمير الحيرة ، وبلاط عمرو بن الحارث النعماني وأخيه النعمان .

ويبدو أن غايته من تلك السياحة كانت للكسب المالي ، والسياسة ؛ فقد كان النعمان يجزل له العطاء على مداخله وكذلك فعل النعمانية معه ، وكان يستغل صلته تلك في العمل على رفعة قومه ، والحفاظة على أمنهم وسلامتهم ، ولعل ذلك كان من أسباب انتقاله إلى النعمانية ؛ روى أن ذيبان وأحلامهم من بني أسد تمدوا على وادي أقر الحصيب الذي كان تحت حماية النعمانية ، فنكل هؤلاء بهما تمكيلا عظيما ، وأسروا كثيرا من نساها ، بما آلم النابعة ذلك الألم الذي تلمسه في قوله :

(١) الأغانى ج ١١ ، ص ٣ ، الشعر والشعراء ج ١ ، ص ١٥٧ وما بعدها .

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر وعن تريمهم في كل أصفار (١)
وقلت : يا قوم إن الليث لمنقبض على برائفة لوثبة الضاري (٢)
لا أعرف من ربها حورا مدامعها كأن أبكارها نماج دوار (٣)
ينظرن شذرا إلى من جاء عن عرض بأوجه منكرات الرق أحرار (٤)
يذرين دما على الأشفار منحدرًا يأملن رحلة حصين وابن سيار (٥)

ولم يجد مفرا من أن يقوم بدوره في تخليص قومه من هذا الذي وقعوا فيه ، واسترداد الأسرى ؛ وسمى إلى الفساسة مقدما بين يديه مدائحهم ، فزل بهمروبن الحارث الأصغر ، ومدحه كما مدح أحياه النعمان مدحا رائعا ، فاستجابا لطلبته ، وعموا عن الأسرى ، وكفا عن ملاحقة ذبيان وأحلافهم وأقام في ظلال الفسانيين فترة نال فيها منهم الجوائز الثمينة ، وتوجهم فيها من شعره بالقصائد الرائعة ، ولكن ذلك لم يشغله عن هدمه الأصيل ، وهو حماية قومه وأحلافهم من بطش الفساسة . بل إنه إلى ذلك حرص على أن ينشر خبره على أصدقاء قومه ، كما كان الشأن مع بني حن التي كانت تنزل عليها بين الحين والحين بنو ربوع عشيرة النابغة . وقد رأى النعمان الفسائي بعد العدة لزم بني حن ، فتعرض له النابغة محاولا منعه من ذلك ، خوفا من سخطهم ومنعة ديارهم ، ولكن النعمان أصم على غزومهم ، فأرسل النابغة إلى عشيرته يدعوها أن تعد نفسها لمجدة حلفائهم بني حن وإعانتهم في رد عادية الفسانيين عنهم ، وتحقيق له ما أراد فقد منى جيش الفسانيين بالهزيمة ، وفي ذلك يقول النابغة :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يريد بني حن بركة صادر (٦)

-
- (١) أقر بضم المعزة والقاف : واد ، تريمهم : إقامتهم وقت الربيع ، أصفار جمع صفر : شهور الربيع .
(٢) البرائن جمع برثن : الخالب ، الضاري : الموقع بأكل اللحم .
(٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به ، حورا جمع حوراء : العيين الجميلة واضحة البياض والسواد ، النماج جمع نمجة : إناث البقر ، دوار : أسم صنم .
(٤) النظر الشدر : النظر بمؤخر العين ، عرض بضم العين والراء : جانب .
(٥) الأشفار جمع شفر : هدب العين . (٦) بركة صادر : موضع .

نجنب -ى حن فإن لقضاءهم كربه وإن لم تلق إلا بصابر (١)
عظام اللهى أولاد عذرة إهم لها مم يستلونها بالخناجر (٢)
وهم ممنوا وادى القرى من عد وهم يجمع مبير للعدو المسكتر (٣)

وهذا الموقف يكشف عما كان يسكنه الباطنة لقومه وحلفائهم من إحلاص ومحببة
وما زال على حاله ذلك ، يرمى مصالح قومه ويوطد العلاقات بينهم وبين النصارى حتى
توفى عمرو بن الحارث وأخوه النعمان ، فعاد إلى النعمان ثابئة

كان الباطنة أثيرا عند النعمان خاصة به ، وكان من ندمائه وأهل أسرته ، إلى أن
حدث ما أثار عليه النعمان وتهدهه - على اختلاف الروايات في أسباب ذلك - إلى قومه
ثم شخص إلى ملوك عاز، بالشام فأقام بهم يمدحهم ، فانتقل من بلاط ، ثم لما اطمان
إلى عمرو النعمان بن المنذر عنه عاد ثابئة إلى الحيرة وأمنه وأدناه حتى قال فيه حسان بن
ثابت : وحسدت النابغة على ثلاث لا أدري على أيهن كنت أشد حسدا ؛ على إدياء
النعمان له بعد المبالغة ومسامرته له وإصفاائه إليه ، أم على جودة شعره ، أم على مائة
مبير من عسافيره (٤) أمر له بها (٥) ،

ولقد قدم لمودته إلى الحيرة بقصائد يعتذر فيها إلى النعمان ، ويعلم ندمه على ما سلف
منه : ورعبته في العودة إليه مخلصا كما كان ، حتى عما عنه ، وهو إنما كان راغبا في
النعمان طمما في استمرار عطاياه ، واستدامة حياة الترف التي كانت تغمره ، قال أبو عبيدة
قيل لأبي عمرو : أهن مخافتة امتدحه وأناه بمد هربه منه أم أغير ذلك ؟ فقال : لا لعمرو
الله ما لمخافته فعل ، إن كان لآما من أن بوجه النعمان له جيشا ، وما كانت عشيرته
لتسلمه لأول وهله ، ولسكنه رغب في عطاياه وعسافيره ، وكان النابغة يأكل ويشرب
في آنية الفضة والذهب عطايا وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك (٦)

(١) صابر : شجاع في الحرب .

(٢) اللهى بضم اللام جمع لهوة : المال الكثير ، اللهمم جمع لهموم بضم اللام ؛
الجيش العظيم . يستلونها ، يبتلونونها .

(٣) مبير ؛ مهلك .

(٤) العسافير ؛ إبل مجاثت كانت للموك (٥) الأغاني ج ١١ ص ٢٨

(٦) الأغاني ج ١١ ص ٢٩

وأقام الباعة في ظلال النعمان إلى أن غضب كسرى على النعمان فاستدعاه سنة ٦٠٢ م
والتقى به في عيابه السجن حتى مات ، ورجع الباعة إلى قبيلته وقضى بها آخر أيام حياته
ويبدو أنه مات في الفترة ما بين عودته من الحيرة سنة ٦٠٢ ، ونهاية حروب داحس
والغراء سنة ٦٠٨ م ، وقد ذكر لويس شيخو أنه توفي سنة ٦٠٤ م (١) .

ولم تكن شهرة الباعة وفقاً على علاقته بالفساسة والناذرة ، بل كان له إلى ذلك
شهرة طويت شبه الجريفة مكنت له بين الشعراء ، فكانوا يصفون له قبيلة من آدم
بسوق عكاظ ، فتأثبه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها ، قال الأصمعي : وأول من أنشده
الاعشى ، ثم حسان بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت
عمر بن الشريف :

وإن صخرًا لتأتّم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آناً لقات إنك أشعر الجن والإنس ، وقال
حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أيك ، فقال له الباعة : يا ابن أحمى أنت لا تحسن
أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن حلت أن المتأى عمك واسع

خطاطيف حيجن في جبال متيبة تمسدها أيديك نوارع (٢)

فخس حسان لقوله (٣) .

شعره :

واصح من نشأة الشاعر وحياته أنه لم يقض منها بين قبيلته قدر ما قضاه في الحيرة
والشام في قصور المناذرة والفساسة ، وأنه جمع من ذلك مالا كثيرا ، زوهر لنفسه

(١) شعراء النصرانية ص ٦٤٠

(٢) خطاطيف جمع خطاف بضم الخاء : حديدة حيجناء تستخرج بها الدلاء
وعيرها ، حيجن بضم هـ تكون جمع أحيجن : وهي الموجة ، نوارع : جواذب ، يقول
لك خطاطيف هذه صفتها أجر بها إليك ، على سبيل التمثيل ، يريد أنه مشدود إليه بأسباب
لا يستطيع أن يتخلص منها .

(٣) حلس : انقبض أو رجعت حتى : الأغاني ج ١١ ص ٦

حياة مترفة أدنته من حياة اللوك ؛ إذ كان يأكل ويشرب في صحاف الذهب والفضة .

وواضح - كذلك - بمن تلك الذنأة وهذا الارتباط ببلاطى آل المنذرو آل غسان أنه أسلم حزا كبيرا من حريته الشخصية لما يفرضه عليه مقامه في قصور اللوك من الألتزام بخالق معين ، والوقوف بشعره عند حد معين ، حماله يدور في محور من يكتفه منهم ويرعاه ، لا يتحاذره إلى غيره ، ولا يرى غير ما يدور في محيطه المسكى ، ولا يحس إلا بما يحدث هناك .

ومن ثم ينظر الدارس في شعره فيجد لا يكاد يتجاوز الحديث عن بنى المنذر وبنى غسان ، مدحا أو رثاء أو اعتذارا .

ومن ينظر في شعر النابغة يلمس أثر هذا الوسط المتحضر المترف في شعره . إذ يجد نفسه أمام شاعر يدرك أثر السكامة في سامعيه ، فهو لذلك حرص أشد الحرص على انتقاء عباراته والفاظه بما لا يعطى فرصة لطاعن ، يتقرب إلى السمان على حساب النابغة .

ويلاحظ أنه مع شاعر لا يقول كل ما يفد على خاطره ، بل هو المتحفظ الذى يتروى في إراز أفكاره ومعانيه ، وما يرال وراءها بالصقل ومماودة النظر ، حتى تستقيم له العبارة ، ويصح المعنى ، ويتسق مع متطلبات بيئته .

ويدرك أنه يعايش شاعرا جعل من شعره وسيلة لتحقيق مآربه الفردية أو القبلية فشعره مصنوع بما فيه من مدائح ومرأى واعتذاريات ، إذ قلما تجد فيها تعبيرا ذاتيا عن حس صادق أو شعور أصيل ، ودور العقر فيه أوضح من دور الماطمة ، وهذا لاشك أحد آثار البيئته الحضارية المترفة التى قصى فيها جل سى عمره ، والتى سلحته عن الفطرة العربية الخالصة ، ونأت به عن البيئته البدوية بأحلاقياتها رقيها .

ونظرة إلى مدائحهم التى خلمها على اللوك المتوجين في الحيرة والشام تحملك تقطع بأنه شاعر أجاد الصنعة ، وبرع في الوقوع من القوم على ما يرمى غرورهم ويستجيب لما حرم ؛ وذلك بحشد طائفة من الصفات الامامة وتحليلتها ببعض الخصوصيات ، وتبدو كأنها جميعا حلية يخصصهم بها من دون غيرهم .

مثال : ذلك بائته التى قالها في مدح عمرو بن الحارث النسائي وآنائه ؛ فقد بدأها

باستهلال يخاطب فيه ابته ، ويبتها شكواه مما يهتم له ويشجبه ويطلب ليله ، ليخلص
من ذلك إلى الحديث عن ممدوحه حديثا مستقيضا يقول فيه :

إذا ما عزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بمصائب (١)
يصاحبنهم حتى يفرن مفارهم من الصاريات بالدماء الدرارب (٢)
تراهن خلف القوم حزرا عيونها حلوس الشيوخ في ثياب المرانب (٣)
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب (٤)
على عارفات للطمان عوابس بين كلوم بين دام وجالب (٥)

فالشاعر يمدح الفسائنة بالفروسية والشجاعة التي حملت جماعات الطيور المتوحشة
تتبع خطوطهم لإيقانها بأنها حاصلة على رانها وبقمة على زادها من اعدائهم، ولتقتها من
ذلك ترى جانحة على استمداد للانقراض ، ثم يمضي في إتمام الصورة فيرر شجاعة القوم
من حلال تصور حيولهم بما عليها من أثر للطمان وجروح دامية ومتجمدة ، ويظل
في انتقالاته تلك حتى تكمل صورة الفروسية ، فينتقل إلى صفات أخرى يمدحهم بها
حيث يقول :

لهم شيمة لم يظها الله عيرهم من الجود، والأحلام غير عوارب (٦)
محلتهن ذات الإله ، وديهم قوم فما يرجون غير العواقب (٧)

-
- (١) عصائب جمع عصاة : جماعات .
(٢) الصاريات : المتمودات ، الدوارب : المدرية .
(٣) حرر بصم الحاء وسكون الزاي جمع آخرر : الذي ينظر بمؤخر عينه ، المرانب .
ثياب سوداء .
(٤) جوانح : مائلات للوقوع .
(٥) عارفات : صابرات ، كلوم : جروح ، دام : سائل دمه ، جالب : متجمد
عليه الدم .
(٦) الأحلام : العقول ، العوارب جمع عازب : الغائب .
(٧) محلتهن : منزلتهن ، ذات الإله : له يقصد كمائسهم .

رفاق الأعمال طيب حيزاتهم يحيون بالريمان يوم السباسب (١)
تحميم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضربيج فوق المشاجب (٢)
يصونون أجسادا قديما ميمها بمخالصة الأوذان حضر المناكب (٣)
ولا يحسبون الخير لاشر بعه ولا يحسبون الشر صرية لازب (٤)
حبوت بها غسان إذ كنت لاحقا بقوص وإذ أعبت على مذاهي (٥)

فيصمهم بالجلود وبالعقل الحاضر ، وبالسلك بالدين القويم - وكانوا نصارى -
والقيام على حلقة ، ثم يرج من ذلك إلى وصف مظاهر الترف والنعيم التي تنمّر حياتهم
فهم رفاق الأعمال ، وهم على عفة ، يعاظون على طقوسهم الديلية ويحيون بالأزهار في
يوم السباسب - ولعله يقصد به يوم الشمانين أحد أعياد نصارى - تحميم الخواري
والإماء ، ويحفظون أجسادهم الترة الممة من قديم شباب مزركشة من الخبز الخالص
حضر المناكب ، ثم يخلص من ذلك إلى صنة عقلم عقيدته يحرس على مدحهم بها
تقريراً لاستمطاطهم على قومه ، فيقول إن النسانيين متفتحو المقول يدركون أن السلوك
البشرى لا يقف عند الخير لا يتجاوز ، ولا يقف عن الشر لا يتخطاه ، بل لا بد من
مجاورة الشر للخير ، ولا بد من نهاية لشر بالخير ، وكأما يهيمه ذلك إلى أن يكشف
عن حقيقة مقصده ، فيعلن أنه في تلك القصيدة لسان قومه الناطق ، وأنه يقدم هذه
المدحة وهو وشيك العودة إلى قومه بعد أن ضاقت السبل أمامه بسبب من أسر من
أهله وعشيرته

قأنت أمام مدائح عامة لا يخص واحدا من دون غيره ، ولاتقف على جماعة من

(١) الحجرات جمع حجرة يضم فسكون : موضع شد الإرار من الوسط ، وطيب
الحجرة : كناية عن العفة ، السباسب جمع سبب : للفارة
(٢) الولائد : الجواري والإماء ، الإضربيج : الحرير الأحمر ، المشاجب جمع
مشجب أعواد تعلق عليها الثياب .

(٣) الأردان جمع ردن بفتح الراء والبدال الخبز ، وحلوصها : صفاؤها وزوال
شوبها ، والمناكب جمع منكب بفتح الميم وكسر الكاف : مجتمع رأس العنق والكتف
(٤) لارب : لارم .
(٥) أعبت عليه مذاهبه : ضاقت سبله وسرت .

دون الناس ثم هي لا تكشف عن خصوصية في السلوك ، ولكن الشاعر بما كساها
من جزل الألفاظ ، وعجك المعبر ، وجعل الصور قد نثت فيها روحا من عنده ،
وأبرزها في معارض حضارية المعنى ، تكشف عن مظاهر الترف والنميمة التي يرفلون
في ثيابها . . . وهو بذلك حولها من موات حامد إلى صفات تنبض بالحياة .

* * *

ومثال ذلك بأبيته التي يعتذر بها إلى اللذنان من الذر والتي يقول فيها :

أناي أبيت اللذن أنك لئننى	وتلك التي أهتم منها وانصب
مبت كأن المائدات فرشن لى	هراسا به يعلى وراشى ويقشب (١)
حلفت فلم أترك لنفسك ربية	وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى حيانة	لبائتك الواشى أغشى وأكذب
ولكنى كنت امرأ لى جانب	من الأرض فيه مستراد ومدهب (٢)
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم	أحكم فى أموالهم وأقرب
كفطك فى قوم أراك اصطنعتهم	فلم ترمم فى شكر ذلك أذنبوا
وإنك شمس ولللك كواك	إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
فلا تتركنى بالوعيد كأنى	إلى الناس مطلى به القار أجرب (٣)
ألم تر أن الله أعطاك سورة	ترى كل ملك دونها يتذبذب (٤)
ولست بمستبق أخا لائله	على شعث أى الرجال المهذب (٥)
فإن أك مظلوماً فعبدا ظلمته	وإن تك ذا عتي فمشك يعتب (٦)

(١) الرواس بفتححتين : شجر كثير الشوك ، العائدات : الزائرات فى المرض ،
قشب : يجدد .

(٢) جانب من الأرض : متسع ، مستراد : يذهب فيه الإنسان كما يريد ، إعلمه
إلى كرام الفساسة له .

(٣) القار : الفطران .

(٤) السورة بضم السين : المنزلة ، يتذبذب : يضطرب ولا يصل إليها .

(٥) بلمه : تضمه وتجمعه ، شعث ، فساد .

(٦) العتبي ، الرضا ، بمتب بضم العين وكسر التاء ، مطلى العتبي والرضا .

يقول للنعمان إن أباؤك إياي على ما بدر مني جعلتني مهوما مكدودا لا يكحل النوم عني ، فأقضي ليلي مؤرقا مسهدا كأني أنام على شوك . ويحاف له بأنه لم يرتكب ذنبا بسببه ، فهو ما زال على عهده الوفي المحاسن ، أما ما بانك عن فموشاية الواشين قصدوا به فهم ما بيني وبينك من علائق . وكل ما صدر مني أني قصدت ديار المساسمة طالبا منهم عن عشيرتي ، فأنزلقني خير منزل ، وأكرموا وفادتي ، وأحسنوا معاملتي ، وأحزوا لي العطاء ، فلم يكن مني إلا أن رددت لهم هذا الصنيع بمدهم ، كما يفعل منك من تهره شوا لك من الشعراء - محتجا بذلك لسلكه من واقع مدوس لدى العميان - وليس معنى ذلك أني حرحت عليك ، ولا كفرت نعمتك ، ولا انحرت إلى المنصامة دونك ، وأين هم المنصامة وغيرهم منك ، وأنت بن الملوك كالشمس بين الكواكب ، إذا سطع صرورها احتفت أضواء الكواكب - موحيا بذلك إلى أنه يرحو منه أن يسطع عليه بالمزيد حتى يوارى كل من عداه - ثم يصرح باستعطافه ، فيطلب إليه أن يهفو عنه لأن غضبه عليه جعل الناس يترلونه كأنه يعبر أجرب طلي القار وأبهدت عنه الإبل صيانة لها منه . وما ذلك إلا لترلتك في نفوس الناس ومكانتك منهم وذلك إحدى خصوصياتك التي وهبها الله لك . ولسكنه بعد إنكاره تهمة الخروج عليه واستقصاء كل ما يزيل آثار تلك الوشاية ينتقل إلى طريق آخر ، فيقول له ، ولو صح أني ارتكبت هذه المفوة ، فهل يمكن لإنسان أن ينأى عن الخطأ ، ولن يكون لك صديق إذا عزلت من صداقتك كل من يصدر منه هفوة . وأياما كان صيما ممي هادي راص بكل ما نراه في ، فإن ظلمتني بعد ظلمه سيده ، وإن عفوت عن ذلك أمر طبيعي ؟ إذ منلك يعتب ويصفح .

ولاشك في أن البون شاسع بين مدائحهم واعتدالياته ؛ إذ هو في اعتدالياته يتمدد على تصوير ضيقه ومماناته ، وهو فيها مرهف الحس والشعور ، يقطر العقل ، يلمس بها قلب محاطبه ، ويقرع عقله بالحجة الجارية والبرهان القاطع ، حتى تمكن في آخر الأمر من إدارة رأسه ، واستلال الحقد والنصب من صدره ولقد وصح من هذه الاعتذاريات أن النابذة ليس حبيرا بطبائع النفس البشرية حسب بل هو حبير بطبائع الملوك ، ما بما يؤثر فيهم ، وأقرب شيء إليهم أن تعترف بضعفك أمامهم ، وتقر بسيادتهم عليك .

وواضح أن النابذة لم يحصل على ذلك إلا من مشا كمة القصور ، ومعايشة الأمراء

والمؤك، ومخالطة الحاشية ورجال الدولة والسياسة، مثقف بثقافتهم، ووجه - لم منهم أساليب مخاطبة المؤك مديحا واستمطاطا واعتدار.

وهكذا اسلخ من طبيعته البدوية، دون أن يحس في ذلك بقضاضة، أو يشعر بما يشعر به أهله من ضيق، بل كان على العكس من ذلك يرى أن ذلك السبيل حقق له السيادة بين قومه - رضوا بذلك أم كرهوا - وهم بحاجة إلى ماله كما هم بحاجة دائما إلى جاهه ومكانه عند الماذرة والفساسنة ولعل من مظاهر ذلك أنهم أكبروه وصرخوا له القبة الحمراء في سوق عكاظ ليحكم في الشعر والشعراء، ويقدم هذا ويؤخر ذلك.

* * *

ومن ثم يتضح الفرق بين النابغة وامرئ القيس، مع اتفاق البيئتين الخاصة بهما؛ فامرؤ القيس كان في تربة الأمير ابن الملك الذي يشعر بأصالته فيما هو فيه، وهو مستقل عن الآخرين، يصنع ما يروقه، ويتحرك من منطلق ذاتي، أما النابغة فيحسن بأنه ما حقق ذلك الذي هو فيه إلا باستمداده من غيره؛ فالنعمان مصدر نعمته، وهو لذلك مشدود إليه، لا يستطيع العكسك من أسره الذي يملكه في يدي سيده.

خطاطيب حججن في جبال متيبة تمد بها أيد إليك نوارع

وكان هذا الفارق بين الشعارين أساس اختلافهم في الفنون الشعرية التي تماولاها؛ فهما - على الرغم من اتفاقهما في البيئتين الخاصة - مختلفان فيما يلونها ويشكلها، مختلفان فيما يحدوها وما يبدأ عنها.

ولم يقف اختلاف النابغة عن امرئ القيس عند حد الاختلاف في الدافع إلى القول وما نشأ عن ذلك من الاختلاف في الفنون الشعرية . . .

وذلك لأن الناظر في شعر الشعارين نظرة موازنة يلاحظ أن من بين الفوارق المميزة لكل حرص امرئ القيس في تصويره على الصور التفسيرية المدعمة بالتشبيه وغيره من ألوان البيان بينما يحرص النابغة في تصويره على الصور البيانية القائمة على النظرة المحسية المستقصية لأحراء الصورة، والوقوع منها على الجوانب المصورة، كما رأينا في تصويره جيوش الحارث الفسائي وما نحتقه من انتصارات، وتصوير المساسنة في سدهم، فيتحدث عن سجاياهم وشيمهم ومعتقداتهم الدينية حديثا يرسم لهم صورة رائمة في قوله :

لهم شبيبة لم يعطها الله غيرهم من الجود، والأحلام غير عوازب

إلى آخر ما ذكرنا من ذلك آنفا ولا يعنى ذلك أن النابغة لا يستخدم - في تصويره - الصور التفسيرية ، ولسكن الذى أعنيه - ذلك أن النابغة لم يكن يحتفل بهذه الصور احتفال امرئ القيس ، ولا كان يعتمد عليها في تصويره اعتماد امرئ القيس . من ثم ركز النابغة جهده في الوقوع من ممدوحه على المعانى التى يتمدح بها ، وعرضها في ترتيب متناق أخذ ؛ ورأينا في صورته - لذلك - معانى حضرية جديدة لم تعرف ولا لشاعر الحصر العربى لشاعر البادية الخالص ، تمثل سلوكهم ومعتقداتهم البدئية ، ومظاهر الترف والنعيم في حياتهم .

بيد أن مواراة النابغة بمسدى بن زيد تكشف عن ما بين الشاعرين من علائق تنمى عما أخذته النابغة من عدى في ذلك ، خصوصا في اعتدالته .

كما يتضح الفرق بينه وبين زهير الذى ارتبط بيئته القباية ، ولم يخرج عليها على الرغم مما أتبع له من أسباب الترف والنعمة ، فانجبه بمدائحهم إلى من يقدم الخبر لأهله وعشيرته ، فلم يمدح أشخاصا بقدر ما مدح أفعالا ، على عكس النابغة الذى قصد إلى مدح الأشخاص ليدهمهم من وراء ذلك إلى الأعمال . ومن ثم افترق زهير في مدائحهم عن النابغة ، فالتصمت مدائح زهير بالصدق الواقعى والبنى ، وكانت نابغة من شعور متسق مع الموقف ، أما مدائح النابغة فكانت معتمدة على الفن المصنوع الذى لا يقوم على تجاوب نفسى ، ولا انساق عاطفى . ولا ريب في أن ذلك أثر من أثار البيئة الحضرية التى ضمت النابغة .

بيد أن بين الشاعرين تشابها يتمثل في زوف كل منهما عن الهجاء ، وتحفظه يديه . إذا اضطر له اضطرار ، وهما في ذلك متأثران بخلق البادية العربية المترفة أو المتحضرة المزوج بالوقار الذى أضناه على كل منهما مركزه بين عشيرته وتقدمه في السن ، فلما كان زهير يمتنع من الخوض في عرص مهجوه ، والإقذاع في شتمه وسبه ، كان في قوله يهجو عامر بن الطفيل ردا على هجائه إياه :

فإن يك عامر قد قال جهلا فإن مطية الجمال السباب

فكن كأبيك أو كأبي براء توأفك الحكومة والصواب (١)
ولا تذهب بجملك طاميات من الخيلاء ليس لمن باب (٢)
وإنك سوف تحلم أو تنامى إذا ماشيت أو شاب الغراب (٣)

ولعل هذا الاتجاه للتحفظ في هجائه كان أحد الأسباب التي مكنت له في نفوس
معاصريه من مختلف القبائل والعشائر في حكموه بين الشعراء في أسواقهم الأدبية .

-
- (١) أبو براء : عامر بن مالك ، ملاعب الأسنة ، وهو عم عامر بن الطفيل .
(٢) طاميات : فاضات ومرتفعات . ليس لمن باب : ليس لمن عرج .
(٣) أو شاب الغراب : ضرب النابذة ذلك مثلا لعامر ، وأنه لن يحلم أبدا .
(١٥ - الأدب العربي)

العباس بن مرداس السلمى

مولده وأشأته :

أبو الهيثم (١) العباس بن مرداس بن أبي عامر ينتهى نسبه - على الخلاف فيه (٢) - إلى سليم بن منصور بن قيس عيلان بن مضر ، أما مولده وأشأته شأن مولد معاصريه ، لم يكن ميسورا أن يعرف على وجه التحديد متى ولد . وكل ما تحمله كتب التاريخ من مجموع الروايات التى تتناول نشأته أن حياته تورعتها الجاهلية والإسلام . وأنه قضى فى الجاهلية من عمره ما تمكن معه من أن يكون فارسا ذائع الصيت بين قومه ، وأن يكون شاعرا له شأنه ، فهو بحق محصوم .

وكان أبوه - مرداس بن أبي عامر - من سادة سليم ورسائنها ، حضر يوم شعب جيلة مع بنى عامر ، وأبلى فيه بلاء حسنا واشتهر - إلى جانب مروسيته - بالكرم حتى لقب بالفيس ، وكان شريكا لحرب بن أمية فى القرية التى دفن فيها بعد موته . وقد ادعاها كليب بن أبي عهمة السلمى لنفسه ، واستولى عليها (٣) ، وفى ذلك قال العباس قصيدته النونية يطالب فيها كليبيا بالكف عن الظلم ، وإعادة القرية إلى أصحابها ، وفيها يقول (٤) :

(١) اختلفت الروايات فى كنيته بين د أبو الهيثم ، ، و د أبو الفضل ، ، راجع الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لأبى عمرو بن يوسف بن عبد الر على هامش الإصابة طبع للتجارية ج ٣ ص ١٠١ ، ومعجم الشعراء لأبى عبد الله محمد بن عمران المرزبانى طبع الحلوى ص ١٠٢ (٢) انفتت الروايات على نسبه حتى جده أبى عامر ، ثم اختلفت فيما بعد ذلك راجع الاستيعاب ج ٣ ص ١٠١ ، ومعجم الشعراء ص ١٠٢ والأغنى ج ٤ ص ٣٠٢ ، والإصابة ج ٢ ص ٣٦٢ ، وطبقات بن سعد ج ٤ ص ٢٧١ ، وجمهرة أساب العرب لابن حزم ص ٢٦٣ . (٣) الأغنى ج ٦ ص ٣٤١ طبع دار الكتب . (٤) انظر ديوان العباس ص ١٠٨ بتحقيق د / يحيى الجبورى طبع بمداد ١٩٦٨ .

أكليب مالك كل يوم ظالما والظلم أنكد وجهه ملمون
إن القرية قد تبين أمرها إن كان ينفع عندك التبيين
حيث انطلقت تخطها لى ظالما وأبو يزيد بجوها مدهون

وقد تزوج مرداس أكثر من زوجة ، كان أشهرهن تماضر الخنساء بنت عمرو بن
الشريد السلية الشاعرة ، وكانت تزوجته بعد زواجها الأول رواحة بن عبد العزى ،
وبقيت مع مرداس حتى مات فحزنت عليه ورثته .

وكان تمدد زواجات مرداس سببا في اختلاط الأمر على المؤرخين ، حين أرادوا
للتعريف بأبى العباس بن مرداس ، فقد سبق إلى وهم الكثيرين أن الخنساء هى أم
العباس (١) .

لكن الذى نبين لى من البحث أن أم العباس هى هند بنت سة بن سنان - وكانت
رنجية سوداء - وهى إحدى الزوجيات على ما ذكره ابن حبيب (٢) ؛ فالخنساء لم يرد فى
شعرها ما يدل على أن العباس ابنها ولم ترد إشارة فى شعر للعباس تفيد أنها أمه . وقد أيد
الجاحظ ما ورد عن ابن حبيب ، فقد ذكر فى رسالة خر البيضان على السودان ما يشير
إلى أن أم العباس رنجية ، وذلك فى أثناء القصيدة التى أوردها لسبيح بن رباح الزنجى
فى هجاء جرير بن الخطفى حين انتقص الزنج ، وفيها عدد الشاعر أبناء الرنجيات مفتخرا
بما لهم من مكانة ، ومنهم : حماف ابن نذبة ، وعباس بن مرداس ، وابنى شداد - عترة
الفوارس وأخاه هراسة - وسليك بن السلكة . ومطلع قصيدته تلك :

ما بال كلب من كليب سبنا - إن لم يوارن حاجبا وعقالا (٣)

وقد ولدت الخنساء لمرداس معاوية ويريد وعمرا وعمرة وكانت شاعرة - فكانوا
إحوة العباس لأبيه على الصحيح ، أما عبد الله بن رواحة بن عبد العزى المعروف
بأبى شجره فليس أحبا للعباس بن مرداس ، ولسكنه ابن الخنساء زوج أبيه ، وكان

(١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ، والأصميات لعبد الملك بن
قريب الاسمى بتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . ودائرة المعارف الإسلامية
ج ١٢ ص ١٤٤ ، ص ١٤٥ . (٢) انظر الخبر لمحمد بن حبيب ص ٤٥٥ ، ص ٥٦٤
(٣) انظر رسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون ج ١ ص ١٩٠ - ١٩٢
طبع بالخارجى بالقاهرة .

قد أسلم مع سليم وارتد مع من ارتد منها، ولحق بطليحة مع محبه، ويدكر أنه أسلم بعد ذلك ودخل فيما دخل فيه الناس (١) ، ومن إخوة العباس أيضا عمارة بن مرداس الذي قتله بنو خولان في حقل من نواحي صعدة ، ورثاه العباس بقصيدة ، جاء فيها :

أبمد عمار الخير نرجو سلامة وقد بتكت آرابه ومفاصله
ملا وضمت عندي حصان حمارها ولا ظفرت كفي بقرن أنازله
لأن لم أزر خولان في مقر دارها بأرعن رجاف نزجي قنابله (٢)

وقد تزوج العباس في الجاهلية حبيبة بنت الضحاك بن سفيان السلمي - وكانت شاعرة - ، ولكنها فارقت حين علمت بإسلامه ، وقالت تهجوه وتوعده بما ينتظره إذ فارق دين آبائه :

لمعري لئن تابعت دين محمد وفارقت إخوان الصفا والصنائح
لبدات تلك النفس ذلا بمزة عداة احتلاف المرفهات للقواطع (٣)

ثم تزوج بعد إسلامه ، لكننا لم نقف على اسمها ، وكان له من الولد : كنانة ، وسعيد ، وعبيد الله ، وجامه ، وقد أسلم جامه وكان له صحبة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم بعض الحديث ، وكان تواقا للجهاد في سبيل الله فقال يارسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك ، فقال : هل لك من أم؟ قال نعم . قال فآلزمها فإن الجنة تحت أرجلها (٤)

* * *

أما حياة العباس فمن ثنايا الأخبار القليلة المتناثرة هنا وهناك نستطيع أن نقرو

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٦

(٢) الديوان ص ١٣٧ ، واطر صفة جزيرة العرب لأبي محمد الحسن بن أحمد

الهمزاني ص ٢٨٠ ، ص ٢٨١ مطبعة السمادة بمصر ١٩٥٣ ، ومعجم البلدان ج ٧ ص ٢٨٧ ، ص ٢٧٩ .

(٣) الأغاني ج ١٤ ص ٣٠٤

(٤) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٢٧٤

أنه كان ذا مكانة مرموقة في قومه ؛ لما ضم من شمائل وصفات ؛ فقد كان عاقلا متزنا حرم على نفسه الخمر في الجاهلية ، ولما قيل له ألا تأخذ من الشراب ، فإنه يزيد في جرأتك ويقوبك ، فقال : أصبح سيد قومي وأمسى سفيمهم (١) . واعتزازه بمسكاته في قومه وزعامة أمته جعل منه فارسا مغوارا يشاركهم في حروبهم ومدانما عنهم ، ومتعاطفا مع رغباتهم ؛ وأقد صور ذلك في شعره ، وادتخر بشجعان قومه في مثل قوله :

وكما إذا ما الحرب شبت نشبها ونضرب فيها الألبج والمتقاعسا
فأبنا وأبقي طعننا في رماحنا مطار دحطى وحمرأ مداعسا (٢)

وحينا أغارت بنو نصر بن معاوية على ناحية من أرض بني سليم نهض العباس لمقاومتهم في جمع من قومه وقائلهم حتى أكثر فيهم القتل (٣) ، وصور ذلك في ميميته التي منها قوله :

وما زال منهم رائغ عن سبيلها وآخر يوم لبيدين ولهم
لبن غدوة حتى استبيحوا عشية وذلوا فكانوا لحة المتلحم (٤)

واشترك في أكثر أيامهم مثل يوم الفيفاء ، وبرزة ، والكديد (٥) ، ويوم تثليث ، وفي هذا اليوم تولى العباس زعامة سليم حين غزت مرادا فجمع لهم عمرو بن معد يكرب ، فالتقى الجيشان بتثليث ، وصيرا ولم تظهر طائفة منهما بالأخرى ، وفي ذلك قال قصيدته السعيدية ، وهي إحدى القصائد المنصنات (٦) .

كما كان في كثير من شعره الجاهلي اللسان الناطق بأعجاب قومه ، المدافع عنهم ، المتخبر ببلائهم ، وشجاعة مرساتهم . على نحو ما قال في الرد على خصمهم عبد الله بن جندل غداة يوم برزة :

ألا أبلغا عنى ابن جندل درهطه وكيف طلبناكم بكرز ومالك

- (١) انظر تهذيب تاريخ ابن عساکر ج ٧ ص ٢٦٥ ، وانظر قطب السمرور في أوصاف الخمر ص ٤١٦
(٢) الديوان ص ٧١
(٣) الأغاني ج ١٣ ص ٦٦ طبعة ساسي
(٤) انظر الديوان ص ١٤٦
(٥) انظر العقد الفرید ج ٥ ص ١٣٤ ، ص ١٧٤ ، ص ١٧٦
(٦) انظر العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٦٨

غداة فمناكم بمحسن وبابنه وبابن المولى عاصم والمبارك
نذيةكم والموت بيني سرادقا عليكم شباحد للسيوف البواتك
تلوح بأيدينا كإلاح بارق تلالا في داج من الليل حالك
صبحناكم الموج المناجيج بالضحى تمر بنا من الرياح السواهلك (١)

يبد أننا نلاحظ وجود خصومة بينه وبين ابن عمه خفاف بن نذبة من قوله :
وعلى الله يمكن من خفاف فأسقيه التي عنما يجيد (٢)

وترجع هذه الخصومة إلى تنازعهما على زعامة قومهما بعد مقتل صخر بن عمرو بن
الشريد في يوم « ذات الأئبل » الذي كان يتولى تلك الزعامة آنذاك (٣). وقد ولدت
هذه الخصومة معارك شعرية بين الشعراء ، لبست ثوب المناقشات ، وكان للعباس
منها إحدى عشرة قصيدة .

وكما يكشف شعره عن هذه المعركة اللسانية بين الشاعر وابن عمه ، يكشف كذلك
عن معركة أخرى حربية نشبت بينه وبين أحد الصناديد المدودين في عصره ، هو
عمرو بن معد يكرب ، في نحو قوله :

ألا أبلنا عمرا على نأى داره فقد قلت قولا حائرا غير مهتد
أتهدى الهجاء لامرى غير مفهم وتهدى الوعيد لامرى غير موعد
فإن تلقى تلقى امرا قد بلونه حديثا وإن تفجر على تفعد (٤)

وفي الحديث عن تلك الخصومة يذكر ابن عبد ربه أن عمرا قد فر من العباس في
إحدى المعارك ، وأن العباس أسر رجلا تحت عمرو الذي أشار إلى ذلك الحديث في
مطلع قصيدته السينية حيث يقول :

(١) الديوان ص ١٣٠

(٢) الديوان ص ٤٢

(٣) راجع أيام العرب في الجاهلية لمحمد أحمد جاد وآخر ص ٣٩٩ طبع الحلبي

(٤) الديوان ص ٤٧

أمن ربحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع (١)
وكان العباس في جاهليته على علاقة طيبة باليهود - خصوصا يهود حبير - الأمر
الذي حملة يدافع عنهم ويبيح قتلاهم في حربهم مع النبي صلى الله عليه وسلم بمد الهجرة
مثل قوله في إجلاء بني النضير من ديارهم ، والتحزن لما أصابهم :

لو أن أهل الدار لم يتصدعوا رأيت خلال الدار ملهى وملمبا (٢)

وقوله في الرد على حوات بن جبير وما قاله فيهم :

أخوات ادر الدمع بالدمع وابكمهم وأعرض عن المكروه منهم ومكبارهم (٣)

يؤيد هذا ما رواه صاحب الأغاني من تحاور بين العباس بن مرداس وحوات بن
جبير أمام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ؛ فقد قال حوات : يا عباس أنت الذى
رثيت اليهود رقد كان منهم فى عداوة رسول الله ما كان ؟ فقال عباس : إنهم كانوا
أحلائي فى الجاهلية ، وكانوا أقواما أنزل بهم فيكرمونى ، ومثل يشكر ما صنع إليه
من الجليل (٤)

* * *

هذا العباس فى الجاهلية وقبل أن يدخل الإسلام كما صورته الأخبار والإشارات
المتناثرة هنا وهناك .

أما حياته فى الإسلام فكانت أوضح منها قبل ذلك شيئا ما ؛ فقد خرج فى قومه
عام الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيه بقديد فأسلموا جميعا ، وقالوا اجملنا فى
مقدمتك ، واحمل لواءنا أحمر ، وشعارنا مقدم ، فعمل ذلك بهم (٥) ؛ ليفتحوا بذلك
صفحة جديدة بعد مقاومة وعناد فى مواجهة الدعوة الإسلامية ، وإصرار على عبادة
الأصنام وكان لكل صنم يتمعب لعبادته ويكب عليه . روى أنه كان ارداس وثني يعبده

(١) العقد المرید ج ١ ص ١٤٦

(٢) الديوان ص ٤٠

(٣) الديوان ص ٣٨

(٤) الأغاني ج ١٤ ص ٣١٨ طبع دار المكتب .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٣٠٧

وهو حجر يقال له « ضمار » - فلما حضر مرداس الموت قال العباس : أى بنى أعبد
« ضمار » فإنه يملك ويضرك ، فبيد عباس يوما عند « ضمار » إذ سمع من جوف
« ضمار » مناديا يقول :

قل للقبائل من سليم كلها أودى ضمار وعاش أهل المسجد
إن الذى ورث النبوة والهدى بمدابن مريم من قريش مهتدى
أودى « ضمار » وكان يعمد مرة قيل الكتاب إلى النبي محمد (١)

لا ينديناها من القصة وأحاديثها أكثر من أن نعرف أن العباس بن مرداس
ورث عن أبيه وثما ، قام بمبادنة قبل أن يعتنق الإسلام ، وأن هذا الوثن كان يسمى
« ضمار » ، أما ما عدا ذلك مما يثار حوله الشكوك فلسنا فى مجال تحقيقه وبحث مكانه
من الحقيقة .

لقد أسلم العباس بن مرداس بعد هذه الحياة الوثنية ، وحين إسلامه ، حتى أصبح
من جنود الإسلام المداومين عنه ، والداعين إليه فى كل مكان ، فشهد مع الرسول
صلى الله عليه وسلم فتح مكة ، ويوم حنين ، حمل لواء مرداس يوم فتح مكة وخفاف
ابن نديبة تحت قيادة خالد بن الوليد (٢) ، أما فى يوم حنين فقد أبلى هو وقومه بلاء
حسنا ، وأشرك شمره فى المعركة ، فتمى فيه بأجداد المسلمين ، وأوضح دور بنى سليم فى
المعركة فى محو قوله :

ويوم حنين حين سارت هوازن إلينا وضاقت بالنفوس الأضالع
عبرنا مع الضحاك لا يستقرنا قراع الأعادى منهم والوقائع
أمام رسول الله يخفق فوقنا لواء كخذروف السحابة لامع (٣)

بيد أنه فى يوم حنين كان ما يزال خاضعا لمؤثرات الجاهلية ، ولم تكن مبادنة
وسلوكياته وأساكره قد أخذت منه مكان القيادة والتوجيه ، فقد روى أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أعطى الأقرع بن حابس التميمى مائة من الإبل من غنائم حنين ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٢٢٧

(٢) انظر امتاع الأسماع للمقرئى ج ١ ص ٣٧٢ ، ص ٣٧٣

(٣) الديوان ص ٨١

وأعطى عيينة بن حصن الفزاري مائة من الإبل ، وأعطى العباس دون المائة فسخطها
فقال يمانب الرسول صلى الله عليه وسلم :

كانت نهـ ابا تلاتيتها بكرى طى المهر فى الاجرع
وإيقاضى القوم أن يرقدوا إذا هجع الناس لم أهجع
بأصبح نهى ونهب الميبـ د بين عيينة والأقرع
وقد كنت فى الحرب ذائد رىء لم أعط شيئا ولم أمنح
إلا أفايل (١) أعطيتهمـ ا عديد قوائمها الأرببع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان شيخى فى المجمع
وما كنت دون امرىء منه ما ومن تصع اليوم لا يروع

فقال صلى الله عليه وسلم : أذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه ، فأعطوه حق رضى ،
فكان ذلك قطع لسانه (٢) .

ولم يكن موقفه هذا هو أول مواقفه المادية التى تدل على ما استقر فى نفسه من روح
الجاهلية ولم يتأثر بعد بالخلق الإسلامى فقد سبق هذا موقف آخر شبيهه بذلك ، حين
عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رد سبيلها هوازن وأموالها إليهم ، مرد المهاجرون
والأنصار نصيبهم ، وقالوا ما كان لنا فهو لرسول الله ، أما زعماء الأعراب من للؤلؤة
قلوبهم فكان لهم غير هذا الشأن ، فقد قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ،
وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا
و بنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : بلى ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وقال عباس بن مرداس لقومه : وهنتمونى (٣) .

(١) أفايل ؛ الأفيل : العنبر من الإبل والتمم ، وجمعه إفال - بكسر الهمزة -
و جمع الجمع أفايل .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٣١٣ طبع المطبعة الخيرية بمصر
سنة ١٣٢٩ هـ ، وإمتاع الأسماع للمقرئى ج ١ ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، والطبقات الكبرى
ج ٤ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ والاستيعاب ج ٣ ص ١٠٢ .
(٣) السيرة النبوية ج ٣ ص ٩ ، ٣ الطبعة السابقة .

لسكن الإسلام ظل يتغافل في نفس العباس على مر الأيام حتى أصبح موضع ثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقامه على صدقات بني سليم ومازن ابني منصور^(١) ، وبعثه مع رجال إلى قومه بني سليم ليحصنهم على الجهاد ويرغبهم في الصدقة استعداداً لفزوة تبوك^(٢) ، وهكذا حتى جاء اليوم الذي كان فيه العباس بن مرداس واحداً من رواة حديث النبي صلى الله عليه وسلم - وإن كان مقلاً - فقد روى أبو دارود وابن ماجه عنه حديثاً في عموم المفرة للحجاج يوم عرفة^(٣) ، وقال عنه العجلي : هذا حديث غريب ، وليس يروى عن العباس بن مرداس سوى هذا الحديث^(٤) ، غير أن الحافظ ابن حجر العسقلاني ترمض لهذا الحديث بالدفاع والتصحيح ، والرد على ابن الحوزي الذي أورده في الموضوعات وأشار إلى أن له أحاديث أخرى غير هذا الحديث^(٥) .

* * *

ومع مامرت به حياة العباس بن مرداس من تقلبات وتغيرات - حيث انتقل من الجاهلية إلى الإسلام - لم يغير مقامه ، فقد ظل يقم ببادية بني سليم في الجاهلية ولزمها في الإسلام فترة من الزمن يبدو أنها امتدت حتى خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان يحضر من بادية بني سليم ليشارك مع النبي صلى الله عليه وسلم في الفزوة ، ثم إذا فرغ من مهمته عاد إلى بلاده ، ولم يبق في مكة ولا في المدينة^(٦) ، ولما انتقل إلى البصرة حين اختطها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - كان ينزل في بواديها^(٧) ، مما يتضح مما مدى تعلقه بأرض قومه ، وارتباطه بالحياة البدوية . وإثارة العيش في أكفاف البادية على الحياة في المدينة أو الحاضرة .

وكما لم تحدثنا المصادر التاريخية عن ميلاد العباس في جاهليته ، لم تحدثنا كذلك عن وفاته في الإسلام إلا الحديث المحتمل الذي لا يدعمه السند القاطع ، فابن حجر

(١) راجع تهذيب تاريخ ابن عساکر ج ٧ ص ٢٥٥ ، وأشباه الأشراف ج ١ ص ٥٣٠

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٤٦ (٣) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠

(٤) القول المسدد في النب عن مسند الإمام ص ٤٩ .

(٥) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠ . (٦) الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٣٣

(٧) الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٢٧٣ .

المسقلاني يقدر أنه مات في خلافة عثمان رضى الله تعالى عنه (١) ، وصاحب الأغاني لم يحدد لوفاته سنة بـمبيها ، ولكنه ذكر أنه مات في الإسلام (٢) ، أما الرزكى وذكر أنه مات بالشام سنة ١٦هـ (٣) ، دون أن يشير إلى المصادر التي استقى منها هذا التحديد .

على أى حال المقطوع به أن العباس بن مرداس مات في الإسلام ، وقد أنارت وفاته أشجان أحييه سراقه بن مرداس ، وأخته عمرة بنت الحنساء فرثياه بشعر يفيض أسى وحرنا على فراقه ؟ وكان مما قاله سراقه :

أعين ألا أبكي أبا الهيثم	وأدري الدموع ولا تسأى
وأنى عليه بآلائه	بقول امرئ موجه مؤلم
فما كنت بألمه بامرئ	أراه ييـدو ولا موسم
أشد على رجل ظالم	وأدهى لهداية ميـم (٤)

وقالت أخته عمرة :

لتبك ابن مرداس على ما عرام	عشيرته إذ حم أسى روالها
لدى الخصم إذ عهد الأمير كعام	فكان إليه وصلها وجدالها
ويعضه للحاملين كفيها	إذا أنهات هوج الرياح طلالها (٥)

شعره :

واضح من حياة الشاعر ونشأته أنه بدوى حالص البداوة ؛ فهو مرتبط بقبيلته ، حربص على مكانته معها ؛ لا يرضى بالحياة بين عشيرته ولا فوق أرض سليم بديلا ، حتى حين تيسر له أن يجد متسعا من الحياة خارج حدود باديته لم يقبل أن يستبدل بها أى موطن آخر ، على الرغم مما فى هذا الموطن الجديد من مغريات ، وما يتوفر له من عوامل الجذب - ويكفى أن يكون من بين ذلك ملازمة الرسول صلى الله عليه وسلم -

(١) راجع تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠

(٢) انظر الأغاني ج ٤ ص ٣١٨ طبع دار الكتب .

(٣) الأعلام ج ٥ ص ٢٢٥

(٤) الأغاني ج ١٤ ص ٣١٩ طبع دار الكتب .

(٥) المرجع السابق ج ١٤ ص ٣١٩ وشرح الحماسة للمرزوقى القسم الثالث ص ١٠٩٩ .

هو تحت إلحاح الضرورة لا يجد مندوحة من مزاورة البادية حتى إذا أدى ما عليه ، من واجب الجهاد عاد إليها . بل إنه حين فسكر في الخروج إلى البصرة على عهد عمر رضى الله عنه ، أبى أن يكون خروجا إلى المدينة ، متأثر بادية البصرة ، ليستبدل بادية ببادية .

واسنا بصدد البحث عن الشعر في إيثار العباس بن مرداس حياة البادية على حياة الحاضرة ؟ فهذا له مجال آخر غير بحثنا ، إنما الذى يميننا هنا أن نحاول التعرف على أثر ذلك في أدبه .

والذى يطر فيما وصلنا من شعر العباس يلاحظ أثر هذه البيئة البدوية فيه واضحا كل الوضوح ؟ يلاحظ ذلك في منونه الشعرية ، ويلاحظه في أسكاره ، ويلاحظه في معانيه وأحيلته ، ويلاحظه في أسلوبه ومنهجه الفنى في عرض أسكاره ومعانيه ، ويلاحظه في معجم ألفاظه والأعلام التى ترد فيه .

فالشاعر يكاد يقصر شعره على الفخر والهجاء . ولا ريب في أن هذين الفنين هما أبرز فنون الشعر البدوى الخالص من التيارات الأخرى ، وذلك لأن البدوى الفارس الذى استقرت حياته بين قومه في البادية لا يجرى نفسه إلى قول الشعر إلى موقف يتطلب منه الاعتزاز بنفسه وبقبيلته ، فينطلق ممددا مفاحره على اختلاف مظاهرها . أو موقف يتطلب منه الرد على من أساء إليه أو إلى واحد من أبناء قبيلته أو تطاول على حلق من أخلاقهم ، أو شذ عن أحد أعرافهم ، فيطلق لسانه عندئذ بتصوير هذه العيوب ، وإبراز تلك الثائب ، حتى يتحاشاها هو ومن على شاكلته . . . أما ماعدا ذلك من فنون الشعر فيلاحظ أن الشاعر لم يقبل عليها إقباله على هذين الفنين ، ولكنه تناول ما تناول منها في شعره عرضا وليس باعتبارها فنا مستقلا ، وما استقل منها بالتناول فهو قليل نادر ، على ما سنفصله إن شاء الله تعالى .

* * *

١ - لقد كان الفخر - ومارال - من ألزم الصفات للإنسان ، بيد أنه يختلف من فرد إلى آخر ، وفقا لظروفه البيئية ، فما يفتخر به الإنسان في الحاضرة غير ما يفتخر به في البادية وما يفتخر به في إحدى العواضر غير ما يفتخر به في حاضرة أخرى ، كما أن لكل بادية مفاحرها التى يمتز بها ساكنوها . بل إن المفخر في الوطن الواحد اختلف باختلاف مراحل العمر وأطواره ؛ ففي مرحلة قديفتخر الإنسان بالطيش والاندفاع وراء

المطرفة ، لـكنه في مرحلة أخرى يمتاز بالحكمة والأناة والبروى . وقد توجه الإنسان بفخره إلى تعداد مناقب قومه ، وقد يكون ذلك بتعداد مناقبه الشخصية ، وقد يجمع بين هذا وذلك ثم إن ما يفخر به الشاعر قد يكون صفات عريضة ومحاسن جسمية ، وقد يكون مسائل نفسية وسجيا خلقية .

ونحن حين نتفحص شعر العباس بن مرداس نلاحظ أنه جمع بين ذاته وقومه ، فكما افتخر بنفسه افتخر بقومه ، وأنه حرص على التغنى بالفضائل النفسية والسجيا الخلقية التي قامت عليها نفسه ، وارتكزت عليها قبيلته .

من ذلك ما قاله في الفخر على حفاف بن ندية ، فهو ليث يحمى عرينه ، ولا تفلت من بين برائه مريسة أتجه إلى قنصها (١)

إن تلقى تلقى ليثا في عرينته من أسد حفاف في أرساغه ودع (٢)
لا يبرح الدهر صيد قد تقنصه من الرجال على أشدائه القمع (٣)

وقوله لحفاف أيضا إنك حين كشتى لاتنال منى ، لألك لو تبينت لأمر لدرت أنك . ترمى هضبة صلبة على عرض ناصع طاهر لا يقبل الدم ولا التجريح ، وإنى فارس أبى من قوم أباة شجيمان (٤) .

ألا أيها المهدي لى الشتم ظالمنا تبين إذا راميت هضبة من ترمى
أبى الدم عرضى ، إن عرضى طاهر وإنى أبى من أباة ذوى غشم (٥)

(١) الديوان ص ٨٧

(٢) الأرساغ جمع رسغ - بصم الرء - والرسغ مفصل ما بين الساعد والكف .
والساق والقدم . والهدع - بفتحين - عوج في المفاصل كأنها قد فارقت مواضعها ،
وأكثر ما يكون في رسغ اليد أو القدم .

(٣) القمع - بفتحين - عظم نأىء في الحجرة من الخارج ، أو طبق الخلقوم
وهو مجرى النفسى إلى الرئة .

(٤) للديوان ص ١١٠

(٥) الغشم - بفتح فسكون - الظلم ، يقال غشمت الرجل ظلمته أعده الظلم .

وإني من القوم الذين دماؤهم شفاه لطلاب الترات من الرغم (١)
وقوله يفخر على عمرو بن معد يكرب ، حين افتخر عليه عمرو وبجسبه ونسبه
وعشيرته ، يقال ناقصا عليه مفاحره ، ومفتحرا بأصوله وأحسابه ؛ فهو وإنتمى إلى قيس
ابن عيلان المصري ، وأحسابهم وأحاديثهم ذميمة لا يصيبها الجول (٢) :

وإن تك من سد المشيرة تلقى إلى الفرع من قيس بن عيلان مولدى
إلى مصر الجراء نعى حدودها وأحسابا ومحدانا عير قعد (٣)
فمازل نذا عينا ربيعة إنها أحونا وإن تقصر عن المجد نردد

وفي طلال لإسلام بدأ العباس يتعجه بالفخر متجها آخر ، فاعتراه في شوره بقومه
أكثر وصوحا ، وارتكازه في شوره على شجاعة قومه وإقدامهم ، ليس لإشاعة الظلم ،
ومرض السلطان . ولكن لنصرة الإسلام ، والسعي لرضا الله ورسوله ، من ذلك
قوله مفتخرا بما كان من قومه الدين أمدا جيش المسلمين يوم حنين بألف فارس
لينصروا رسول الله ، فخاصوا المركبة حاملين الراية في أعلا الرمح يدفعون بها في
ميدان القتال فصبغوها بدماء الأعداء (٤) :

نصرنا رسول الله بن عصب له بألف كفى لا تمد حواسره
حاملنا له في عامل الرمح راية يدود بها في حومة الموت ناصره (٥)
ونحن حاضناتها دما وهو لونها عداة حنين يوم صفوان شاحره

وهم حاضوا غمار الحرب في حنين حاملين أرواحهم على أكمهم في ثبات وصبر
خلف الصحاك بن سفيان الذى أمره الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم بنى ذلك اليوم
دون أن يجذرا غضاضة ؛ فهم إنما خرجوا لنصرة الرحمن ودينه (٦) :

(١) الترات جمع ترة - بالكسر - وهي مصدر ونزه يتره إذا قتل حميمه وللقصود
الثأر ، والرعم - تثنية الراء - الكره والذل ، يقال فعل هذا الشيء على رغمه .

(٢) الديوان ص ١٣٠

(٣) القعد - بصم مسكون وضم - الجبان ، الخامل يقعد عن المكارم .

(٤) الديوان ص ٥٦

(٥) عامل الرمح أعلاه مما يلي اللسان بقليل

(٦) الديوان ص ٥٤ ، ص ٥٥

واذكر بلاء سليم في مواطنها
وقم هم نصروا الرحمن وانبعثوا
وفي سليم لأهل الفخر مفتخر
دين الرسول وأمر الناس مشتجر
وللدين عرا وعمد الله مدحر
والخيل ينجاب عنها ساطع كدر
نحت اللواء مع الصحاك يقدمها
كما مشى الليث في غاباته الحدر (١)

ويطل العباس في حرة على هذا النهج، فيكرر إلحاحه على أن قومه وهو الرسول،
وناصروه، ودافعوا عن دين الله، حتى عر بهم وتحقق النصر بألف الفارس السلمي
الصادقين المخلصين، مثل قوله (٢) :

وأنا مع الهادي النبي محمد
فتان صدق من سليم أعـرة
وبنا ولم يستويها . مشر النا
أطاعوا لما يصون من أمر حرقا
وردنا على الحى الذى قمعه صفنا
عداة وطشنا المشركين ولم نجد
لأمر رسول الله عدلا ولا صرفا

ولا ريب في أن أثر الإسلام - هنا - واضح، حيث حول العباس في نخرة من الفخر
الشخصى والفخر القبلى إلى الفخر ناشترا كما هو وقومه في معركة من أخطر معارك
المسلمين، ومساهماتهم في أحداث يوم من أبرز أيام الإسلام الناصلة، دون غرض شخصى،
أو دافع قومى، يوضح ذلك قوله (٣) :

رضا الله نرى لا رضا الناس نبتغى
ولله ما يسدو جميعا وما ينحى

وقوله مشيدا بقيادة الصحاك بن سفيان السكلابى الذى ولاء الرسول صلى الله عليه
وسلم قيادة بنى سليم، ومفتخرا باستجابتهم له، كالأسود تأهبت للمراك طاعة لربهم،
وحبا لرسول الله حسب (٤).

(١) يقال حدر الأسد لزم عرينه وأقام فيه .

(٢) الديوان ص ٨٩ ، ٩٠

(٣) الديوان ص ٩٠

(٤) الديوان ص ٩٥ ، ٩٦

ثم الذين وفوا بما عاهدتهم جند بعثت عليهم الضحاكا
رجلا به ذرب السلاح كأنه لما تكفه العدو يراكا

* * *

وبو سليم معتقون أمامه ضربا وطعما في العدو دراكا
يمشون تحت لوائه وكأنهم أسد العرين أردن ثم عراقا
ما يرتجون من القريب قرابة إلا لطاعة ربهم وهو اكا

ولأن نحر العباس - في الغالب - يدور على نحره بالشجاعة والإقدام في الحرب ،
والتماني في طاعة الله ورسوله . . . جاء نحره بمترجا بالحماة ، أو قل إن نحره لون من
ألوان الحماة ؛ فأنت لا تكاد تهتر له على منقبة يفتخر بها غير مناقب الفارس المقاتل .

هدا إلى أن نحره أو حماه ذلك يكاد يدور حول معركة حنين . . . ويبدو أن
لقرب إسلام العباس وقومه من هذه المعركة أثره في إبرازها في شعره ، ونحره بما كان
من قومه فيها ؛ فهي - إلى ذلك - تكشف عن فرحة كامنة في النفس بالدخول في
الدين الجديد ، ومصاحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولعل في هذا تفسيراً لقوله في
يوم حنين وحده سبع قصائد منها قوله (١) :

فجئنا أسد غابات إليهم جنود الله ضاحية أسير (٢)
يوم الجمع جمع بني قبيس على حنق نكاد له نظير
وأسم لوهم متكثوا لسرا إليهم بالجنود ولم يعوروا (٣)

* * *

٢ - وإذا كان الفخر من ألزم الصفات للإنسان ، فإن الهجاء - في الغالب - بما
يستلزمه الفخر أو يستدعيه ويتطلبه ، خصوصا في البيئات البدوية ، وذلك لأن الفخر

(١) الديوان ص ٥٠ ، ٥١

(٢) ضحا يضحو ؛ برز للشمس .

(٣) غار الماء يفرور ؛ ذهب في الأرض وسفل فيها ، والمقصود : ولم يفرورا .

إنما هو امتداح الإنسان نفسه أو قبيلته ، فهو - كالمُدح - في مقابلة الهجاء ، أى أن الهجاء يحتذى الفخر والمدح تماما ، فإذا كان الفخر - كما قررنا - يختلف باختلاف الشاعر وبيئته وملايساته ، فإن الهجاء - كذلك - يختلف باختلاف بيئات الشاعر وملايساته وثقافته .

والهجاء في شعر العباس بن مرادس يندبثك عن أنه دفع إليه دفعا ، فلم يكن بطبعه ميالا إلى هذا الفن الشمري ، وإنما هو فيه واقع تحت تأثير بعض آرائه بمن كانوا يشيرون غضبه بما يبدونه نحوه من أحقاد ، وإسبيونه من عنق وضيق ، مثل ابن عمه خفاف بن ندبة ، وعتبة بن الحارث ، وعمرو بن ممد يكرب . والشاعر يوضح ذلك بنفسه ويفسر اتجاهه إليه حين يواجه من يلومه في الهجاء بالاستنكار عليهم وذلك في أثناء هجائه سفيان بن عبد يثوث بقوله (١) :

ألم على الهجاء وكل يوم تلاقيني من الجيران غول

ويلاحظ أنه في هجائه اعتمد على سلب الصفات الحلقية ، وللمضائل النفسية ، يصف مهجوه بدم الوفاء ، ونكران الجميل كقوله لسفيان ابن عبد يثوث (٢) :

ألا من مبالغ سفيان عنى وظنى أن سيبلته الرسول
ومولاه عطية : أن قبلا حلامى وأن قد بات قيل
سئتم ربكم وكفرتهموه وذلكم بأرضكم جميل
ألا توفى كما أوفى شبيب فحمل له الولاية والشمول

أو يصفه بالعدو ويصمه بالخنأ والحناة ، كما في قوله يهجو عتبة بن الحارث (٣) :

كثر الضجاج ومامنيت بنادر كمتيبة بن الحارث بن شهاب
جلت حنظلة الحناة والخنأ ودنست آحر هذه الأحقاب (٤)

(٢١) الديوان ص ١٣٥

(٣) الديوان ص ١٣٦

(٤) الحناة : الحيانة . والخنأ - بالفتح - المنحش في الكلام .

(١٦ - الأدب العربي)

وقد يكون الهجاء في أثناء الفخر ، فيأبى مزيجاً من الهجاء والفخر والحماسة ، كما في قوله يرد على عمرو بن معد يكرب هجاءه ، ويميره بالتخاذل أمامه (١) :

ألا أبلغنا عمراً على نأى داره	فقد قلت قولاً جاثراً غير مهتد
أنهدى الهجاء لامرئ غير مفحم	وتهدى الوعيد لامرئ غير موعد
فإن تلقى تلقى امرأ قد بلوته	حديثاً وإن تفجر على تفند
لم تعلمن يا عمرو أى لقيتكم	لدى مأقط والحيل لم تنبذ
ومازات أحمى صحبتي وأزود لم	برحى حتى رحت قطر بمطردى

إنه فارس حتى في هجائه ؛ فهو عف اللسان ، لا يميب مهجوه بما تتقذى به الإسماع ، وإنما هو إلى الواصف المقرر أقرب منه إلى الذام الشاتم الذى يتصيد العايب ليصم بها من مهجوه ؛ فلا نجد في هجائه حشاً يخذش الحياء ، كما في رده على ابن عمه خفاف ابن ندبة حين هجاه (٢) :

خفاف ما ترال تجر ذبيلاً	إلى الأمر الفارق المرشاد
إذا ما عا تبتك بنو سليم	ثبت لهم بداهية نأد
وقد علم العاشر من سليم	بأى فيهم حسن الأيادى
فأورد بأخفاف فقد بليتيم	بى عوف بحية بطن واد

ولعل أوسع ميادين هجائه تلك المناقضات التى دارت بينه وبين بعض معاصريه ممن كانوا ينافسونه على الزعامة ، كذلك التى كانت بينه وبين خفاف بن ندبة ، فقد هجاه خفاف بقصيدته التى منها (٣) :

يا أيها المهدي لى الشتم ظالماً	ولست بأهل—حين أذ كر الشتم
أبى الشتم أى سيد وابن سادة	مطاعين فى الهيجا مطاعيم للجرم
هم مسحوا الضراً أباك وطاعنوا	وذلك الذى يرعى ذليلاً ولا يرى

(١) الديوان ص ٤٧ •

(٢) الديوان ص ٤٦

(٣) ديوان خفاف ص ٥٩

مفأجابه العباس ناقضا قوله ، رادا عليه قوله (١) :

الا أي - المسدى لى الشتم ظالما تبين إذا راميت هضبة من ترى
أبى القم عرضى ، إن عرضى طاهر وإنى أبى من أباة ذوى غشم
وإنى من القوم الدين دماؤهم شفاء لطلاب الترات من الرغم (٢)

وكذلك صنع فى مناقضاته مع خوات بن جبير ، وعبد الله بن جندل (٣)

* * *

٣ - وكان إلى جانب هذين الفئتين الأصليين فى شعر العباس بنى مرادس شعر فى بعض فنون الشعر التقليدية مثل الرثاء والمدح ، والغزل وشعره فى هذه الفنون قليل . ويبدو أن ذلك يرجع إلى بيئة الشاعر وطبيعة الفارس فيه ؛ فالبادية بأخلاقها تنأى على الشاعر أن يتعلق الآخرين ويتمدحهم ، والفروسية تتعارض مع البكاء على الميت ، وهذه وتلك ترى فى المرأة حرما يجب أن يحصى ولا ينزل إلى ميدان القول وحديث اللسان .

من ثم لم يؤثر له شعر فى الرثاء إلا قصيدة رثى فيها أخاه عمارة بن مرادس ، وإلا ما بسكى فيه يهود بن النضير حين أخرجهم الرسول صلى الله عليه وسلم من ديارهم . وحتى هاتين المرثيتين لهما من الملابس ما ينأى بهما عن فن الرثاء .

أما رثاؤه أخاه عمارة فلعل الدافع إليه حب العباس إياه ، والظروف التى أحاطت بعقته ؛ إذ قتل فى حقل صعدة فى بلاد اليمن بعيداً عن موطنه ، إذ كان قد ترك دياره ، وذهب إلى أرض اليمن حيث قتل ، ولقد أشار العباس إلى ذلك فى رثائه الذى قال فيه (٤) :

(١) ديوان العباس ص ١٠٥

(٢) الترات جمع قرة - بالكسر - مصدر وتروه إذا قتل حميمه ، والمقصود بالثرة الثأر ، والرغم - بثليث الراء - الكره والذل .

(٣) لمزيد من التفصيل فى هذا الموضوع راجع للمؤلف (الممارسة فى الأدب العربى)

(٤) الديوان ص ١٣٧ ، ص ١٣٨

أبعد عمار الخير زجو سلامة	وقد بتكت آرابه ومفاصله ^(١)
ولا وضعت عندي حصان فمارها	ولا ظفرت كفي بقرن أنازله
لئن لم أزر خولان في عقر دارها	بأرعن رجاف تزجي قنابله ^(٢)
وأشفي غليلي من سرة فضاة	وكل صقيل يملأ الكف حامله
فمن مبلغ عمرو بن عوف رسالة	ويعلى بن سعد ثور يرأسه
بأنى سأرمى الحقل يوما بفارة	لها منكب حاب تدوى رلازله ^(٣)
أقام بدار الغور في شر منزل	وحلى بياض الحقل زهر خامله

ولناظر في هذه المزية يجد أنها إلى الحماسة أقرب منها إلى الرثاء، فهو يهدد ويتوعد
قائل أخيه بالنار منهم والانتقام .

فلذا نظرنا في مراثيته يهود بن الضير وجدناه بها مدفوعا بالوفاة لما كان بينه وبينهم
من علاقات قديمة وصدقات وطيدة ، تلفت فلم يجد أحدا منهم حوله ، فلم يكن له بد من
أن يعلن أسفه لبعدهم عنه ، في قوله^(٤) :

ولو أن أهل الدار لم يتصدعوا	رأيت خلال الدار ملهى وملعبا
فإنك عمرى هل أريك ظمائنا	سلسكن على ركن الشظاة فنيا ^(٥)
عليهن عسين من ظباء قبالة	أوانس يصيبين الحليم الجربا
إذا جاء باغى الخير قلن لجاءة	له بوجوه كاللذنانير : مرحبا
وأهلا ، ولا ممنوع خير طلبته	ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنبا
فلا تحسبني كنت مولى ابن مشكم	سلام ، ولا مولى حي بن أخطبا

* * *

(١) بتسكة: قطعه والآراب جمع إرب - بكسر الهمزة وسكون الراء - العضو الكامل .
(٢) الجيش الأرعن : العظيم الجرار ، زجي الشيء رجاء أى ساقه ودهنه ، وقنابيل
= بفتح القاف - جمع قنبل - بفتح القاف وسكون اللون وفتح الباء - الطائفة من الناس
ومن الخيل ، قيل هم ما بين الثلاثين إلى الأربعين .

(٣) المنكب - بفتح فسكون - مجتمع رأس العنق والكتف ، وعريف القوم
ولعله المقصود هنا ، والحاب ، يقال : حاب يحوب حوبا : أتم .

(٤) الديوان ص ٣٨ (٥) نيأب اسم موضع .

وأما مدحه فلم يعرف له قبل الإسلام سوى مدحه قيس بن عاصم وأبي حليس ،
ولسلك من المدحتين من الدوافع ما جعل العباس يبتسكب مذهبهم ، ويرغم نفسه على
هذا الفن ، وذلك لأن قيس بن عاصم كان من الشخصيات المثالية التي أخذت العباس
بما أثر عنها من كريم الخلال ، وطيب العمال ؛ فمدحه قيساً قصة ، وذلك أن
رجلاً^(١) من بني القين من قضاة جاور قيس بن عاصم ، فأحسن جواره ولم يرمه
إلا الخير ، فلما فارقه ونزل في جوار جوين الطائي ، أبي عامر بن جوين ، ووثب عليه
رجال من طيء وقتلوه وأخذوا ما معه ، فما كان من العباس إلا أن اندفع يمدح قيس
ابن عاصم لحمايته جاره ، وينم رجال طيء على ما بدر منهم من التندر والحيانة
في قوله^(٢) :

لعمري لقد أوفى الجواد ابن عاصم	وأحسن جارا يوم يمدح بكره
أقام عزيزاً مستدى القوم عنده	فلم ير سوءات ولم يحسن غدرة
أقام بسعد يشرب الماء آمناً	ويأكل وسطاها ويربض مجره

كما أن وراء مدحه أبا الحليس دافعا أقوى ، وذلك أن أبا الحليس قتل خويلداً الذي
قتل هريم بن مرداس أبا العباس ، فلم يسكن من العباس إلا أن يذكر هذا الصنيع
له ، ويشيد بموقفه ، ويثني عليه ، ويشكر له إقامته على الثأر من قاتل أخيه في
قوله^(٣) :

أتاني من الأبناء أن ابن مالك	كفي ثائرا من قومه من تقيبا ^(٤)
ويلقاك ما بين الحميس خويلداً	أرى عجبا ، بل قتله كان أعجبا
فدى لك أمي إذ ظهرت بقتله	وأقسم أبني عنك أما ولا أبا
فمثلك أدى نصرة القوم عنوة	ومثلك أعياذا السلاح المجربا

(١) انظر الأغاني ج ١٤ ص ٧٢

(٢) الديوان ص ٦١ ، ص ٦٢

(٣) الديوان ص ١١٢

(٤) تنقيب في الأمر : لم يبال فيه .

فليس للمدح من طبائع العباس ، ولا للتكسب بالشعر ديدنه . إنما هو مدح على صنائع تشد انتباهه ، وتستحوذ على إعجابيه ، فيجد أن من واجبه مدح صانعيها على ما صنعوا ، فهو مدح على خلق ، وليس مدحا لذات المدح .

ولما اعتنق الإسلام ، ووجد نفسه أمام المثل العالمي تتحرك ، تحركت مشاعره فياضة ، فاندفع بالثناء الصادق ، والمدح الخالص للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما جاء من هداية ونور كشف للناس السبيل وأخذ بأيديهم ، من ذلك قوله (١) :

يا خاتم النبيا إنك مرسل بالحق كل هدى السبيل هداكا
إن الإله بنى عليك محبة في خلقه ، ومحمدا سماكا

ومحمد صلى الله عليه وسلم خير البرية ، نشر كتاب الله الذي جاء بالحق ، وأنار بالبرهان العقول فبدد ظلام الجاهلية الدامس (٢) :

رايتك يا خير البرية كلها نشرت كتابا جاء بالحق معلما
ونورت بالبرهان أمرا مدمسا وأطفأت بالبرهان نارا مضرا
وظل العباس يتتبع مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلما وقف على منقبة جلاها ، وأبرزها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم محمص في أداء رسالة ربه بمقل ورشاده كما يقول (٣) :

من مبلغ الأقوام أن محمدا رسول الإله راشد حيث بما
دعا ربه واستنصر الله وحده فأصبح قد وفى إليه وأنما

وهو صلى الله عليه وسلم خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب (٤) :

يا خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب إذا تمد الأنفس

ولم يفته في هذا الصدد أن يقارن بينه صلى الله عليه وسلم وبين سبقه من الأنبياء فقد جاء بالحق الناطق ، وكان أمينا على الفرقان ، وأول شافع ، وآخر مبعوث تخاطبه الملائكة (٥) :

(١) الديوان ص ٩٥ (٢) الديوان ص ١٤١ (٣) الديوان ص ٩٠١

(٤) الديوان ص ٩٣ ، ص ٩٤ (٥) الديوان ص ١١٦

نى أنانا بمد عيسى بنـاطق من الحق فيه الفصل منه كذلك
أمینا طى للفرقان أول شافع وآخر مبعوث یجب الملائکا

فالمذح فى شعر العباس بمد بحق ولید الحیاة الإسلامیة ؛ إذ لم یسکن قبل الإسلام
حر یصا طى مدح واحد بعینه حرصه طى مدح الرسول صلی الله علیه وسلم ، وما أثر من
مدحه فى الجاهلیة إنما هو مدح على صنائع بخصوصها، ولولا تلك الصنائع لما سمع له .
فى هذا الفن - صوت .

* * *

وأما غزله فهو - على قلته - غزل تقليدى ، لا یشف عن عاطفة ، ولا یكشف عن
میل ، وسکل ما أثر من شعره فى ذلك آیات قليلة جاءت فى مطالع بعض قصائده .
اللهم إلا ثلاثة آیات جاءت مستقلة ، وفيها یصف المرأة بحسن الطلعة وجمال العینین ،
وأنها شابة مخدمومة لا تقوم بشئون نفسها إلا أن تلهو باللعب كالأطفال ، كأنها هلیل یجد
الراحة فیمن یقوم على رعايته (١) :

قليلة لحم الناظرین یزینها شباب ومخفوض من العیش یادر
أرادت لتنتاش الرواق ولم تقم إليه ، ولسكن طأطأته الولائد (٢)
تداهى إلى لهو الحديث كأنها أخو سقطة قد أسلته العوائد

وما عدا هذه الآیات الثلاثة مقدمات عزلیة یتندى بها بعض قصائده لیتنقل منها
إلى غرضه ، وفى هذه المقدمات یقف على الأطلال والرسوم لیناجى من عرف من النساء
فيها ویتمتها بصفات الحسن والجمال ثم ینتقل إلى غرضه ، مثل قوله (٣) :

لاسماء رسم أصبح الیوم دارسا وأقفر منها رحرحان وراکسا (٤)

(١) الديوان ص ١١٦

(٢) انتاش الشيء تناوله وأخذه ، والرواق بيت كالفساطیحمل على عمود واحد ،
ورواق البيت مقدمه ، ورواق العین حاجبها ، والولائد جمع وليدة مؤنث الوليد .

(٣) الديوان ص ٦٨

(٤) الرحرحان والرحرع : الواسع المنبسط .

فخنى عسيب لا أرى غير مائل حلاء من الآثار إلا الروامسا (١)
ليالى سلمى لا أرى مثل دلهما دلالا وأنسا يهبط للمصم آسا (٢)
تضوع منها المسك حتى كأنما ترجل بالريحان رطبا ويابسا
مدعها ولاكن قد أتاها مقادنا لأعدائنا رجي الثقال الكوادسا (٣)

فالشاعر متأثر ببيئته أيما تأثر في توجهه إلى هذا الفن ، وذلك لأنه في جاهليته فارس بدوى ، له بين قومه من المسكاة والمزلة ما يرتفع به عن تناول المرأة في شعره وانتهاك حرمتها التي يرى أن مركزه ورض عليه حمايتها من أى انتهاك . . . ثم هو في إسلامه مشغول بعبادىء الدين الجديد ، حريص على أن لا يخرج على حدوده وآدابه ؛ حفاظا على مكاتته التي عرّفه عليها المسلمون ورسولهم صلى الله عليه وسلم ، خصوصا أن العمر قد تقدم به ، فلم يكن مقبولا أن يخوض شيخا فيما رجع عنه شابا .

* * *

تلكم هي أبرز فنون الشعر التي أدار العباس بن مرداس شعره عليها ، وهو فيها جميعا يتوسل بالوصف ، فالوصف في شعر العباس وسيلة لا غاية ، ولذلك لم يخصص الوصف بالقول ، إنما هو في ثنايا غيره أو محائثه أو مدحه يجد نفسه مضطرا لأن يتوسل بالوصف

ومع ذلك فالوصف في شعر العباس مقتضب لا استقصاء فيه ، سطحي لا عمق فيه ، بسيط لا تركيب فيه ، ساذج يقوم على المراثيات المحيطة به وهيئتها المادية ، فالتأثير في شعره يقوم على الحقائق قبل أن يقوم على التخويل والتهويل ، والمبالغة في الوصف والتصوير ، ومن أحفل شعره بالوصف ما جاء في قصيدته العينية التي بصور فيها صبر بنى سليم تحت

(١) العسيب : الشق في الجبل ، والروامس جمع رامسة ورامس ، والرامس ، من الطير والدواب ما يطير أو ما يخرج في الليل ، والرامسة : الريح التي تثير التراب وتدفن الآثار .

(٢) المصم جمع أعصم عصما : الحيوان في ذراعية أو إحداهما بياض وسائر أسود أو أحمر .

(٣) الكوادس جمع كادس ، يقال : كدس الخيل إذا ازدحمت في سيرها فركب بعضها بمضا ، والكداس - بضم الكاف وتخفيف الدال - الحب المحصور المجموع .

قيادة الضحك في مواجهة هوازن يوم حنين ، ومها يقول (١) :

ويوم حنين حين سارت هوازن إلينا وضقت بالنفوس الأضالع
صبرنا مع الضحك لا يستفزنا فراع الأعادى منهم والوقائع
أمام رسول الله يخفق وقتنا لواء كخذروف السحابة لامع (٢)
ندود أخانا عن أخينا ولو ترى مصالا لكنا الأقربين تابع
ولكن دين الله دين محمد رضينا به فيه الهدى والشرائع
أقام به بهمد الضلالة أمر وليس لأمر حمه الله دابع

وماذا يرجى من شاعر هو في جاهليته بدوى لاتمهله الحياة وظروها حتى يتأني ويتأمل ويتعمق وينظر فيما حوله ويستقصى ما يقع في متناول نظره . . . بل إن الزعامة وواجباتها ، والحروب وأهوالها لتمجده عن مثل تلك النظرات ، ولولا الفطرة الشاعرة لما تمكن من قول الشعر ، فهو يقول الشعر عن نظرة لم يتمكن من تهذيبها بالصنعة الفنية ثم هو في إسلامه معتز بما يقدم له الإسلام من أخلاقيات ومبادئ ، فهو حريص كل الحرص على أن يعيش في إطار هذا الدين الجديد ، لا يند عن آدابه وأفكاره في كل صغيرة وكبيرة ، فهو يرسم الصدق فيما يقول ؛ ويتوحى الحق فيما يعرض ، في مثل قوله (٣) يصف ما حل بالمشركين من هلاك ودمار على أيدي جنود الله حين راحوا يصدون هاماتهم ويقطفون أعناقهم بسيوفهم حتى أكثروا فيهم القتل ، فرملوا نساءهم اللاتي لم يجدن إلا الدعاء طلى من أصاب أزواجهن :

غداة وطئنا المشركين ولم نجد لأمر رسول الله عدلا ولاصرا
بمترك لا يسمع القوم وسطه لسا رحمة إلا التذامر واللقفا (٥)

(١) الديوان ج ٨١ ؛ ص ٨٢

(٢) الخذروف : كل شيء منتشر من شيء

(٤) الديوان ص ٩٠

(٤) الرجمة : الكلمة ، يقال : لم أصعب له رحمة ؛ والتذامر : الغصب والتوعد ؛ يقال : تدمر نصيب ؛ وتذمر عليه تذكر له وتوعده ؛ واللقف - بفتح اللون وسكون القاف - مصدر نقف ؛ يقال : نقف رأسه نقفا صربه عليها حتى خرج دماغه

بييض تطير الهمام عن مستقرها ونقط أعناق الحكاة بها قطنا
فلكم تركنا من قتل ملحب وأرملة تدعو طي بعلمها لهفا (١)

* * *

والناظر في أساليب الشاعر والمفازة ، وفي معانيه وأخيلته لا يستطيع أن يغير ما قرره ونونه الشعرية من قبل ، فهو - كذلك - بدوي حضري ، تبرز لديه الطبائع البدوية بالطبائع الحضرية .

تقرأ شعره - وهو الذي لم يفادر البادية إلا للضرورة - فتحار فيه أمام تلك الصهولة والوضوح التي تتسم بها أكثر المفازة ، كما تحار فيه أمام تلك البساطة القوية التي تبدو عليها تراكيبه .

ولكن مع شيء من التروى والتأمل نجد تفسير ذلك قويا واضحا . وذلك لأن الشاعر - كما عرفنا من نشأته - لم يسلم نفسه للبادية تماما ، فهو لم ينطو على نفسه في بداوته ، ولم يقبع بين صحاريها وجبالها وطبائعها ، بل كان دائم التنقل والترحال ، متخذاً من الساع الرقعة التي يسكنها قومه وسيلة لتلك النجمة الدائمة ، أضف إلى هذا أن مركزه بين قومه فرض عليه أن يكون على رأس اللومود . من كل مامنحه الفرصة ليخرج من نطاق البادية ، وليتعامل مع غير البدو من سكان المدن والخواضر . هذا إلى ما كانت تتمتع به بادية بني سليم - على امتدادها - من قرب إلى الخواضر العربية شمالاً وجنوباً ، إذ كانت تمتد في غرب الجزيرة من الجنوب إلى الشمال بامتداد الحرة الممتدة من قرب عشيرة إلى قرب مدينة يثرب ، وأوديتها الشقية مساحة في عالية نجد حتى حمى الربدة الواقع غربي حمى ضربة : وتمتد بلادهم جنوباً حتى لشمل منهل الدفينة .

فلما كان الإسلام وأقبل على الدين الجديد ، وشرف بصحبة الرسول صلى الله عليه

(١) لحب الشيء - بالتضمين - أثر فيه بالضرب أو القطع ونحوه ، والهدف : الحزن والأسى .

وسلم حتى روى عنه بعض الحديث . . اجتمع إليه كل أسباب اللينة والسهولة ليكسوها ما طبع عليه من أخلاقيات البادية ثم الإسلام .

ولقد تميز الإسلام بالظهور في الفاظه ، ليس بالسهولة واليسر محسوب ، بل بالمصطلحات والألفاظ الإسلامية ، فقد احتوى شعره على طائفة ليست بالقليلة من تلك المصطلحات والألفاظ ، مثل (دين الله ، والهدى ، والشرائع) في قوله (١) :

ولسكن دين الله دين محمد

رضينا به فيه الهدى والشرائع

ومثل (جنود الله) في قوله (٢) :

لحنا أسد غابيات إليهم

جنود الله ضاحية تسير

ومثل (رسول الله) في قوله (٣) :

بذي لجب رسول الله فيهم

كتيبته تعرض للضراب

ومثل (الإسلام) في قوله (٤) :

إن يهدوا إلى الإسلام يلقوا

أنوف الناس ما سمر السمير

ومثل (الشرك) في قوله (٥) .

الضاربون جنود الشرك ضاحية

بيطن مكة والأرواح تبتدر

ومثل (المؤمنون) في قوله (٦) :

كانوا أمام المؤمنين دريئة

والشمس يومئذ عليهم الشمس

ومثل (الكفار) في قوله (٧) :

إن تبتقى الكفار غير ملومة

فإنى وزير للى وقابع

(٣) الديوان ص ٣٤

(٢) الديوان ص ٥٠

(١) الديوان ص ٨٢

(٦) الديوان ص ٧٤

(٥) الديوان ص ٥٥

(٤) الديوان ص ٥٢

(٧) الديوان ص ٨٠

ومثل (المدل والصرف) في قوله (١) :

غداة وطئنا المشركين ولم نجد لأمر رسول الله عدلا ولا صرفا

إلى غير ذلك من الألفاظ القرآنية والمصطلحات الإسلامية التي صبغ بها شعره ، فأصبح مميزا آتم التميز عن شعره في الجاهلية ، وإن اسمح في الجاهلية والإسلام بسمة السهولة والوضوح والبساطة .

* * *

فإذا وجهنا النظر إلى معاني الشعر عند العباس وجدناه - خاضعا لبيئته - يمتاز بالصدق والصراحة والوضوح ، إلى جانب البساطة والقرب والإيجاز ، مع الاختلاف البين بين معانيه الجاهلية والإسلامية ، وذلك لأن الشاعر العادق - على وجه العموم - يستجيب في معانيه لما تضطرب به مشاعره ، وما تفيض به أحاسيسه ، دون تكلف أو تصنع .

ففي شعره الجاهلي تبرز المعاني الجاهلية ليقدم من خلالها الشاعر أمكاره ، من ذلك أنه حين أراد الامتخار بقومه وإظهار عزمهم ومنعتهم ، قدم ذلك من خلال معنى جاهلي معروف ، حيث وصفهم بالظلم في قوله (٢) :

أبي الدم عرضي إن عرضي طاهر وإن أبي من أباة ذوى غشم

وكما كانوا في الجاهلية يفتخرون بالأصول والأنساب ، افتخر العباس كذلك ، حين فاخر عمرو بن معد يكبر في قوله (٣) :

وإن تك من سعد المشيرة تلفي إلى الفرع من قيس بن ميلان مولدي
إلى مضر الحمراء تنمى جدودنا وأحسابنا ومجدنا غير قمدد

أما في شعره الإسلامي فأفكاره ومعانيه إسلامية خالصة ، حتى يخيل إليك أنه غسل

(٢) الديوان ص ١٠٥

(١) الديوان ص ٩٠

(٣) الديوان ص ١١٩

نفسه تماما من كل ما هو جاهل الأمر الذي يلات النظر ؛ إذ كيف يتأني لشاعر أن
يفصل نفسه - هكذا - تماما عن مرحلة النشأة والتكوين الفني .

فالعصر في الحرب ليس بالقوة والشجاعة ، وإنما هو بحراسة الله ونصره في
مثل قوله (١) :

فرضى ويحرسنا الإله بحفظه والله ليس بضائم من يحرس
والجهاد والكفاح مع ما يلاقى من عنف وإرهاق ، هو لإرضاء الله ليس غير ،
والله وحده يعلم خفايا النفوس وظواهرها ، كما في قوله (٢) :

رضا الله نوى لا رضا الناس نبتنى والله ما يسدو جيما وما يخفى
إلى غير ذلك مما يتلى به شعره . وهكذا تغير تصور الشاعر بإسلامه ، فأصبحت
مرائيه غير مرائيه في الجاهلية .

* * *

وإذا وجهنا النظر إلى خيالاته وصوره وجدنا البيئة البدوية - بكونياتها وحيواناتها.
وظواهرها الطبيعية - ماثلة تماما في شعره . فالخيل إذا اندمعت في الحرب بقوة ، وأراد
تصويرها ، لجأ إلى مرائيه المتكررة في هذه البيئة فانتقى منها ما يقرب الصورة ويوضحها ،
فلم يجد سوى السيل العرمرم الذي لا يكاد يغيب عن ناظر بدوي مثله ، وذلك قوله في
تشبيهه الجنود مندفعين بمنف ورسانا ورجاله (٣) :

على الخيل مشدودا علينا دروعنا ورجلا كدفاع الأتقى عرمرما (٤)
والجيش إذا أكثر جنوده ، وكشف عتاده ، وأصبح يتجرجح في حركته يشبه

(١) الديوان ص ٩٠

(٢) الديوان ص ٩٠

(٣) الديوان ص ١٠١

(٤) الرجل - بفتح وسكون - الماشى على رجله ، والآقى - بتصغير الياء ، السيل
يأتى من بعيد ، والعرمرم : الشديد

الأنجوم المتلألئة في السماء ، يراها الناظر ولا يحيط بها حصرا ولا عدا ، وذلك في قوله (١) :

ورجراجة مثل لون العجو م ، لا العزل هيها ولا الحسر
واللواء الخفاق الذي تهفو إليه الأفئدة ، وتنطلق إليه النفوس يشبه طرف السحابة
المنتشر في الفضاء في شدة الأنظار ، وتمكته منها ، كما في قوله يشبه لواء رسول الله
صلى الله عليه وسلم يوم حنين (٢) :

أمام رسول الله يخفق قوقنا لواء كخدروف السحابة لامع (٣)

والسيوف اللوامع في أيدي الجنود تشبه السحاب البارق المتلألئ خلال الظلام
الحالك ، كما في قوله (٤) :

نديتكم والموت بيني سرادقا عليكم شياحد السيوف البواتك
تموج بأيدينا كما لاح بارق تلالأ في داج من الليل حالك

وإلى جانب مشاهد الطبيعة البدوية ، نرى حيواناتها وطيرها يستمد منها الشاعر
أحليته وصوره ، فجنود المسلمين يوم حنين يشبهون الأسد (٥) :

فكنا أسد لية ، ثم حق أبحناها وأسلمت النور

وبنو معاوية بن بكر أمام الإسلام يشبهون الأعمام في قوله (٦) :

كأن بني معاوية بن بكر إلى الإسلام ضائنة تغور
والخيل في المركة تشبه العقبان في قوله (٧) :

إلا سواج كالعقبان مقربة في دارة حولها الأخطار والمكر

(١) الديوان ص ٦٥

(٢) الديوان ص ٨١

(٣) الخدروف : كل شيء منتشر من شيء .

(٤) الديوان ص ٥١

(٥) الديوان ص ١٣١

(٦) الديوان ص ٥٤

(٧) الديوان ص ٥٢

واللواء في المعركة يشبه العقاب الذي يحلق في السماء ثم ينقض على فريسته فيخطفها،
مثل قوله (١) :

بمسكة إذ جئنا كأن لواءنا عقاب أرادت بمد تحليقها خطفا
لي غير ذلك من الصور المتزعة من البيئة البدوية التي آثرها الشاعر على الحاضرة
حتى بعد إسلامه ، وانتقاله إلى البصرة على عهد عمر بن الخطاب على ما سبقت
الإشارة إليه . .

حسان بن ثابت

اشأته وحيأته :

حسان بن ثابت بن للنذر بن حرام الخزرجى ، من بنى المعجار من قبيلة الخزرج ،
 وله بالمدينة ، وشأ فى بيت شرف وجاء . ويكاد يجتمع المؤرخون على أنه عاش مائة
 وعشرين عاماً نصفها فى الجاهلية (١) . نشأ بين قومه ، وعاش فى مجتمع يثرب الذى يضم
 الأوس والخزرج واليهود ، والذى كان يثن من الحروب المتصلة بين الأوس والخزرج ،
 بتأريث اليهود وإسماهم نار الفتنة بينهم ، حتى تمكن قبصتهم من السيطرة على مصائر
 الأمور فيها ، فكان لسان قومه المدافع عنهم فى تلك الحروب ، وكان فى مواجهته الشاعران
 الأوسيان : أبو القيس بن الأسات ، وقيس بن الخطيم (٢) . الصل فى الجاهلية بالنساسة
 ومدحهم ، وكان يتردد عليهم ، وقيل إنه أصل ببلاط الحيرة ، وحل محل النابغة حين
 كان على خلاف مع النعمان بن النذر . ولما أسلم بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم
 أصبح شاعر الإسلام ، الذى يدافع عن النبى وعن المسلمين ، ويتنوع قريشاً بهجائه
 اللادع ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحثه على هجأهم ويدعوله ، ويروى أن
 الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم
 وأحسابهم ، ثم اجههم وجبريل معك (٣) » . وقد نال منزلة رفيعة عند رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ، فكان يقسم له فى التناهم ، وأهداه ستاناً ، كما أهداه سيرين
 أخت مارية القبطية ، فأعجب منها ابنه عبد الرحمن ، واستمر الخلفاء من بعده صلى الله
 عليه وسلم على تقديره وإجلاله ، حتى مات فى خلافة معاوية ، بعد أن كعب بصره .

شعره :

الناظر فى شعر حسان يرى أنه قسبان متميران ، أحسدهما تسرى فيه روح

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٣٤ وما بعدها ، والشعر والشعراء ج ١ ص ٣٠٥ وما بعدها .

(٢) الأغانى ج ٣ ص ٥ وما بعدها . (٣) الأغانى ج ٤ ص ١٣٨ وما بعدها .

الجاهلية بقيها وأحداثها ، وثالثاً لتمرى فيه روح الإسلام بمثلها وقيمه وأخلاقياته وأحداثه

قال ابن سلام : حسان أشعر شعراء القرى الخمسة ، وهو كثير الشعر جيدة ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تماضت قريش واستابت وضغوا عليه أشعارا كثيرة لا تنق (١) ، وكان للشعر للوضع أثره في ضعف شعر حسان الإسلامي ، فهو لا يمثله تماما ، حتى ظن الأصمعي أن إسلام حسان كان من أسباب ضعفه ، وقال : الشعر نكسك بابه الشعر ، وإذا دخل في الخير ضعف ، هذا حسان بن ثابت دخل من فحول الجاهلية ، ولما جاء الإسلام سقط شعره وقال : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع متنه في الإسلام ، لحال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، والحقيقة - فيما أرى - أن النبي أضغفه هو ما أدخل عليه مما رواه ابن اسحاق في التنازي ، بل لقد اختلط الأمر على الرواة فنسبوا إلى حسان ما قاله غيره ، كما نسبوا إليهم ما قاله حسان (٣) ، أصعب إلى هذا ما فعلته الفتنة الكبرى بمد مقتل عثمان رضي الله عنه في نفوس المتحزبين ، وقد عمل الامويون على إثارة المسلمين ضد علي رضي الله عنه ، فصنعوا شعرا في مدح عثمان على لسان حسان شاعر الرسول ، كما حملت عليه أشعار في مدح الربيع بن العوام ، وعبد الله بن عباس .

وأيا ما كان الأمر ففيها وصلنا من شعر حسان قصائد جاهلية وأخرى إسلامية وثقها الرواة ، تكشف عن اتجاهات حسان وشاعريته من ذلك ميمته التي يفخر فيها بقومه ومآثرهم ، والتي عرصها على الباقية في سوق عكاظ ، ومطلعها :

ألم تسأل الربع الجديد التكلما بمدح أشداخ فبرقة أظلم
وفيها يقول :

لما حاضر نعم وباء كأنه شمرايخ رصوى عزة وتكرما

(١) تماضوا : رمى بعضهم بعضا بالفضيحة وهي الإك والشتمية . طبقات احول للشعراء ج ١ ص ٢١٥ .

(٢) الشعر والشعراء = ١ ص ٣٠٥

(٣) راجع السيرة النبوية لابن هشام وقارن بالديوان .

(١٧ - الأدب العربي)

مضى ما تزنا من معد بعصبية وغسان نمنع حوضنا أن يهدما
بشكل فتى عارى الأشاجع لاجه قراع الككاة يرشح للمسك والهدما
لنا الجفونات الفري يلمن بالضحى وأسياما يقطرن من نجوة دما
أى فعلنا المروب أن نطق الحما وقائلنا بالمرف إلا تكلمنا

وكان لحسان دور فعال في الصراع الدائر بين الأوس والخزرج قبل الإسلام فقد شارك بشمره في هذا الميدان ، حيث شبت نار المناقشات بين شعراء القبيلتين . من ذلك ما قاله في الفخر حين امرت الأوس أمام الخزرج في يوم الربيع بعد قتال عنيف كاد يفنيهم ، وكان حريصا أن يبدأ قصيدته بمطلع يتفزل فيه بليلي بنت الخطيم الأوسية ، وذلك قوله :

لقد هاج نفسك أشجانها وعاودها اليوم أديانها (١)
تذكرت ليلى ألى بها إذا قطعت منك أقرانها
وحجل في الدار غربانها وخف من الدار سكانها
وغيرها مصبرات الرياح وسح الجنوب وتمتانها
مهاة من العين تمشى بها وتقبها ثم غزلانها
وقفت عليها نساءلتها وقد ظعن الحى : ما شأنها ؟
فميت وجاربي دونها بما راع قلبى أعوانها

ولما اعتق الإسلام أحلص نفسه للدفاع عنه ، فكان الجندى التأهب بشمره لسكل معركة ، ووقف مع عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك للرد على شعراء المشركين في هجائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثال عبد الله ابن الزبمرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص . كما تراه في همزيتة التي يهجو فيها أبا سفيان بن الحارث ، ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنها يقول :

ألا أبلغ أبا سفيان عفى فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإمام
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذلك الجزاء
أنهجوه ولست له بكفاء مشركا لخيركا الفداء

(١) أديانها جمع دين : الداء والمراد الحب القديم .

هجوت مباركا برا حنيفا أمسين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
إن أبي ووالده وعرضي لمرض محمد منكم وقاء

ولما بسى عبد الله بن الزبيرى قتلى قريش في معركة بدر بميمته التي يقول في
مطامها :

ماذا طى بدر وماذا حوله من فتية يمس الوجوه كرام
أجابه حسان بن ثابت ناقضا عليه قوله بقصيدة ميمية طى الوزن نفسه والناقية ،
حساء فيها :

ابك بكت عيناك ، ثم تبادرت بدم يهل غروبها سجم
ماذا بكيت به الدين تتابعوا هلا ذكرت مكارم الأرقام
وذكرت منا ماجدا ذامة سمع الخلائق صادق الأقدام
أعفى السبي أحبا المكارم والندى وأبر من يولى طى الأقسام
لمثله ولمثل ما يدعو له كان المدح ثم غير كرام

ولما قال ابن هبيرة قصيدته الهائية في انتصار قريش على المسلمين في أحد ، أجابه
حسان ، يقض قوله ، ويسفه رأيه وآراء من اتبعوه طى حرب الله ورسوله ولا طلاقة
لهم بذلك ، فالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه جنود الله ، والمشركون أعداء الله ،
وسوف يخزى الله أعداءه بأيدي حموده . . . ثم ينهى قصيدته بالحديث عن مكارم
الرسول وأصحابه ، ومنتهم على قريش في إطلاقهم أسرى بدر ، وفيها يقول :

سقم كسابة جهلا من سفاهتكم إلى الرسول لجنود الله مخزها
أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والقتل لاقها
حمتموهم أحايشا بلا حسب أئمة الكفر عرتكم طواغيا
ألا اعتبرتم بحيل الله إداقتات أهل القليب ومن ألقينه فيها
كم من أسير مككناه بلا ثمن وجز ناصية كبا مواليا

ولما بكى كعب بن الأشرف اليهودى قتلى بدر في هيلته التي قال فيها :
طحننت رجا بدر لمهلك أهله ولمثل بدر كستهل الأدمع

أجابه حسان بقوله :

أبكي لكذب ثم طى بعبرة منه وعاش مجددا لا يسمع
ولقد رأيت يبطن بدر منهم قتلى لسح لها السيون وتدمع
فأبكي فقد أبكيت عبدا راضعا شبه الكليب إلى الكلبية يتبع
ولقد شفا الرحمن منا سيذا وأهان قويا فأنلوه وصرعوا
ونجا وأملت منهم من قلبه شعف يظل أخوه يتصدع

ولما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد تميم سمة الوفود - بعد فتح مكة -
وفيه عطار بن حاجب بن زرارة قام البرقان بن بدر وقال قصيدة يفخر فيها بقومه
منها قوله :

نحن الكرام ، فلاحى يبادلنا منا الملوك ، ومينا يقسم الربع
وكان حسان غائبا فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء وسمع ما قاله
الزريقان قال عينية يمارضه بها ، وفيها يقول :

إن الدوائب من فخر وإخوتهم قد يموا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريره تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
نوم إذا حاربوا صبروا عدوهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
فإن فى حربهم فأنرك عداوتهم شرا يحاض عليه السم والسلع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تماوت الأهواء والشيع

وفى هذه القصيدة يظهر مدى تأثر حسان بالدين الجديد ، إذ فخر بالرسول وبما
أتى من أمور الدين التى يجب على كل ذى عقل أن يدين بها ويتبعه فيها .

ومن إسلاميات حسان التى يظهر فيها تأثره بالفكر الإسلامى ، دالته التى
يقول فيها :

وقد زعمتم بأن تعهوا ذماركم دماء بدر زعمتم غير مورود
وقد وردنا ولم نسمع لقولكم حق شربنا رواء غير تصريد
مستمعين بحبل الله غير منجدم مستحكمن من حبال الله -مدود
ديما الرسول وفيها الحق تتبعه حق المات وصر غير محدود

واف وماض شهاب يستضاء به بدر أنار على كل الأماجد

وهكذا واصل حسان بن ثابت رحلته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعونه إلى الإسلام ، يتصدى لكل عدو ، حتى إذا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء ربه ، وقف حسان يبكيه ، ومما قاله في ذلك دلالة التي يقول فيها مصورا حزنه وألمه لفراق الرسول :

ما مال عينك لانام كاءا	كحات مآقيا بكحل الأرمد
جزعا على المهدي أصبح ناويا	يا حير من وطىء الحصى لا تبعد
وجهى يقيك الترب ، لهفى ليتنى	غيبت قبلك فى بقيق الفرقد
بأبى وأمى من شهدت وفاته	فى يوم الاثين النى المهتدى
فظلمت بمد وفاته متبلدا	متلدا ياليتنى لم أولد (١)
أقيم بمدك بالمدينة بينهم ؟	ياليتنى صبحت سم الأسود (٢)
أوحل أمر الله فىنا عاجلا	فى روحة من يومنا أو فى عد
هتقوم ساعتنا ، فنلقى طيبا	محضا ضرائب ، كريم المختد (٣)

ومن يقارن بين شعر حسان فى الجاهلية وشعره فى الإسلام يجزم بأن قائل هذا شعر ذاك ، ولولا الصياغة اللفظية لما كان بين الشعرين أدنى صلة . وهذا يدل على مدى تأثير الشاعر بالإسلام ، وقد تحول به إلى إنسان آخر يختلف تماما عنه قبل الإسلام .

بيد أن الناظر فى شعر حسان قبل الإسلام وبمده يلاحظ . أن أثر البيئة الحضريية الحسية والمكرية والدينية - يتصح فى جراحة الفاظه وسهولتها ، وفى إحكام عباراته ودقتها ، كما يتصح فى معانيه التي تكشف عن بيئته الحضرييتين فى يثرب وجوار الفساسة من جهة ، وفى ظل الإسلام ومكره وعقائده ومبادئه من جهة أخرى .

(١) للتبلىد : من أدركته الحيرة . ومثله المتلدد .

(٢) صبحت : سقيت صبحا (٣) الضريية : الطبيعة والسجعية ، والمختد: الأصل

(٦)
كعب بن زهير

نشأته وحياته :

كعب بن زهير بن أبي سلمى ؛ أحد حلقات السلسلة الممتدة من شعراء بيت زهير - كما أهرنا من قبل - نشأ في بيت يكتنفه الشعر من كل جانب ، لقنه أبوه الشعر ، فكان هو وأخوه بجير من رواة أبيهما زهير . ويدكر الرواة أن زهيراً كان يخرج يابنه كعب إلى الصحراء ، فيلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يجيزه ، إن دريماً له وعمريناً على صوغ الشعر (١) . وقد ولد في غطفان قبل مجيء الإسلام ، ولم ينقض العصر الجاهلي إلا وله من الشهرة والسكينة في الشعر ما جعل الحطيثة زميله يقول له : قد علمت روايتي شعر أهل البيت وانقطاعي ، وقد ذهب اللحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بمدك ، وإن الناس لأشعركم أروى ، وإليها أسرع (٢) .

أدرك الإسلام كما أدركه بجير أخوه ، والحطيثة وكان بجير أسبقهم إلى الإسلام ، فهجاء كعب هجاء تألم له رسول الله ، فتوعده وأهدر دمه ، من ذلك قوله :

ألا أبلغنا عن بجير رسالة	مهل لك مياقلت - ويحك هل لك
شربت مع المأمون كأساً روية	فأنهك المأمون منها وعلكا
وخالفت أسباب الهدى وتبعته	على أي شيء - ويب غيرك - ذلكا
على حلق لم تلف أما ولا أباً	عليه ، ولم تدرك عليه أخا لك

بعث إليه بجير محذراً ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم متسكراً ، فبدأ بأبي بكر ، فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاءه وهو متلثم بهامته ،

- (١) أنظر الأغاني ج ١٥ ص ١٤١ طبع الساسي ، وأما المرتضى ج ١ ص ٩٧ طبع الحلبي ، ومقدمة ديوان كعب طبع دار الكتب المصرية .
- (٢) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٠٤ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٦ ، والأغاني ج ٢ ص ١٦٥ ، ص ١٦٦ طبعة دار الكتب .

فقال . يا رسول الله هذا رجل يبأيحك على الإسلام ، فبسط النبي صلى الله عليه وسلم يده ، فحسركعب عن وجهه ، وقال هـذا مقام العائذ بك يا رسول الله ، أنا كعب بن زهير . وآمنه صلى الله عليه وسلم ، واستشهده (١) ، وقال لاميته المشهورة معتذرا عما بدر منه ، ومادحا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به ، ومن حوله من صحابته ، ومطامها (٢) :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفسد مكبول

ودها يقول :

أبثت أن رسول الله أوعدنى	والمنو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك ناهله لا	قرآن فيها مواعيط وتفصيل
لاتأخذنى بأقوال الوشاة ولم	أذنب ولو كثرت عى الأقاويل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به	أرى وأسمع ما لو يسمع القليل
لظل يرعد إلا أن يكون له	من الرسول بإذن الله ينزِيل
حق وضعت عيني لا أنازعه	فى كفى ذى نقبات قبيلة القليل
إن الرسول لسور يستضاء به	مهند من سيوف الله مملول (٣)
فى عصابة من قريش قال قائلهم	يعلن مكة لما أسلموا : رولوا (٤)
زالوا ، فالزال أنكاس ولا كشف	عند اللقاء ، ولا ميل معاريل (٥)
شم المرانين أطلال ، لبوسهم	من نسج داود فى الهيبة اسرايل (٦)

والاظرفى هذه القصيدة يرى شاعرية كعب وتفننه فى الانتقالات ، ودقة التصوير ،

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٤ ، وابن سلام ج ١ ص ٩٩

(٢) الديوان ص ٦ وما بعدها طبع دار المكتبة المصرية .

(٣) المهند : السيف المصنوع من حديد الهند ، وهو أفضل السيوف .

(٤) رولوا : انتقلوا ، يعى : هاجروا .

(٥) الانكاس جمع نكس : الضعيف ، والكشف جمع أ كشف : من لآرس له ،

الميل جمع أميل : من لا يحسن الركوب ، معازيل جمع معرول : من لا سلاح له .

(٦) المرانين جمع عرنين : الأنف ، والشم : حدة فى طرف الأنف . مع كشمير .

وحسن العرض ، لكنه مع كل ذلك جاهل في كل ما قدم ، سواء في مطالعته النزلى ،
أو في مديحه الرسول صلى الله عليه وسلم وللمهاجرين ، بحيث تكاد لا تثم رائحة الدين
الجديد ، وهذا دليل صدق الشاعر ، إذ لم يعرف بعد عن الإسلام شيئاً ، وإذا مزج
الإسلام نفسه ، صدر في شعره عن قيمه وأفكاره ، مثل قوله :

أعلم أى متى ما يأنى قـدرى	فليس بحبسه شح ولا شفق (١)
بيد الفقى معجب بالمشى منتبظ	إذا الفقى لهناها مسلم غلق (٢)
والمرء والمال ينمى ثم يذهب	مر الدهور ويفنيه فيلسف
فلا تحامى علينا الفقر وانتطرى	فضل الذى بالفى من عنده نثق
إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا	ومن سوانا ولنا نحن نرتق

ومثل قوله :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبنى	سمى الفقى وهو مخبوء له القدر
يسمى الفقى لأمر ليس يدركها	والنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش مدود له أمل	لا تنتهى العين حق ينتهى الأثر

ومن يردد نظره فى ديوانة يدرك الفارق الكبير بين كعب الجاهل فى خلقه
وسلوكه ، وبين كعب المسلم الزاهد المنسجم الذى يرد على هاء من هجاء ، بالحكم
والمواعظ ، طالبا منه مقابلة صفح ، عنه بالسكوت ، حتى لا يخرج عما الترمه من آداب .
مثل قوله (٣) :

إن كنت لا ترهب ذى لما	تعرف من صفحو عن الجاهل
فاخش سكوته إذ أنا منعت	بيك لمسوع خنا القائل

(١) الشفق : الخوف .

(٢) الملق بفتح وكسر . المستحق ، يقال : علق الرهن إذا استحق .

(٣) حزاة الأدب ج ٤ ص ١٢ ، والحيوان ج ١ ص ١٥

فالسامع التمام شريك له ومطعم الأكل كالأكل
مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل

ولقد كان كعب أحد الفحول المقدمين في الجاهلية والإسلام، إذ كان في
شعره الفنان الأصيل العادق، العميق الحس، الرائع التصوير، الذي يملك أزمة البيان،
فيوجهه أنى شاء.

الفصل الثاني

فنون الشعر الحضري

في حديثنا عن فنون الشعر البدوي قررنا - من واقع الحياة العربية البدوية - أن شعر البادية كان استجابة صادقة لما أملت البادية على أبنائها من اتجاهات فنية ، وقيم خلقية وسلوكية . وكذلك كان الحال في الشعر الحضري ؛ فقد تطلبت الحاضرة من الشعراء تنازلات عن بعض القيم البدوية ولم يجدوا مناصا من الاستجابة إليها ليحققوا لأنفسهم التلاؤم مع ما يجد عليهم من أخلاقيات .

وفي مقدمة هذه التنازلات استبدال الدعوة إلى السلام بالدعوة إلى الحرب والحض عليها ، والتحميس لها ، أو على أقل تقدير السكوت عن الحرب وما يتصل بها

وتحول الشاعر من مدح القيم والأفعال إلى مدح الأشخاص لدواتهم سعيًا وراء كسب ، وطلبًا للجزيل عطاء .

وتهالك الشاعر في سبيل الحصول على الأعطيات والجوائز بالتفنن في الاعتذار على اختلاف أساليبه واتجاهاته وممانيه .

واستبدال للتع المادية بالشاعر ، مما دمه إلى تعرية الرأة وتجريدها بما يسترها في جراءة ، لتبدو للأعين مظاهر جاذبيتها وإغرائها ، وإلى الحديث عن الخمر ووصف آثارها على شاربها ، وتبجح مجالسها ودنانها وكثوسها بالوصف المستقصى

اتخاذ للشعر سلاحا من أسلحة الدعوة الدينية ، ووسيلة من وسائل الوعظ ، يصل بها الشاعر إلى نفوس سامعية ، يقرر العقيدة ، ويوضح الفكرة ، ويدفع الخصم المهاجم بنقض هجائه ، ويبكى قتلى الحروب الناشبة بين الداعين إلى الدين وخصومهم .

متحقق من ذلك الشعر أغراض جديدة وأخرى مطورة عدلت لتناسب مع

البيئة الحضرية .

ومن ثم أمكن أن نحصر فنون الشعر الحضري في فنون ثمانية هي : المدح ،
والهجاء ، والاعتذار ، والفخر ، والفزل ، والديليات ، والمواظ ، والثناء ،
والوصف .

ولا ريب في أن أثر الحضري يختلف في ذلك من شاعر إلى شاعر ، وفقا لمدواقفه
الفنية ، وطبيعة الحضارة التي تكتمفه .

المدح :

كان من المدح من أبرز فنون الشعر الحضري ، ولقد أتجه شعراء الحضرة بهذا الفن متباينى الدواعى فانشعب الطريق بهم فى المعانى والصور بما يتناسب مع الصفات التى يمدح بها . فبينما نجد النابذة الديبائى يمدح النعمان بن المنذر ، ويمتد إشعاعه على الصفات التى يحمدها فيه من كرم وجود فى قوله :

الواهب المائة المكاء زينها	سعدان توضح فى أوبارها اللبد(١)
والأدم قد خيست فتلا مرافقها	مشدودة ببحال الحيرة الجدد(٢)
والرا كصات ذبول الریط فانقها	برد الهواجر كالغزلان بالجرد(٣)
والخيل تمزغ غربا فى أعنتها	كالطير تنجو من الشؤب بذى البرد(٤)

ونسلم صوت حجر بن خالد يمدح النعمان - كذلك - مركزا على كرمه وجوده ، فى قوله :

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجـد	كفعل أبى قابوس حزما وناثلا
يساق الغمام النـر من كل بلدة	إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فإن أنت تهلك يهلك الباع والندى	ولضحى فلوص الحمد جرباء حائل(٥)

(١) المكاء - بكسر الميم - الغلاظ القوية ، وبريد الإبل ، وتوضح : موضع ، والسعدان - بفتح السين - سراع ، اللبد : ما تلبس من الشعر .

(٢) الأدم - بضم فسكون - النوف اليبس ، حيدت - بضم الحاء وكسر الياء المضمة - ذلت ، فتلا - بضم الفاء - كناية عن قوة خلقها ومثابقتها .

(٣) الرا كصات : الساحبات ، الریط : ثوب طويل ، فانقها : نعمها ، الجرد - بفتح

الجيم والراء - موضع .

(٤) تمزغ غربا : نسح سحبا شديدا ، الشؤب ب : السحاب أو دومات مطره .

(٥) الباع : الشرف ، والندى : السكرم ، والفلوص : النافذة الشابة ، والحائل ، التى

حمل عليها الفحل فلم تلتصق

فلا ملك ما يبلغنك سميه ولا سوتة ما يمدحك باطلا
نجد العباس بن مرداس قبل الإسلام مادحا بدويا ، فلا نثر له إلا على مدحتين
إحداهما يمدح فيها قيس بن عاصم ، ويمدح في الثانية أبا الحليس ، وهما مدحتان على
مواقف وأحلاق .

ونجده في ظلال الإسلام يتجه بمدحه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيركز
مدائح على ما جاء به من هداية ونور كشف للناس السبل وأخذ بأيديهم كما في قوله :

نى أنانا بمد عيسى بماطق من الحق فيه الفصل منه كدلسكا
أمينا على الفرقان أول شامع وآخر مبعوث يعجب الملائكا

فالشاعر إنما يمدح فيه صلى الله عليه وسلم ما جاء به من الحق ، وأمانته على القرآن ،
وشفاعته المأمولة وكان ذلك تمهيدا للشروع المدائح النبوية ، فقد كان مدح الرسول صلى
الله عليه وسلم أحد مظاهر الحرب الدائرة بين المشركين والمسلمين ؛ إذ كان المشركون
يعتمدون على مهاجمة الرسول ومجائه .

أما مدح غير الرسول صلى الله عليه وسلم فكان في الغالب موجها إلى جماعات ،
لا إلى أفراد ، من ذلك ما قاله كعب بن زهير في مدح الأنصار استجابة لرعبته صلى الله
عليه وسلم حين غضبوا لتعريضه بهم في لاميته الاعتذارية ؛ وذكر بلاءهم مع الرسول
صلى الله عليه وسلم ، وإحلاصهم في الدعوة والدفاع عنها :

من سره كرم الحياة فلا يرل في مقنب من صالحى الأنصار
ورثوا المسكارم كبرا عن كابر إن الحيار هم بنو الأحيار
والبائعين نفوسهم لبيهم للموت يوم تعانق وكرار
يتطهرون ، يرونه اسكا لهم بدماء من علقوا من الكفار

(٢)

المهجاء :

عرفنا - فيما تقدم - أن المهجاء سلب المحامد عن المهجور .

كما عرفنا أن شعراء الجاهلية البدو لم يتردوا قصيدة بالمهجاء، وإنما كانوا يتناولونه في سياق النخر، أو كانوا يرجون بين المهجاء والفخر، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن هاء حصم يستلزم الفخر عليه بالانصاف بما يسلب عنه من المحامد، فهو لون من اللقابلة والطاقة .

والناظر في شعر الحضرة على اختلاف اتجاهاته - يلاحظ أن طائفة من شعراء الحضرة لم يشدوا عن النهج البدوي في من المهجاء، وهو يأتي في طوايا النخر، ويحرص فيه الشاعر على التلطف والتحفظ، دون إهشاش أو إقذاع، على نحو ما رأينا في شعر النابتة من هاء وخر دار به حول قبيلته وما كان يديها وبين بن أسد من تحالف، وما كان بينها وبين بنى عامر من حروب . من ذلك قوله :

إن يك عامر قد قال جهلاً فإن مطيعة الجهل السباب
مكّن كأنيك أو كأني براء توافقك الحكومة والصواب
ولا تذهب بحملك ظاميات من الخيلاء ليس لمن باب
وإك سوف تحلم أو تناهى إذا ما شبت أو شاب الغراب

وغير حتى ما لجأ إليه الشاعر من السخرية من مهجوه، والتمسك به، دون إقذاع أو إهشاش، وكل ما وجهه إليه أنه أوماً إلى وصفه بالحق والجهل، ويملق انصافه بالحلم على مستحيل

وعلى هذا النحو - أعشى قيس في هجائه يريد بن مسهر الشيباني، حين حوس قومه للنار ممن أعتدى على واحد منهم وقتله، وكان القتال واحداً من بنى قيس بن ثعلبة، وهدده الأعشى وهجاه لذلك في قوله :

أبلغ يزيد بن شبان مألكة أبا ثبيت أما تنفك تأنكل (١)
الست منتهيا عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ما أطت الإبل (٢)
كناطح صخرة يوما ليونها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل (٣)

مقد لجأ إلى السخرية بطريق الاستفهام ، قائلا : ألا تنهى عن السعى بالشر
والحقد علينا ، والوقوع في أعراضنا بالقدم والسب ؟ إنك لن تزال منا شيئا ، ولن تضير
إلا نفسك ، كما يحدث للوعل الذي يطوح الصخرة قاصدا إضعافها وإيهانها ، ولم يزل
منها بقدر ما نال من نفسه .

كما سار في هجائه علقمة بن علاثة ، متممدا على التمريض والإعلاء المؤلم في قصيدتين ،
في أولاهما ، ازن بينه وبين خصمه ومبارره عامر بن الطفيل في قوله :

علقم ما أنت إلى عامر الناقص الأوتار والواتر (٤)
ياحجب الدهر متى سوي كم ضاحك من ذا وكم ساخر
ولست بالأكثر منهم حصي وإنما المرة للكاثر (٥)
علقم لا أسفه ولا تجمان عرضك للوارد والصادر
ولست في السلم بدى نائل ولست في الهيجاء بالجاسر (٦)

وحاء في الثانية قوله :

تبيتون في المشق ملاء بطونكم وجاراتكم غرثي بيتن خائفا (٧)

(١) مألكة - بضم اللام - رسالة ، تأنكل : تسمى بالشر أو تنضب وتغلى
حتى لا تكأ نك تأكل نفسك .

(٢) الأثلة : شجرة ، يقال نحت أثلته : تمقصه وعابه ، أطت : أنت .

(٣) الوعل - بكسر الهمزة - صرب من الماعز الجبلي .

(٤) الأوتار جمع وتر ، وهو النأر ، وناقص الأوتار : الآحد بالنأر ، والواتر :

الذي يترك نأره في الإعداء فلا يستطيعون تقصه .

(٥) المقصود بالحصى : العدد .

(٦) المائل : العطاء ، والجاسر : الجريء .

(٧) المئتي : زمن الشتاء ، غرثي : حائفة ، حائص : ضامرات البطون .

وكان إلى جانب تلك الطائفة التي لم تفرد لهجاء قولها ، طائفة أخرى اضطرت إلى إفراده بالقول اضطارارا ، كما رأينا في مناقضات العباس بن مرداس التي عبت بينه وبين خفاف بن ندبة ، وخوات بن حبير ، وعبد الله بن جندل ، وقد سبق الإشاره إلى ذلك في الحديث عن العباس .

ويلاحظ أن العباس - مع ذلك - لم يخرج على المنهج العام ، من التزام عفة اللسان ، والبعد عن الإفخاش والإقذاع ، وإن مال إلى التصريح في بعضها كما في قوله :

أكليب مالك كل يوم ظالما	وانظلم أنسكد وجهه ملعون
فأفعل بقومك ما أراد بقومه	يوم الغدير سميك المطعون
وأظن أنك سوف تلقى مثلها	في صفحتيك سنانها مسون
قد كان قومك يحسبونك سيديا	وإخال أملك سيد مغبون

وليس البعد عن الإفخاش والإقذاع هي سمة هذا الهجاء ، بل إن من سماته كذلك البعد عن المبالغات والنهويل ، فهو قريب إلى الحقيقة كما تقدم ، وكما رأينا في هجاء حسان أنا سفيان بن الحارث . بل إن روح الإسلام لتتضح في هجاء الشعراء المسلمين ، حين يضطرون إلى الرد على من هجأهم من المشركين ، كما رأينا في هجاء كعب بن زهير ، وقصارى ما كان يضمنه الشاعر المسلم أهاجيه تسمير الكفار بالمثالب أو بالكفر ، على ملاحظته صاحب الأغاني في قوله : إن حسانا وكعبا كانا لا يمارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والآثر ، ويميراهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يميزهم بالكفر ، فكان في ذلك الزمان أشد النول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلخوا وفقهوا الإسلام كان أشد النول عليهم قول ابن رواحة (١) .

ولم يكن هجاء المشركين وقفا على هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فقد انبرى كثير من شعراء المسلمين يدافعون عن الرسول وصحبه ودعوته ، ويردون عنهم هجاء من يتعرض لهجائهم من شعراء المشركين ، فالتسع في ذلك الجو ميدان المناقضات .

وهكذا بدأ أثر الحضارة الإسلامية واضحا جليا في فن الهجاء ؛ وكان قصارى

(١) الأغاني - ج ٤ ص ١٣٨ .

الشاعر أن يصف مهجوه بما يمييه به من خلق ونعوت ينهر منها المسلم والذوق العربي
مما . كما نجد في قول كعب بن مالك الأنصاري الخزرجي يهجو أحبار بني النضير ،
ويذري بموقفهم المشيد من الرسول صلى الله عليه وسلم مع توفر الأدلة العلمية والدينية
لديهم على صدقه صلى الله عليه وسلم (١) :

لقد خزيت بمدرتها الجبور	كذلك الدهر دو صرف يدور
وذلك أنهم كفرو برب	عزيز أمره أمر كبير
وقد أوتوا معاً فهما وعلمنا	وحاهم من الله التذير
مقالوا : ما أتيت بأمر صدق	وأنت بمنكر مننا جدير
أرى الله النسي برأى صدق	وكان الله بحكم لا يجوز
فأيده وسلطه عليهم	وكان نصيره نعم النصير
فغودر منهم (كعب) صريحا	فدلت بمد مصرعه النصير
فما كره فأنزله بمنكر	و (محمود) أحوثه جسور
متلك بهو النضير بدار سوء	أبارهم بما اجترأوا البير
عداة أنام في الزحف رهوا	رسول الله وهو بهم بصير
فذاقوا غب أمرهم وبالاً	لكل ثلاثة منهم بصير

وشمر الهجاء في هذا المجال كثير ، يدور في الغالب حول هذا الاتجاه .

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٠٣

الاعتذار :

الاعتذار هو تنصل الإنسان مما نسب إليه ، واحتجاجه لنفسه . وهو من شمري وطيد الصلة بفق المدح والهجاء ، فالهجاء قد يكون من دواعي الاعتذار ، أما المدح فهو سقيمه وصوره القدي يشبهه في كثير من أبعاده ، غير أن المدح يبيع من عاطفة الشكر والرصا والأمل ، بينما الاعتذار تمتزج فيه عاطفة الخوف بعاطفة الشكر والرجاء .

وهو من الفنون التي نشأت في الحضرة ، وندر أن يجد شاعرا بدوها يعتذر . ولعل ذلك يرجع إلى أنفة العربي من أن يضع نفسه في موضع يضطر منه إلى الاعتذار ، حتى إنهم في أحاسيم كانوا يتحفظون ويلجئون إلى التعريض أو الإيماء والإيحاء - على ما رأينا - حتى لا يضطروا إلى الاعتذار والتأسف على ما سلف منهم .

ولما طأطأ العربي في بعض الحضرة رأسه تحت إغراء المنح والمطايا ، وجرى لاهة وراء الملوك والأمراء مقديما بين يديه تملقه ونمائه في صورة مدائح يشتري بها ما يجور به عليه من المال . . عندئذ هانت على العربي نفسه ، وضاعت قيمة الألفة بين ما ضا في غمار حياته الجديدة ، فلم يجد في الاعتذار ما كان يعجده البدوي في باديته .

وحرص على أن يفتن في الوصول إلى قلب سامعه طلبا لرضاء عنه ، وعفوه وغفر ما قدم من خطأ ، فاخترت بعض الشعراء لهم في الاعتذار أساليب أصبحت فيما بعد مداخل تناسب إليهم وترتبط بهم ، وذلك بأن يذهب في اعتذاره مذهبا لطيفا ويقصد مقصدا عجيبا ، يصل من خلاله إلى قلب المتذر إليه ليستلم منه ما انطوى عليه ويسح إعطائه ، ويستجلب رضاه ؛ وذلك لأنهم وجدوا أن إثبات المعتذر من الاحتجاج وإقامة الدليل والبرهان على نفي التهمة خطأ فاحش ، يريد النار اشتعالا . لا مع الملوك ، ودوى السلطان . وحق المعتذر العاقل أن يتلطف في حديثه ، فيقتسه - في أثناء ذلك - برهانه بمتزجا بالتضرع والاستنجد والمخول تحت هموم الملك ، ورجاء والأمل بمعاودة النظر في الكشف عن كذب الناقل ، ووشايه الوائهي ،

أن يلجئه ذلك إلى الاعتراف بما لم يجتنه خوف تكذيب سلطانه أو رئيسه إن ذلك مهلكة ، وإنما عليه أن يحيل الكذب على الناقل والحاسد (١) .

والاعتذار في الشعر العربي - على ذلك - ينشعب في اتجاهين :

أولهما : اتجاه الشعراء طالبي المطايا والمناسب في توجيه اعتذارهم إلى من أدرعهم بالحياة المترفة طي أن يكونوا في ركابهم من ملوك الحيرة والشام ، حرصا على مسكاته ، وتطلعا إلى عطية .

وثانيهما : اتجاه الشعراء المسلمين الذين سبوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين في شركهم إلى الاعتذار عما سلف منهم ؛ والتأسف على ما كان في جاهليتهم .

ولا ريب في أن اختلاف الدافع إلى الاعتذار، ينشأ عنه اختلاف المنهج والأسلوب .

وكان على رأس الاتجاه الأول عدى بن زيد العبادي ، وتلميذه في ذلك النابغة الذبياني ، وقد وحه الشاعران اعتذاراهما إلى الزنمان بن النذر على نحو ما ذكرنا في ترجمتهما ، وقد أتر عنهما في ذلك قصائد كثيرة طوال ، ذكرت نماذج منها في ترجمة كل منهما .

وكان على رأس الاتجاه الثاني كعب بن زهير في لاميته المشهورة ذاتي قوله :
مات سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إرها لم يفد مكبول

وهو فيها يكشف عن الفارق بين الاتجاهين ، فبينما يقدم أصحاب الاتجاه الأول اعتذارهم بين يدي آماليهم ، نرى كعبا يقدم اعتذاره بعد أن تحقق مأموله ، ونال عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمينه ، وإلى ذلك يشير في قوله :

لقد أقوم مقاما لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمع القليل
لظل يرعد إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله تمويل
حق وضمت يميني لا أأزعه في كف ذي تقات قبيلة القليل

(١) راجع العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٧٦ بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين .

يمتاز الفخر الحضري من الفخر البدوي بتميز المحامد والنعوت الحضريّة من المحامد والنعوت البدوية ، إذ الفخر لا يخرج عن تعداد الشاعر ما يشتمل عليه من ذلك ، وكل شاعر يتأثر بوسطه وبيئته في تقدير الصفات ، وتحديد الفضائل ، إذ كثير منها نسبي ، فليس ما يفخر به ابن البادية - بالضرورة - مثل ما يفخر به ابن الحاضرة ، ومن هذا للنطلق أقرر أن ما يفخر به ابن الحاضرة المادية لا يتفق بالضرورة - مع ما يفخر به ابن الحاضرة الإسلامية .

يتضح ذلك إذا نظرنا في شعر شاعر مثل طرفة بن العبد الذي استملكته الماديات فلم يشعر بسكيايه إلا بالإصاف بكل ما هو مادي وهو الفارس الذي لا يضارعه فارس ، الجواد ، السكير المربد ، المتلاف ، المكب طي ملذاته وتمعنه على الرغم من عشيرته ، وذلك في قوله :

عنت ، لم أكسل ولم أتبدل	إذا القوم قالوا من متى؟ حلت أنى
ولكنى متى يسترد القوم أرفد	ولست بحلال التسلاع عصابة
وإن نلتسنى في الحوانيت تصطد	فإن تبغى في حلقة القوم تلقى
إلى ذروة البيت الشريف المصد	وإن يلتقى الحى الجميع تلاقى
روح إلينا بين برد ومجسد	ندا ماى بيض كالنجوم وقينة
ويبعى وإفراقى طريفى ومتملد	وما زال ثمرابى الخور ولذنى
وأفردت أفراد البعير المعبد	إلى أن تحماتنى العشيرة كلها

ومن ذلك المورد قدم امرؤ للقيس فخره طى نحو ما رأينا ، وهو دائماً الهى الأثير عند الفتيات ، الذى فرغ من كل ما يشغل العظيم من عظام الأمور ليهتم بالتأفه من ألوان الحياة ، فليس يعنيه إلا تسكير فى رحلة صيد يتطلى فيها فرسه القوى ، ومن حوله ثلة من الشبان الفارغين ومهم الجوارى لينتهوا إلى حفل تنحرف به القبايح ، وتمد الوائد .

فإذا قلبنا النظر في شعر الحضرة الإسلامي وجدنا شعراء يفخرون بقيم اصطفاها
الإسلام من القيم العربية لتصبح قيما إسلامية ، يحرص عليها المسلم ، ويمتد بالتزامه بها ،
واشتاله عليها .

وكان أهم ما يهتم به المسلمون في العصر الأول لمجيء الإسلام من هذه القيم
الإخلاص للدعوة ، والوفاء لمهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإقدام على الموت في
معارك الجهاد طلبا للشهادة ، والحلوس من الشرك وتوابعه ، والوقوف في وجه المشركين
دفاعا عن الرسول والدعوة . . . الخ .

من ثم كان الفخر في هذا الوسط الإسلامي مزيجا من الفخر والحماسة الإسلامية،
كما نجد في شعر حسان حين وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على صرعى قريش
يناديهم : يا أهل القلب بنس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتوني وصدقني الناس ،
وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاثلتموني ونصرني الناس ثم قال: هل وجدتم ما وعد
ربكم حقا؟ فقال حسان بأبيته التي تصور فيها هذا المشهد وفيها يقول :

منادرنا أبا جهل صريعا	وعتية قد تركنا بالجيوب
وشيبة قد تركنا في رجال	ذوى حسب إذا سبوا حسب
يناديهم رسول الله لما	قدوناهم كباكب في القلب
ألم تجدوا كلامي كان حقا	وأمر الله يأخذ بالقلوب؟
فما نطفوا ، ولو نطقوا لقالوا	صدقت وكنت ذا رأى مصيب

وفي غمرة الفرح بنصر الله يوم بدر ينطلق لسان حسان مصورا بطولة القائد
المظالم ومن خلقه المسلمون يستمعون بحبل الله ، ممددا ما يفخر به كل مسلم في مثل
هذا الموقف ، فيقول .

مستمعري خلق المادى يقدمهم	جلد النعيذة ماض غير رعديد
أعنى رسول إله الخلق فضله	على السبرية بالتقوى وبالجود
مستمعين بحبل عير منجذم	مستحكمن من حبال الله ممدود
فينا الرسول وفيما الحق نقيبته	حتى المات ونصر غير محدود

فأى معامد ونموت يعتز بها المسلم فوق هذه المعامد والنعوت ؟
إنها كما ترى قيم الإسلام التي دعا إليها القرآن الكريم ، وتخلق بها الرسول صلى
الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله تعالى عليهم .

وصفة القول : إننا هنا أمام نخر حماسي يدور حول انتصار الجماعة ؛ فهو نخر
تقاب عليه الروح الجماعية من خلال الأخلاق والقيم والمبادئ الإسلامية ، ولا ريب
في أن الفارق شاسع بين هذا الفخر ونخر أمثال طرفة وامرء القيس ممن نشأ فد
احضان الحضارة الحسية بمبادئها وقيمتها المادية .

الغزل :

من المنون للشعرية التي يلتقي فيها البدوي مع الحضري ، لكنهما لا يلتقيان إلا على الاسم العام ، أما للمهجع وللمأني فهما مختلفان تماما ، فإذا كان الشاعر البدوي يرى في المرأة حرما لا يذنبك ، وإنما يطفأ حوله في خشوع ، فإن الشاعر الحضري كان يرى فيها متعة الحواس ، ومنهل المرائز والشهوات فهو حين يتعرض لها إنما يتعرض لمباح ، يتمتع نفسه بالنظر إلى ما يخفي من جسمه ، ويتمتع غيره بتعريتها مما يسترها ، على نحو ما رأينا في شعر امرئ القيس الذي يقول فيه مصورا إحدى مغامراته النسائية التي يفخر بها ، ويرى أن ذلك قصارى ما يصبو إليه رجل مثله :

جئت وقد نضت لنوم ثيابها	لدى الستر إلا أبسة المتفضل (١)
مهفهفة بيضاء غير مفاضة	ترائبها مصقولة كالسجنجول (٢)
أصد وتبدي عن أذيل وتتنقى	بناظرة من وحش وجرة مطفل (٣)
وجيد كجيد الرُّم ليس فاحش	إذا هي نصته ولا بمطل (٤)
وورع يرين المسنن أسود فاحم	أثيث كقنو النخلة المتمشكل (٥)

- (١) نضت : حامت ، والمتفضل : من يلبس ثوبا واحدا إذا أراد الخفة في العمل .
 (٢) المهفهفة : لطيفة المحضر صامرة البطن ، والمفاضة : المرأة عظيمة البطن مسترحية اللحم ، والترائب : جمع تريبة . موضع القلادة ، والصقل : إزالة الصدأ والندس والسجنجول : المرأة .
 (٣) أصد : تعرض ، وتبدي : تطهر ، وخذ أسيل . فيه امتداد وطول ، ووجره موضع ، ومطل التي لها طفل
 (٤) الرُّم : الظئ حالص للبياض ، نصته : رفعته ، والفاحش : ما حاور القدر المحمود من كل شيء ، والممطل : الخالي من الخلي .
 (٥) الفرع : الشعر التام ، والمتمنن . الظهر ، الأثيث : الكثير ، والقنو : المدق ، والمتمشكل : المتدلى .

وتضحى فتبت المسك فوق ثيابها نؤوم الضحى لم تلتطق عن تفضل (١)
وعلى هذا النحو يسير المنخل اليشكري في تصوير واحدة من مغامراته مع المتجردة
زوج النمان ، وفيها يقول (٢) :

ولقد دخلت على الفتى	ة الحدر في اليوم المطير
الكعاب الحسناء تر	قل في الدمقس وفي الحرير
بدنعتها فتدامت	مشى القطاة إلى الفدير
ولثمتها فتفتت	كتنفس الظى البير (٣)
فدنت وقالت يا منى	خل ما بجسك من حرورا
ماشف جسمى غـير حـبـ	ك ، فاهدئى عى وسيرى

ولم تطف حسية الغزل في الشعر الحضري عند حد هذه القصص التي تدور حول
مغامرات الشاعر مع المرأة ، بل إنك لتجد الشاعر الحضري في ذلك العصر لانغم عينه
من المرأة إلا على محاسنها للحسية ، وأوصاف جسمها المادية ، مما يكشف عن انهماك في
المادية انهما كما يشبه من قريب تهالك بعض الشعراء المحدثين في البيئات الهادية . من
ذلك ما قاله الأعشى متنزلا في امرأة شده جمالها :

فغراء فرعاء مصقول عوارضها	تمشى الهويونا كما يمشى الوجى الوجى (٤)
كان مشيتها من بيت جاريتها	مر السحابة ، لا ريث ولا عجل
تسمع للعلى وسواسا إذا انصرفت	كما استمان بريح عشرق زجل (٥)
يكاد يصرعها - لولا تشدها -	إذا تقوم إلى جاراتها الكسل (٦)

(١) البيت كله كناية عن الترف والميم .

(٢) الأصمعيات رقم ١٤

(٣) البير من البهر : وهو ما يمتري الإنسان والحيوان عند السمي الشديد من

قتابح الأنفاس .

(٤) الغراء : البيضاء واسمة الجبين ، والفراء : طوبلة الفرع من شعر وعوارص ،

والوجى : الندى رق حاره من كثرة المشى .

(٥) الوسواس : صوت العلى المشرق - بكسر العين - شجيرة مقدار ذراع لها

أكلام ميبها حب صفار إذا جفت فمرت بها الريح تحرك الحب نسمع له حشخشة على العصى ،

والزجل : ذو الصوت المطرب . (٦) البيت كله كناية عن السمن والترف .

- إذا تقوم بوضع المسك بصورة والزئبق الورد من أردانها شمل (١)
ماروضة من رياض الحزن معشية خضراء جاد عليها مسبل هطل (٢)
يوما بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل (٣)

والنزل الحضري كما ترى في الغالب يدور حول الماديات ، سواء في علاقة الرجل بالمرأة ، أو في محاسنها الى تأسره ، ومن ثم لا تكاد نجد هذا النزل خارج الحضرة الحسية ، أما المحضر الإسلامى فلم يكن أمام شعرائه مجال لتناول المرأة بأى صورة من صور تناول اللهم إلا النزل التقليدى في مطالع القصائد ؛ إذ كان ما يشغلهم من أمور الدعوة أعلأ صوتا من ذلك ، أضف إلى هذا أن استجابة الشعراء لقيم الإسلام تمنعهم من الخوض في ذلك ، فلم يكن الكثير منهم قد اتضح أمامه بعد ما رفضه الإسلام وما يقبله من ذلك .

-
- (١) ضاع المسك : انتشر ، وأصورة جمع صوار : الرائحة الطيبة ، والزئبق : دهن الياسمين ، والأردان جمع ردن - بضم الراء - الكم .
(٢) الحزن : الأرض الغليظة ، والمراد به هنا موضع من بلاد اليمامة فيه رياض وقيمان .
(٣) الأصل - بضم الصاد - جمع أصيل ، الوقت من العصر إلى الظلام .

الدينيات والمواعظ:

الحديث عن الدين وما يتصل به من الآسكار والمقائد ، والدعوة إليه ، والحث على التصالح بقيمه ، ولفت القلوب والمقول إلى أسرار الحياة ، ونظام الكون ، والمصير المحتوم . - إلى غير ذلك من المواعظ من شعرى جد على الشعر الحضري ؛ وقد تأثر الشعراء في العواضر المختلفة بالفكر الدينى - على اختلاف مصادرهم - المسيحي واليهودى ، والوثنى ، ثم الإسلامى ؛ واعتنق شعراء العرب بعض تلك الآسكار ، وأخلصوا أنفسهم للدعوة إليها من حلال شعرهم .

وكان فى مقدمة هؤلاء الشعراء شاعر الحيرة عدى بن زيد العبادى ، الذى أحاص أكثر شعره لتلك الفن ، وتناوله من مختلف اتجاهاته ، فقص من أحداث الأمم الفائرة وحكاياتهم وما وقع لهم ما عثل أمام الناظر ، فيجرد الإنسان من أدان الحياة وشوائب المادة ، ويحميه من الاغترار بها والانخداع بظواهرها . وبما قدمنا من نماذج شعره ما يقرر ذلك

وسار قربا من مسار عدى شاعر الطائف أمية بن أبى الصلت الذى نسب إليه شعر يتحدث فيه عن إله العالمين ، خالق السماوات والأرض ، ومشهد الكون ، مستدلا على وجود الله بنظام هذا الكون ويتحدث فيه - كذلك - عن الموت والقضاء ، والبعث والشور ، والمذاب والثواب نحو قوله الذى نسب إليه على شك فى صحة تلك النسبة :

إله العالمين وكل أرض	ورب الراسيات من الجبال
بهاها وابنى سبعا شدادا	بلا عمد يرين ولا رحال
وسواها وزينها بسور	من الشمس المضيئة والهلل
ومن شهب تلالاً فى دحاها	مراميهما أشد من المصال
وشق الأرض فانبجست عيونا	وأنهارا من العذب الرلال
وكل معمّر لا يبد يوما	وذى دنيا يصير إلى زوال

ورجع الشك في نسبة هذا الشعر لأمية إلى معانيه بالمعاني الإسلامية ، وليس هذا بالسبب الذي يشكك في نسبة الشعر إلى أمية ؛ خصوصا إذا ذكرنا أنه ممن كان يسمى للنبوة ويمد نفسه لادعائها

وقد أوضحنا - في أثناء حديثنا عن عدى بن زيد - مكان شعر أمية الديني من شعر عدى .

وأيا ما كان الأمر فإن الشعر الديني في هذه المواطن لم يخرج عن الأمور العامة ، والقضايا البسيطة التي اجتمعت عليها الديانات السماوية كلها .

ولما كان الإسلام لم يتوقف الشراء المسلمون عن هذا الحد ، بل تجاوزوه إلى عرض قيمه الخاصة ، والحث على مناصرتة . بينما حرص شعراء المشركين على محاربتة . والصد عنه .

ولعل أوضح مثل لذلك ما نجد من شعر كعب بن زهير :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبى	سمى الفتى وهو محبوب له القدر
يسمى الفتى لأمر ليس يدركها	والفلس واحدة والهلم منتشر
والمرء ما عاش ممدود له أمل	لا تنتهى العين حتى ينتهى الأثر

الثناء :

فن الرثاء من الفنون المشتركة التي حفل بها شعر الحاضرة كما حفل بها شعر البادية؛ وإن كان في البادية أكثر شيوعاً، وأشد انفعالا وتفجعا، وذلك لما يواجهه شاعر الحاضرة من مبادئ وقيم تذكره دائماً بالمصير المحتوم الذي يتناول كل كائن مخلوق، بحيث تخف حدة الالتباس والتفجع لزوال المفاجأة في زوال اللوت .

ومن ثم يلاحظ المدارس أن شعر الرثاء في الحواضر العربية غلب عليه العزاء والتسلى على اختلاف اتجاهات الشاعر فيه، من تذكّر لما نزل بالملوك النابرين، وتأمل في سنن الكون ونظام الحياة؛ وهو فرصة للنظر المبأى فيما حول الشاعر، وصوغ ما انطبع على صفحة مسكره وعواطفه من إنعكاس لهذا النظر، يتمثل دعوة الآخرين إلى تقبل ما يأتي به القدر بنفس راضية على الرغم من مرارته وألمه .

بيد أن الشاعر لم يكن يقف عند حد التأسى والتعزية، بل كان يضطر إلى سرد طرف من سمات الميت وحصائصه الخلقية، وكأنه بذلك يعال للتعزى بفقد هذا الشخص من دون الآخرين الذين يموتون في كل يوم ولا ينالون من اهتمام الشاعر ما يجمله يريهم ويتعزى عن فقدم؛ ولذلك دار شعر الرثاء حول الموتى ذوي المكانة في قوس معاشيهم .

ولعل ذلك يتضح من رثاء فضالة بن كلدة الذي قال فيه أوس بن حجر، طالبا من نفسه التجميل في الجزع لوقوع المذود، دون أن يفرق في ذلك بين شخص وآخر، فقد أودى بمن ضم كريم الأخلاق من سماحة ونجدة وحزم، وعقل، كما أودى بمن تجرد عن هذه الصفات جميعا :

أيتها النفس أجملى جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمع السماحة والسج دة والحزم والقوى جمعا

الألمسى القدى يظن بك الظم - وكان قد رأى وقد سمعا (١)
الخفاف المتناف للسرزا لم - يتمتع بضعف ولم يمت طبعاً (٢)
أودى وهل تنفع الإشاحة من - شيء لمن قد يحاول البدعا (٣)

ويتضح من رثاء امرىء القيس أباه ، وهيه تأملات حزبية ، ونظرات باكية إلى مايجرى في السكون ، وذلك في قوله :

أرانا موضعين لأمر غيب - ونسحر بالطعام وبالشراب (٤)
عصافير وذبان ودود - وأجراً من مجلحة الدئاب (٥)
وكل مكارم الأخلاق صارت - إليه همق وبه اكتساب
بعض اللوم عاذق وإلى - مستكفي التجارب وانتساب
إلى عرق الثرى وشجت عروقي - وهذا الموت إسابق شبابي (٦)
وتنسى سوف يسلبها وجرمي - ويلحقني وشيكا بالتراب (٧)

ولما كان الإسلام ، تأثر الشعراء بتعاليمه السامية الواضحة التي تأتي على الشاعر للمبالغة في التفتيح والتعجب ، واستجابوا لقيمته التي تفرض على الجميع روح الجماعة ، فلم يبكوا ميتاً لداته ، وإنما يبكون فيه تأثر الأمة بفقده .

وصادف ذلك ما كان بين المسلمين والمشركين من صراع بانغ درجة عالية من التحدى

(١) الألمسى : حاد الذكاء ، يريد أنه يمدس الأمور ولا يحطىء ، وأنه بطن صادق الظن جيد الفراسة .

(٢) المرزا : الذى تصيبه الرزايا فى ماله لسكرمه ، يتمتع : يصاب ، والطبع - بكسر للباء - اللثيم .

(٣) أودى : مات ، الإشاحة : الجذ فى طلب الشيء ، البدع : الأمور الغريبة .

(٤) موضعين - بكسر الضاد والميم - لأمر غيب : يريد به الموت ، وسحر :

نلهى ومحدع .

(٥) الدئاب المجلحة : المصممة على الشيء التي لا ترجع عما تريد ، يعنى : تخن فى الضعف

مثل هذه المحلوقات ، وهى ركوب الإنام أجراً ، إن الدئاب التي تصمم على ما تريد .

(٦) وشجت عروقي : اشتبكت وانصلت ، يقول : إن أصله فى حسبه ثابت راسخ .

(٧) : الجرم البدن ، والشيك : السريع .

فألْبس الرثاء ثوب الفخر ، ومزج الفخر بالرثاء ، في بكاء من استشهد من المسلمين ،
ومن قتل من المشركين في الحروب التي دارت بين الطرفين في مطلع الإسلام . وكان
محور هذا الرثاء - كما فرسه الموقف - تمداد المناقب ، ووصف المثوى الأخير وما ينتظر
الشهيد من جزاء .

بيد أننا نلاحظ في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم حزينا من التفجع والتوجع
لمعده ، إذا تورن برثاء غيره ، لسكنا إذا وضعنا في الاعتبار مكان الرسول من نفس
المسلم لم نجد في ذلك زيادة ولا مبالغة ، وإنما هو التصوير الصادق لما يحس به الشاعر
من فداحة المصيبة ؛ فهي إذن أمور سنية ، لا ندرك أمادها إلا بالظن المدقق الفاحص .
ومن أبرر المرأى الجماعية ، وبث الأحزان للمصائب العامة ما قاله أبو أسامة معاوية
ابن رهير حليب بن محزوم وهو مشرك حين مر بهيرة بن أبي وهب فرأى إعياءه من
الحرب وبما أصاب قومه من الهزيمة في غروة بدر ، مصورا أساه وحزنه لما ألم بهم ،
فاحرا بنفسه وقبيلته وشهوده الحرب :

ولما أن رأيت القوم حفوا	وقد زالت نمامتهم لفر
وأن تركت سراة القوم صرعى	كأن خيارهم أذباح عتر
وكانت جمه وامت حماما	ولقينا المنيايا يوم بدر
وأبلغ إن بلغت المرء عنا	(هيرة) وهو ذو علم وقدر
بأني إن دعيت إلى أفيد	كررت ولم يضق بالكردى

وهذا الأسود بن المطالب - وكان قد أصيب له في بدر ثلاثة من ولده زمعة وعقيل
والخارث بن زمعة - يسمع نائحة من الليل فيسأل غلامه عمن تبكى ، فأخبره بأنها تبكى
بميرا لها ضل ، فانفجر ساحتها غاضبا نائحا يقول :

أتبكي أن يضل لها بعير	ويمعها من السوم السهود
ولا تبكي على بكر ولكن	على بدر تقاصرت الجودود
وبكى إن بكيت على عقيل	وبكى حارثا أسد الأسود
وبكيتهم ولا تسمى حميما	وما لأبي حكيمة من بديد
ألا قد ساد بدمهم رجال	ولولا يوم بدر لم يسودوا

بينما يقف عند الله بن الربيع السهمي يبكي شهداء بدر ، فيسمى أبطالهم ، ويشيد
بتواقفهم وحسن بلائهم ، وإقدامهم على الموت في غير خوف ولا تردد :

ماذا على بدر وماذا حـوله من فتية بيض الوجوه كرام
تركوا نبيها خلفهم ومنبها وابن ربيعة خير خصم فقام
والحارث الفياض يبرق وجهه كالبدر جلى ليلة الإطلام

* * *

وإذا بكى باك فأعود شجوه فعلى الرئيس المالحد ابن هشام
حيا الإله أبا الوليد ورهطه رب الأنام وخصمهم بسلام

وهو رثاء - كما ترى - يمازجه الفخر والمدح ، فهما عنصران يكادان لا يفارقان
المرأى في الشعر الإسلامي ، إذ المرأى في هذا الوسط البيئي منبثقة من الصراع القائم
بين معسكري الإسلام والشرك .

لوصف :

يكاد شعراء الحاضرة لا يقلون عن شعراء البادية اهتماما بفن الوصف - على ما سبق الإشارة إليه - ولا يخرجون طي منهجهم فيه ، من تنوع في معارضه ، حيث وصفوا الذاتيات والموضوعيات ، ووصفوا المدركات الوجدانية والمدركات العقلية والمدركات الخيالية ، كما وصفوا الماديات والمدركات الحسية .

١ - وكان من أهم ما استأثر بفن الوصف لدى شعراء الحاضرة المادية مجالس الخمر ، وما يدور فيها من رقص وطرب ، حيث أفردوا القصائد لذلك ، وقلبوا نظرم في مشاهدتها ، فوقعوا منها على لوحات كثيرة ، متمددة الأحداث ، وتفمنوا في تلوين كل لوحة بما يناسبها . وكان من القدمين في ذلك عدى بن زيد الذي تناول الخمر بالوصف ، فقدمها في صورة رائمة من حلال أوانها وكؤسها - على ما سبق الإشارة إليه - وشاركه في هذا الأعمى الذي برع وأجاد فتمكن من استحضار مجالسها مشخصة مجسمة بما يلتزمون فيها من عادات تشبه الطقوس ، وما يتزيا به السقاة والغنون من أزياء ، وما يكون عليه الإماء من خلاعة وتثن . يوضح ذلك ما أراه في مملقته من قوله:

وقد عدوت إلى الحانوت يتبعنى	شاو مثل شاول شلشل شول(١)
في متية كسيوف الحمد قد علموا	أن ليس يدبع عن ذى الحيلة الحيل
نازعتهم قضب الريحان متكثا	وقهرة مزة راووقها حصل(٢)
لا يستيقون منها وهي راهنة	إلا بهات، وإن علوا وإن نهلوا(٣)

(١) عدوت : ذهبت ، شاو : يشوى اللحم ، ومعنى مثل - بكسر ففتح - شاول ، شلشل - بضم الشينين - شول : أنه حفيف الحركة شيط ،
 (٢) قضب - بضم القاف والضاد - جمع قضيب: النمن والقهوة : الخمر، والراووق : للوعاء الذى تروق به الخمر ، حصل : ندى ، كى بذلك عن اتصال شربهم .
 (٣) علوا : من العال - بفتح العين - الشرب بعد الشرب تباعا ، ونهلوا من النهل : أول الشرب ، إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .

يسمى بها ذوزحاجات له نطف مقاص أسفل للسربال ممتل (١)
ومستجيب تخال الصنح يسمه إذا ترجع فيه للقينة الاضل (٢)
والساحبات ذبول الحز آونة والرائلات على أعجازها المعجل (٣)
من كل ذلك يوم قد لهوت به وفي التجارب طول اللهو والغزل

وهو كما ترى - وصف لاحد أيام نوه ، غدا فيه إلى الحمار يصحبه تية كسيوف
الهند - رونقا ومضاء ويتيمهم رفيق خفيف الحركة نشيط ؛ فتجاذبوا في متكسهم
أغصان الريحان ، وكثوس الحجر التي لم يقطع دورانها عليهم ، دون أن يصيبهم ملل ،
فشرّبوا وسكروا ، وإذا أهفوا طلبوا المزيد من الساقى وكان غلاما حدثا يماق في أذنه
قرطا ، ويلبس قميصا قصيرا . هذا إلى ذلك العود الذى تنسق ألحانه مع صنح كانت
تعزف عليها في أثناء عانها قبة في ثوب واحد رقيق شفاف ، ومن وراءها الفتيات
الحسنات ترفل في ثياب الحر السابغة .

ولا يقف عند حد وصف الحمر وأوانها ومحاسنها ، بل إنه ليصف فعلها بمقول
شأريها ، وأثرها في قلوبهم ، وصفا يبلغ من لدقة فيا مبلغا يعان عن مدى شفته بالحمر
وافتنانه بها ، مثل قوله في أسلوب قصصى رائع :

أبأنى يؤامرنى فى الشمو ل ليلافات له : غاها (٤)
أرحسا نبا كر جيد الصبو ح قبل النفوس وحسادها (٥)

(١) ذوزحاجات : يريد الصاقى ، نطف جمع نطفة : القرط به أوأوة صافية، ويعنى
بمقاص أسفل السربال أنه قصير القميص ، والممتل : المطبوع على العمل والنشاط .

(٢) المستجيب : العود ذوز الأوتار ، سمي بذلك لأنه يجيب صاحبه كايجيب الصنح ،
من آلات الطرب . وكسى بالشرط الأول عن انساق ألحانها . والقينة : الأمة المعية ،
والفضل - بضم الفاء والضاد - اللاسة ثوبا واحدا .

(٣) المعجل - بكسر ففتح - جمع عجلة - بكسر فسكون - وهى قربة الماء .

(٤) يؤامرنى : يشاورنى ، الشمول : الحمر ، غاها : انطلق بنا إليها .

(٥) جد - بكسر الحيم - نشاط ، والصبوح : حمرة الصباح .

(١٩ - الأدب العربى)

وقمنا ولما يصح ديكما	إلى جونة عند حدادها(١)
تنخلها من بكار القطاف	أزرق آمن إكسادها(٢)
ذات له : هذه هاتها	بأدماء في حبل مقتادها(٣)
فقال : تريدونى تسمية	وماذاك عدلا لأندادها(٤)
فقلت لنصفنا : أعطه	فلما رأى حضر شهادها(٥)
أضاء مظاته بالسرا	ج والليل عامر جدادها(٦)
دراهمنا كلها جيد	فلا تجبنا بقتادها(٧)
فقام وصب لنا قهوة	تسكننا بمد إرعادها(٨)
كيتا تكشف عن حمرة	إذا صرحت بمد إزبادها(٩)
كحوصلة الرأل في جريها	إذا جليت بمد إتمادها(١٠)
وجال علينا بإبريقه	عضب كف بفرصادها(١١)

-
- (١) جونة - بفتح فسكون - جرة وحدادها : خمارها .
(٢) تنخلها : تخيرها ، وبكار القطاف : أول ما يقطف ، والأزرق ، تصغير أزرق ، يعنى به أزرق المينين ، آمن إكسادها - بكسر الميم - لا يحاف كسادها .
(٣) الأدماء : الناقة البيضاء ، ومقتاد الناقة : الفلام الذى يرهاها .
(٤) الأنداد : الأمثال .
(٥) النصف - بكسر الميم وفتح الصاد - الخادم ، والحضر - بفتح الحاء وسكون الضاد - الحضور ، ويقصد بالشهادها : الدراهم .
(٦) المظلة : الحانوت أو الحباء ، والجداد - بضم الجيم وتشديد الدال - الأهداب والأستار .
(٧) اقتناده : العد والنقد وتبين الزائف من الصحيح .
(٨) تسكننا : سكن إليها .
(٩) الكيت : الحمراء ، صرحت : ذهب زبدها .
(١٠) الرأل - بفتح الراء وسكون الهمزة - مرخ النمام ، شبه الحجر بموصلته في الحمرة . حليت : أخرجت ، من جلوة العروس ، والقاعدة : إذا قدمت عن الطلب .
(١١) الفرصاد - بكسر الفاء - التوت الأحمر .

فبانت ركاب بأكورها لهينا وخيل بألبادها(١)
ورحنا تنمنا نشوة نجوربنا بعد إقصادها(٢)

٢ - واستأثر كذلك بفن الوصف - لديهم - مشاهد الطبيعة وتقلبها، ومظاهر
السكون ودقائقه؛ فرأينا منهم من يستأثر به مشهد الأمطار والسيول التي تسلم بالديار
فيقيمها من مبتدئها إلى منتهاها، كما صنع امرؤ القيس في مملته؛ إذ خص جزءا كبيرا
منها بوصف وميض البرق ولما نه المتداخل في السحاب المترام، وكيف جلس هو
وأصحابه بين حامر وإكام يتأملون سح الماء، وهطول الأمطار، حتى تحولت في الأرض
سبيولا تجرف كل ما يصادها من أشجار، فلم تترك بها بخلا ولا بيتا، وما زالت المياه
تترايد، والسيول تشتد حتى عات آجام السباع ففرقت، وأصبحت رءوسها فوق سطح
الماء كأنها جدور البصل البري؛ وذلك قوله:

أحار ترى برقا كأن وميضه كلعع اليدين في حبي مكال(٣)
يضىء ساه أو مصابين راهب أهان السليط في الغبال المنفل(٤)
قدمت له وصحبتى يسد حامر وبين إكام بعد ما متأمل(٥)

إلى آخر الصورة التي ذكرت أبياتها كاملة في ترجمة الشاعر، وواضح فيها أنه
- على منهجه البياني - يعتمد في توصيحه مقصده، وإبرار الصورة على التشبيه باختلاف
أنواعه وأدواته.

(١) الأكوار - جمع كور - الرحال، والألباد - جمع لبد - قطعة الصوف
توضع تحت السرج.

(٢) الإقصاد: القصد والاعتدال.

(٣) حار: ترخيم حارث، وميض البرق: لهمانه، والحى من السحاب: المترام
ومثله المسكال.

(٤) السليط: الزيت، والغبال: المنفل، والمنصرد بقوله: أهان السليط؛
أكثر منه.

(٥) حامر وإكام: موضعان، بعد ما متأمل: تأملته من مكان بعيد.

ولم تكن هذه الأبيات وحدها هي التي نسبت لامرئ القيس في وصف له ومشاهد الطبيعة ، فقد نسب إليه مقطوعة أخرى في الغرض ذاته - وإن كان أبوعمرو ابن الملاء ينسبها لقي الرمة - وفي هذه المقطوعة يعرض الشاعر فيصور مطرا قر الشبه بالظن السابق ؛ فالمطر ينهر حتى يعم الأرض ، ويقلع فتبدو الأوتاد من الأبر وأسكنه يعود أكثر مما كان تتوارى عن الأنظار ، وتظل متوالية متدفة حتى تنف الأشجار ولا يبدو منها إلا أعاليها ، تتراءى كأنها رؤوس ميممة قطعت وبها عماء ؛ وما يزال على هذا الانصباب والتدفق فترة ، تستدر السحب ربح الصبا الشمالية فيس المطر في المطول ، وتقابلها ربح الجيوب فتعجز السحب بالمطر كذلك ، وتسيل ا حتى تضيق بأمواجه الأرض المعروفة باسم خيم وجفاف ويسر :

ديعة هطلاء فيها وطف	طبق الأرض تحرى وتدر (١)
تخرج الود إذا ما أشجذت	وتواريه إذا ما اشتكر (٢)
وترى الضب خفيها ماها	ثانيا برثنه ما ينفمر (٣)
وزرى الشجراء في ريقه	كرءوس قطعت فيها الحمر (٤)
ساعة ثم انتحاهها وابل	ساقط الأكتاف واه منهمر (٥)

(١) الديعة : المطر الدائم، وهطلاء : كثيرة المطل، والوظف : الدنومن الأ طبق الأرض - بالباء المنقوطة - تطبقها وتممها الكثرة مطرها ، تحرى : تمه الأمكنة وثبتت فيها ، وتدر : يكثر ماؤها وترسل درها .

(٢) الود - بفتح الواو - الود ، وأشجذت : أقلعت وسكنت ، وتشت تحتفل ويكثر مطرها .

(٣) خفيها ماها : يريد مسرعا في عدوه ، وبرثن الضب : يقابل الإصبع من الأ وما ينفمر : لا يصيبه المطر والتراب وذلك لحفته في عدوه .

(٤) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير، وريق المطر : أوله ، ينفى أز ينهر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها فتبدو كأنها رؤوس قطعت وفيها الحمر وا

(٥) انتحاهها : قصدها ، الوابل : المطر الغزير ، والساقط الأكتاف : الدا نواحي الأرض . واه . متخرق ، المنهمر : المنسكب .

راح تمريه الصبائم اتحى فيه شؤبوب جنوب منفجر (١)
نيج حق ضاق عن آذيه عرض خيم جفاف فيسر (٢)
قد غدا يحملى فى أفته لاحق الإطلين محبوك ممر (٣)

* * *

٣ — كما احتفل شعراء الحاضرة بإيراد إحدى وسائلهم الحيوية بالوصف ؛ من
حيوان ، وآلات حرب ، ونحو ذلك . فهذا أبو دؤاد الإبدي يصف فرسه فى قصيدة
من روائع شعره تبلغ نحو ثمانية وعشرين بيتا خصها كلها فى وصف الحصان ،
جاء فيها :

وقد أعدو بطرف هيب كل ذى ميمة سكب (٤)
أسيل سلجم المقبل لاشخت ولا جأب (٥)
مسح لايوارى المير منه عصر اللهب (٦)

(١) راح : عاد بالمطر فى آخر النهار . تمريه - بفتح التاء - تحركة وتديره ،
والشؤبوب : دومة المطر ، والجنوب : ريح . منفجر : سائل .
(٢) نيج : سال ، والآذى : الموج ، وحيم - بفتح الحاء وسكون الياء - وجفاف -
بضم الجيم - ويسر - بضم الياء والسين : أما كن .
(٣) يحماى فى أفته : يريد فى أنف المطر أى فى أوله ، ولاحق الإطلين : فرس
ضامر الكشحين ، المحبوك : الموثق الحلق ، ومثله المر - بضم ففتح - من الحمل المر
وهو الحكم القتل .
(٤) الطرف - بكسر الطاء ، الفرس الكريم ، والهيبكل : الطويل فى ضخامة ،
ذوميمة : ذو جرى سائل ، ومثله السكب .
(٥) أسيل الحد : مستو ، سلجم : طويل ، المقبل . يعنى حين تراه مقبلا ، والشخت
المقيق ، والجأب : الغليظ .
(٦) المسح : الذى يصب فى حريه ، والمصر - بفتح الميم والصاد - الملجأ ،
واللهب : شق فى الجبل ، يعنى أن الحصان لشدة اندفاعه فى الجرى لا يتوارى عنه المير
وإن التجأ إلى شق فى الجبل .

له ساقا ظليم خا	ضرب فوجيء بالرعب (١)
ومتنان خظانان	كزحلوف من الهضب (٢)
يمز العنق الأجر	د في مستأمن الشعب (٣)
ترى فاه إذا أقبل	مثل الساق الجذب (٤)
نبيل سلجم اللجبين	صافي اللون كالقالب (٥)
حديد الطرف والمنسك	سب والعرقوب واللقاب (٦)
جواد الشد والإحضا	ر والتقريب والمقب (٧)

وهذا أوس بن حجر في وصف القوس ، وقد سار فيه على منحج الاستقصاء والتجميع فبدأ بالقوس منذ كان غصنا في شجرة بعيدة المنال ؛ إيعاء إلى ندرة هذا القوس ، فمخ أحسن الآقواس الممددة للحرب ، صنمه خير ، حين أبصر شجرته جشم نفسه العناء حتى تمكن من الحصول على هذا النصب ، وقام بصقله وإعداده ، فأخرجه وسطا بين الطويل والقصر ، ملء الكف ، حين يستعمل يسمع لصوته رنين ، فإذا شد النازع السهم عاد إلى القبض ، ثم ابتمد عنها لقوة دنمها وصلابتها :

ومبضوعة من رأس فرع شظية	بطود تراه بالسحاب مجللا (٨)
على ظهر صفوان كأن متونه	علمن بدهن يزلق المنسلا
يطيف بها راع يجشم نفسه	ليكلأ فيها طرفه متأملا

- (١) الظليم : ذكر النعام ، والحاضب : الذي رعى الربيع فحضبت قوائمه ، وساقا الظليم قصيرتان .
- (٢) الخظاة : المسكتزة ، والزحلوف : المكان الزلق .
- (٣) الأجر : قصير الشعر ، والشعب : الموصل المركب في الحارك وهو موصل العنق مع الكاهل ، يقول : قد ركب في أصل متين ، وإذا سار هز عنقه .
- (٤) الساق - بفتح السين واللام - الأرض المتجردة من النبات .
- (٥) القالب - بضم القاف وسكون اللام - الشوار يكون نظما واحدا .
- (٦) المنسك : مجتمع رأس العضد والكف .
- (٧) كل ما ذكر في البيت مضافا إلى (جواد) أنواع من الجرى .
- (٨) المضبوعة : المقطوعة ، والشظية : الفتحة من الشيء ، والطود : الجبل .

على خير ما أبصرتها من بضاعة
فويق جبيل شاخ الرأس لم تكن
فأبصر الهابا من الطود دونه
فأشرف فيها نفسه وهو مصمم
وقد أكلت أظفاره الصخر كلا
فما زال حتى نالهسا وهو مشفق
أمر عليها ذات حصد غرابها
على خذيه من براية عودها
حردها صفراء ؛ لا الطول عابها
كتوم طلاع الكف لادون مائها
إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها
وإن شد فيها للزرع أدبر سهمها

لمستمس بيما بهما أو تبكلا (١)
لنبلسه حتى تكلا وتعملا
يرى بين رأسي كل نيقين مهبلا
والسقى بأسباب له وتوكلا (٢)
تميسا عليه طول مرقى توصلا
على موطن لو زل عنه تفضلا
رقيق بأخذ المداوس صيقلا (٣)
شبيه سما البهي إذا ما تفتلا
ولا قصر أررى بهسا فتعتلا
ولا عسها من موضع الكف أمضلا (٤)
إذ أنبضوا عنها ثنيا وأزملا (٥)
إلى منتهى من عسها ثم أقبلا (٦)

وصفوه القول : إن شعراء الحضرة الجاهلي في فن الوصف اختلفوا عن شعراء البادية في أمور من أهمها :

١ - الموصوف ؛ فإشير اهتمام الحضري يختلف عن ذلك الذي يثير اهتمام البدوي ، ولا ريب في أن الشاعر إنما يركز مصورته على الشيء الذي يشد نظره دون غيره ، وإلا أصيب شعره بالفتور والوهن .

(١) التبكل : الغنيمة . (٢) أشرف نفسه : التذمها .

(٣) ذات الحد : السكين ، وغراب السكين : حدها ، والمداوس جمع مدرس كنعير : آلة الصيقل التي يثقف بها النسي .

(٤) السكتوم . التي لا يوجد في عودها شقوق ، وطلاع الكف . ملء الكف والمعجس . المقبض .

(٥) الإنباض : تحريك الوتر في القوس ، والنثيم : صوت القوس ، والأزمل الرنين .

(٦) معنى إقبال السهم إلى المقبض وإدباره أن القوس لينة في صلابة عود ، وإذا شد الفازع السهم عاد إلى المقبض ، ثم ابتعد عنها القوة دهمها وصلابتها .

٤ - المنهج الاستقصائي ، فكل واحد من شعراء البيهقيين يعتمد في وصفه على الاستقصاء ، بيد أن شاعر الحضرة في استقصائه يلجأ إلى الوصف التأملي المتفحص ، كما رأينا في شعر أوس بن حجر ، وشاعر البادية في استقصائه يلجأ إلى الوصف القصصي ، فهو يقدم نموت موصوفه في تتابع قصصي ، تتكامل بمناصره الصورة كما يراها الشاعر ، على ما رأينا في وصف زهير وليد .

الفصل الثالث

الشعر العربي بين البادية والحاضرة

من المقرر أن الأدب العربي على اختلاف أنواعه وفنونه يلتقي مع آداب الأمم الأخرى في المشتركات الإنسانية التي لا تتميز فيها أمة عن أمة ، ولا يختلف فيها أفراد عن فرد ، وفي الآداب جميعا ترى صورة الإنسان في صراعه مع ما يصادفه من عقبات في حياته تعوقه عن مواصلة المسار ، لا يختلف في ذلك أدب عن أدب ، وفي الآداب جميعا ترى القيم الإنسانية الفطرية تدور حولها الأحاسيس والشاعر والانتعالات رضا بها أو سخطا عليها ، دعاء عنها أو برماها . . .

ومن المقرر كذلك أن البيئات - زمانية كانت أو مكانية - تباعد كل أمة عن أختها في أمور كثيرة من أبررها - في ميدان الأدب - الرؤية العقلية والخيالية لما تصادف في الحياة الواقعية ، والإدراك التصوري للملاقات القاعة بين عناصر موقف من المواقف المجابهة ، وكيفية نقل هذا المعنى المرئي أو الصورة المدركة إلى الآخرين ، ثم بالأسلوب الأنسب في عملية النقل هذه .

من هذا يتقرر أن أدب كل بيئة له من الخصائص ما يتميز به عن أدب البيئة الأخرى ، وهو يتميز بفرضه عليه ظروف البيئة بكل أبعادها ، ولا يحق - لذلك - أن يحمّد أدب أمة أو جيل لخصائصه ، ويذم أدب أمة أو جيل لخصائصه ؛ إذ هي من ضروريات البيئة التي لا جهد لأحد فيها ، إنما يذم أدباء بيئة ما إذ تجاوزوا ما تمليه عليه بيئتهم أو تجاهلوه ؛ لأن أدبهم عندئذ يكون مصنوعا لا يعبر عن ذات أصحابه .

فإذا أردنا أن نتعرف على خصائص الشعر العربي الجاهلي والبيئية البدوية والحضرية فمعنى هذا أننا نقصد إلى الكشف عن خصائصه المعنوية والخيالية وخصائصه الموضوعية ، وخصائصه الأسلوبية ، وخصائصه الشكلية ، إذ المجال الفني الذي يعبر عن بيئة من شعر بيئة أخرى يكاد لا يخرج على هذه المناحي الأربعة .

الخصائص المنوية والخيالية :

المقصود بالمعنى هنا المدركات التي يقف عليها الشاعر في أثناء تفكيره في موضوعه، فالمعنى الشعرية هي الحقائق التي تشد انتباه الشاعر في موضوعه ، وعليها يقوم البناء الشعري ؛ لأن الشاعر حين يتناول موضوعا ما من الموضوعات أو حدثا من الأحداث لا يمكن بأى حال أن يستقصيه ويلم بكل أطرافه ، وإنما هو بحسه الخاص يقع على جانب منه يتأثر به ويميش فيه ، هذا الجانب المخصوص بجزئياته هو الذى السكى أو الفكرة الأصيلة التى يقدمها الشاعر وهو ذلك حاضعا لثقافته وممارسته الخاصة النابعة من بيئته .

والناظر في شعر البادية العربية ، وشعر الحاضرة العربية يصادف عدة ملاحظات :

١ - وهو يلاحظ أن المعانى في الشعر البدوى واضحة صريحة صادقة فلا يحول بينها وبين متلقيها غموض ؛ وذلك أحد آثار البيئة في مقومات الشخصية لديهم ، فقد فرضت عليهم البيئة الصحراوية المفتوحة التى لا تمتد فيها الحياة إلا على الضرورى من الحجب ، والتى لا يفيد فيها الالتواء والتخفى ، والتى لا كيان فيها لجبان أو ضمير .. فرضت عليهم تلك البيئة أن يتخلقوا بخناق الشجاعة، ذلك الخلق الذى ينطلق به اللسان في غير موارد ولا لتواء ، والذى تمكشفت به السرائر في تحد وتحديد، وكما نرى في المعانى التى شددت اهتمام الشعري في زوجه أميمة إذ يقول (١) .

لقد أعجبتهى لا سقوطا قناعها	إذا ما مشيت ، ولا بدات تلفت
تبليت - بعيد النوم - تهدى غبوقها	لجاراتها إذا الهدية قات (٢)
تحمل بمنجاة من اللوم بيتها	إذا ما بيوت بالمدمة حلت
كان لها فى الأرض نسيا تقصه	على أمها ، وإن تكلمك تبليت (٣)

(١) المفضليات رقم ٢٠

(٢) الغبوق : اللبس الذى يشرب فى العشى .

(٣) اللسى : الشواء الحسى أو المفقود، تقصه : تتمقب أثره، أمها - بفتح الهمزة -

قصدها ، تبليت - بفتح مسكون - أو جزت .

أميمة لا يخزي نشاها حليها إذا ذكر الدنوان عمت وجلت (١)
إذا هو أمسى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسأل أين ظلت (٢)

فالشغرى يرى أن محاسن المرأة تقوم على الوزار ، والكرم ، واللبد عن أسباب اللوم والذم ، والحياء ، حسنة السيرة والسمة لمفتها وجلالها ، يسعد بها زوجها لأنها موضع ثقته

وقرار المرأة في تصور الشغرى يعنى أن قائمها لا يسقط عن وجهها في انثناء سيرها ، وأنها لا تتلفت حولها . وكرمها في تصويره يعنى الإيثار ؛ فهو يؤثر حاراتها في الجذب بغير اللين ، وبمدها عن أسباب اللوم يعنى حسانة بيتها عن كل يوم أو ذم . وحياتها يعنى أنها لا ترع رأسها عن الأرض في مسيرها كأنها تبحث عن شعرة مقدته ، وأنها لا تتكلم إلا بآفة نصاب ، وحسن سيرتها يعنى أن الحديث عنها لا يحمل الخزي لزوجها ، وسعادة زوجها بها ترجع إلى اطمئنانه إلى مسلكها وثقته فيها ، فلا يخالج بومه شك ولا ارتياب

وكأدرى في تصوير دريد بن الصمة ارتباطه بمشירתه وتمصبه لها ، إذ يقول :
وما أنا إلا من غربة : إن غوت غويت ، وإن ترشده غربة أرشد

فارتباطه بمشירתه غربة يعنى في تصويره أنه يكون حيث كانت ، فإن ضلت ضل معها ، وإن اهتدت اهتدى معها .

* * *

وليس وضوح المعاني خاصة بدوية ، فإن معاني الشعر الحضري في هذا العصر كانت كذلك واضحة ، بيد أنها في غالبها تقسم الملو والمبالغة ، كما يتسم بعضها بالتواء والواربة ، وذلك متأثر البيئته الحضرية ، وما تستقره المعيشة فيها من تحفظ في التعبير ، يلتقى على ذلك الشاعر الحضري الذى ولد ونشأ في الحاضرة لمدى بن ريد ، والشاعر اليدوى الذى نحضر بحسبه وحسه دون عقله ومكره ، كالباقية الديباني والأعشى .

(١) الأصمعيات ص ١١٢ طبع دار المعارف .

(٢) انظر حماسة البحترى ص ٢٠

وسمة الغلو والمبالغة تبرز أوضح ما تبرز في شعر المدح وما يتصل به من هجاء وثناء واعتذار ؛ وقد تطلبت المبالغة على هذه الفنون لصدور الشعراء فيها عن طمع في المكافأة وتطلع إلى الجراء ، كما ترى في مدائح عدى والمباينة والأعشى وأضرابهم ، انظر من ذلك إلى أعشى قيس يمدح هوذة بن علي سيد بني حنيفة فيمضى يجمع من الصفات مايفك عقدة الأيدي فتبسط بالمطاء ، وذلك قوله :

إلى هوذة الوهاب أهديت مدحتي أرجى نوالا فاضلا من عطائك
سمت برحب الباع والجود والدى وأدليت دلوى فاستقت برشائك (١)
فك يحمل الأعباء لو كان غيره من الناس لم يههس بها متاسكا
وأنت الذي عودتى أن تريشنى وأنت الذي آريتنى في ظلالك (٢)

تجدد المبالغة المزوجة بالتصريح بالسؤال وطلب المطاء

وانظر إلى المباينة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر فيقدمه في صورته تعلن عن تلك المبالغة التي تجاور بها الحد وذلك في قوله :

فما الهرات إذا هب الرياح له ترمى أواذيه العرين بالثريد (٣)
يمده كل واد مترع ليجب فيهركام من اليبوت والحصد (٤)
يطل من خوره الملاح متمصا بالخيزرانه بمد الأين والجد (٥)
يوما تأجود منه سيب ناهلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد (٦)

(١) الباع : الكرم ، والرشاء : جمل الغلو .

(٢) تريشنى : تميلنى وتثنيئى .

(٣) أواذيه : أمواجه ، العبران - بكسر العين الشاطئان .

(٤) مترع : مملوء ، ليجب : ذو صوت شديد ، واليبوت : شجر ، والحصد - بفتح الحاء والضاد - المحطم من الأشجار .

(٥) الخيزرانة : سكان السفينة ، والأين : التنب ، والجد - بالتحريك -

الكرب .

(٦) السيب : المطاء ، والمبالغة : الزيادة ، يريد أن عطاه ومر .

فهذه مبالغات لا يعرفها البدوي الخالص فرضتها على أمثال هؤلاء - مما تجد نماذج
بعضه في ترجمات من ضمننا بمثلنا هذا - أخلاقيات الحاصرة ، واستدعاءاتها التي تبين
للشاعر مالا تبيحه البادية .

ومن هذا المعيل قدم الباقية اعتذاراته للنمان ، مثل قوله :

أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب (١)
فبت كأن المائدات ورش لي هراسا به يعلى فرائي ويقشب (٢)

ومثل قوله :

وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس بالضواجع (٣)
فبت كآني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع (٤)
يسهد من ليل التمام سلبها لحلى النساء في يديه قماقع (٥)
تناذرها الراقون من سوء سمها تطلقه طورا ، وطورا تراجع (٦)

* * *

(١) أصيب : أجهد جهدا شديدا .

(٢) الهراس ، بفتح الهاء - شجر كثير الشوك ، والمائدات : الزائرات في المرض .
يقشب : يجدد .

(٣) في غير كنهه ، يريد على غير ذنب منه ، والسكنة : الحقيقة . راكس : واد
في منازل بني أسد ، والضواجع : منحى الوادي .

(٤) ساورتني : لدغتنى ، وضئيلة : أفعى دقيقة الجسم ، والرقش جمع رقشاء : المنقطة
نقطا بيضاء وسوداء ، والناقع ؛ القاتل .

(٥) يسهد : يجمع النوم ، وإيل التمام - بكسر التاء - أطول ليالي الشتاء ، والسلام :
المدوخ ، والقماقع : الأصوات ، كانوا يحملون الحلى في يد المدوخ اعتقادا منهم
بأنها كشيءه .

(٦) تناذرها الراقون : خوف بعضهم بعضا منها، يريد أنها من خبثها لا تجيب الرقي؛
بل تجيب مرة ، ولا تجيب مرة .

ومن ثم نجد الشاعر البدوي الذي تحضر بفسكره وعقله في ظل الإسلام لا يخرج على المعاني البدوية في انوضوح والصراحة والصدق، دون مبالغة أو تهويل، فهو في ظل القيم الإسلامية صريح واضح صادق، كما كان في ظل القيم البدوية؛ إذا كانت تلك القيمة من القيم البدوية التي أقرها الإسلام وحرص عليها ودعا إليها بمنته وأحلاقياته، ولعل في مدائح العباس بن مرداس وكعب بن زهير، وحسان وعبد الله بن رواحة ومماخرهم الإسلامية ما يؤكد ذلك ويقرره، فهم إنما يفخرون بما هو قائم، وإنما يمدحون بما صدر عن المدوح من حميد الأعمال، وما يتصف به من كريم الخلال.

فمدد العباس بن مرداس في إحدى خرياته يمتز بأنه وقومه نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودين الرحمن، فركبوا الموت دون خوف:

واذكر بسلاء سايم في مواطنها	ووي سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصرُوا الرحمن واتبعوا	دين الرسول وأمر الناس مشتجر
ومح يوم حنين كان مشهدنا	للدين عرا وعهد الله مدخر
إذ نركب الموت محضرا بطائه	والخيل يجاب عنها ساطع كدر

وهذا كعب بن زهير - في أخريات جاهليته - يمتدح لرسول الله، ويضطر إلى الاستواء في ذلك، دون أن يخرج إلى التهويل والمبالغة، لعل أنه هذا النهج ليس مما يستسيغه الرسول صلى الله عليه وسلم.

أنبئت أن رسول الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نامله الـ	مقرآن فيها مواهظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم	أذب ولو كثرت في الأقاويل

وهذا حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم فلا يتجاوز الاعتدال، ولا يشد عن ذكر الحقائق:

الا أبلغ أبا سفيان عفي	فأنت مجوف نخب هـواء
أن سيوفنا تركتك عبدا	وعبد الدار سادتها الإمام
هوت محمدا وأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
أنهجو ولست له بكفاء	فشركا لخيركا الفداء
هوت مبارك برا حنيفا	أمين الله شيمته الوفاء

٢ - ويلاحظ أن المعاني والأفكار في الشعر الجاهلي - بدوية وحضرية - بسيطة
وطرية ، لا تعقيد فيها ولا تركيب ؛ فدور العقل فيها دور المحصى المتبع ، لا دور الصانع
المركب ، أى أنها معان حسية لم تخضع لصعنة العقل ، فهي على حالها لم يطرأ عليها
تغيير أكثر من ضم بعضها إلى بعض ، على نحو ما نرى في تأني المتدلس على الرضوخ
للهموان والضميم ، فيقرر أنه لا يقبل الهموان كريم ولا عاقل ، ولا يرضى به إلا حمار ذليل
أو جماد لا يعقل ، وذلك في قوله (١) :

إن الهموان حمار الأهل يمرره والحمر ينكره والرسلة الأجد (٢)
ولا يقسم على خسف يراد به إلا الأذلان: غير الأهل والوتد (٣)
هذا على الخسف معقول برده ودا يشج ولا يسكى له أحد

فالهموان لا يقبله إلا من يشبه هديين - الحمار والوتد - في الرضا بالقل ، وعدم
الإحساس بما يصنع به

إن الشاعر يتمدح بالأئمة وإبائه الضيم ، ويرى أنه لا يقبل الضيم عاقل ، وإنما هو
أحد اثنين ، حيوان مجهول ما يراد به ، أو جماد لا يدري من أمره ولا من أمر غيره
شيئا ، وكل منهما وضع في موضع التسخير والإذلال ، وواضح أنه استمد هذا الملغف
من بيئته التي يعيش فيها ، دون أن يعيب إليهم من عنده شيئا ، سوى أنه قرن
هذا بذلك .

وطى نحو ما رأينا في تصوير رهير الحرب في صورة بشة تدعو المقلد إلى النفور
منها والبعد عنها ، فهي أسد ضار ، ونار مشتعلة ، ورحى تطحن المتحاربين ، وأنى
لا تلد إلا الأبناء المشثوم ، ونجارة لا تروح مالا ، ولا ريب في أنها معان مطروحة في
البيئة لم يصنعها عقل الشاعر بقدر ما لاحظها وانتهاها من بين غيرها ليمرورها بالحرب
فيحقق مقصده ويفر منها .

(١) انظر حماسة البحتري ص ٢٠

(٢) الرسالة - بفتح فسكون - الياقوت اللؤلؤ ، والأجد - بصم الهمزة والجسيم -
الموثقة الخلق .

(٣) العير - بفتح فسكون - الحمار .

وهذا المنهج في اساطة المعاني يسير عليه عدى بن ريد شاعر النعمان في مخنّف
فنونه الشعرية من حريات ومواعظه واعتداليات ، من ذلك قوله .

من رأنا واحداث نفسه	أنه موف على قرن روال (١)
وصروف الدهر لا يبقى لها	ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أباحوا عهدنا	بشربون الخمر بالماء الزلال (٢)
عمرؤا دهرًا بعيش حسن	آمنى دهرم غمير عجال
ثم أضجروا عصف الدهر بهم	وكذاك الدهر يودى بالرجال
وكذاك الدهر يرمى بالفق	في طلاب اليبس حالا بمدحال

ووجودنا هذا وشك الزوال ، وإن يفت من الموت كأثن حتى صم الجبال ، فليس
في هذه الدنيا وأحداثها ما يفتح باب الأمان لها ، ولا يتخذ عن إنسان بما توهمه حياة
بعض الناس ، وما عايه إلا أن ينظر في مصيرهم ، مذاك مصير كل حي .

ولا تكاد تجد شاعرا س بدويا أو حضريا - يخرج على هذا المنهج ، فهم جميعا
لا يصنعون معانيهم ، وإنما يستمدونها من البيئة المحيطة بهم ، فيضمون بعضها إلى بعض
لتتحقق المقصود ، حتى في تلخيص خبراتهم وتقدمها في صورة حكم ، لا يلجأ الشاعر
إلى تركيب معانيه وتقدمها في صورة عقلية ، وإنما هو ملاحظ محض ، كما نجد في حكم
زهير بن أبي سلمى ، حين يقول :

فلو كان حمد يخلد للناس لم تمت وإن كان حمد الناس ليس بخلد

و حين يقول :

وهل يثبت الخطى إلا وشيجه وتفرس إلا في منابتها الخلد

وكما نجد في حكم البانعة إذ يقول :

ولست بمسابق أحدا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

فأنت مع لشعر العربي الجاهلي أمام معان إنسانية حسية يقدمها الشاعر بما يتراءى له
في بيئته ، دون أن يتحول بها إلى معنى ذهنى أو صورة عقلية مركبة أو معقدة .

(١) القرن - بفتح مسكون - الطرف . (٢) لاء الزلال : الصافي .

ويلاحظ أنها قريبة المأخذ ، فهي مع صراحتها وبساطتها لاعمق فيها ، وكيف يتعمق من حرمة بيئته الاستقرار والهدوء ؛ فهو دائم الحركة ، مستمر الرحلة ، لا ينزل إلا ليرتحل ، ولا يقيم إلا ليسافر ، سواء كان من ساكني الحضر أو قاطني البادية ؛ فظروف الحياة في شبه الجزيرة دأمة القلب والتنير .

ولكنهم استمضوا عن عمق الفكرة بدوة الحس ، في تتبع الحركة ، واستقصاء المشاهد ، فملوا من شعرهم لوحات تتجسم فيها الماني ، وتشخص الأحداث والمواقف . كما في قول زهير بن أبي سلمى يصف مدوحه حين يستغاث بهم فيطيرون إليه بخيلهم .
ورماهم ليقتدوه مما ألم به ، غير هيا بين ، فالقتل إحدى أمانهم من قديم (١) :

إذا فزهوا طاروا إلى مستفيهم طوال الرماح لاضفاف ولاعزل (٢)
فإن يقتلوا يهتفي بدمائهم وكانوا قديما من منايهم القتل
وكا رأينا أنفا في وصف البقرة الوحشية التي شبه بها ليبد بن ربيعة العامري ناقته .
وكا في قول زهير يصب أحد مشاهد الصيد ؛ فيلم بدقائق الحدث حتى يجملنا
فما يشه ونحس بإحساسه ، وتلفظ تالفة .

إذا ما غدونا ننتهي الصيد مرة متى نره وإنما لا نخاتله (٣)
فبيننا نبقى الصيد حاء غلامنا يدب ويخفي شخصه ويضائله
وتال : شياه راتمسات بقفرة بمستأسد القرمان حو مسايه (٤)
ثلاث كأقواس السراء ومسجل قد أخضر من لس العمير جحافة (٥)

(١) ديوان زهير ص ١٠٢ .

(٢) عزل - بضم فسكون - جمع أعزل : من لاسلاح له ، ووزعوا : نهضوا للاغاثه .

(٣) نخاتله : تمسك به وصيده دون أن يرانا .

(٤) المستأسد . الميت الذي طال ، والقرمان : مجارى للماء ، والحور . البيات

الضارب إلى السواد

(٥) السراء : سير تؤحد منه القسي ، شبهها بها في الضمور ، والمسجل . حمار

الوحش ، والعمير : نبت ، ولسه : أحده بمقدم الفم ، والجحائل : من الخبز والإبل

والخيل بمرلة الشفاء

وعلى هذا سار شعراء الحضرة في معانيهم ، كما نجد أمراً القيس في وصف فرسه وهو يجرى :

وقد اغتدى والطير في وكناتها بنجرد قيد الأوابد هيكل^(١)
مكر مفر ، مقبل مدبر معاً كجلود صخر حطه السيل من عل^(٢)
كبت يل البسد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل^(٣)

وكما نجد الأعشى في تصوير جيش عمرو بن الحارث السأني ، حيث يصف جماعات الطير من اللسور والعقبان تتبع الجيش تنتظر رادها من أشلاء القتلى :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم مصائب طير تهدي بمصائب^(٤)
يصاحبهم حتى يفرن منارهم من الصاريات بالدماء الدوارب^(٥)
تراهن حلف القوم خزرا عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرانب^(٦)

ومن هذا النطلق في المعاني حرصوا في أوصافهم على أن لا يخرج عن نطاق الموصوف المحسوس ، وحرصوا في مدائحهم على أن لا يخرج عن المحمدية التي دعت الشاعر إلى المدح شكراً عليها وعرفاناً بها دون مبالغة أو مغالاة ، وأقاموا مرثيتهم على تمداد مناقب الميت ، وبكائه والنعيميس على الثأر له إن كان قتيلاً ، دون أن يعمقوا في أسرار الموت أو يتجاوزوا سطح الأحداث ، بل إن من تناول الموت في حديثه لم

(١) الوكنات جمع وكنة - بضم الواو - مواقع الطير، المنجرد : الماص في السير، والأوابد جمع أبدة : الوحوش ، والهيك : الفرس العظيم الجرم .

(٢) مكر - مفعل - اسم آلة من كر إذا عطف ، ومفر : اسم آلة من فر ، جملة كانه آلة الكسر والفر ، والجلود : الحجر العظيم الصلب ، وحطه : القاء ، من عل : من فوق .

(٣) الكبت : ما كان لونه بين الأسود والأحمر ، والحال : مقعد الفارس من ظهر الفرس ، والصفواء والصفوان : الحجر الصلب .

(٤) المصائب : الجماعات .

(٥) الصاريات : التمودات ، والدوارب : الدربة .

(٦) خزر الميون - بضم الخاء - جمع أخزر : القذى ينظر بؤخر عينه ، والمرانب :

ثياب سوداء .

يقنأوله من الوجهة العقلية الخفية ، إنما تناوله من الوجهة البارزة المكشونة ، فالوت ضرورى محتوم لا يمنع منه مانع ، ولا يصح من عاقل أن يفر منه ، هل ما رأينا فى عياية أبى ذؤيب . وتحمدنوا فى غزلهم عن جمال المرأة ، وما أقاموا من علاقات فى صراحة تكاد فى بعضها تحمض الحياء ، بيد أن بعضهم قد سار بالفزى مسارا نفسيا فيه شهء من التعمق والأناة على ما رأينا فى نونية عنتره .

هذا ويظن كثير من الدارسين أن معانى الشعر الجاهلى - بدوية وحضرية - ضعيفة التماسك ، راهمة الروابط ، فهى معان مفرسكة ، فأئة على الاستطراد ، بحيث تستطيع أن تقدم فيها وتؤخر ، وتحذف وتضيف ، دون أن تتأثر بذلك القصيدة ، فهى ليست - كما يتطلبه النقاد المحدثون - بناء عضويا تاما ، بقدر ما هى مجموعة مشاهد أو مواقف لا يشد بعضها إلى بعض رباط وثيق ، وإن كانت لضمها وحدة عامة ، وإطار - جسد ؛ فالقصيدة الجاهلية - على ما يرون - خالية من الوحدة الفنية ؛ فليس فيها وحدة بناء ولا وحدة عرض

ويمال هؤلاء ما يرونه بعدم معرفة العرب الجاهليين بالترتيب المطلق أو النظر الفلسفى ، مما اضطرهم إلى رؤية المشاهد مقطوع بعضها عن بعض ، ولا صلة ولا نظام .

وفى الحق أن هذا الرأى مجاف للصواب ، بعيد عن الواقع ، دمع إليه التعمج فى الحكم ، أو التسليم بما قرره بعض المستشرقين دون أناة وترو ، ومماودة نظر فيما بين أيدينا من شعر هؤلاء . ولو أننا قبل أن ننظر فى الشعر الجاهلى تعرفنا على دقائق الحياة البدوية - على ما فى ذلك من عسر - ونقلنا أنفسنا لشاركهم معيشتهم ونجاورهم فى بيئتهم بكل أبعادها لما وجدنا فى شعرهم هذا التفكك المرعوم ؛ فالمبفينا نحن ؛ لأننا ندرس شعر قوم لانعلم من أحوال معيشتهم ، ومن ظروف بيئتهم إلا النذر اليسير ، وكيف نضب أنفسنا قضاة يتضون للقضاء المبرم فى شعرهم .

على الدارس الصادق الذية أن يتوقف عند كل إشارة ترد على ألسنتهم ويبحث عن مدى أثر ذلك فى علائقهم الإجتماعية والشخصية ، وأن لا يمر من الكرام على تلك الأما كنن التى يتحدثون عنها ويقفون عليها ، بل لابد لنا من تعرف على تلك الأما كنن

وذكرياتهم فيها ، كما يجب على الدارس أن يعنى بالتعرف على حال الشاعر النفسية قبل أن يصدر حكمه على ما يقول

إننا إذا ما نجحنا في تحقيق ذلك قبل مواجهة شعرهم ضمننا لأنفسنا النجاح في أن نصدر في أحكامنا من فوق أرض صلبة لاتهز من تحت أرجلنا . وهذا ما سوف نحاوله مع بعض شعرائهم إن شاء الله تعالى .

وصفة القول في هذا أن ما صدر على الشعر الجاهلي - في هذا الميدان - من أحكام لا يقوم على الدراسة العلمية الموضوعية الخالية من الزيف ، بل هي أحكام لا تخلو من التعجب والارتجال والتسرع .

* * *

أما الخيال فيقصد به الصورة التي يرى الشاعر فيها معانيه بخياله بعد تأثره بها ، أو هي الترجمة العاطفية للحقائق العقلية التي يتكلم منها الموضوع . فإذا كانت المعاني خاضعة لثقافة الشاعر ومعارفه العقلية الخاصة ، فإن الأخيصة خاضعة لمواطنه وتأثراته وانفعالاته الخاصة كذلك ، فليست واحدة منهما من المشتركات العامة ، وإنما كل منهما يختلف من شاعر لآخر وفقا لما خضع له عقله وحسه من مؤثرات بحل أو تدق .

والماظر في الشعر الجاهلي - بدوية وحضرية - يلاحظ أنه حافل بألوان الخيال - سواء في ذلك الخيال الابتكاري والخيال التفسيري (١) - غير أنه لا يخرج عن حدود البيئة الجاهلية ، يمثل ذلك قول عبد العزى الطائي موضعا حرصهم على الثأر :

(١) الخيال الابتكاري هو الخيال الذي يقوم على الابتكار ، حيث يعتمد فيه صاحبه على تكوين مجموعة من العناصر المختزنة في القهن ؛ ويلها من شتات ليصنع منها صورة جديدة تكشف عن إحساس داخلي تجاه موقف أو مشهد . أما الذي يقوم على التفسير والتصوير فهو ما يقدمه الأديب من إضافة الصورة التي يراها ويمر عنها إلى صورة أخرى أقرب منها إلى إدراك المتلقين ، وأوضح في تصوراتهم ، ويعتمد في هذا النوع من الخيال على فنون البيان من تشبيه واستعارة وكناية إلى غير ذلك . انظر للمؤلف كتاب في الأدب العربي المعاصر القسم الثاني ص ٧٥

إذا ما طلبنا تطلبنا عند مشر أبينا حلاب الدر أو نشرب الدما (١)
فالشاعر يرى الحرص على الثأر في صورة رفض الدية بالنقطة ما بلغت ؛ لأن قبولها
في الدل والهوان ، ولذا جعل رفضها إباء وليس مجرد رفض .

وعلى هذا النحو يواجهنا تأبط شرا ، حيث يبرز الحرص على الثأر في صورة الغريزة
طورية التي لا يهدأ له بال ، ولا ينعض له جنح حتى ينال ثأره ، وذلك في قوله :
قليل غرار النوم أكبر همه دم الثأر أو يلقي كيبا مسقما
فطلب الثأر ولقاء البطل الذي سفت وجهه الهواجر أكبر ما يهتم به وينصب له .
والشاعر يربط هذا الاهتمام والنصب الدائمين في قلة النوم التي يماني منها .

كما يمثل قول امرئ القيس في وصف الدهر :

أزال من المصاع ذا نواس وقد ملك الحرونة والرمال (٢)
وأشب في الحالب ذا حليل وللزراد قد نصب الجبال (٣)
ونجم كسندة الأحيار طرا يهـرو واسطى حجرا مزالا

ومثل قول الشفري في وصف التدب الجائع :

غدا طاويا يمرض الريح هابيا يخوت بأذئاب الشعاب ويمسل (٤)
فلما لواء القوت من حيث أمه دعا فأحابتسه نظائر نحلي (٥)

(١) التبل - بفتح فسكون - الثأر ، وحلاب الدر : الإبل التي تحلب ويشرب لبنها .
- حماسة البحترى ص ٢٨ طبع بيروت ، والفصليات القصيدة رقم ٤٢ ، والأصمعيات
بيدة رقم ٤٢ .

(٢) المصانع . الحصون والقصور ، وذو نواس : ملك اليمن ، والحزونة : المواضع
ظلة ، يريد ملك السهل والجبل

(٣) أشب في الحالب : يعنى أشب الدهر محالبه في ملك من ملوك حمير يقال له
أصبح . ويقال للسكبد الحليل .

(٤) يمرض الريح : يستقبلها ، وهابيا : مسرعا ، يخوت : ينعض ، والأذئاب -
أراف ، والمسل : المشى السريع .

(٥) لواء : مطه وامتنع عليه ، أمه : قصده ، نحل جمع ناخل : المهزبل .

مهلهلة شيب الوجوه كأنها قداح بكفى ياسر تتقلقل^(١)

وكذلك الشأن في الخيال التفسيري ، فهو مستمد من البيئة الجاهلية حيث يخلق الشاعر فيتزعج من البادية أو الحاضرة الجاهلية الشكل أو الهيئة القريبة التي تبرز رؤيته الخاصة في صورة تشبيه أو استمارة أو كناية ، وهو في ذلك دقيق ، يجمع الأطراف من هنا وهناك لتتراى جلية واضحة ، كما تتميز بالطرافة والروعة على الرغم من تكرارها وكشابهها ليس في شعر الشاعر حسب ، بل في شعره وشعر غيره ، ولقد بلغت بهم دقة التصوير هذه حدا جعل من الميسور علينا أن نتعرف على مواطنهم بما فيها من مضاب وسهول وأودية، وبما تحتويه من حيوانات متوحشة ومستأنسة، ونتعرف على مألوفاتهم وعاداتهم وأعرافهم ، وما كان يدور فوق أرضهم ، كل ذلك نراه ونتعرف عليه إذا ما نظرنا في أخيلتهم التفسيرية ، مثل قول الأعشى في مدح الحلق :

لثوب لقرورين يصطليانها وبات على القار الندى والمحلوق

مثل قول علياء بن أرقم في وصف المرأة :

ديوما توافينا بوجهه مقسم كأن ظبية تمطو إلى ناصر السلم^(٢)

ومثل قول المنخل الأيشكري :

وليثمنا فتنتست كتنفس الظوى النهر

ومثل قول المهامل في حديثه عن طول الليل ، فيرى النجم في بطئه يشبه الفصال

الصغيرة التي تجول في المطر فتخشى الرلق فلا تسرع :

كأن للنجم إذ أوى سعيرا فصال إجان في يوم مطير

أما لكواكب فيراها في ثباتها وعدم تحركها كأنها فوق حدثات النتاج عطفت

على وليدها فهي لا تتركه :

(١) مهلهلة: قليلة اللحم ، القداح : أداة القمار، والياسر : المقامر ، يتقلقل :

تتحرك وتضطرب .

(٢) المقسم : الجميل المتناسق ، يقاله قسم الوجه حسن ، تمطو : تتناول ، والسلم :

شجر بدوى .

كأن كواكب الجوزاء عوذ معلقة على ربيع كبير^(١)

وامرؤ القيس يحدثنا عن طول الليل فيراه بعيرا ثقيلا يتمطى ، ويرى نجومه
مشدودة إلى الجبل بحبل متين فلا تتحرك :

مقات له لما تمطى بصاحبه وأردف أعجازا وناء بكل كل^(٢)

فيالك من ليسل كأن نجومه بكل مزار الفتل شدت يبدل^(٣)

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتنان إلى صم جندل^(٤)

ولعل ارتباطهم ببيئتهم الارتباط الوثيق في معانيهم وأخيلتهم هو القى فرض عليهم
المحدودية والحسية في المعاني والأخيلة

بيد أنهم أكسروا تلك الحواجز وتجاوزوها بما ولدوا من المعاني وما ابتكروا
من الأخيلة .

كما أنهم لم يستمدوا الحسية المعاني والأخيلة حتى لا تتحول إلى تعانيل حامدة تشيع
الضيق واللعل ، بل أمدوها بأسباب الحياة بما حرصوا عليه فيها من دقة التصوير والمستقصية
فأصبحت الصور مسرحا لحركة واقعية تترامى فيها تحركات الكائنات المصاحبة لهم في
عصرهم ، فأنت أمامها كأنك تمشى بينهم ترى ما كانوا يرون وتعامل كما كانوا
يتعاملون معها ، على نحو ما ترى في مطلع معلقة زهير بن أبي سلمى التي يتحدث فيها
عن مدارل حبيته المسكية بأمر أوفى :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج طالتلم^(٥)

(١) عوذ جمع عأدة الناقة حديثه النتاج ، والربيع بضم ففتح : الفصيل ينتج في
الربيع ، وهو أول النتاج
(٢) عطى . تعدد ، والأرداف : الأنواع ، والأعجاز . المآخير ، وناء : بعد ،
للـكـكـل : الصدر .

(٣) معار الفتل : محكم الفتل ، بديل : اسم جبل بمجدد .

(٤) الأمراس : جمع مرسى : العجان ، والمصام : موضع الوقوف ، والجندل :
الصخر ، والصم جمع أصم : الصلب .

(٥) الدمنة : ما أسود من آثار الدار ، وحومانة للدراج ، والتلم : موضعان .

ودار لها بالرقتين كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم (١)
 بها العين والآرام يشين حلقة وأطلاؤها ينهض من كل مجثم (٢)

رائظر فيما قدمنا في فن الوصف من معلقة امرئ القيس يصف البرق والمطر من
 معلقة لبيد يصف الديار المشية ، ويصف البقرة الوحشية وما قدمنا من شعر زهير يصف
 مشهد الصيد ، إلى غير ذلك تجد أمامك للشخصيص الحي المتحرك الماطق النابض القلب

وصفة القول أن الشعر الجاهلي - بدوية وحضرية - في معانيه وأحيلته وتيق
 الارتباط بالبيئة الجاهلية - بادية كانت أو حاضرة - ؛ فهي البسم الذي استمد منه
 الشعراء معانيهم ، ومن أحداثها نسجوا أحيانهم ، وكانت صدى صادقاً للحياة الجاهلية
 وما يتردد في أجوائها ومن ثم تميز شعرهم عن شعر غيرهم ، بفاض بالحركة الواسعة التي
 لا تكاد تتوقف منذ مطلع القصيدة حتى منتهى سواها كان الشاعر فيها موضوعاً أودانياً .

الخصائص المضمونية

المقصود بالمضمون أو المحتوى الشعري هو تلك الذنون الشعرية التي يتناولها الشاعر
 وما يتضمنه كل فن من أحداث ومواقف ، فأنت حين تنظر في مضمون الشعر الجاهلي
 ترى الحياة البدوية الجاهلية في الشعر البدوي ، كما ترى ؟ الحياة الحضرية بمختلف
 ألوانها في الشعر الحضري بكل شخصياتها وأحداثها ، فلا يكاد الشاعر يتناول موضوعاً
 خارجاً عن بيئته ؛ فصدقهم ليس في التعبير عن الموقف حسب ، بل هو كذلك شامل

(١) الرقمتان : مرتان إحداهما قريبة من البصرة والأخرى قريبة من المدينة ،
 والمراجع جمع مرجوع من قولهم رجعه رجماً ، أراد الوشم المجدد ، ونواشر المعصم
 هروقة ، الواحد ناشر ، والمعصم موضع السوار من اليد .
 (٢) العين أى البقر العين ؛ واسمات العيون ، والآرام جمع ريم : الظى الأبيض
 حالم البياض ، وخلمة : يخاف بعضها بعضاً ، إذا مصى قطع منها حاء قطيع آخر ،
 والأطلاء جمع الطلاء : وهو ولد الغليظة والبقرة الوحشية ، والجثوم اللسان والطير
 والوحوش بمنزلة البروك للبعير .

للصدق في تناول الموضوعات ، حتى ما هو قائم على الخيال من تلك الموضوعات لن تجده طارئا على يئنته ، إنما هو موجود بالفعل فيها ، سواء كان وجود الموضوع ملاسا للشاعر أو لغيره ، فهو صفات البدو عربية بدوية جاهلية ، والمرأة التي يتناولونها في غزلهم عربية بدوية جاهلية ؛ والخلائق التي يتمدحون أو يفخرون بها خلائق ونموت عربية بدوية جاهلية ، وأحاسيسهم ومشاعرهم وتجاربهم التي يضمنونها حكمهم عربية بدوية جاهلية كذلك ، فأنت مع الشعر البدوي إذن منمرور في الحياة البدوية الجاهلية تماما .

وكذلك الحال مع شعر الحضرة لا يشتد الشاعر فيه على بيئته ، وإنما هو في كل ما يتناول خاضع لقيمتها وأخلاقها وأعرافها، من ثم لم يكن غريبا أن نجد الشعر العربي الجاهلي يجمع بين التناقضات في مضامينه أو ما يشبه التناقضات ، فبينما نجد الشاعر البدوي يتمدح بالمفة والكرم والشجاعة في مواجعة الأعداء نجد الشاعر الحضري الذي عاش العصر بحسبه وحسه يتمدح بالجرأة على التسلل إلى المرأة في فراش زوجها، واستهلاك المار في الخمر والقمار والجرى وراء المتع الجسدية، أما الشاعر الحضري الذي عاش الحضرة العسكرية والقصيدية في ظلال الإسلام ، فإنه يتجه بمخبره اتجاه مخالف اتجاه شاعر البادية الخالصة واتجاه شاعر العصر المادي ؛ إذ يذوب مغمسه في أمته وقومه ، فهو لا يمتدح بمسلك شخصي إلا أن يكون هو المسلك الجماعي، ولا يفخر إلا بما يتلاءم مع قيم الإسلام ومبادئه كما رأينا في شعر العباس بن مرداس، وحسان بن ثابت وكعب بن زهير ، وعبد الله بن رواحة وغيرهم

* * *

وهم في هذا على خلاف غيرهم من الشعراء، إذ نجد كثيرا من أشعار البيئات الأخرى غير العربية توغل في الأحداث الخيالية المنرفة التي لا واقع لها إلا في الخيال والتصور، على نحو ما نرى في أساطير اليونانيين ؛ فالأحداث التي ضمنها اليونانيون أشعارهم أحداث أسطورية غريبة تمثل مرحلة من مراحل التطولة العقابية ؛ إذ هم يتحركون من منطلق مختلف عن منطلق الشعراء العرب الجاهليين ، بينما ينطلق اليونانيون من بيئة ينحصر

إني امرؤ سمح الخليفة ماجد لا أتبع النفس العجوج هواها
البطولة التي يعتز بها عنزة هنا هي تمكنه من نفسه ، وسيطرته عليها ، وكبحه
جأحها ، فلا ينال من أنفى شيئاً بدون حق مشروع . هذه البطولة لاشك تختلف عن
البطولة التي يفخر بها عروة بن الورد ، الذي يؤمن بأنه خالق لرعاية الضمائم والمهلك
من قبيلته ، ويعتقد - كذلك - بأن البطولة هي قيامه على هذا الذي خالق له ، وليس
مقبولاً لديه أن تهلك عشيرتنا (معتم وريد) وهو قاعد في الحى ، لا يخاطر بنفسه من
أجلهما ، فذلك عار أى عار ؛ إذن بالبطولة أن يقتحم مع رفاقه من الصماليك حمى
بعض القبائل ليحصلوا منها على ما يشاءون من الغنائم ليقدّموا للمحتاجين ما يشبعهم ،
وذلك في قوله :

أهلك معتم وزيد ولم أقم	على ندب يوما ولى نفس مخطر (١)
ستفزع بعد اليأس من لا يخافنا	كواسع في أخرى الوام الممر (٢)
نطاعن عنها أول القوم بالقما	وبيض خفاف وقمهن مشهر (٣)
ويوما على غارات نجد وأهله	ويوما بأرض ذات شت وعرعر (٤)
يرح على الليل أضياف ماجد	كريم ومالى سارحاً مال مقتر (٥)

وهذه وتلك تختلف عن بطولة الشنفرى التي يعتز بها في قوله :

-
- (١) معتم - بضم مسكون وفتح - وريد : بطنان من عبس . وندب - بفتح النون
والهال - خطر .
(٢) كواسع : خيل تطرد إبلاء وتسكسها . والوام : الإبل السائمة . وأحرى :
أحر ، والمنفر : الذعور .
(٣) البيض : السيوف ، وفي البيت على هذه الرواية إقواء ، ورواية الديوان
(ذات لون مشهر) ، وعليها فلا أقواء .
(٤) الشث - بفتح الشين - والعرع - بفتح مسكون - من أشجار البادية .
(٥) يريح : يرد ، ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبلاه ، وسارحاً :
سائماً في المرعى ، ومقتر : فقير مقل

وليلة نحس يصطلى القوس رها واقطمة اللاتي بها يتدل (١)
دعست على غطش وبنش وسحبتى سمار واريز ووحروأفكل (٢)
فأيمت نسوانا وأيمت إلهة وعدت كما أدأت والليل اليل (٣)
وأصبح عى بالميمصاء جالسا مريقان ؛ مستول وآخريسأل (٤)

فالبطولة هنا في المقدرة على تجشم الصعاب في سبيل الفلك والقتل والمدوان ، ولاشك في أن كلامهم ضمن شعره ما ضمته ناسه بتأثير بيئته الخاصة داخل إطار البيئته البدوية ، فأصبح خاصة من خواص شعره التي يتميز بها .

ولا ريب في أن البطولة البدوية تختلف تماما عن بطولة الحضارة المادية ، والتي يمثلها امرؤ القيس في قوله :

ويضة خمدن لايرام خباؤها تمتعت من لحو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا وأهوال معشر على حراس لو يشدون مقنلى
حئت وقد اضت لنوم ثيابها لدى السر لإلبسة المتفضل
فقال . يبين الله مالك حيلة وما إن أرى عنك العاية تنجلى

وكذلك انشأن على البطاق العام ، تحدث البيئته العربية في الشاعر العربي ما يوجهه إلى مضامين خاصة يتميز بها الشعر العربي عن غيره من الشعر ، والحديث عن النباق والظباء ، وحسر الوحش ، والخيل ، والدئاب ، والمخيل ، والرمل ، والرياح ، والسكواكب ، والأمطار ، والسيوف ، والرماح ، والبال . إلى غير ذلك من أبر خواص الشعر البدوي .

-
- (١) النحس : الجهد والضر والبرد ، يصطلى القوس - بها . يوقدها ليتدفى بها ، والأقطع - بضم الطاء - جمع قطع بكسر القاف : نصل السهم ، يتبلل . يتخذ منها النيل .
(٢) دعست : مشيت ، والنطش : الظلمة ، والبنش : المطر الخفيف ، السمار : شدة الجوع ، الإريز : البرد الشديد : الوجز . الخوف ، والأهكل : الوعدة والإرتماش ،
(٣) أيم المرأة أقدما روجها حماها أي ، والأليل : شديد الظلمة .
(٤) المميمصاء : مكان بنجده .

الخصائص الاسلوبية :

الاسلوب هو الصياغة اللفظية التي نشف عن الماني والأخيلة التي يعبر بها الشاعر عن المضمون ، وهو - كذلك - القالب الفني الذي يصب فيه الشاعر ممانيه وأفكاره ، مستجيبا لتكوينه الفني الذي وجهته إليه بيئته . والشاعر الصادق تناسب من بين شفتيه الألفاظ المناسبة لشموره وأخيلته وممانيه في الشكل الذي يتلاءم مع البيئة التي نشأ فيها طبيعيا واجتماعيا ودينا ؛ ولذلك كانت أساليب الشعر مرآة تمكس مضمونه وأخيلته ، فهما متلازمان ، ترى في الألفاظ ما يحس به الشاعر ، وتتعرف من أحاسيس الشاعر على طبيعة الألفاظ .

١ - والنظر في شعر البدو الجاهليين يجد ألفاظه جزلة قوية - على وجه العموم - بيد أنها تتردد بين الوعورة والحشونة وبين السلاسة والمدبوبة بما يتلاءم مع المحتوى الشعري ، والجو النفسي الذي يفرضه الموضوع على الشاعر .

مع الجزالة والقوة ترى الحشونة في الألفاظ الشعرية ، حين يمزى نفسه عن اعتزال الناس إياه بصاحبة قلبه الشجاع ، وسيفه الصارم وقوسه الحيدة الصنع ، وذلك في قوله :

وإني كفاني فقد من ليس حاربا	بحسنى ، ولا منى قر به متملا (١)
ثلاثة أصحاب . - وؤاد مشيع	وأبيض إصايت ، وصفراء - يطل (٢)
هتوف من الماس المتون يزيناها	رصائع بيطت إليها ومحمل (٣)
إذا رل عنها السهم حنت كأنها	مرآة ععلى برن وتـول (٤)

و حين يصور صراع الحياة الذي يحوضه هو وأصحابه ضد محاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء ، ويدكر أنهم يقطعون النار في النهار ، فإذا جنم الليل وجدتهم

(١) التعلل : التلمى .

(٢) مشيع - بصم الأول وفتح ما قبل الآخر - شجاع ، والأبيض : السيف ، والإصايت - بكسر الهجزة - المصقول ، والصفراء القوس ، والميطل - بفتح فسكون وفتح - الطويلة العيق . (٣) الهتوف : ذات الصوت المنغم ، والمتون : الظهور ، والرصائع جمع - صيمة : ما يرصع به ويحلى ، ونيطت به : علفت ، والحمل - بكسر الميم وسكون الحاء - ما يملق به القوس على لتكعب .

(٤) رل السهم : حرج ، والمرزاة : كثيرة الررايا والمصائب .

في مغازة أخرى را كبين ظهور المهالك والمطاب ، دون رفيق - في الغالب - سوى أرجلهم التي تعودت العدو السريع ، وهم - لذلك - مفزعون دائماً ، حتى في النوم ، فإذا ناموا لم يبق قلبهم ، بل ظل يكاؤهم ويرعاهم حيفة عدو راصد من وحش أو إنسان ، بل إن النوم لا يكاد يلم بهمونهم إلا عرارا ، وهي معلقة بسيفهم التي لا تلبث أن تستقر في صدور من يهجمون عليهم ، ويضحك الموت ويكشر عن أنيابه الغلاظ ؛ فهم دائماً مستوحشون حتى أصبحوا يؤثرون الوحشة لما يرون فيها من الأفس : إذ لا يأنسون إلا بالقفار التي تعودوا عليها فعرفوا دروبها ومسالكها معرفة تحملهم لا يفلون تصدم كما لا تصل الشمس قصدها (١) :

يطـلـ بـوهـاة وئسـى بـسـيرها	جـحـيشـا ، وبيـرورـى ظهـور المـهـالك (٢)
ويـسـيق وهد الـريـح من حيث يـلتـحـى	بـمـخـرق من شـده المتـدارك (٣)
إذا حـاط عـينـه كـرى النـوم لم يـرل	له كـالـىء من قلب شـيـحان ماتك (٤)
ويـجـمـل عـينـه ربيـثـة قـلبـه	إلى سـلـة من حـد أخـصـر ماتك (٥)
إذا هـرـه في عـظـم قـرن تـهـلت	نـواجـذ أمـواه المـسـايا الضـواك (٦)
رد ، الوحـشة الأفس الأفس ويهـتـدى	بـحـيث اهـتـدت أم النـجـوم الشـوابك (٧)

كما ترى الحشونة في الفاظ رهير بن أبي سلمى حين يصعب البقرة الوحشية التي يشبهه به ناقته في سرعتها في قوله :

(١) أمالى القالى ج ٢ ص ١٣٨

- (٢) يظـل : يندو ، والمومة : الغلاة ، جـحـيشـا : منفردا ، بيـرورـى : يركب .
(٣) وهد الـريـح : أولها ، يـلتـحـى : يقصد ، والمـخـرق : السـريـع ، والشـد : المـدو ، والمتـدارك : المتلاحق .
(٤) حـاط عـينـه كـرى النـوم : نام ، والسـكـانى : الرقيب ، والشـيـحان : الجادى الأمر .
(٥) الربيـثـة : الرقيب ، والسـلـة - بفتح السين - الواحدة من سل السيف ، والأخضر السيف ، والبـاتك : الداع .
(٦) القـرن - بكسر القاف - الكف والنظير ، تهـلت : تـلـأت وأشـرقت .
(٧) أم النـجـوم : يقصد الشمس .

كخلساء سمعاه الملائم حرة مسافرة مزعودة أم فرقة (١)
 غدت بسلاح مثله يتقى به وبؤمن جأش الخائف المتوحد (٢)
 وسامعتين تعرف العتق فيهما إلى جذر مدلول الكعوب محدد (٣)
 وناظرتين تطهران قداهما كأنهما مكحولتان بإعد (٤)
 طباهما ضحاه أو حلاء خالفت إليه السباع في كناس ومرقد (٥)

إلى آخر الأبيات التي ذكرناها في بحث رهير .

ومع الجزالة والقوة ترى السلاسة والمذوبة في نحو قول المهمل بن ربيعة في رثاء
 أخية كليب :

دعوتك يا كليب فـلم تجبني وكيف يجيبني البلد القفار
 أجبني يا كليب خـلاك ذم لـقد لحمت بفارسها نزار
 سقالك الفيث إنك كنت عينا ويسرا حين ياتمس اليسار

وتراها في قول الخنساء ترثي صخرًا :

قذى بيمينك أم بالمين عوار أم ذرفت إذخات من أهلهم الدار ؟
 كأن عيبى لقد كراه إذا حطرت فيص يسيل على الحدين مدار

(١) الخلساء : بقرة الوحش ، سميت بذلك لتأخر أبقها ، سمعاه الملائم ، السفع ،
 سواد في حرة ، والملائم : الخندان ، ومزودة : مذعورة ، ومسافرة : ترحل من
 موضع إلى موضع ، والفرقد : ولد البقرة .

(٢) يريد بالسلاح قريبها ، والجأش : الصدر ، والمتوحد ، الوحيد المفرد .

(٣) السامعتان : الأذنان ، والعتق : الأصالة ، ومعروة العتق ميمها كناية عن أن
 أذنيها محددتان منتصبتان . إلى جذر : مع أصل ، فألى بمعنى مع . ومدلوك : أملس ،
 الكعوب جمع كعب : ما بين العقدتين في القرن ، يردان قرنيها أماسان محددتا الرأس .

(٤) الناظرتان : العينان تطهران قداهما : ترميان به وتنقيانه . والإعد : كهل أسود

(٥) طباهما : دعاها ، ضحاه - بفتح الضاد والحاء - رعى الضحى ، وخلاء : حلو

المسكان خالفت إليه : السباع : اختلفت إلى ولد البقرة : والكاس - بكسر الكاف -

بيت في الشجر تستتر به البقرة أو تستر أولادها من الحر والبرد .

فالمين تبسكى على صخر وحق لها ودونه من جديد الأرض أستاذ

وتراها في قول زهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف :

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بهد ما تمانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلنا : إن ندرك السم واسعا بمال ومعروف من القول سلم

كما تراها في قول عنزة يفخر بإقدامه وشجاعته

بكرت تخوفنى الحتوف كأنى أصبحت من غرض الحتوف بمعل
فأجبتها إن النيسة منهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل

فجزالة الألفاظ وقوتها هي السمة العامة في الشعر البدوي ، إذ يندر أن تجد في شعر بدوي لهظا رقيقا ، وإذا وجد كان - في الغالب - علامة السجل والتزييف ، أما خشونة الألفاظ على صمع المتلقي فهي سمة تلازم بعض الشعر البدوي ، وينأى عنها البعض الآخر ، ويلاحظ أن الخشونة تغلب على الألفاظ حين يفخر الشاعر أو يصف ، كما تغلب السلاسة والمدوية حين يتنزل أو يرتى أو يمدح ، فهي إذن ليست من أمارات البداوة الخالصة ، بيد أن الجزالة والقوة هي الأمانة الناطقة على البدوي إذ هي الملازمة لاستدعاءات البادية بما نحويه من أسباب الحياة .

* * *

أما الشعر الحضري فألفاظه تختلف باختلاف منشأ الشاعر ، ولون الحضارة التي تأثر بها ، فبينما يحتفظ الشاعر البدوي المتحضر لألفاظه بالجرالة والقوة ، يعيل الشاعر الحضري الذي نشأ في الحضرة إلى الرقة والليونة فيها إلى الحد الذي يشكك المتأخرين في صحة ما نسب إليه من الشعر ، كما حدث لمدى بن زيد العبدي ، الذي قال فيه ابن سلام : « عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ، ويراكن الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد (١) » .

(١) طبقات حول الشعراء ج ١ ص ١٤٠ بتحقيق محمود شاكر ، ومعنى يراكن

الريف : يلامه وبطيل الإقامة فيه .

ويلاحظ أن شعر البدوي المنحضر مع قيامه - في العموم - على الألفاظ الجزلة ،
اختلف في بعض حالاته ، ومن حيث الوعورة والحشونة ، فشعر البدو الذين تأثروا
بالحضارة المادية في الحيرة وغيرها من عواصم الإمارات العربية في الجاهلية تردت
ألفاظه بين الوعورة والسهولة حسبما يستدعيه المقام ، أما شعر البدو الذين تأثروا
بالحضارة الإسلامية فإن ألفاظه ظلت وسطا بين الوعورة والسهولة ، فلم تخشن لدرجة
الصعوبة على المناطق والسماع ، ولم تلن لدرجة الانحدار والهبوط عن مستوى الفصاحة ،
لقد تأثر الشعراء في ظل الإسلام بالألفاظ القرآنية ، وبالآخلاق الإسلامية ، ثم اتوا إلى
القرب من السامعين ، والتأسق بين ما يلفظون وما يتناولون من فنون وأصناف .

٢ - والنظر في الشعر البدوي يلاحظ أن العبارات فيه تؤدي وظائفها الفنية في
وضوح واستواء ، لا غوص فيه ، ولا اضطراب ، ولا إعراب ، فالشاعر يتمكن من
لغته ، مدرك مدلولاتها ، مستوعب صيغها ، معايش أطوارها ، ليس غريبا عليها
ولا متطاملا طارئا ، يقنعك بأن ما يقدم صنيع عفو الخاطر ، دون معاناة أو كد ،
وإن كان قد ردد النظر فيه مرارا وراجمه ، حتى صحت له صيغته وعباراته بالشكل الذي
أسق مع مزاجه الفطري ، واستمداده البدوي ، فالسجع محكم ، والبناء متكامل ،
والعبارات تامة ، والألفاظ مجودة مستوية .

كما يلاحظ أن صورهم الفنية تمتد - في الغالب - على الخيال التفسيري أو المعابلة
البيديمية ، والإيماءة الكنائية ، وأنهم في هذا وذلك دائرون داخل الإطار البدوي
لا يشدون عنه ، ولا يتناولون ، عليه ، بيد أن دورانهم هذا لم يكن دورانا عفويا دون
قصد وتمدد ، بل كانوا مدفوعين إليه لتحقيق التجويد ، وإحراز التفوق

ونظرة إلى حكاية عثرة عن جواده في المعركة :

فأزور من وقع القسا بابـهـانه وشكا إلى بهـبـيرة ونحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولو كان أو علم الكلام مكلمى

وإلى قوله بصف القدياب في الروعي :

وخلا القدياب بها فليس يبارح -عردا كفعل الشارب المرهم
(٢١ - الأدب العربي)

هزجا بحمك ذراعاه بذراعاه قدح المكب على الزناد الأجدم^(١)
ترينا اتجاه الخيال العتري واعتاده في إراره على التفسير والمقارنة ، حيث أقامه
على الاستعارة والتشبيه .

ونظرة إلى قول عبد الله بن سلمة الغامدي الأزدي :

ألا صرمت حباثلنا جنوب وفرعنا ومال بنا قضيب^(٢)

ترينا كيف جمع فيه بين الاستعارة في (صرمت حباثلنا) ، والكناية في (ومال
بنا قضيب) فإنه يكفي بذلك عن التفرق ، وابتعاد كل عن الآخر .

ونظرة إلى قول عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومي أنطلقتي رماحهم نطقت ، ولكن الرماح أجرت

ترينا - إلى جوار الاستعارة - التمريض الذي يمر بطريق الإيماء ، والاختصار ،
وذلك في قوله (ولكن الرماح أجرت) ، أي شقت لساني . يعنى بذلك أن رماح
قومه أسكته ومنعته الكلام .

وليس يبيد عنا شعر زهير ، والحارث بن حلزة في معلقتهما .

وإلى جوار هذه الصور التي تعتمد على الخيال التفسيري ، تجدد الصور التي تعتمد
على الخيال الابتكاري ، ويلاحظ أن هذا اللون من الصور يغلب في شعر الفرسان
الصماليك وغير الصماليك ، ولعل ذلك راجع إلى اشتغالهم عن المقارنة ، والبحث عن
المثيل المشابه لتقدمة ، فلم يكن لهم بد من الاعتداد على عرض الحدث بتفاصيله القصصية
فتحقق لهم ذلك النوع من التصوير .

(١) هزجا : مصوتا ، والزناد : حجران يضرب أحدهما بالآخر فتخرج منه النار
والأجدم : مقطوع اليدين .

(٢) المفضليات ج ١ ص ١٠٠ ، صرمت : قطعت ، والحباثل : جمع حبل ، وهو
جمع لم يرد إلا نادرا ، ويقصد بالحباثل المودة ، وجنوب : اسم امرأة ، وفرعنا :
علونا في البلاد ، وقضيب : واد بنجد ، مال بها : سلسكته .

ونظرة في شعر عنتره والشنفرى وعروة بن الورد وغيرهم من الفرسان الأبطال ،
تقفنا على هذا الملحظ .

* * *

فإذا وجهنا النظر إلى شعر الحضرم لم نجد اختلافا كبيرا بين العبارات الفنية ، والصور
البيانية عما وجدنا في الشعر البدوي ، اللهم إلا في الحدود التي تفرضها البيئة على الشاعر
الصادق الذي يمتد في عباراته وصوره على ما يحيط به في بيئته .

ولا ريب في أن ما يجده الشاعر الذي يقيم في جوار المناذرة أو الغساسنة من مادة
صوره غير ما يجده الشاعر الذي يقيم في جوار الرسول صلى الله عليه وسلم وفي ظلال
القرآن ومدنية الإسلام من ذلك

ومن ثم لم يكن غريبا أن تسمع صوت الأعمى يستعير من كنائس المسيحيين
صورة الحراب في قوله .

كدمية صور محرابها بسذهب ذى مرمر مائر
وأن نجد المرقش الأكبر يشبه صياح البوم بصوت النواقيس في أوائل الليل في قوله:
وتسمع ترقاء من البوم حولنا كما صربت بمد الهدو والنواقيس (١)
ولا كان غريبا أن يمرض النابتة الندياني في مدح الغساسنة لبمض أعيادهم ، كعيد
الشعانيين (السباسب) ، في قوله :

رقاق المعال طيب حجراتهم يحيون بالريحان يوم السباسب
كلم يكن غريبا أن نسمع صوت كعب بن زهير في اعتذاره لرسول الله صلى الله عليه وسلم:
إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم يبطن مكة لما أسلموا: زولوا

* * *

٣- والباظر في الشعر الجاهلي - بدويه وحصريه - يلاحظ أن الموسيقى فيه
ناصجة تماما ، سواء في ذلك ما يجدهه الورد ، وما تجدهه القافية ، ويبحث عن المرفى

(١) ترقاء - بفتح التاء - الصياح ، والهدو : أوائل الليل .

ذلك فيجده كما نرى في الوصول بمصدرى الموسيقى الشعرية - الورد والقافية - إلى أرقى درجة؛ فقد تمكنوا في هذا العصر من اللبس الموسيقي، وبرعوا في تجرئة الأوزان، وملكوا زمامها، هلاءوا بينها وبين القافية، ثم استطاعوا أن يتخيروا من هذين ما يتسق مع المعنى، فضموا الشعر المأسوبي فيما متهما يتأرر فيه الشكل للمادى مع الإيقاع الموسيقي مع المضمون الشعرى . على نحو ما نرى فى شعر أصحاب المملكات، ودريد بن الصمة، والمتاس، والشنفرى، والثقب العبدي، وأبى دؤاد، وحسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وغيرهم كثير ممن لا يحصون عدا .

وقد حاول بعض الدارسين أن يبعث تميز شعراء بعض المناطق عن غيرهم فى الموسيقى الشعرية، لكن الوسائل إلى ذلك ما رالت محدودة لانتدح الوصول فى هذا الصدد إلى رأى قاطع واضح، ولعل فى مستقبل الدراسات الأدبية ما يمكن من تحقيق ذلك .

ومن اشتغل بهذا اللون من الدراسة والبحث الدكتور عوستاف فون غرنباوم، وقد حرج من دراسته تلك بنتائج خطيرة كان من أهمها - مما يتصل بموضوعنا - ملاحظته من أن التفنن فى الأوران الشعرية فى العراق كان أغنى فى هذا العصر مما كان عليه فى أى مكان آخر .

وما لاحظته من نمو بحر الرمل فى الشعر الحبرى، وإهماله فى سائر المناطق الأخرى من بلاد العرب، فقد أكثر شعراء الحيرة من هذا البحر ولم يستعمله فى الشعر القديم إلا أبو دؤاد فى ثلاث قصائد، وطرفة فى ثلاث قصائد، وعدى بن زيد فى سبع قصائد، والثقب فى قصيدة واحدة، والأعشى فى اثنتين .

ولما بحث عن اللمة فى نمو هذا البحر فى شعر الحيرة - مع إهماله فى سائر البلاد العربية - أرجع ذلك إلى أن الرمل استعير من الوزن البهلوى الثماني المقاطع كما صورته بنفيسته (المجلة الآسيوية ٢ : ٢٢١ سنة ١٩٣٠) ، وأنه عدل على نحو يلائم العروض العربى .

وما لاحظته من نزوع مدرسة الحيرة إلى بحر الحفيف، الذى نجد منه خمس عشرة قصيدة لأبى دؤاد، وسبعا لعدى بن زيد، وخمسا للأعشى (١)

(١) راجع (دراسات فى الأدب العربى ص ٢٦٥ وما بعدها ترجمة الدكتور إحسان عباس وآخرين .

ولا ريب في أن هذا اللون من الدراسة - على طرائقه - يحتاج إلى بحث وتقص
للشعر الجاهلي في مختلف بيئاته ، حتى تتحقق من صحة ما يتقرر في هذا الصدد .

٤ - والناظر في الشعر الجاهلي يلاحظ أن للشعراء - بدوا وحضرا - منهجا
يكاد يكون ثابتا ، لا يختلف إلا في الندر اليسير ؛ فهم في مجموعهم يبتدون قصائدهم
بمقدمات تمهد للموضوع ، يلب عليها أن تكون وقوفا على طلل ، أو دعوة إلى وقوف ،
أو تغزلا في امرأة ، ثم في براعة فنية يخلصون إلى الموضوع مدحا كان ، أو غزا ،
أو غزلا ، أو رثاء . . .

كما يلاحظ أن الشاعر يعنى بتقديم موضوعه من خلال أفكاره في أناة وروية
- على اختلاف بين البدوي والحضري . في مظهر ذلك - فهو لا يستقل من فكرة إلى
أخرى حتى يطمئ إلى تمام عرضها ، مستوعبا في ذلك الصور المختلفة التي قد تعين في
إيضاحها ، مستقصيا كل الجوانب والأبعاد فيها ، حتى أصبح من ينظر في القصيدة من
معاصرينا يشغل بالعكسة عن تاليتها ، فيتوهم أن القصيدة مفككة الأفكار ، أو أنها
متمددة الأغراض والقاصد . فأصبح - في تقدير هؤلاء - من عيوب الشعر الجاهلي
الافتقاده إلى الوحدة الموضوعية .

وفي الحق أن هذا ليس عيبا في الشعر الجاهلي ، وإنما هو عيب في معاصرينا ممن
لا يسرون في القصيدة الجاهلية بخطى أصحابها ، ولكن يسرون بخطاها في العصر الحديث .

ومن ثم كان للقصيدة العربية شكل متميز ثابت ، لا يكاد يختلف فيه شاعر عن آخر ،
لأنهم إلفوا بمض الأحوال التي ينقل فيها الشاعر المقدمة ، أو يضطره المقام إلى الإسراع
نوعا في عرض أفكاره ، فيتجاوز الاستقصاء والاستيعاب التصويري ، كما في المرثي ،
والمواعظ ، وبعض القصص .

الباب الرابع

النثر بين البدو والحضر

الفصل الأول

فنون النثر قبل الإسلام وخصائص كل فن

لا أشك في أن العصر الجاهلي قد عرف للنثر الأدبي باعتباره وسيلة من وسائل البيان ، ولا أشك كذلك في أن ما عرفه الجاهليون من فنون النثر لم يكن على غرار ما عرفه غيرهم من الأمم ؛ إذ لكل أمة ما يناسبها من فنون المقال وفقا لدواعي القول عندها ؛ ولا يحق لنا أن نطلب في الأدب العربي من فنون النثر ما نجد في الأدب اليوناني أو الروماني أو نحو ذلك .

أقرر ذلك على الرغم من آراء كثير من المستشرقين ومن تابعهم التي يزعمون فيها أن عرب الجاهلية لم يعرفوا النثر الفني ؛ لأن عرب الجاهلية لو كانوا يجيدون النثر الفني لما كان لتعليمهم بالقرآن الكريم قيمة ؛ فالتجدي المعجز لا يكون عن فقر ، وإنما يكون عن مقدرة في ذلك المجال . هذا إلى أن عرب الجاهلية لو كانوا غرباء عن النثر الفني لما استطاعوا أن يتذوقوا البيان القرآني ويحلوه المحل المؤثر في نفوسهم ، فيكون سببا في إسلام عمر بن الخطاب ، وعاملا من عوامل التشكك في نفس الوليد بن المغيرة وضربائه من الجاهليين الذين وجدوا في القرآن ما يدهمهم إلى التروى في الحكم ، ومماودة للنظر ، لولا خوفهم من ثورة قومهم ، وحشيتهم من ضعف سلطانهم الموروث .

ولا أشك في أن أكثر نثر هذا العصر لم يصلنا ، لعدم تسجيله في كتاب يحفظه ، ولضادته بالقرآن الكريم واشتغال العرب به من أسلم منهم ومن لم يسلم ، مما كان له أبعاد الأثر في الانصراف عن أكثر نثرهم الموروث ، وضياعه بمرور الوقت وفقد من حفظوه .

كما لا أشك في أن القليل الذي وصلنا من نثر هذا العصر يمكن أن يلقى الضوء على هذا الفن الأدبي عند الجاهليين ، على الرغم مما قد اعتراه من إضاعات وتغيير في بعض عباراته ، وتحريف في بعض أصوله ؛ إذ هو - مع كل ذلك - يطلعنا على فنونه السائدة

بينهم ، ويعرفنا بكثير من قضاياهم التي كانت تشغل تـهـكـرهم ، كما يقفنا على منجزهم
البياني في ذلك الفن .

هذا فيما يتصل بالثر قبل الإسلام ، أما بعد مجيء الإسلام ، والحض - في ظله - على
تعلم للكتابة ، واستئلالها في تدوين المهم من أمور الحياة العربية الإسلامية ، فإن حال
الآداب المنشور تختلف عن حاله فيما تقدم ؛ فتد وثقه التدوين ، وقام على حفظه طائفة
من الكتّابين كل في ميدانه الخاص ، ابتداء بالقرآن الكريم .

فالثر العربي - في ظل الإسلام - يختلف من هنا عن الثر العربي قبل الإسلام .

ثم إنه يقوم على دعائم مختلفة من ألوان للبيان العربي . . . واختلاف هذه الدعائم
ليس اختلافا في أسلوب الأداء ، ولا اختلافا في الشكل ، ولا في الموضوع فحسب ، بل
هو فوق ذلك كله يختلف في المصدر ؛ وذلك لأن دارس الثر العربي في صدر الإسلام
يجد نفسه أمام ثر عربي ليس صادرا عن كائن عربي ، بل هو منزل من رب العرب
والمعجم رب العالمين ، دلسم هو القرآن الكريم ، ويجد نفسه أمام ثر عربي صادر عن
كائن عربي ، بيد أن له من الظروف ما يجعله في مركز الريادة والقيادة والقدوة ، تهوى
إليه أممته العربي وغير العربي من مختلف بقاع الأرض ، وذلك هو الحديث النبوي
الشريف ، كما يجد نفسه أمام ثر عربي حاض لـكل ما تخضع له فنون الآدب من تأثر
وتطور واحتداء .

من ثم لا يستطيع دارس للآدب العربي في ظل الإسلام أن يتجاوز في دراسته
القرآن الكريم والحديث النبوي ؛ فالقرآن - وإن كان ليس من صنوع بشر - بيان
عربي مبين . وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم بيان عربي ، نسجه أول من تلمذ
على القرآن الكريم وتأدب بأدابه . . . ومهمة الدارس أن يتناول كل بيان في لسان
اللغة التي يدرس آدابها .

بيد أن الأمر يختلف في دراسة القرآن عنه في دراسة غيره من الآداب ؛ إذ دراسة
القرآن الكريم لا تتناول الأطوار المنية له ولا المؤثرات الخارجية التي خضع لها ؛
إذ كلام رب العالمين لا يخضع لمؤثرات خارجية ، ولا يمر بأطوار ننية ، إنما ذلك شأن
النتاج البشري الذي يخضع صاحبه نفسه للتغيرات ، ويمر في حياته بمديد من الأطوار .

أما من يقول بأن القرآن الكريم ليس نثراً ، كما أنه ليس شعراً ، وإنما هو قرآن (١) ، فهو يتلعب بالألفاظ في محاولة للتلاعب بالعقول ، وليس ترفعا بالقرآن الذي قال منزله في وصفه إنه « بلسان عربي مبين » ، واللسان العربي شعر ونثر ، فإذا لم يكن القرآن شعراً - وهذا واضح - مقرر بالنص القرآني أيضا - كان نثراً دون شك أو جدال . لكن نثر ذو سمات خاصة في قيوده البيانية ، وفي شكله ، وفي أسلوبه ، إلى غير ذلك ، كما أنه ذو سمة خاصة في مصدره .

* * *

والناظر فيما تناقله الرواة من النثر منسوبا إلى من قبل الإسلام يلاحظ أنه يدور في محورين متميزين :

أحدهما محور التعبير الموجز الذي يتمدد على الإشارات البيانية والتأكيد الحافظة في حمل الحدث القصصي ، دون إجهاد في بناء قصص ، أو في نقل خبرات الأديب بالحياة وهذا هو المعروف بالمثل والحكمة .

والثاني محور التعبير الخطابي الذي يتمدد فيه صاحبه على وسائل التأثير الفنية في الوصول إلى عقل المخاطب وحسه ، وهذا هو المعروف بالخطب والوصايا والمحاورات والناشرات ، فهذا كله تعبير لصوت صاحبه وهيئته ومنهجه فيه دور كبير .

فالفنون الأدبية التي قدمها النثر الجاهلي هي المثل ، والحكمة ، والخطابة ، والوصايا ، والمحاورات ، والناشرات ، وأما ما روى من القصص الجاهلي فلا أستطيع أن أسلكها ضمن فنون نثرهم ، لأنها من صياغة رواياتها ، وإن كانت أحداثها جاهلية ، فهي أدب غير جاهلي يعالج قضايا وأحداثا جاهلية ، بيد أنها - إلى ذلك - تشير إلى أن الجاهليين صاغوا هذه الأحداث في قصص وتداولوها فيما بينهم ، والناظر في كتاب الأغاني يجده حافلا بألوان من القصص الجاهلي .

(١) انظر من حديث الشعر وللنثر للدكتور طه حسين ص ٢٥ الطبعة العاشرة

(١)

الحكم والأمثال

الحكمة :

قول بليغ موجز يفيض به اسان حكميم يجمع خلاصة تجاربيته وخبراته بالحياة ، ويقوم على مقررات ثابتة مسلم بها تقبلها العقول ، وتقاد لها النفوس والشاعر .

والحكمة من أنسب ما يتداول في البيئات القبلية التي تمتاز برجل القبيلة ، ويكبر شبابها شيوخها ، وينصقون بهم ، يأخذون عنهم ، ويتأسون طريقتهم ، مهم لهم للمارة للرشدة ، والقيادة للوجهة . ومن ثم كثر في العصر الجاهلي الحكماء ، وكان في كل قبيلة حكميم - إن لم يكن أكثر من حكميم - تفرغ إليه في الشدائد ، وتلجأ إلى رأية في المضلات ، وتجاس إليه في وقت السلم تأخذ منه ما يمينها على مستقبل الأيام .

وحفاظا من الحكميم على مكانه ، وحرصا على أن تعلق به القبيلة ، كان يهتم كل الاهتمام بصياغة حكمته ، ويديرها في رأسه مرارا حتى تكون وامية شافية .

ولذلك كان للحكمة من الخصائص الفنية ما يميزها عن غيرها ، ويضمن لها أداء الغرض منها ، والوصول إلى قلب وعقل متلقيها ، ومن أبرر تلك الخصائص :

اعتناء الحكميم بانتقاء الألفاظ وحرصه على أن تكون تلك الألفاظ الموحزة قادرة على أن تضم المعنى المجرد إلى المعنى الحسي لتصنع منها صورة قريبة للتناول ، واضحة للدلالة ، ذات إيقاع ينسجم مع محتواها .

وحرصه على أن يشحن تلك الألفاظ بخلصة حبراته وتجاربه الإنسانية ، معتمدا على الصدق والإخلاص والتعميم .

ثم دقته في نظم تلك الألفاظ بطا يهيئها لنقل ما تحمّل كعربحا أو تديحا .

ومن أشهر الحكماء الجاهليين :

١ - أكرم بن صيفي التيمي ، وكان من المعمرين ، ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه مركب متوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات في

للطريق وقد نسب إليه حكم كثيرة منها : شر النصره التمدي ، رب قول أنفذ من
صول (١) . رب محلة تهب ريبا (٢) . إذا نزع الثؤاد ذهب الرقاد . رب كلام ليس فيه
أكتتام . ليس من المعدل سرعة المعدل . ويل للشجى من الخلى .

٢ — عامر بن الظرب للعدواني ، وهو من العميرين كذلك ، ويقال : إنه لما
أسن واعتراه النسيان أمر ابنته أن تقرع بالمصا إذا هوفه (٣) عن الحكم وحر عن
القصد ، وكانت من حكيمات العرب . . وفي ذلك قال للمتلمس (٤) :

لندى الحلم قبل اليوم ما تفرع المصا وما علم الإنسان إلا ليعلم
وود نسب إليه كثير من الحكم والوصايا، منها : رب زارع لنفسه حاصد أغيره .
المقل نائم والهوى يقظان . من طلب شيئا وجدته .

وكتب الأدب تفيض بالحكم الجاهلية ، لكن أكثرها يذكر غير منسوب إلى
قائله ، مما كان عاملا من عوائل اختلاط الحكم الجاهلية بغير الجاهلية ، وإيجار
الحكمة لا يتيسر لدارس أن يتلمس مصدرها .

المثل :

واضح من التسمية الفرق بينه وبين الحكمة ، وإذا كانت الحكمة تعتمد على خبرات
قائلها وتجاربه ، فإن المثل يعتمد على المائلة والمشابهة ؛ إذ يلاحظ فيه مشابهة موقف
لموقف آخر فيقال في هذا ما قيل في ذلك . هائل : قول موجز سأريشبه مضربه بمورده .
ويعتاز المثل بأنه يوصى إلى حادثة أو قصة أو خبر تضمنت تلك العبارة السائرة ،
بحيث تقترن القصة بها ، فإذا ذكرت العبارة مثلت القصة الأصلية وتراءت في الألف ؛
وبذلك يمكن أن تعرف على كثير من أحداث الجاهلية بالنظر في أمثالهم .
وكا يشير المثل إلى موقف واقعي ، قد يشير إلى حادثة مفترضة ، يتصد بها الوصول

(١) الصول - يفتح فسكون - الاستطالة في الحرب .

(٢) الريث : البطء .

(٣) فـه : حاد ومال .

(٤) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٨

إلى عقل ساممها وقلبه ، فيتخيل أحداثها واقعة بين حيوانات أو أناس أو جماد أو نحو ذلك ، ومن ثم كان من الأمثال الحقيقي والافتراضي .

ولعل العرب قصدوا بالأمثال أن تكون وسيلة من وسائل النشر الأدبي ؛ إذ حملوا العبارة القصيرة السائرة قصة ذات دلالة خاصة ، وأصبح من السهل اليسور على كل عربي أن يتداول القصة العربية من غير حاجة إلى كتابة ولا إلى مجهود شاق في حفظها ونقلها ، فيكفي أن تثر تلك العبارة في جمع ليستعيدوا الحدث الأصلي الذي قيلت فيه .

وبذلك يكون للمثل رسالتان يؤديهما ، أحدهما . تشبيه حدث بآخر والإيحاء بأن ما جرى هناك جدير بأن يحدث هنا ، ثانيهما : إذاعة القصة العربية ونشرها بأيسر السبل ، وأقربها إلى ذوق كل عربي . من ذلك :

واق شن طبقة :

قيل إن شا هذا رجل من دهاة العرب ، خرج يبحث عن امرأة مثله يتزوجها ، مراعاة رجل في الطريق إلى القرية التي يقصدها ، ولم يكن يعرفه . قال شن : أحملني أم أحملك ؟ فقال الرجل : يا حاهل أنا راكب وأنت راكب ، وكيف تحملني أو أحملك ؟ فسكت شن حتى قابلتهما جبارة ، فقال شن : أصاحب هذا المش حتى أم ميت ؟ فقال الرجل : ما رأيت أجهل منك ، ترى جبارة وتساءل عن صاحبها أميت أم حي ، فسكت شن ، ثم أراد مفارقتها ، فأبى الرجل وأخذته إلى منزله ، وكانت له بنت تسمى طبقة ، فسألت أباه عن الضيف فأحبرها بما حدث منه ، فقالت : يا أبت ما هذا بجاهل ، إنه أراد بقوله أحملني أم أحملك : أحمدني أم أحذرك ، وأما قوله في الجبارة فإنه أراد هل ترك عقبا يحيا به ذكره ؟ فخرج الرجل وجلس مع شن وفسر له كلامه ، فقال شن ما هذا بكلامك ، وصارحه بأنه قول أبلته طبقة ، وتزوجها شن ، فقيل : واق شن طبقة وأصبح يضرب للمتوافقين .

الصيف ضيبت الابن .

قاله عمرو بن عمرو بن عدس وكان شيخا كبيرا تزوج بامرأة فضانت به ، فطلقها فتزوجت بقى جميلا ، ولكنهما أجدبت ، فبعثت تطلب من عمرو لبنا ، فقال : الصيف ضيبت الابن ، وأصبح يضرب لمن يطلب شيئا دونه على نفسه .

على أهلها تجنى براقش :

كانت براقش كلبة تقوم من العرب فأغبر عليهم ، فهربوا ومعههم براقش ، فاتبعه القوم آثار بياح براقش ، هجموا عليهم فاصطلموهم ، فقيل : على أهلها تجنى براقش . يضرب لمن يعمل عملا يرجع ضرره إليه .

كيف أعاودك وهذا أثر فأسك :

أصل هذا المثل - على ما حكته العرب على لسان الحية - أن أخوين كانا في أهل لها فأجدت بلادها ، وكان بالقرب منهما واد خصيب وفيه حية تحميه من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا بلان لو أنى أتيت هذا الوادى المسكلىء ورعيت فيه إبلى وأصلحتنا . فقال له أخوه . إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحدا لا يهبط ذلك الوادى إلا أهلكته ، قال : فوالله لأفعلن ، فهبط الوادى ورعى به إبله زمنا ، ثم إن الحية نهشته فقتلته ، فقال أحده : والله ما فى الحياة بمسد أخى خير ، فلأطابن الحية ولأقتلها أو لأتبعن أخى ، فهبط ذلك الوادى وطلب الحية ليقتلها ، وقالت له الحية : ألسنت ترى أى قتات أخاك ؟ فهل لك فى الصلح وأدعك بمسد الوادى تكون فيه وأعطيك كل يوم دينار ما بقيت ؟ قال : أو فاعلة أنت ؟ قالت : نعم . قال : إني أفعل ، خلف لها وأعطها الموائيق لا يضرها ، وجملت تعطيه كل يوم دينار ، فكثرت ماله حتى صار من أحسن الناس حالا ، ثم إنه تذكر أحاه ، فقال : كيف ينفعنى العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى؟ فعمد إلى رأس وأخذها ثم عمد لها فمرت به فتبعها فضرها فأخطأها ودحات الجحر ، ووقعت الرأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه ، ولما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار ، فخاف الرجل شرها وندم ، فقال لها : هل لك فى أن تتوائق ونعود إلى ما كنا عليه ؟ قالت : كيف أعاودك ومسد أثر فأسك ؟ يضرب لمن لا يبنى بالمهد .

(٢)

الخطابة

الخطابة أحد دون النثر ، وهي ليست وثقا على أمة دون أمة ، لكنها في كل وسط تتشكل بما يتناسب مع متطلبات مخاطبين ؛ إذ هي كلام منشور يتجه به صاحبه إلى من يجتمعون إليه ، بقصد الوصول إليهم بما لديه من أفكار .

ولا ريب في أن أنسب البيئات لازدهار الخطابة ما ظلتها الحرية ؛ حيث يستطيع كل فرد أن يعبر عما في نفسه ، وأن يخاطب مجتمعه بما يوجد ، ويعمل على توجيهه إلى ما يرى .

ولا ريب في أن البيئة العربية في العصر الجاهلي كانت من أنسب البيئات لازدهار هذا الفن وتطويره ، بيد أن الشعر كان - في أول الأمر - المستحود على اهتمام العرب وكان الشاعر يقدم على الخطيب ، لمرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم ما تروم ، ويفتحم شأنهم ، فلما كثر الشعر والشعراء ، واتحدوا الشعر مكتوبة ، ورحلوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر (١) بل لقد أصبحت الخطابة ملازمة للسيادة فكانت من أهم ما يتميز به السادة ؛ وما كان يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته ، ولم يكن يتعاطى الخطابة في هذا العصر - غالبا - إلا سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدر الفضل ، وسبق إلى ذرا المجد ، ويخوضون ذلك بالواقف الكرام ، والمشاهد النظم ، والمجالس الكريمة ، والمجاميع الحفيا (٢) .

فالخطابة - كما يتضح من ذلك - إنما احتفل بها الجاهليون لأن الشاعر - في رأى بعض السادة - انحط بشعره إلى مستوى أفقة العربي الشريف ، وأبى أن يكون واحدا

(١) الممددة ج ١ ص ٨٢ ، والبيان والتبيين ج ١ ص ٢٤١ ، ج ٤ ص ٨٣ بتحقيق

عبد السلام هارون

(٢) صبح الأعشى للقلقشندي ج ص

من هؤلاء الشعراء ، ترنما عن أن يظن فيه التمسك بالشعر وامتنانه . ولم يختلفوا بها لذاتها ولتوفر دواعيها وأسبابها .

ومن ثم يلاحظ الناظر فيما وصلنا من خطابتهم - على تشكك في صحة نصه - أنه توقف عن التطور والنمو ، فلم يكن الخطيب يطمح في أن يصل من سامعيه إلى أكثر مما يصل إليه الشاعر منهم . وطالت قصاراه أن يستحوذ على قلوبهم ، ويمك مشاعرهم ، دون أن يهتم بأن يتجاوز للتأثير إلى الإقناع ، لأن التصد إلى الإقناع يحتاج إلى التدبر قبل الكلام ، ومراجعة ما يقال ، وترتيب الحجج ترتيبا تقع به في مواقعهم . . . إلى غير ذلك .

فالخطابة الجاهلية كانت إلى الشعر أقرب ، ولولا تحلل الخطيب من بعض قيود الشعر لكانت شعرا ، لأن أفكارها ومعانيها وأغراضها كانت في أكثرها شعرية ، فإذا ما تحقق في مبناها البناء الشعري أصبحت الخطبة قصيدة بكامل مفهومها .

* * *

ومن يردد نظره فيما وصلنا من خطابة تمزى إلى هذا العصر يلاحظ أنها تتميز بخصائص بيئية من أبرزها :

١ - ضيق أسلوبها ؛ فقد أصبح يتردد بين أن يكون حكما وأمثالا يسردها الخطيب لتقوم بدور التأثير ، وبين أن يكون أسجاعا ذات قوود إقناعية تقترب بالخطبة من الشعر خطوات ، وبين أن يكون أفكارا متباينة لا يشدها إلى بعضها إلا رابط تقصى . مثال ذلك ما جاء على لسان هانيء بن قبيصة الشيباني في قومه يوم ذي قار ، يحرضهم على القتال :

« يا معشر بكر ! هالك معذور خير من ناج فرور إن المحذر لا ينجى من القدر .
وان الصبر من أسباب النصر . المنية ولا الدنيا . استقبال الموت خير من استدباره .
لظمن في ثمر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور » .

فهى - كما ترى - جملة من حكم شتى ، لا يربطها رابط فنى ، سوى التأثير النفسى .

- ومثال ذلك - كذلك - قول الأوس بن حارثة يوصى ابنه مالكا :

« يا مالكا ! المية ولا الدنيا ، والعتاب قبل العتاب ، والتجلىد ولا التبلىد واعلم

أن القبر خير من الفقر . وشر شارب المشف . وأصبح طاعم للقتف . والدهر يومان ،
فيوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك ولا يطر ، وإذا كان عليك فاصبر ، فكلاهة
سينحسر » .

وقال أكنم بن صيفي في خطبته أمام كسرى :

« إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ،
وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . للصدق منجاة ، وللكذب مهواة ،
والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والمعجز مركب وطىء .. »

« آفة الرأى الهوى ، والمعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن
ورطة ، وسوء الظن عصمة »

« إصلاح ساد الرعية حـير من إصلاح فساد الراعى ، من وسدت بطانته كان
كالعاص بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء »

٢ - ضيق أعراضها ؛ وسكا ضاقت أساليب الخطابة الجاهلية ضاقت أعراضها ،
وانكشمت ضروبها ، تبعاً لما تقتضيه البيئة العربية إذ ذاك ، وحسباً تتسم به حياتهم
البدوية من البساطة والسذاجة ، سواء في ذلك حياتهم العقلية والسياسية والاجتماعية .
ومن ثم قصرت أعراض الخطابة على المناورات والمفاخرات ، والحض على القتال ،
والتحريض على الأخذ بالثأر ، وإصلاح ذات البين ، والنسكاح ، والإرشاد ، وحطاب
المحال والوفود ، والوصايا ، وسجع الكهان .

ومع كثرة هذه الأعراض عددياً ، نلاحظ أنها كثرة لاثرى ، فليس في هذه
الأغراض ما يدفع الخطابة إلى الترقى فنياً ؛ إذ كلها يكاد يدور في محور - إن لم يكن
واحداً - فهو أدنى إلى التوحد .

فبجال المناورات والمفاخرات يعتمد على دقة للمحظ . واستغلال الصمات في إحام ،
الحصم ، دون أن يهتم بابتسكار المص ، وتنميق العبارة ، وتجويد الأسلوب .

وميدان الحض على القتال ، والتحريض على الثأر ضيقته طبيعة العربي المنهية
للانتفاض ، المستمدة للقتال ، والتحريض يحتاج إلى الابتسكار والتنميق والترتيب إذا
كان موجهاً إلى إنسان في حاجة إلى إثارة أو إقناع ، أما إذا كان عربياً جاهلياً فهو ليس

في حاجة إلى شيء من ذلك ، ومن ثم فالتحريض بالنسبة له ليس أكثر من تنبيه
ولفت نظر ، ومثل هذا ليس في حاجة إلى تفان وتحسين وترتيب

والإصلاح والإرشاد والوصايا أغراض حددتها حياة العربي ، والشكل الإجتماعي
الذي يسود بيئته ، فليس شيء من ذلك في غالب الأمر بموجه إلى جمهور ، وإنما هي
أقوال من فرد إلى فرد أو بضمه أفراد لهم في القبيلة مركز القيادة والتوجيه . ومثل
هذا لا يحتاج إلى تشويق للكلام وإعداده إعدادا خاصا ، فالقائل والسامع في مركز
مقارب من قيادة القبيلة ، وليس بينهما غالبا سوى فارق السنين . . . فهي أقرب إلى
الحكم المنثورة منها إلى الخطابة .

أما خطب المحافل والوفود فتقيدتها طبيعتها السياسية ، وشكلها الرسمي الثابت ؛
إذ هي لا تتجاوز تحية في استقبال وفد ، أو شكرا في توديع مضيف ، ولا شك في أن
مثل هذا لا يتطور من القول ، ولا يسهم في تطويره بالتقدير الذي يحسب له .

وما سجع السكهان بأومر حظا من تلكم الأعراض السابقة ، بل إنه أضيقها جميعا ،
وأبدها عن مباشرة الإثراء لهذا الفن .

إذا فهي أغراض كثيرة ، لسكنها - كما رأينا - مع كثرتها لا يتسع ميدان واحد
منها لأن يطلق عقاب الخطيب ، فيصول ويجول ، ويقاب المعاني على مختلف الوجوه ؛
بل هي جميعا تسكد تصدر عن منبع واحد ، لا تختلف مذاقه وإن اختلفت ألوانه
ودواعيه ، فهي إلى الحديث السائر أقرب من أن تكون عملا أدبيا ذا قيم فنية معينة ،
أو قواعد أسلوبية يرتكز عليها . . . بيد أنهم - إلى ذلك - تمارفوا على سنن وتقاليد
تتبع في خطابتهم ؛ فكانوا يخاطبون على رواحهم في الأسواق المظلمة ، والمجامع
الكبيرة (١) . وكانوا يلوثون المائم على رءوسهم ، ويمسكون بالمحاصر (٢) والتضبان ،
ويتمددون على الأرض بالقسي ، ويشيرن بالمعصى والقنا ، حتى كانت المحاصر لا تفارق

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٧

(٢) المحاصر جمع مخصرة : ما يختصره الإنسان فيمسكه بيده ، من عصا أو مقرفة

أو عكازة أو قضيب .

أيدي الملوك في مجالسها^(١) . وكانوا يمدحون في الخطيب ثبات الجنان ، وحضور البديهة ، وقلة التلث ، وكثرة الربق ، وجهارة الصوت وقوته ، وكانوا يميون فيه للتنحيز والارتماش والحصر والتعثر في الكلام . . إلى غير ذلك مما عني بتفصيله الجاحظ. في بيانه .

٢ - قصر بنائها ، ولعل ذلك من أهم ما يلاحظه المدارس على خطب الجاهليين ، وهو قصر فرضته طبيعة الحياة الجاهلية على الخطيب ، وليس قصرا مقصودا أرادته الخطيب تحقيقا لهدف واضح ؛ فالبيئة لا تستدعي طول الخطبة إلا إذا كانت ذات حياة فكرية نامية ، وإلا إذا كانت ذات حضارة معقدة ، من كل ما يتطلب البسط في الحديث ، والتفصيل في المواقف ، والتكرار في الأفكار بنية للتقرير والتأكيد ، وبسطا للخطبة ، وتقوية للبراهين لكن البيئة العربية في ذلك الحين لم تكن تمتدتها الحضارة ، ولم تكن عزتها المدنية ، فقد كانت الحياة فيها بسيطة ساذجة ، ومن ثم كان العربي بعيدا عن الفلسفة والتعقيد ، ولم يتيسر له من العوامل ما يخرج به عن طبيعته الفطرية السائدة التي تدفعه إلى أداء فكرته بأوجز عبارة وأوضح أسلوب . وهذا مرثد الخبير أحد أقبال^(٢) حمير يخطب في الصالح بين سبيع بن العارث أخى ذى جدى ، وميثم بن مثوب بن ذى رعين حين تنازعا الشرف ، وشاحنا حتى خيف أن يقع بين حبيهما شرفيتان أصلاهما ، وذلك قوله : « إن التخبط ، وامتطاء الهجاج^(٣) . واستحقاق الهجاج^(٤) سيقكما على شفاهوة في توردتها بوار الأسياب ، وانقطاع الوسيلة . فتلافيا أمر كما قبل انتسكات المهدي وأنحلال المقد . وتشتت الألفة . وتباين السهمة^(٥) وأنتا في فسحة رافهة . وقدم واطدة . والمسودة مثرية^(٦) . والبقيا

(١) البيان والنبين ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) أقبال جمع قبيل : من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم .

(٣) امتطاء الهجاج : ركوب الرأس وعدم التروى .

(٤) استحقاق الهجاج : التمسك بالخصومة .

(٥) السهمة : القرابة .

(٦) مثرية : متصلة .

معرضة^(١) ، وقد عرفتم أنبياء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح ، وخالف
الرعيذ ، وأصغى إلى التقاطع ، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان
صيور أمورهم ، قتلاهم للقرحة قبل تفاقم النأى^(٢) ، واستفحال الداء ، وإعواز الدواء ،
فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء ، وإذا استحكمت الشحناء تقضبت^(٣) عرى
الإبقاء ، وشمل البلاء .

هذا مع استثناء بعض الخطب ؛ فقد كانوا يطيلون سببا في حطب النكاح ،
وإصلاح ذات البين .

ولا يمكن بحال أن تتصور وصول خطبة من خطبهم كاملة مفصلة كما قالها أصحابها ؛
لمجز الرواة عن استظهارها كلها ، فهم إما يحفظون منها ما كان أشد قرعا لاسمع ،
ووقما في النفس ، بعبارة تحمل ذات المعنى الأصيل ، وإن اختلفت عنها شيئا في
بعض اللفظ .

ومع هذا فلا يمكن كذلك أن تتصور خطيبا جاهليا محيط به بيئة الجاهلية بكل
أبوابها وأغوارها يخطب فيطيل الإطالة التي نهدها في الخطابة بعد ذلك المصير لما
قدمنا آنفا ، ولا تطبع للعرب الجاهليين على الإيجاز ، ولأنها أسهل للمعظ ، وأسرع
شبوعا من الخطب الطوال .

٤ — عدم الاهتمام بالمقدمات ؛ فقد كان الخطيب في الجاهلية يرجع على أغراضه
مباشرة من غير تقديم ولا تمهيد ؛ إذ الخطبة بالنسبة له لا تخرج عن أى عمل يقوم به
العربي في تلك البيئة بما تشتمله من صراحة ووضوح وانكشاف ، وبما تنطوى عليه
الحياة فيها من قسوة وخشونة . . فليس شء مما يقع عليه نظر العربي مرت عليه يد
التهديب والتثقيف إلا أن تكون ضرورة الحياة هي التي تفرض عليه تهديبه أو تثقيفه ،
وليس في صحرائه المكشوفة الواسعة ما يلفتته إلى الالتواء .

(١) معرضة : مسكنة .

(٢) النأى : الإنساد .

(٣) تقضبت : تطلعت .

هذا إلى أن شدة الحياة خلعت على نفسه الضيق والتبرم - وإن لم يعرفها في نفسه -
بما يدغمه إذا قال إلى أن يبدأ بما يريد أن يقول ، وإذا سمع أن يطلب سماع ما يراد أن
يقال بحسب .

ثم إن الخطيب العربي - إلى ذلك - لم يكلف نفسه وضع خاتمة ينهى بها كلامه إذا
ما انتهى من عرض فكرته لذلك السبب الفطري ذاته .

ومن ثم لم تسكن في الخطبة الجاهلية أقسام واضحة ، وإنما هي أقوال مباشرة ،
كما تبدأ تنتهى ، وفي خطبة مرثد الخير التي قدمناها آنفا ما يشير إلى تلك السمة في خطابة
الجاهليين ويقررها ، فضلا عن أن تلك السمة هي الطبيعة الواضحة التي لو وجد غيرها
في خطابهم لسكان تزيدها أو شذوذها .

٥ - سذاجة الأمكار التي تشتملها الخطبة الجاهلية وبساطتها على العموم ، وذلك
لضآلة نصيب العرب في تلك الآونة من الثقافة العسكرية ، فقد كان جبل همهم - في
الثقافة - أن يعرف المرء شيئا أو أشياء عما يحيط به مما تتطلبه الحياة في بيئته تلك
فعملى من يريد الثقافة أن يعرف شيئا عن موانع النجوم ومطالع الكواكب ، وعن
أسرار الرياح في هبوبها وتووعها ، وعن تاريخ القبيلة ، وأيام العرب ، أو تاريخ
أمتة . . . إلى غير ذلك من المعلومات السطحية البسيطة التي لا تخرج عن ذلك الإطار
الضيق المحدود ، والتي لا تخرج إلى كد ذهن ، أو إعمال فكر ، أو قصد إلى ترتيب
وسمى إلى استنباط ، وإنما هي حقائق مقررة قسارى ما تتطلبه أن يستوعب ويستذكر .

ولم يقف الأمر بالأمكار عند حسد السذاجة في طبيعتها ، بل لقد كانت ساذجة
كذلك في عرضها ، فلم يكن هناك اهتمام بترتيب الأمكار وتسلسلها وارتباط بعضها
ببعض . . . ولكن الخطيب يرسل أفكاره حسبما تتوارد في مخيلته ، دون أن يعتنى
بتسويقها وترتيبها ، حتى ليسر على الناريء في كثير من الأحيان أن يحدد موضوع
الخطبة الذي يقصد إليه الخطيب .

٦ - التزام السجع ؛ فقد التزموه في خطبهم ، ليكون بديلا من موسيقى الشعر
علا تسمع الهوة بين الدمين ، ولتكون الخطبة أسهل في السمع ، وأقرب من القلب ،
ولتكون الخطبة أسرع في الشيع وأبعد في التدبوع .

وفي مقدمة من التزام السجع في الخطابة كهان العرب ، بيد أنهم يمتازون عن غيرهم من الخطباء الجاهليين في إضافتهم إلى السجع غرابة اللفظ ، واستعمال صيغ في القسم غريبة . . . ولعل ذلك كان منهم بقصد إضفاء الغموض على أنفسهم ، والمبالغة في السيطرة على نفوس السامعين ، وتأكيدها ما سيطر على الأفكار من مقدرتهم على السحر . والساحر - كما يستعين بالطلاسم - يستعين بالإيقاع الصوتي ، والألفاظ الغريبة ليتمكن من التأثير في الجماعة ، فهو من وسائل الإيحاء التي يعتمد عليها الكهان ، ونظرة إلى مثال من الخطب المسجوعة لغير الكهان ، وآخر مع سجع الكهان تقرر لدينا ما نقول .

قال علقمة بن علاثة في منافرة له مع عامر بن الطفيل : « إني لبر وإنك لفاخر ، وإني لودود وإنك لعاقر ، وإني لواف وإنك لنادر » فأجابه عامر بقوله : « إني أشرف منك أمة (١) ، وأطول منك قه ، وأحسن لده (٢) ، وأجمد جمة (٣) .

وقالت الزبراء كاهنة بني رثام تذر قومها ، وتنبئهم بمياقنة عدوهم لهم : « والروح الخافق ، والليل اناسق ، والصبح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدو حتلا (٤) ، ويحرق أبيتا عسلا (٥) ، وإن صخر الطود اينذرثسكلا ، لا تجدون عنه معلا (٦) » .

ويقرر ذلك ما ذكره عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاش حين سئل عن السر في إشارته السجع على المنثور فقال : إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكني أريد الناب والحاصر ، والراهن والنابر ، فالخلف إليه .

(١) يعني أكثر قوما .

(٢) اللدة : ما تجاوز شحمة الأذن من الشعر .

(٣) الجملة : مجتمع شعر الرأس .

(٤) ياد وختلا : يميل خداعا .

(٥) يحرق بضم الراء وكسرهما : يحك بعضها ببعض حتى يسمع لها صوت . وعسل

جمع أعصل : الناب الموج في صلابة .

(٦) المل : اللجأ . انظر الأمل ج ١ ص ١٢٦ .

أسرع ، والأذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتمديد وبقلة التنفث ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشرة ، ولا ضاع من الموزن عشرة ، (١) .

أضف إلى هذا أن هذا الاتجاه يرجع إلى أنهم قوم فطروا على قول الشعر، تنأرت
فذلك لفة النثر عندهم وأجهت - عن قصد منهم أو عن غير قصد - إلى محاكاة لفة
الشعر في مجازها وخيالها ، وموسيق الناطها .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٧ .

الفصل الثاني

حضارة الإسلام وأثرها في العرب وآدابهم

(١)

أثر الإسلام في الحياة العربية

جاء الإسلام فقلب نظم الحياة الأساسية في شبه الجزيرة العربية رأساً على عقب ، ثم امتد منها إلى العالم أجمع ؛ ففي سنة ٦١٠ م بعث محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه إلى عشيرته بمكة ، ثم إلى العرب جميعاً والناس كافة ، فبدأ يصل الناس بالدين الجديد ، ويأخذهم بمبادئه ، ويتعهدهم بقيمه ، حتى أصبح الناس عـير الناس حـصا وشـعورا ، واعتقادا وتـسكيرا ، وخالقا وسلوكا .

ولا أعنى بذلك أن كل ما جاء به الإسلام كان جديدا أو غربيا على الإنسان ، وإنما هو عبادة هادفة ومبدأ قاصد أقر من عادات الجاهليين وأخلاقهم ما يوائم منهجهم ، وعدل بما ينحرف منها عن طريقه ، وهدم ما يتنافى منها مع قيمه ومثله ، مقبلا مكانه مبادئ تحقق ما يهدف إليه ، وتقرر ما يريد للإنسان من كرامة وعزة .

جاء الإسلام فلم يكن متايرا لما كان عليه الرب في حياتهم من كل الوجوه ؛ فهو دين جاءت به السماء في اللحظة المناسبة ، بمد أن أعدت لاستقباله النفوس ، وأحست بالحاجة إليه للشاعر ، وبمحت هذه العقول فتاهت وضلت ، ودعت إليه دواحي الفطرة المتبلورة في الأحياء من بنى البشر . . . فهو دين الفطرة المستقيمة .

لقت الناس إلى الروحانية ، وكانوا مستسلمين لأوهام وعادات جمدت مشاعرهم ، وسدت الطرق في وجوههم ، ربطتهم بالله الذي يجدر بهم أن يعطيهوه ، ويأمنوا له ، ويؤمنوا به ، . . . إنه ليس إلها خاصا ، ولكنه إله الجميع (رب العالمين) ، وهو لا يغيب عنه

شيء ، (لا يميز عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض) (١) ، وهو واحد لا شريك له ، ولا ولد (الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد .) ، وهو خالق السكون وما فيه ومن فيه : يحيط علمه بكل شيء ، ويمتد سلطاناه إلى كل شيء (على كل شيء قدير) ، وهو يريد الخير للناس جميعا (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (٢) ، (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) (٣) ، ومن هذا المنطلق يأخذ بأيديهم ميمندا بهم عن سوء ، لتسمو نفوسهم ، وترقى مشاعرهم ، ويحضهم على التمسك بآدائه التي يريدهم عليها ، مقررا أن ذلك سبيل فوزهم بمحبه لهم ، ورضوانه عليهم (إن الله يحب المتقين) (٤) ، (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (٥) ، (إن الله يحب المحسنين) (٦) ، (والله لا يحب المفسدين) (٧) ، (والله لا يحب الظالمين) (٨) ، (إن الله لا يحب المعتدين) (٩) . مؤسسا هذا المحب على على ما هو مذخور في الحياة الآخرة من جنة ونار يجارى بالجنة من استقام بمد أن يبعث من موته ويحاسب ، ويجارى بالدار من ضل وانحرف كذلك .

وأقام عقيدتهم على العسك والتدبر ، فجعل للعقل دورا في الحياة هو من أهم الأدوار؛ إذ به يبحث ويفحص ويوازن . ليصل إلى ما يمتد؛ ومن ثم أخذ الإسلام بيد الإنسان في جولات كونية بين الأرض والسماء ، يدهمه فيها إلى ما تنطوى عليه مفردات هذا السكون من دلائل تقفه على الحقيقة ، وتهديه إلى الصواب ، فمنحه بذلك الثقة ، وفتح له أبواب الانطلاق ، جاز آفاقا بمد آفاق . « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبصار الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فمنا عذاب النار » (١٠) ، « أهلا يبطرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » (١١) ، وأسقط عنهم أغلال التبعية والتقليد الأعمى ، ودهمهم إلى أن يسيروا في طريقهم على هدى وبصيرة ، منبها إلى أن

-
- (١) سبأ : ٣ (٢) البقرة : ١٨٥ (٣) المائدة : ٦ (٤) التوبة : ٤
(٥) البقرة : ٢٢٢ (٦) البقرة : ١٩٥ (٧) البقرة : ٢٠٥
(٨) آل عمران : ٥٧ (٩) البقرة : ١٩٠ (١٠) آل عمران : ١٩١
(١١) الناشية : ١٧ - ٢٠

الجراء مبني على العمل « ولا تزر وازرة زرر أخرى » (١) ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٢) .

وأسس حياتهم على الاجتماع والآلهة ، موطن دعائم الأحوة ، وقوى روابط الوحدة ، فنبههم إلى وحدة الأصل البشري : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (٣) . ، وأرشدهم إلى أهمية الوحدة القائمة على وحدة العقيدة : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٤) ، ثم وجههم إلى دعائم ذلك المجتمع الموحد المثالي فأوضح أن المجتمع القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله . « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٥) ، فانتقل بهم من البيئة الفردية التي يعيش فيها الإنسان لنفسه ، والتي يدعوها فيها إلى نوع من حميد الصفات حرصه على نفسه حسب ، إلى مجتمع يقوم على الحب والتكافل والتضامن في مختلف مظاهر الحياة ومسالكها ، وخاصتهم بذلك من عادات وتقاليد كادت تصيب عرفا وقانونا يلتزمون به ، من معاملات ربوية ، وانكباب على الميسر والقمار ، وهضم لحقوق طائفة من طوائفهم أو جسد من أجناسهم وصل بهم في بعض الأحيان إلى وأد البنات ، وقتل الأبناء . وهكذا تحول العرب من ذر منشور إلى مجتمع متلاحم الخيوط ، يحكم النسيج .

وانهض مجتمعهم على مبادئ الحرية والكرامة ، والعدل والمساواة ؛ وليس لإنسان على آخر من سلطة موروثية ، وإنما الجميع سواء ، لافضل لعربي على عجمي ، ولا إكرام على عقيدة ، ولا اغتصاب لحق ، ولا عدوان على مسلم .



وهكذا جاء الإسلام قوما - أول ما جاء - هيأتهم الحياة لاستقباله ، مسار - حين ، تابوه - مبتعدا بهم شيئا مشيئا عما ألفوه - واستبد بهم من أعراف وعادات ، حتى تلتفتوا بمد حين فوجدوا الطريق غير الطريق ، والحياة غير الحياة ، ونظروا فرأوا كل شيء قد تغيرت معالمه وتبدلت ألوانه وظلاله . . . واختلفت مذاهبه واتجاهاته .

(٢) الزلزلة : ٧ - ٨

(٤) الأنبياء : ٩٢

(١) الأنعام : ١٦٤

(٣) الحجرات : ١٣

(٥) آل عمران : ١١٠

وهكذا كان الإسلام تقييرا جذريا وعرضيا لجرى التاريخ الدينى والأدبى والإقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى . . . وغير ذلك من الجوانب التى تواجه الإنسان وتوجهه . ولكنه - مع كل هذا - قد لقى مقاومة عنيفة ، وحربا لاهوادة فيها ، شملت الحرب النفسىة والمادىة والمعنوىة ، وكل ما يمكن أن تقع به حرب من قوم استبدت بهم الشهوات ، وسيطر عليهم حب الذات ، وجرقتهم الماديات ، فأضلتهم عما هم فى حاجة إليه .

وكان هذا للتغيير المنتظم ، وتلك المقاومة النيفة سر إقبال الشعوب الأخرى - غير العربية - عليه فى مدى بضع عشرات من السنين ،

(٢)

أثر الإسلام في الأدب العربي

من يتابع الأدب العربي في العصر الجاهلي ، ويقارن بينه وبين الأدب العربي فيما بعد مجيء الإسلام يجد الفرق الكبير ، والبون الشاسع بين الأدبين بحيث لا يكون متعسرا أن يميز باحث بين أدب كل من المرحلتين مع ما يبدو هناك من أصول أدبية ثابتة ، وقوانين مشتركة تربط بين أدب الجاهليين وأدب الإسلاميين . . . وتلك الأصول والقوانين هي التي تضمني على الأدبين صفة المربية . وهذه سمة مشتركة بين جميع الآداب الإنسانية ، حيث تتأثر بكل ما يمرض للانسان من تغيرات ، وما يطرأ على بيئته من مؤثرات .

وتأثر العرب بالإسلام أمر لا شك فيه ولا جدال ، بل إن كلمة تأثر هذه تدل على حقيقة ما كان ، إذ شمل تأثيرهم به كل مناحي حياتهم ، ولا يدل على ذلك إلا أن نقول : إن العرب تغيروا بالإسلام فأصبحوا ناسا غير الناس السابقين .

وبدأ تأثير العرب بالإسلام أول ما بدأ حين سمعوا القرآن الكريم في أول علاقته بهم ، وهم ما يزالون على دين آبائهم ، وما يزالون على إصرارهم وعنادهم ، ولما كنهم حين صكت أسماءهم بمض آيات القرآن الكريم فسرت في كل أجسامهم كات كالرعدة تصيب الإنسان فتذهله عن التبعصر السريع ؛ فلقد ذهل العرب حين سمعوا القرآن وشملتهم حيرة لم يكن واحد منهم ليتوقعها ، فهم ما لكو ناصية القول ، وهم أرباب البيان ، والكلمة فيهم هي كل شيء ، هي القلب النابض ، وهي الخيال الساجح ، وهي المشاعر الجياشة ، وهي - إلى ذلك - العقل المفكر فيها .

لقد أدهل العرب روعة نظم القرآن ، وحيرتهم قوة أسره ، فانطلق لسان الشانء المبعض قبل المادح المحب معبرا عن ذلك التسايط الذي يلمسه بحسه ووجدانه في آياته الكريمة . وهذا عتبة بن ربيعة أحد رعماء قريش يكشف عن بعض نواحي الدهول والحيرة في قوله حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الآيات من أول سورة هات ، وقد سأله فومه حين عاد إليهم عما وراءه .

« ورأى . . . أى سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالسكھانة يا معشر قريش أطيعوني ، واجعلوها بي ، واخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه » .

ثم هذا الوليد بن المغيرة أنى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ ، فقرأ عليه : « إن الله يأمر بالمدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (١) .

فقال : أعد . فأعاد صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفه لمنطق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشراً (٢) .

فالمبارس لتاريخ الأدب العربى يلاحظ أن من أهم عوامل التحول فيه على مدى تاريخه المتد ظاهرتين لا تكادان تفارقه منذ ظهور الإسلام ، والتقاء العرب بكتابه الكريم ، واجتماعهم على مبادئه وقيمه .

١ - أما أولى هاتين الظاهرتين فهو القرآن فى ذاته ، ذلك الكتاب العربى الذى توارى أمامه كل ما أنتج العرب من أدب ، وما قدموا من بيان ، فتمت له الصدارة ، وخلصت له الريادة والقيادة ، وأصبح هو المثل الذى يحاول كل عربى ومسلم أن يحتذيه فى حياته كلها أدبية كانت أو سلوكية أو إجتماعية . . . إلى غير ذلك من شتى مجالات الحياة التى فن لها القرآن ، وقاد إليها ، ووجه نحوها .

لقد رأى العرب فى القرآن ضالهم الذى طالما بحثوا عنها فلم تسعفهم مقدرتهم حتى على تصورها . . . رأوا فيه ما انتقدوه فى آدابهم ، وما تمنوه ولكنهم لم يدركوه . . . رأوا فيه السكالم التعبيرى الذى اهتمل الأسس الثلاثة بنامها ، التى حاولوا أن يضمونها كلامهم فوقفوا دون ثالها عاجزين فقد أسس العرب بلاغة اللسق على ثلاثة لا ينفى واحد منها عن الآخرين . . . هذه الأسس الثلاثة هى :

(١) النحل : ٩٠

(٢) الرسالة الشافية للجرجانى ص ١٢٥ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن

(١) للموسيقى التي تحدثها الحروف بتزيينها ومخرجها ، وحركاتها ومناسباتها لها معها من كلمات ، حتى تصبح الكلمة مصدر نغم ورنين يهز النفس ، ويستأثر بالمشاعر ، وتهيب وجدان المتلقي لاستقبال ما توجه له الكلمة من معنى ، وما يفيض به المعنى من مضامين .

(ب) المعنى الذي تجعله الكلمة لتصل به بين مشاعر الإنسان وبين عقله .

(ج) الهدى في التصوير المعنوي وما يترتب عليه من الإبداع في تلوين الخطاب ، وترديده بين ألوانه المختلفة ، فيودع النفس مرة ، ويجاذبها أخرى ، ويهمد إلى طرائف المعاني فيسوقها إليها وإلى شق وجوه البيان فيوردها عليها ، حتى يتمكن من السيطرة التامة للكلمة على جوانبها ، وحتى تصبح تلك النفس - من تفضيلها له وموافقتها إياه - كأنها هي الراغبة فيه ، القاصدة إليه التي تحاول أن يتصل أثرها بالكلام ، وليس الكلام هو الذي يجيء إليها بهدف معالجتها والتأثير فيها^(١) .

فمع أن السق البليغ يجب أن يشتمل على هذه الأسس الثلاثة، إلا أنه يرقى في ميدان البلاغة تبعاً لوضوح الأساس الثالث فيه ، حتى إذ كانت الدقة في التصوير المعنوي ، والإبداع في التلوين البياني شائعا في كل جوانب الكلام بحيث لا تفتقده في جهة واحدة من جهاته ، بل بحيث لا يقل في جهة عنه في جهة أخرى . . أحس الإنسان أمام مثل ذلك الكلام بالمعجز الذي لا أمل في اجتيازه ، إلى جواز إحساسه بالافتتان به .

وإنما كان لهذا الأساس الثالث تلك الأهمية لأنه في الحقيقة هو الذي كان يترادى للغربي ولا يتمكن من الوصول إليه في تعبيراته . فصوت الموسيقى - وهو الأساس الأول - من الأصوات الطبيعية في تركيب لغة العرب، وإنما هو يتفاوت بين السكال والنقصان .
وصوت الفكر - وهو الأساس الثاني - لم يكن صعبا عليهم أن يفنوا عليه في كثير مما جادت قرائح أدبائهم .

أما البعيد القريب منهم فهو هذا الصوت الثالث، فقد كانوا يرونه في تصوراتهم أملا،

(١) انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٥ ، ص ٨٨ ، ودلائل الإعجاز ص ٤٥ وما بعدها

بتحقيق المراغي .

ولكنهم لا يجدونه في كلامهم واقما، وإذا هم حاولوا الوصول إليه تبين لهم قصر باعهم عن أن يمتد إليه ليتمكن منه .

حق إذا جاء القرآن الكريم فوجئوا بأشغاله على ذلك الأساس - بالإضافة إلى تسميته للغة في الأساسين الأولين - فلم يجدوا بدا من الخضوع أمامه ، والاستسلام لروعته ومن ثم أصبح قصارى جهده كل عربي ومسلم أن يتعرف على شيء مما في التعبير القرآني وبني عليه أدبه ، ويروض عليه لسانه .

٢ - والظاهرة الثانية هي أن المسلمين اتجهوا بكل ما أوتوا من ثقافة ومعرفة يبعثون عن نواحي الإعجاز البياني القرآني ، ويكشفون عن مظاهرها ، ويربطون بين ذلك وبين الآداب - خصوصا الأدب العربي - فكان ذلك الاتجاه ميدانا لتدحج ~~النقاد~~ ~~المفكر~~ ~~الفقيه~~ واستنار ما أوتوا من أدوات وأسباب في ذلك الميدان ، وحرص على أن يتزودوا بكل ما يبين حتى يكشفوا عن شيء من هذه النواحي البلاغية للمعجزة في النص القرآني . . مما خالف لديهم لما جديدا في مقتناته وفي اتجاهاته . . ذلك هو فن القول ، ولم يكن من قبل علما مؤصلا ولا فنا يمتد على المنهج الدروس والقوانين للعدة . وهذا من غير شك له في التحول الأدبي أثره البعيد . ولقد أشار البطلبوسى إلى هاتين الظاهرتين في قوله :

إن العرب طلبوا الأدب واهتموا بمدارسته وترويض أنفسهم عليه لغرضين: أحدهما يقال له الغرض الأدنى . والثاني الغرض الأعلى ؛ فالغرض الأدنى : أن يحصل للتأديب بالنظر في الأدب والشعر قوة فيه يقدر بها على النظم والذكر . والغرض الأعلى : أن يحصل للتأديب قوة على فهم كتاب الله تعالى . وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ومحابته ، ويعلم . . بها الأحكام وتفروع الفروع . وتنتج للتأديب ، وتقرن القرائن على ما تقتضيه مبادئ كلام العرب ومجاراتها لما يفعل أصحاب الأصول (١) .

وهكذا أصبح القرآن الكريم منذ بدء الحياة الإسلامية رائد كل أديب، ومنار كل قائل ، ومنهل كل متعلم ، وميدان كل دارس - هذا إلى كونه وحى السماء للشعول على كل أسس التشريع، والمحتوى على كل قوانين السلوك - فكان ملء عيون العرب

(١) البطلبوسى في (الانتصاب في شرح أدب الكتاب) لابن قتيبة ص ١٤ ط

وأسماعهم ، لا شريك ينازعه هذا المركز ، ولا صارف من شعر أو أدب أو فكر أو فن يصرفهم عنه ، ولا شاغل من شواغل الحياة أيا كانت ألوانها يشغلهم عن البحث فيه ، والأخذ منه .

هذا ولقد جمع الإسلام أصحاب آدابه ، ووحدهم في تجربتهم الوجودية ، فأصبحت أحاسيسهم ومشاعرهم غير أحاسيس الجاهليين ومشاعرهم .

وهذه المنيرة تناول ما يؤثر في الأحاسيس والمشاعر ، كما تناول الوحدة في الاستجابة لتلك التأثيرات ؛ إذ المارق كبير بين إنسان بشمر بالنيه ، ويحس بأنه يعيش في فراغ ، تخيفه الهواجس ، وتفزع الهواتف ؛ تكسف الشمس فينخلع فؤاده ، ويضطرب فكره . وتثور الريح فيتوقع الانتقام ، ويتف موقف الاستسلام . وبين إنسان يعرف مكانه في هذا الوجود ، ويعرف علاقته بكل كائن فيه ، ويدرك أبعاد تلك العلاقة ؛ فهو يسير على هدى وبصيرة .

ثم إن هذه المعرفة ليست مقصورة على فرد أو أفراد لذاتهم ، ولسكنها معرفة عامة شائنة ، تمتد جذورها في نفس كل مسلم باسم الإسلام ، وفي ظلال تماليمه وقيمه .

ولقد وحد الإسلام أصحاب آدابه في منارهم الفكرية الأساسية ، فجعلهم جميعا يديون بدين واحد ، ويعتقدون عقيدة واحدة ، ومن ثم فتلك الكبريم يسير في محطط موحد ، لا يختلف في موضوعه أو أساسه من شخص إلى آخر ، وللكمه يعتمد على أسس ثابتة واحدة .

وعلى العكس من ذلك كان أصحاب الآداب في الجاهلية ، فقد كان لكل منزعه الذي يوجه فكره ، ويعتق حسه ، ويهيج وجدانه ، ويحرك ضميره .

وكذلك وحد الإسلام أصحاب آدابه في الاستجابة الخارجية ، فجعلهم جميعا يخضعون لسلطان مبادئ واضحة محددة ، تنص على الشكل وعلى طريقة التعبير ؛ لأن مبادئ الإسلام التي شملت كل مسلم ليست مبادئ مهوشة ، ولا مبادئ تقتصر على العموميات ، كما أنها ليست مبادئ طافية تعيش على السطح . . ثم هي ليست مبادئ فلسفية تبحث عن الأثوار لتختفي فيها ، درن أن تعنى بالظواهر .

إن مبادئ الإسلام تقسم بالشمول ، وتمتاز بالاستقصاء ، فهي في الاعماق تهتم بالظواهر وتذكر بها ، وهي فوق السطح تبحث عن الخفايا .

ومن ثم إن هذه المبادئ كما وجهت الإنسان إلى الفكرة والمقيدة ، حرصت على أن تتدخل في توجيهه إلى الشكل وطريقة التعبير، فكان أن وسمت آدابها بالوحدة في ذلك كله .

أنصف إلى هذا أن أصحاب آداب الإسلام جميعا يشتركون في الخضوع لنظام سياسي وإجتماعي واحد، يرتبط بمبادئهم الموحدة، ويمتد على عقيدتهم ، ويقوم عليها . وليست صمة الوحدة مقصورة على الآداب ، ولكنها تتناول كل ما يمكن أن ينفشاً من التطورات المحلية المتولدة عن الإسلام وأخلاقه وأعرافه في كل أجيال الحياة التي تجدد بعد ذلك .

وصفوة القول : إن الناقد الدارس يلاحظ أن من أهم ما طرأ على العرب بمجيء الإسلام قيمتان إحداهما قيمة فنية ، وثانيتها قيمة سلوكية ، ومن كلا القيمتين اتخذ الأدب العربي سمته الجديدة ، واكتسب مميزات ، ظهر ذلك في محالات الأدب المختلفة من ألماط اللغة وأسلوبها ، وفنون الأدب وطرائقه وأغراضه . . إلى غير ذلك .

الفصل الثالث

أعلام من النافرين المسلمين

من المقرر أن دراسة الأعلام للفنة فى نمايا دراسة الأدب ليس مقصودا بها الدراسة التاريخية الخالصة ، وإنما المقصود بها التعرف على الوجهة الفنية لهذا العلم ، وللأثرات التى خضع لها منذ نشأته ، ليتمكن الباحث من الوقوف على سر موافقته أو مخالفته معاصريه أو غيرهم فى اتجاهه الفنى ، وليتعرف المدارس على أطوار الأدب ومؤثراته فى وسط أو بيئته أو عصره من المصور من خلال تمرره على ذلك فى العناصر التى تتكامل بها الحياة الفنية فى ذلك الوسط أو البيئته أو العصر .

و دراسة الأعلام الشعرية ليست مقصودة لهاها ، وليس ضروريا أن توجه هذه الدراسة إلى أعلام بشرية ، بل قد تكون تلك الأعلام كيانا فنيا بارزا ، لا يدرك من خلال المخلوق البشرى وماتعرض له فى نشأته وحياته من مؤثرات ، وإنما يدرك من خلال العمل الفنى ذاته والظفر فى أساليب عرضه ، وماهج تقديمه . . إلى غير ذلك ، وذلك إنما ينطق - فيما بين أيدينا - على القرآن الكريم ، والبيان النبوى الشريف ، وذلك لأن القرآن الكريم بيان رب العالمين أنزله على الناس معجزة لديه ؛ فكأنه من أدب العرب إذن مكان الصدارة والمثل الذى يحتذى ، كما أن البيان النبوى - وإن يكن بيانا بشريا - لا ينظر إليه فى مجال الدراسة الفنية ، بصفته بيان مخلوق خضع لأطوار الحياة التى مرت به ، واستجاب فيه للمؤثرات الفنية المختلفة ، وإنما بصفته بيانا وطريا وجه إليه صاحبه للتأيام بمهمة محصورة هى مهمة الرسالة الدينية .

من ثم لم يكن غريبا على أن أجعل التمرير بالقرآن الكريم والحديث النبوى على رأس أعلام النافرين المسلمين ، إذ هما بالنظرة المتقدمة يؤديان فى دراستنا تلك دور العالمين المبين .

(١) القرآن الكريم

هو معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي قدمها بين يديه ليثبت صدقه في دعوته لمن يحتاج في تصديقه إلى شاهد ودليل . « وقالوا: لولا أنزل عليه آيات من ربه . قل : إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » (١) .

وهو هدى للناس ، يأخذ بأيديهم إلى الطريق السوي والشايطي الأمين . « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (٢) . « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور . بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » (٣)

وهو يحمل دعوة الحق ، ويقرر ما تقدمه من كتب سماوية . « الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » (٤)

وهو تذكير للناس ، وتنبية إلى مسئولياتهم وما يتعلق بهم من واجبات . « وإنه لذكركم ولتقومكم وسوف تسألون » (٥) .

ثم هو كتاب قوى الجانب ، تهواه الأئمة ، لا يساميه كتاب ، ولا يدنو منه كلام ، معصوم من الباطل . « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فتريل من حكيم حميد » (٦) . « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ، تقشع منه حلود الدين يحشون ربه ثم تالين حلودهم وتلوهم إلى ذكر الله » (٧) .

(١) المـسكوت : ٥١،٥٠	(٢) البقرة : ٢
(٣) إبراهيم : ١	(٤) آل عمران : ٢ ، ٤
(٥) الزحرف : ٤٤	(٦) نجات : ٤١ ، ٤٢
(٧) الزمر : ٢٣	

وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : « إن هذا القرآن مآدبة الله في أرضه فتعلموا من مآدبته ما استطعتم ، وإن هذا القرآن هو جبل الله ، فهو نوره المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يموج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعيب ، ولا ينعبد عجايبه ، ولا يخاف عن كثرة الرد » (١) .

نزوله وحفظه .

أنزل القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منجما على حسب الأحوال والموافق ، بحيث تم إنزاله في ثلاث وعشرين سنة وكان هذا المهيج الإلهي في إنزال القرآن مثيراً لدهشة الجاهليين واعتراضهم ظناً منهم أن ذلك وسيلة يمكن بها مضايقة الرسول الكريم ، بطالبوه بأن ينزل عليه حملة ، ولكن كان في إجابة القرآن ما بسكت « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » (٢) . وقال جل شأنه في ذلك أيضاً : « وفرآنا مرثاه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً » (٣) . فإنزال القرآن على تلك الهيئة أحد مظاهر الإعجاز البياني فيه ؛ إذ لا يمكن لسكان مخلوق أن يصوغ بيانه على مدى ثلاث وعشرين سنة ليتجمع في النهاية على تلك الهيئة من الإحكام والانساق ، دون أن تنبو عبارة عن جارتها - مع فارق الزمن الممتد بينهما - أو تتناقض مع فكرة مع أخرى ، أو يختلف مستوى الصياغة في موطن عنه في موطن آخر ، وأنى لسكان مخلوق أن يكون على حال واحدة يوماً واحداً ؟ إن طبيعة المخلوق خاضعة للتغير والتبدل لحظة بعد لحظة ، ومن ثم فنتاجه لا يستقيم على هيئة واحدة ثابتة .

ومنذ بدأ نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم وجه المسلمين إلى حفظ ما أتى به الوحي واصطفي من صحابته من يقومون بكتابة الوحي على حسب ما يوجهه ربه ؛ ضامناً لحفظه على الهيئة التي يريد الله تعالى عليها ، حتى إذا أكمل الدين ،

(١) رواه الحاكم عن ابن مسعود

(٢) آية ٣٢ سورة الفرقان .

(٣) آية ١٠٦ سورة الإسراء .

وأتمت العمدة ، وروى الرسول إلى الرفيق الأعلى ، كان القرآن في صدور المسلمين وبين أيديهم مرتباً على هيئته المحمكة : « إن علينا جمعه وقرآنه بإذنا قرآنه . ثم إن علينا بيانه » (١)

ولما اشتدت الحرب بين المسلمين وللمرتدين على عهد الخليفة الأول ، وقتل كثير من القراء حفظة القرآن الكريم ، حتى عمر رضى الله تعالى عنه على القرآن من الضياع ، فدعا أبا بكر إلى جمع القرآن من صدور الحفظة ومن المسبب والخاف قبله أن يفنى الحفظة ويضيع ويسى ، ولكن الصديق أبى في أول الأمر ، وبعد إلحاح من عمر وإبى أبو بكر ، وعهد إلى زيد بن ثابت - أحد كتبة الوحي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بجمعه ، فجمعه من المسبب والخاف وصدور الحفظة مثل أبي بن كعب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي هريرة ، وأبي الدرداء . متحرراً في ذلك الدقة والحيلة ، فكان لا يقبل من حافظ شيئاً حتى يشهد شاهدان عدلان بصحته وأنه كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما أتم جمع القرآن الكريم حفظ في بيت أبي بكر ، ثم انتقل إلى عمر حين تولى الخلافة بعد وفاة الصديق ، وبعد وفاة عمر انتقل إلى حفصة أم المؤمنين . ومن ثم كانت عملية جمع القرآن عملية الأمة في ذلك الحين . تصار عليها أئمة ، كل يقدم ما يستطيع في سبيل إتمامه حتى إذا تم لزيد جمع القرآن ، وجدناه موثقاً أنهم التوثيق ؛ متواتراً لا شبهة فيه ، ولا شك يدنو منه

وعلى ذلك للمصحف اعتمد عمر رضى الله تعالى في إقراء المسلمين القرآن بعد أن اكتمت البلاد ، وكثر المسلمون ؛ فقد بعث إلى الشام ثلاثة ممن جمعوا القرآن حفظاً ؛ بهم صفا بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، ليقيموا بهذه المهمة متقلبين بين حمص ودمشق وفلسطين (٢) .

ولكن انتشار الإسلام ، والساع الدولة الإسلامية ، وكثرة عدد المسلمين كان أسرع وأقوى من جهود هؤلاء الثلاثة ، فلم يتمكنوا من توحيه كافة المسلمين الجدد إلى

(١) القيامة : ١٧ - ١٩ .

(٢) أنظر الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٥٦

القراءة الصحيحة ، فظهرت حاجة الأمة إلى مصحف إمام مكتوب يضبط القراءة ، ويلتزم به المسلمون في كل مكان فاستلسخ للمصنف الذي جمع على عهد أبي بكر وجعل منه أربع نسخ ، أرسل واحدة إلى كل من الكوفة والبصرة والشام ، واحتفظ بالنسخة الرابعة عنده (١) . وطى هذا المصحف مضى للقراء يقرءون الداس القرآن في بلاد المسلمين المختلفة .

من ذلك - على إجماله - يتضح أن القرآن الكريم أصدق بيان ، وأدق وثيقة تناقلتها البشرية في شتى أبعاد الحياة زمانا ومكانا ، وقد تماونت كل آيات الحفظ ، ووسائل الصيانة على الإبقاء عليه بعيدا عن أى زيف ، وفوق كل اشتباه ، سواء كان ذلك بالكتابة في الصحف أو الحفظ في الصدور ، أو التلاوة الدائبة ليلا ونهارا في الصلاة وشق ضروب العبادة ، أو مراجعة آياته وتحييها والبحث فيها عن أحكام الشرعية وسنن الحياة ، أو كان ذلك عن ترداد النظر فيه من أهل الديانات الأخرى وغيرهم ، بحثا عن سقطة وجريا وراء عثرة يشنون بها الحرب عليه . « وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٢) .

طبيعته :

يتكون القرآن الكريم من أربع عشرة ومائة سورة ، تقوم جميعها على منهج واحد ، ويربط بعضها ببعض نسق واحد ، ويضمها جميعا سياق واحد .

لكنها - إلى تلك الوحدة - تختلف طولا وقصرا ؛ إذ تتضمن أطول سورة ستا وعشرين ومائتي آية ، وتتضمن أقصر سورة ثلاث آيات فقط .

وتختلف منزلا ؛ إذ نزل جزء من القرآن قبل الهجرة في مكة ، ونزل الجزء الآخر بعد الهجرة في المدينة ، ومن ثم أصبحت السور إما مكية وإما مدنية ، ولكل سماته وخصائصه .

وتختلف غرضا ؛ إذ خوطب ببعضها المسلمون في أول الدعوة ، مدارت حول

(١) البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) فصلت : ٤١ - ٤٢ .

العقيدة وما يقررها في النفوس ، وخوطف يبعثها المسلمون بعد الهجرة حين أصبحت لهم دولة ، فدارت حول الملامات الاجتماعية وما يتصل بذلك من تنظيمات سياسية ، وكشريات مالية وجنائية . . الخ ؛ بيد أن سورة - مع هذا الاختلاف - تقوم على الوحدة العامة ، فلا تخرج على الإطار المحيط بها جميعا .

وأعراض القرآن الأساسية متعددة المظاهر دون تقارض ؛ فهو ذكر ، وهو هدى ، وهو موعظة ، وهو نور ، وهو - مع هذا وذاك - كتاب مبين ، أو قرآن مبين : وهو يقوم في كل أغراضه على الإبانة ، ومن ثم كان البيان والإبانة من أبرز خواص القرآن الكريم ؛ تصاحب كل عرض من أغراضه - قارنا كان للتلقى أو سامعا - فإن كان الغرض تذكيرا فهو مصحوب بالإبانة ، وإن كان هداية فهو مقرون بالإبانة ، فالإبانة هي القاسم المشترك بين كل أغراض التفسير القرآني .

والناظر في البيان القرآني يلاحظ فيه خصيصة لا يمكن بحال أن تطلب أو تفتقر من بيان أديب مخلوق أيا كانت إمكاناته الأدب لديه ، ومهما أوتي من القدرة التعبيرية وآلاتها ؛ فالبيان القرآني لا يقتصر على جنس من أجناس التعبير ، وإنما هو يستعمل بكل ما عرف من أجناس الأدب المنشور على حسب ما يتطلبه الموقف ، موضوعا ، وأشعاعا ، ومكانا ، و زمانا . وعاية (١) . ثم هو في كل جنس يتردد بين الإيجاز والإطناب والمساراة ، بحيث تراه في كل حالة البيان الأمثل ، والتفسير الاسمي الذي لا يداني .

هذا ويلاحظ من يتصل بالقرآن اتصال درس أنه ميسر «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» (٢) . فالقرآن يسر يتلى ، وحير ينساب ، لا عسر فيه ، ولا حوائل تمنع عنه مريدا ، فهو قريب من كل نفس ، قريب من كل قلب وعقل . هو كتاب كل إنسي وجان ، ليس للخاصة دون العامة ، ولا للعامة دون الخاصة ، فليس فيه ما في العلوم والفنون من مستملقات ومصطلحات لا يعرفها إلا أربابها ، ولا يملكها إلا من راضى نفسه على تعلمها ، ليس فيه ما في كتب العقائد والفلسفات من لف ودوران ، وإقدام وإحجام ، وتحليق فوق الحقائق ، ولتشتيت الدهن . . ما يرد على القرآن وارد إلا أصاب منه

(١) راجع بتوسع لدؤاف : البيان القصص في القرآن الكريم .

(٢) القمر : ١٨ .

خيرًا ، وتروى به براد طيب كريم ؛ فهو ليس كتاب العلماء وحدهم ، وليس كتاب الفقهاء ورجال العقائد وحدهم ، وليس كتاب من اهتدى ومن آمن وحده ، وليس كتاب من يهتد إلى الاهتداء والإيمان وحده . ليس كتاب طبقة أو طائفة من الناس دون باقي الناس . . . إنما هو كتاب رب العالمين للعالمين من إنس وجان ، كل يأخذ منه على قدر ما يباغح حمده وتدسع له اسمه وقابله .



فالقرآن الكريم نخط ويريد في الأساليب العربية ؛ له سماته وخصائصه التي تميزه عن أساليب المخلوقين ، ولهذا التميز والتفرد مظاهر كثيرة من أبرها : تميزه في نظمه ، وتميزه في أسلوبه ونهجه ، وتميزه في تناسقه وتلاؤمه ، وتميزه في القيام بأغراضه التعبيرية المختلفة ، وهذا التميز والتفرد الذي يتسم به القرآن الكريم يلحسه كل من يلتقي به على أية هيئة .

أنظر إلى قوله تعالى في تصوير أبي لهب وروجه « تبت يدا أبي لهب وتب . ما أعي عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد » . نجد وحدة تعبيرية كاملة ذات مطلع وموضوع وقرابه ، وذات اساق في الجور الموسيقى والموضوع والألفاظ ، وذات مشاهد مصورة ، وصورها ذات ألوان وظلال . كل هذا وذلك يشته في روعة ودقته تلكم الثلاث وعشرون كلمة في خمس آيات

وأنظر إلى قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدرك يتيما ماوى . ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى . أما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث ، تجدد - كذلك وحدة تعبيرية كاملة - على نحو ما ذكرنا - تقدمها أربعون كلمة في إحدى عشرة آية .

ثم أنظر التعبير القرآني في سورة المسد - حيث الحرب والإيمان - وفي سورة الضحى حيث التطمين والهداية ، نجد اختلافا في كل شيء .

وسورة المسد نموذج من نماذج التحدى ، وسلسلة من سلاسل الدفاع عن الدعوة

ورسولها ، ومن ثم حمل مطلعها في أوله دعاء بالهلاك والبوار ، وختم بتقرير هذا الدعاء وتأكيده . وعلى هذا التسق سارت السورة ، حتى قدمت امرأة أبي لهب في صورة حية تذر بالهلاك والبوار - كذلك - ونثير السخرية منها والاستهزاء بها ، حيث ترى حامله وسيلة إحراقها هي وزوجها ؛ فإذا كان هو أبو اللهب وحامله ، فهي صاحبة الحطب وحامله . . فإذا كانا قريبين رأياها . أرا في ص - ورة إنسان تشتعل وتسمى بين الناس ، وتجر ورامها زادها الذي يمدّها بالوقود

وسورة الضحى نموذج من نماذج التلمية والتسوية ، والترويح والتطمين ، ومن ثم نسج مطلعها إطارا شفاها رقرقا صائبا ، من الضحى الرائق ، والليل الساحي ؛ إذ هما أصنى أوقات الليل والنهار وأشرفها ، فيما تسرى الروح ، وتطلق النفوس فإذا هي مستتركة في ^{الأممات} . وفي داخل هذا المطلع ينشئ الديان القرآني صورة من سمات رقيقة بها الحب الصادق ، والحنان اللطيف ، والإقبال العاقل ، والرضا الشامل ، والرحمة الوديمة ، والشجى الشفيف ، والوعد القاطع . تأت هنا أمام لوحة منسجمة أتم الائتنام ، وظلال تسرى منها الإيحاءات الصادقة ، ليتسق المشهد مع حقائق الواقع ، مع الجور النفسى ، مع أصداء الأحداث .

وفي معرض آخر انظر إلى قوله تعالى: يفتد مراعم المشركين في شأن العقيدة : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يشركون - لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا مسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يعمل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة قل : هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معروضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشعرون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه ذلك يعجزه جهنم كذلك نجزي الظالمين » . تجد البيان المتسق مع موضوعه ، وهو يقرب الأمور على شق وجوها ، بحيث لا يترك لدى مشتبه شبهة ، ولا أدى فرصة لانتارة من شك . فأت هنا - في مجال اللماشة العقلية - مع بيان هادى . يمد - ل على تفتيح الآفاق المختلفة أمام المشركين ، إذ إذا لهم من الردى والهلكة . فإذا نقلت نظرك إلى موطن آخر من مواطن العقيدة

مع قوله تعالى . دقل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له
كفووا أحد . وجدت الأسلوب المقاطع المقرر ، الذي لا يناقش ولا يحتمل أدنى
مراجعة أو تفكير .

وهكذا كما رددت نظرك في آيات القرآن وسوره وحدت البيان الذي لا يداني ،
ولانسق المعجز ، الذي أقر بروعته العدو الجاحد له مع المؤمن به المطمئن إليه ، والذي
أخذ العرب الأدباء أنفسهم به في تفرم وشمرم ، فتحولوا عن طريق أسلافهم ،
وقدموا لنا أدبا حديدا على مدى الأجيال المتلاحقة .

(٢)

الحديث النبوي

والذي يقصده بالحديث النبوي هنا هو ما أثر من كلامه صلى الله عليه وسلم ، وتواترت بلفظه الروايات أو نص اللفظ على أنه روى باللفظ ، فهذا الذي يتصل بدراسة في الأدب العربي . أما ما عدا ذلك من جمهرة الأحاديث صلى الله عليه وسلم التي حرص فيها الرواة على المضمون دون اللفظ ، فاختلقت ألفاظها من راو إلى آخر ، فهذه لا تتصل بما نحن فيه ؛ فهي من صياغة الرواة على اختلاف أزمته .

والحديث النبوي - على عمومه - نسق بياني جديد على الأدب العربي إذ لم يسبق صلى الله عليه وسلم أحد إليه ، ولا عرف مثاله لاحد قبله ، حتى قال له الصديق مرة : لقد طفت على العرب ، وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ قال : أدبني ربي وأحسن تأديبي . وإذا ذكرنا مع هذا أن أبا بكر هذا كان في علم العرب وأسابها وأخبارها ولغاتها وآثارها اللبابة التي ينتهي إليها ويوقف عندها ، حتى لا يبدل به عدلنا - استطعنا أن نضع هذا الحكم موضعه .

وأهم ما يتميز به الحديث الشريف أنه بيان عربي موحد العرض ، محكم الدسق . يوضح لشريفا ، أو يوجه لإنسانا ، أو يصور موقفا من مواقف الإيمان أو الكفر . . إلى غير ذلك . في إيجاز وإعجاز ، تحول به إلى حكم مأثورة ، وأمثال سارة . قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يورد كبريكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين يصل ، يحفظه من جلس إليه . وفي رواية أخرى عنها أيضا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو عدده الماد لأحصاه . وهذا يعني أن منطلقه صلى الله عليه وسلم غير المفكر قبل أن ينطلق إلى الفهم ، وأن العقل فيه من وراء اللسان ، فهو غالب عليه ، مصرف له ، حتى لا يمتريه لس ، ولا يتخونه نقص . ومن ثم قال كلامه صلى الله عليه وسلم ، وخرج قصدا في اللفظه ، محيطا بمانيته ، تحسب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة والكلمات للعدودة بكل مانيتها ، فلا ترى من الكلام الفاظا ، ولكن حركات نفسية في الفاظ . ولهذا كثرت جوامع كنه ، وحلص أسلوبه ، ولم يقصر في شيء ، ولم يبالغ في شيء ، وتم له من هذا الأمر

على - كمال المصاحفة والبلاغة - ما لو أرادهم مرید لمجز عنه ، ولو استطاع إنسان
بعضه لما تم له في كل كلامه ، ويكفيه أنه كان تليذ القرآن ، يوحىه الوحي ، ويرشده
إلى القول الفصل بمثل قوله تعالى : « وحادلهم بالتي هي أحسن » ، و « خذ العفو
وأمر بالمعرف وأعرض عن الجاهلین » ، « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء
بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون
الله . فإن تولوا فقلوا أشهدوا بأننا مسلمون » .

ونظرة إلى نماذج من مآثور حديثه صلى الله عليه وسلم تنطقك بما نطق به الجاحظ
من قبيل فتقول : « لم يتكلم إلا بكلام قد حذف بالمصحة ، وشيد بالتأييد ، ويسر
بالتوبيخ » (١) . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم للأَنْصار : « ما علمتكم إلا لتقلون
عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » . وقوله : « المسلمون تنكافأ دماؤهم ، ويسمى
بذمتهم أديانهم ، وهم يد على من سواهم » . وقوله : « لا تزال أمتي صالحاً أمرها ما لم
تر الأمانة مغنفاً ، والصدقة مغرماً » . وقوله : « إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم
القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، للوطنون أكسماً ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم
إلى وأبغضكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفهبون » ، وقوله : « إن الله يرضى
لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن
تتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تصحوا من ولاء الله أمركم . ويكره لكم قيل
وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . وقوله : « يقول ابن آدم : مالي ، مالي . وإنما
لك من مالك ما أكلت فأديت ، أو لبست فأبليت ، أو وهبت فأمضيت » . وقوله :
« أوصاني ربي بتسع : أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، وبالعدل في الرضا والغضب ،
وبالقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عن ظلمي ، وأعطي من حرمي ، وأصل من
قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونظمي ذكراً ، ونظري عبراً » ، وقوله : « إن قوماً
ركبوا سفينة في البحر فاقسموا نصار لسكل رجل موضع ، فنقر رجل موضعه بفأس ،
فقالوا : ما تصعب ؟ قال : هو . كان أصعب به ماشئ ، فإن أخذوا عليه نجاً وحبوا وإن
تركوه هلك وهدسكوا » .

وعلى الإجمال يستطيع الناظر في الحديث النبوي أن يلمس أثره في الأدب العربي

منذ صدر الإسلام إلى العصر الحديث، بما أدخل على الأدب من تركيب بيانية جديدة،
فرفع منزلة النثر وخطابه خطوة أبعدته عن سجع الكهان، وتحت له آفاقا جديدة
من ذون الأدب. هذا إلى أنه كان إلى جوار القرآن الكريم مساعدا على توحيد
اللهجات العربية، والحفاظ على لغة العرب وذوقها، وتوسيع مادتها، مما أشاع من
الفاظ دينية وفقهية لم تكن تستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص، كما أنه فتح
أبواب دراسات جديدة لم يكن للعرب عهد بها، مثل علوم الحديث وما تفرع عنها من
تراجم المحدثين، وكتب الحديث، وما عليها من شروح وتعليقات واستنباطات بيانية
وتاريخية وتشريعية... إلى غير ذلك.

(٣)
أبو بكر الصديق

تولى زمام الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، فمهر بن الخطاب ، فعثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب ، فحرص كل منهم على أن تظل الدولة الإسلامية كما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم دون تغير كبير ، فكانت البيعة امتدادا لعهد الرسول ، لانسداد تشده في شيء ، وكان أثر القرآن الكريم وبيان الرسول عليهم ما زال قويا ، والصحابة جميعا ينهلون من معينهما البياني والأخلاقي والعقدي ، لا يشاركنها معين آخر فيه ، فكانوا - في مجملهم - مظاهر متحركة يتمثل فيهم البيان القرآني والنبوي ، حيث سريا في نفوسهم بما يتضمنان من ترعيب وترهيب ومواعظ تنزيهات ؛ وبدا ذلك في سلوكهم حلقا رهيبا ، وعلى ألسنتهم بيانا ناضجا تراءى في خطابتهم وكتاباتهم

* * *

أبو الصديق أبو بكر فكان وثيق الصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي بالإسلام ، وكان أدل من أسلم من الرجال ، وظل الرهيق الللاصق لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والصديق المؤازر له في كل مراحل الدعوة ، حتى تولى الخلافة وهام على أمر المسلمين ، فكان أثر البيان القرآني والديان النبوي فيه واضحا ، تجلى في ذلك البيان الإسلامي المتدفق من لسانه تدفق السيل ، دأرا في إطار المعاني الإسلامية وقيمه الروحية ، كما يرى في خطبته حين تمت البيعة له ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :
« يا أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتُموني على باطل وسعدوني - أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، إلا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي العوي حتى آخذ الحق منه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لي ولكم » (١) .

وأهم ما يلامت نظر الدارس في هذه الخطبة إيجازها ، والدقة في اختيار ألفاظها ،
والصرامة في القوة في عباراتها ؛ فإذا عرفنا ملامباتها أدركنا وعيه رضى الله تعالى عنه
بالموقف وما يستدعيه ، وحرصه على أن يتلامم في خطبته مع الموقف . وذلك أنه قال
هذه الخطبة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد ووجه باضطراب المسلمين في
مواجهة الصدمة اضطرابا جعل الكثيرين منهم - وفيهم عمر بن الخطاب - يرفضون
التسليم بهذا البأ ويقولون إن الرسول لم يميت ، فأقبل في حزم وكشف عن وجهه صلى
الله عليه وسلم وقال . بأبي أمي رأيت طبت حيا وطبت ميتا ، وخرج إلى الصحابة فالتى
فيهم خطبته المشهورة التي ارتسكروا فيها على القرآن الكريم ليقطع على كل شاك شهباه ،
وفيها قل : « من كان يبيد محمدا إن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي
لا يموت » ، ثم أخذ في تلاوة الآيات الكريمة التي ترد عليهم شهباتهم مثل قوله تعالى :
« إنك ميت وإنهم ميتون » ، وقوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله
أرسل أمم مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ، ثم تلا قوله عز وجل : « كل نفس
ذاتة نوت » ، وقوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه ، فناب الجميع إلى الرشيد ،
ورجعوا إلى الصواب (١) »

كما ووجه في الموقف نفسه بيوادر اختلاف المسلمين حول قيادة الأمة ، فقد بلغه
أن الأنصار قد احتتموا إلى سعد بن عباد بن سقيفة بن ساعدة يقولون : منا أمير ومن
قريش أمير ، فراه ذلك ، وحشى على الأمة من امرقة والطمع في الملك ، فبادر إليهم
هو وجمع من الصحابة حتى يقص على هذه التفتة بن مبهدها ، فلما انتهت بتولية أمر
المسلمين التي خطبته تلك .

ولا ريب في أن مثل هذا الموقف لا يتحمل خطبه أطول من ذلك ، ولا يتسع المجال
لمزيد من التفصيل والإضافة .

فإذا نظرنا في خطبة أخرى له ، وجدناه رضى الله تعالى عنه ملتزما بمنهج التراما
ببنا ، حيث يحرص على مراعاة الوقت واستدعائه . كما نرى في إحدى خطبه الوعظية
التي يقول فيها :

(١) المرجع السابق ص ٢٥٥ وما بعدها

« إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أحلصتم لله من أعمالكم فطاعة أنيتموها ، وحفظتم به ، وضرائب أديتموها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقرم وحاجتكم اعترت ، اعباء الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم الآن ؟ أين الجبارون ؟ أين الذين بنوا المدائن وحصنوها ، الحوائط وجعلوا فيها الأعاقيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم تلك مساكنهم خافية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يدعيه به حيرا ولا يصرف عنه به سوء إلا بطاعته وأتباع أمره ، واعلموا أنكم عباد مدينون وأن ما عده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا خير بخير بعده المار ، ولا شر بشر بعده الجنة ، (١)

الخطبتان تحتلفان إطنابا وإيجازا بمقدار اختلاف الموقفين ، والإطناب في الخطبة الأخيرة يقوم على التهور والمشخص ، والخيال المترب الذي ينقل المشاهد من عوالم غيبتها السنون ليراهم السامعون من حلال آذانهم فإذا هم يجمعون بين ما كان وما يكون ، لتتضح العظة ، ويقتنع بها العقل ، وينبض لها القلب ببص الاستجابة والقبول .

أما مادة الخطبتين مستمدة من القرآن الكريم والبيان النبوي ، وروح الإسلام . ولم يقف الصديق بخطابته عند حد الموعظة والدعوة ، وبيان السياسة والمنهج الحكومي ، بل أضاف إلى ذلك غرضا آخر استغل الخطابة فيه ، وذلك أنه كان يخطب في الجيوش الخارجة للدواع عن دين الله موصيا الجيش وقادته ، مستقيا وصايا من روح الإسلام ، مستبسا قدر الاستطاعة من وصايا القرآن الكريم والذي صلى الله عليه وسلم حيث يدعوهم إلى التمسك بسماحة الإسلام ، في معاملة المغلوبين ، وبمحذرم من الحيانة والقتل ، وبيناهم عن التمثل بالقتيل ، وعن قتل الصغير والشيخ الكبير والنساء الآمنات . . الخ ، تلك الوصايا المقررة في ظل الإسلام ، كما نرى في وصيته جيش أسامة بن زيد حين سيره إلى الشام ، وفيها يقول :

« أيها الناس قهوا أوصيكم بمشر فاحفظوها عنى . لا تخونوا ولا تملوا (٢) ،

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦٠

(٢) عل : حان في النوى .

ولا تندروا ، ولا تمثلها ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ،
ولا تقمروا^(١) نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مشمرة ، ولا تذبحوا شاة
ولا بقرة ولا بيرا إلا للأكلة ، وسوف ترون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع
فدعهم وما فرغوا أنفسهم له^(٢) .

وَأَمَلُ أَبْرَزِ سَمَاتِ الصِّدِّيقِ فِي خُطَابَتِهِ تَأْيِيدَهُ عَنِ السَّجْعِ ، وَحِرْصَهُ عَلَى جِزَالَةِ
الْأَلْفَاظِ ، وَوَضُوحِ الْمَعْنَى . وَتَمَكُّدُهُ مِنَ الْكَشْفِ عَمَّا يَحْتَاجُ بِنَفْسِهِ . وَيُرِيدُ أَنْ يَقْلَهُ
إِلَى سَامِعِيَةٍ .

(١) قمر النخلة - بفتح القاف والميم - استأصلها وقطعها .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٤)

عمر بن الخطاب

وأما الفاروق عمر بن الخطاب فقد كان أحد المرين اللذين دعا الرسول ربه أن
يمز بأحدهما الإسلام ، وكان هو الذي استجاب الله بإسلامه دعوة نبيه وكان منذ
أسلم المقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المصطفى لمشورته ومازال على ذلك
حتى توفي صلى الله عليه وسلم ، فظل على مكانه من خليفة رسول الله الأول ، فكان له
الوزير والمعين والناصح والمستشار ، ولم يكن الاختلاف بينهما كبيرا ، فقد كان الفاروق
قريب الشبه بالصديق صدق عزم ، وضوح رؤية ، وصحة بيان ، وبلاغة لسان ، ورحابة
عقل ، ونفاذ بصيرة ، وقوة شكيمة . وقد طبقت شهرته الخافقين حكمة ، وعدلا ،
وحلما ، وعزما ، وحسن سياسة ، فأقبلت البلاد والممالك على الإسلام ودولة الإسلام
قرارا من ظلم الملوك والحكام ، حتى اتسعت في عهده الدولة الإسلامية الساعا لم يهد
في التاريخ مثله ، فقد فتحت بلاد فارس والشام وبصر .

ولهذه الحلال مجتمة كان له من التأثير في عقول وقلوب ساميه ما يكشف عن
مدى صدقه ، وقوة بيانه ، ومصاحه لسانه ، كما يطلعا على ذلك مثل قوله في إحدى
خطبه الوعظية :

« إن الله سبحانه وبمحمده قد استوجب عليكم الشكر ، وانخذت عليكم الحجج
آناكم من كرامة الآخرة والدينا من غير مسألة منكم له ، ولا رغبة منكم فيه إليه ،
خلقكم تبارك وتمالى - ولم تكونوا شيئا - لنفسه وعبادته . . وسخر لكم مافى
السموات ومافى الأرض ، وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة وحملك في البر والبحر ،
ورزقكم من الطيبات لمانكم تشكرون . ثم جعل لكم سمما وبصرا ، ومن نعم الله
عليكم نعم عم بها بنى آدم ، ومنها نعم احتس بها أهل دينكم ﷺ ثم صارت تلك النعم
خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت
إلى امرىء خاصة إلا لو تم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أنعمهم شكرها ، ومدحهم
حقها إلا يعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مستخلفون في الأرض ، قاهرون
لأهلها ، قد نصر الله دينكم . . والله الحمود مع الفتوح العظام في كل بلد . . نسأل
الله الذى لا إله إلا هو الذى أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته . »

ومن أهم ما يلاحظه الناظر في هذه الخطبة وغيرها من خطبه رضى الله تعالى عنه خلوها من السجع الذى كان يكلف السكهان به في ذلك العصر ، ويحرصون عليه كل الحرص ، والفاروق في ذلك ومن قبله الصديق ومثاران بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الكريم ، حتى لقد أثر عنه أنه أنكر على سحر العبدى استخدامه للسجع دون حاجة إليه ، فقد روى الطبرى أن الفاروق سأل سحارا عن (مكران) الفارسية أثناء غزو المسلمين لها ، فقال سحار : « يا أمير المؤمنين أرض مهلهل جبل ، وماؤها وشل (١) ، وتمر دقل (٢) ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل . إن كثرة الجند بها جاعوا ، وإن قلاؤها ضاعوا » . فقال عمر : « أسجاع أنت أم مخبر ؟ » فقال سحار : بل مخبر (٣) .

كما يلاحظ أنه يسير فيها سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبه من الامتساح بحمد الله وتمجيد ، والالتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف .

وتتمتار خطبة الفاروق هنا بطول عباراتها ، حرصا منه على تفصيل الحجج ، وتوضيح البرهان ، وبسط القول ، فنوع وقسم ، وصور وشخص ، وهو في كل ذلك يدور في محور نعم الله على الإنسان وما استوجبه من شكر الله عليها .

وكما كان الصديق يخطب في الجيوش الخارجة للنزول موصيا وموجها . كان كذلك الفاروق ، ربما أثر عنه في ذلك أنه لما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أحابه حينئذ إلى الجهاد - وهو أبو عبيد بن مسعود - وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أشركهم في الأور ، ولا تجتهد مسرعا حتى تدبى ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث (٤) الذى يعرف الفرصة والكف » .

وله إلى ذلك وصايا كثيرة يوصى فيها الأوصياء والقادة ، ومن ذلك ما أوصى به الخليفة من بعده ، وهى وصية طويلة جاء فيها :

« أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا : أن

(١) الماء الرشل . القليل .

(٢) التمر الدقل : الردىء .

(٣) راجع البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٥ .

(٤) المكيث : الرزين المتبصر في الأمور .

تعرف سابقتهم ، وأوصيك بالانصار خيرا ، فأقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئتهم ، وأوصيك بأهل الامصار خيرا فإنهم رده^(١) المدو ، وجباة الأموال والنفء ، لا تحمل فيهم إلا عن فضل منهم . وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام : أن تأخذ من حواشي^(٢) أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم . وأوصيك بأهل النعمة خيرا ؛ أن تقابل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ، ومخافة مقتته أن يطلع منك على ريبة . وأوصيك أن تحشى الله في الناس ولا تحشى الناس في الله ، وأوصيك بالمعدل في الرعية ، والتفرغ لحوائجهم وثمرهم^(٣) . ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم . وآمرك أن تشتد في أمور الله وحدوده ومعاصيه على قريب الناس وبصيدهم ، واجمل للناس سواء عندك لا تبالي على من وحب الحق ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وأياك والآثرة والمحاباة بها ولاك الله بما أفاء الله على المؤمنين ، فتجاوز ونظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ماقد وسمه الله عليك .

فالوصية كما ترى دستور ضمنه عمر نظام الحكم القدي يجب أن يكون في ظل الإسلام ، تناول فيها كل ما يحتاج الحاكم والمحكوم إيضاحه وتقريره ، في أسلوب واضح بين ، لا فضول فيه يضل معه السامع ، ولا إيجاز فيه يختل معه المقصود ، والكلام - كما ترى - ينساب انسيابا لا تشعر معه بتسكف ، ولا تضيق الأذن بسماعه ، فهي عبارات سهلة مع جزالتها وقوتها ورسالتها ووضوح المقصود منها .

(١) الردء : المعين ، فهم يعينونك على المدو .

(٢) حواشي الأموال في البادية : صفاء الإبل والنعيم .

(٣) الثغور جمع ثغر : وهو هنا الخلة والحاجة .

(٥)

علي بن أبي طالب

علي بن أبي طالب ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أول من أسلم من الصبيان ، تربى في بيت النبوة ، ونشأ في كنف الوحي ، فكان القريب للقرب منه صلى الله عليه وسلم ، عايش القرآن ، وجاور الرسول ، فتخلق بخلق الإسلام ، ودان به في كل تكليفه وتصوره ، فلم يقل عن سابقه شأوا في خطابه وبيانه ، بل لقد أتبع له من حوافر الإنابة ما لم يتح لغيره ، فأثر عنه خطب كثيرة تصدى بها للخارجين عليه ، مما أتاح الفرصة للذس عليه ، ونسبة ما لم يقل إليه مما ضمنه كتاب « نهج البلاغة » للنسوب إليه كرم الله وجهه . ولقد تصدى لذلك كثيرون من المؤرخين والأدباء ، نفقوا أن يكون هذا الكتاب كله من صنع علي رضي الله تعالى عنه ، وإنما هو في أكثره محمول عليه ؛ لما تضمن خطبه من السب للصريح في السيدس أبي بكر وعمر ، والحط من هاتهما ، ولما ينطوى عليه من التناقض ، ولما فيه من المبارات الركيكة ، والجلس الضعيفة التي يجرم من له معرفة بنفس القرشيين الصحابة ، وبنس غيرهم ممن بدم من المتأخرين . . بأنها ندمت إليه باطلا وزورا (١) .

ومن ثم كان على المدارس أن يتحفظ في الأخذ عن كتاب « نهج البلاغة » وغيره من كتب التأخرين ، ويرجع في ذلك إلى المصادر الأولى مثل البيان والتبيين للجاحظ فقد روى طرفا من خطبه ، مثل خطبته التي وجهها حين تقاعس بعض جنده ، وأخذت جنود معاوية تثير على أطراف العراق ، وفيها يكشف عما في نفسه من ألم وضيق بصنيع هؤلاء المتقاعسين ، كما في قوله (٢) :

-
- (١) انظر (لسان الميران) لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣ طبع حيدرآباد ، وميزان الاعتدال للذهبي ج ٢ ص ٢٠١ طبع لكهنو، وشذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ٢٥٧ طبع القاهرة ، ومرآة الجنان للياقبي ج ٣ ص ٥٥ طبع حيدرآباد .
- (٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٣ .

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب النذل ، وقمعه للبلاء ، ولزمه الضنار ، وسيم الخسف ، ومع الصف (١) إلا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، وسرا وإعلانا ، وقلت لكم : اعروهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتوا كلمتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، حتى شانت عابكم المارات . . فيأعجبا من حد هؤلاء القوم في باطلهم ، وشلتكم عن حركم . . حتى صرتم هدها يرمى ، ويثا ينهب ، يقار عليكم ولا تفيرون ، وتفزون ولا تنفزون . . قد وريتم (٢) صدرى عيظا ، وجرعتوني الموت أنفاسا (٣) ، وأفسدتكم على رأي بالمصيان والتخللان . .

والخطبة من أولها تعان عن حاله كرم الله وجهه وحال الجيش ؛ وتكفي النظر إلى ما طلع به عليهم من تعريف بالجهاد حيث لم يطل الوقوف مع ما ينتظره المجاهدون ، قدر إطالته الوقوف مع ما ينتظره المتقاعدون الثارون ، فأكتفى في الإخبار عن الجهاد بخبر واحد ، وأحبر عن من ترك الجهاد بحمسة أخبار متعاطفة في سلاسة حتى لتبدو كأنها خبر واحد يضم خمس صور من صور البلاء الذى يتوقع لمن يقعد عن الجهاد .

كما يملن عن البراءة مما أوقع هؤلاء أنفسهم فيه ، فقد قام بدور القائد البصير ، فلم يترك لحظة تمر إلا حث بها جنده على مواصلة القتال حتى لا تدور عليهم الدائرة ، ويقع بهم المخدور .

فالخطبة كما ترى إمداد منه رضى الله تعالى عنه ، وتبرؤ من التقصير أو الإهمال ، وضيق بموقف الجنود المتخاذل ، وشمور بالمرارة لما حدث .

وقد اضطرته حروبه مع الأمويين إلى الإكثار من هذا اللون من الخطب ، بيد أنه لم يف على ذلك ، بل أترعنه كثير من المواظف في مناسبات مختلفة ، منها قوله (٤) .

(١) الصف - بفتح النون والصاد - الإنصاف .

(٢) وريتم : ملأتم ، من روى اللقيح جوهه إذا أكله .

(٣) الأنفاس جمع نفس - بالتحريك - الجرعة من الماء ونحوه .

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٢

« إن الدنيا قد أدبرت وأذنت بوادع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وإن المضمار (١) لليوم والسباق غدا ، ألا وإنكم في أيام أمل من وراءه أجل ، فمن أخلص في أيام أمه قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يضره أمه ، ومن قصر في أيام أمه قبل حضور أجله خسر عمله ، وضره أمه ، إلا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإنى لم أر كالجبة نام طالها ، ولا كالنار نام هاربها ، -

وهكذا نجد رضوان الله تعالى عليه في كل خطبه على اختلاف للواقف والدواعي -
خاصة لقيم الإسلام ومبادئه ، سائرا بمجدهاء القرآن الكريم والبيان للنبي الشريف لا يشذ عنه ولا يخرج عليه ، في أسلوبه وعباراته والفاظه وأخيلته ومسانيه .

(١) المضمار : الزمان الذي نصور به الخيل للسباق .

الفصل الرابع

فنون النثر الإسلامى وخصائصه

(١)

الخطابة

عوامل تطورها :

ظلت الجاهلية بمؤثراتها مهيمنة على الفكر والتصور والسلوك فى المجتمع العربى ، وبدأ هذا التسلط فى شق أعمالهم وأقوالهم ، حتى إذا جاء الإسلام بحضارته أخذت عوامل التحول تتابع من حولهم ، وتهمزم المرة بعد المرة ، حتى إذا غمرتهم مؤثرات الإسلام رأينا تحولاً تاماً فى الفعل وفى القول وفى التفكير وفى التصور والتخيل .

وانستطيع أن نلمس هذه المؤثرات الإسلامية إذا نحن نظرنا النظرة الفاحصة المقارنة . . أولاً : إلى العربى فى عهديه (الجاهلية والإسلام) ثانياً . إلى الزاد للفكرى والعاطفى والوجدانى الذى قدمته البيئة الجاهلية لأهلها ، ثم الذى قدمته البيئة الإسلامية لأهلها .

ومن النظر فى تلك المؤثرات نستطيع أن نقف على أهم عوامل التحول التى كان لها أكبر الأثر فى تطوير الخطابة العربية ، وتتلخص تلك العوامل فى :

١ — أمثلة الخطابة التى قدمها القرآن الكريم ، وقد وجد العربى فى تلك النماذج الخطابية شيئاً غير ما اعتاده — ربما كان هذا الشيء مسمى نفسه لكنه ما كان ليوجد لديه القدرة عليه — لما إن سمع العرب القرآن حتى فتنوا به ، وذهلوا عن الأخذ منه والانتفاع به ، ولما أنصتوا إليه وقرأوه أنسوا له ، فأقبلوا عليه ، فإذا بهم أمام عظم آخر من الخطابة ينابر ما عرّفوا من أعماطها ، فهو يقصد إلى التأثير والإقناع مما فى أسلوب تربطه وحدة أقوى من الوحدة النفسية ، مع اشتاله — كذلك — على الوحدة النفسية .

فألزموا أنفسهم ترسم خطاه ، وانتهاج سبيله ، والسير على هداه ، وأخذ أسلنتهم بقوانيه
الأسلوية ، وترويضها عليها حق تمتاد على ذلك السبيل الجديد .

وذلك أنهم قرأوا اخطاب القرآن الكريم الموجه إلى بني إسرائيل في سورة البقرة :

« يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوبوا بعهدي أوف بعهدكم
وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزات مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به .
ولا تشتروا آياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق
وأنتم تعلمون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأركبوا مع الراكبين . أتأمرون الناس
بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون . واستعينوا بالصبر والصلاة
وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون .

« يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين .
واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل
ولا هم يصرون » (١) .

ويتتابع الخطاب على هذا النمط حتى يقطع أكثر من ثمانين آية (٢) . ومن أبرر
ما يلمسه دارس هذا النص عمق الأفسكار التي يعرضها ، وترتيب هذه الأفسكار ترتيباً
لائقاً فيه ولا تكرار ، ومسار النص ومنهجه في عرض المواقف ، والنسب - كما ترى -
يسير في اتجاهه واضعاً مستقيماً كل ما يتماق بالموضوع من جزئيات تدفع الخطاب في
طريقه . وتنبه ، متجاوزاً كل جرئية تجمد الموقف ، أو تحول الأظار عنه هذا إلى
أن الدارس يحفظ حرص النص على إداية ما قد يشأ عن طول الخطاب من اللل أو
الانصراف والانهول . . . وذلك يجعل الأسلوب مزاجاً من الخطاب والنية والتكلم
(الالتفات) - مع الحرص على أن يكون لتلك الالتفات وظائف أخرى أسلوية ليس
ها مجال الحديث عنها - وحمله مزاجاً من التذكير والمن ، والوعيد والوعيد ،
والتساؤل المنهكم الساحر ، والوصف الشامل . . إلى غير ذلك .

وهكذا بلغ الإعجاز حداً جعل الخطاب قضية من قضايا العكر ، ذات مقدمات

(١) البقرة ٤٠ - ٤٨

(٢) البقرة ٤٠ - ١٣٣

وتنتائج يصل إليها التناقى ، وتقر في ذهنه بمجرد سماعه لذلك الخطاب . وما كذلك كانت خطابة العرب ، ولا وقع في أسماعهم من قبل خطبه تيسير هذا المسار (١) .

٢ - امتجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لمنهج الدعوة الذى انتمه إليه ربه في قوله . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم على أحسن » . وهذا المذهب في الدعوة تيسر أكثر ما يتيسر في الخطابة ، وهى حير ما يستمين به الدعاة إلى العقائد والمذاهب الجديدة ، وهى حير ما يستمين به الأنبياء والمصاحون في الدعوة إلى دياناتهم ؛ لأنها أمثل وسيلة تيسر الاتصال بالجمهور ، وتتيح الفرصة لمناقشة أفكارهم ، والإجابة على ما يطغى فوق سطح أذهانهم من حجاج ، ولأنها تمكن من التأثير في الجماعات ؛ ولذلك اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة بيت بها دعوته في نفوس العرب وغير العرب ، ويعتمد عليها في إقناعهم بصدق ما جاء به ، ولذلك - كذلك - اتخذها أداة يؤكد بها مبادئ الإسلام ، ويقررها في نفوس المسلمين . ومن ثم أصبحت الخطابة وسيلة العمل والولاية الدين ببعثهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأمصار ، حيث يقوم الوالى أو العامل حطيا في الناس حين يصل إلى مصيره ، ليبين لهم مذهبهم ، ويوضح لهم طريقته التى سيسير عليها معهم ، حتى أصبحت سنة يتبعها كل خليفة ، ويستهل بها عهد الجديد كل وال .

ومن ثم أهتم المسلمون بتعديل منهج الخطبة بما يتلاءم مع وظيفتها الخطيرة التى وظفوها فيها ، فحلوا خطبة أجزاء لما ابتداء واحتمام ، وبين هذين هذين يمرض الموضوع مناسكا ، مرتبا ، واضحا ، مقاما مغريا ، صادقا . واشتروا في المقسمة شروطا أملاها عليهم إحساسهم بجلبل شأن الخطبة ، وتقديرهم الأبعاد التى يزونها بها من نفوس السامعين ، فالتزموا فيها - إلى كونها مهيأة للموضوع ، موطنة لا كسامه - الاقتراح بالتحميد والتجديد لله ، والصلاة والسلام على النبى .

٣ - ما استلزمه مجيء الإسلام من صراع بين من يدعون إليه ومن يردعون عنه ويقفون في وجهه ، كان عاملا في انتماش الخطابة ، وبابا واسعا ينفذ الدعاة منه إليها ؛ سواء في ذلك المسلمون الداعون إلى الإسلام ، والمشركون الماوتون له .

(١) لريد من التفصيل انظر له مؤلف (أثر الإسلام في الخطابة العربية) ص ٥٥

وهكذا نتج عن ذلك الصراع حرب كلامية لسقطت فيها عن الخطابة عيوب
الجاهلية ، ورادت بها - طى الأيام - قوة وتأصلا .

٤ - انجاء الادباء العرب نحو القرآن الكريم . . بما كون أسلوبه ، ويقتبسون
من آياته ، ويتأبون مسهجه وأمسكاه ؛ أكبوا على القرآن بكلماتهم ، ونقلوا عنه فيما
كتبوا وخطبوا ، لا مرق في ذلك بين المظاهر من حيث الأسلوب واللصاعة ، وبين
الحقائق من حيث الأمسار والمعاني ، ومن حيث الصور والأخيلة . هذا إلى توشيح
حطيمهم وكتاباتهم بآيات من آياته يقتبسونها ، حتى قال الجاحظ : إن الخطبة إذ لم
توشح بآيات من القرآن الكريم سميت شوهاة (١) . وقال كذلك : كانوا يستحسنون
أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام يوم الجمع آى من القرآن ، فإن ذلك
يؤتى الكلام للبهاء والوفار وحسن للوقع (٢) .

وتأثر النقد الأدبي بذلك فأصبح هيبا في الخطيب ألا يتحلى بالثقافة القرآنية ،
وأصبح عيبا في الخطيب ألا تبدو تلك الثقافة القرآنية في خطابته ولم يقف عند حد
المعيب ، بل لقد كان ذلك دليل عجز ، وعنوان خواء ، فقد أشار الجاحظ إلى عجز
الأعراب الجفأة الذين لم يتفقهوا في الدين عن بحادة الخطبة (٣) . ويحدثنا عمران بن
حطان حطيب الخوارج المشهور فيقول : خطبت عند زياد خطبة ظننت أنى لم أقصر
فيها عن غاية ، ولم أدع لطاعن علة ، ثم ررت ببعض المجالس سمعت شيخا يقول : هذا
اللقى أحطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن (٤) .

ومعروف أن الأديب محرکه الناقد ويوجهه ، ويملى عليه ما يكتب وما لا يكتب ،
إلا أن يكون الأديب متفوقا على معاصريه . سابقا مناهجهم فيكون رائد تجديد .
ولا يلتزم بإملاء الناقد . لأنه حينئذ يكون قد شآء . . ومن ثم بيضت الخطابة الإسلامية

(١) البيان والتميز ج ٢ ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١١٨ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١١٨ .

بروح غير الروح التي كانت تتحرك بها الخطابة الجاهلية . . استمع إن شئت إلى هذا الجزء من خطبة للصديق أبي بكر :

إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم واعلموا أن ما أحلصتم الله من أعمالكم فطاعة أقيموها ، وحظ ظهرتم به ، وضرائب أديتموها ، وسلف قد متموها ، من أيام فانية لأخرى باقية ، حين فقرتم وحاجتكم . . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم . أين كانوا بالأمس ، وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ أين الذين لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب ؟ وقد تضرع بهم الدهر ، وصاروا رميا ، قد تركت عليهم القنات ، الحبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات .

وهكذا كان للقرآن الكريم بنسقه وأسلوبه وصياغته ، وممانيه وأفكاره ، وأخيلته ، ذلك الأثر البالغ في توجيه الرب المسلمين حيث ترسموه وساروا على هداه ، وضمنوا أعمالهم الأده من آياته ، واقتبسوا منها ما ترقى بفن الخطابة ، وبث فيها روحا تلصص بالمعاليه والحياة .

أو استمع إلى هذا الجزء من خطبة للإمام طي بن أبي طالب كرم الله وجهه :
أما بعد ، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بoudاع ، وأن الآخرة قد أقبلت فأشرفت باطلاع ، وأن المضار اليوم وغدا السباق . ألا وإنكم في أيام أمل من وراءه أجل ، فمن قصر في أيام أمه قبل حضور أجله فقد خسر عمله . ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة . ألا وإني لم أركأ لجنه نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها . ألا وإنه من لم ينعمه الحق ضره الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى حارب الضلال ألا وإنكم قد أمرتم بالظن ، ودلتم على الزاد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل (١) .

ثم انظر - مع الأفكار والماني - إلى هذا النسق الذي قدم فيه الإمام طي خطبته وإلى تلك الانتقالات الرشيقه ، وإلى ذلك المرض الواضح المترابط ، تجرد التأثر بالقرآن الكريم بينا ، والتمثل بأسلوبه وطريقته في المرض مقصودا إليه .

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ٢٣٥ .

٥ - ما جاء به الإسلام في ضمن أنظمتها من حرية في إبداء الرأي ، وهورى فى نظام الحكم ، بما جعل طائفة من الأمة تتحرك مع الكلمة وتتحرك معها الكلمة ، لا على وجه الإباحة ولكن على وجه الإلزام ، فمجلس الشورى ميدان للخطابة الواجبة ، وعكس فعال الأفسكار والعقول ، ينعقد المجلس ، حيث يعرض الأمر ، يناقش من شق جوانبه ، ويبحث بكل أسباب البحث ، ويعرض كل قائل ما يقول حتى يضمن لما يقول السداد ، وينصت كل مستمع حتى لا يترك هنة يقرها من غير أن يستوضح ويستبين .

وأول من بدأ السير فى ذلك الطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان كثيرا ما يجمع محبة إستشيرهم فيما يمرض من الأمور الهامة ، مثل أحد والخندق وكذلك كان شأن خلفائه من بعده حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « لا خير لي من غير شورى » .

وإبان الأحداث الهامة كان المسلمون يقدمون مجالس الشورى يتبادلون فيها الرأي ، ويستعرضون الموقف ، يقوم كل صاحب رأى خطيبا يقدم للآخرين ما يرى ، ويدعمه بالحجج ، ويقويه بكل ما يرى من أسباب القوة ، سواء كانت مادية كالحكم والأمثال والوقائع ، أو كانت صوتية بما تحمل من مؤثرات . من ذلك ما حدث يوم السقيفة بمد ردة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما كان من اختلاف حوّن-تخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد كانت ميدان شورى من أخطر ميادين الشورى بما طرح فيها من الموضوعات ، وبما قدم فيها من الآراء حتى إذا تسكلم أبو بكر قدم الحجة المسكتة ، والبيضة الصريحة الواضحة ، وذلك قوله : « نحن المهاجرون . . أول الناس إسلاما ، وأوسطهم دارا ، وأكرمهم أحسابا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثر الناس ولادة فى العرب . وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم ، فأنتم إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفداء ، وأنصارنا على العدو ، آؤيتهم وواسيتهم ، خزاكم الله حيرا ، ونحن للأمراء ، وأنتم للوراء ، لاتدين العرب إلا لهذا الحى من فريش ، وأنتم محقوقون ألا تنفوسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساقه الله إليهم » (١) .

(١) الرجوع السابق ج ٢ ص ٢٢٤

ومن ذلك أنه لما كانت فتنة أصحاب الجمل انعقد محاس الشورى في مدينة السكوفة، ووقف بعض أعضائه داعياً إلى عدم المشاركة في الفتنة كأبي موسى الأشعري، ووقف آخرون يدعون إلى نصرة علي وقتال أصحاب الجمل كالقمقاع بن عمرو^(١)

وهكذا يتراءى الإسلام أمام عيوننا في الخطابة العربية من خلال ذلك المبدأ الذي أقام عليه دولته، فأصبح المحال لارتقاء الخطابة وأردها:

٦ - الصراع بين المسامنين بعضهم مع بعض - علي ما حدث بين علي ومعاوية - كان من عوامل نمو الخطابة الإسلامية، لما يحتاج إليه هذا الموقف من تلوين الخطابة بألوان أخرى غير التي عهدت. تموج - من غير شك - إلى تفكير وبحث ودرس وأناة، حتى يتمكن القائل من الطعج التي يسهل بها على المسلم أن يحارب أحياه المسلم، ولم تكن الحاجة إلى الخطابة أمس منها في ذلك الحين، وقد كان قادة كل فريق يحرضونه على تقوية، الروح المعنوية، وخلق الإيمان في نفس أتباعهم بإسلامية عملهم هم دون غيرهم، وإقناعهم بأنهم يحاربون من أجل إقرار الحق، وأشر دين الله، ثم إن القادة والزعماء ليقدرون الموقف حق قدره، ويعلمون أنهم في حاجة إلى الإكثار من القول، وإعادته وتكراره، لأن تكرار القول يدخل في النفوس توهم صدقه وصحته، ومن ثم نستطيع أن نقف على السر في كثرة ما وصلنا من خطب هذه الفترة وما تلاها.

ويلاحظ على خطب هذه الفترة - مع كثرتها - أنها تنسم بالطول والإطباب، وذلك مراعاة من قائلها لقتضى الحال، فالوقوف يستدعى البسط والتفصيل، وقرع الحجة بالحجة، من كل ما يقتضى الإطالة.

وهكذا أصبحت الفتنة الكبرى التي وقعت بين علي ومعاوية مصدر إراء للخطابة العربية الإسلامية؛ فالإمام على خليفة بايعة المسلمون وخرج عليه معاوية، ومن ثم فهو يعمل على ملء قلوب مناصريه بالحماسة والبسالة، ويبدل كل ما يستطيع من قوة الكلام في أن ينتزع من قلوبهم عاطفة الإحوة الدينية التي توشجت أواصرها بينهم وبين إخوانهم الذين انضوا وتحت لواء معاوية وناصروه، فلا يجد بدا من أن يلجأ إلى العاطفة الدينية

(١) انظر تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٩٣

نفسها فيثربها في نفوس أصحابه ، ويظهر الآخرين في مظهر المارقين على الدين، والمهاديين لأسسه ومبادئه. استمع إليه في إحدى خطبه إذ يقبل : «وايم الله ما وتر قوم قط بشيء أشد عليهم من أن يوتروا بدينهم . وإن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليثبتوا السنة ، ويحيوا البدعة ، ويميدوكم في ضلالة قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة ، فطيبوا عباد الله أنفسا بدمائكم دون دينكم ، فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات العيم . وإن الفرار من الزحف فيه السلب للامز ، والغلبة على الفناء ، وذل الحيا واللاهات ، وعاب الدنيا والآخرة ، وسخط الله وألم عقابه .»

وفي الجانب الآخر يقف معاوية ومناصروه يصنعون نفس الصنيع ، استمع إليه بخطب عمرضا على قتال على وصحبه : « انظروا يا أهل الشام ، إنكم غدا تلتقون أهل الشام في قتال على إحدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله في قتال قوم بغوا عليكم من بلادهم حتى نزلوا بيزتكم ، وإما أن تكونوا قوماً تطالبون بدم حليفينكم وصهر نبيكم ، وإما أن تكونوا قوماً تذبون عن مائتكم وأبائتكم ، فمليكم بتقوى الله والصبر الجميل ، واسألوا الله لما ولكم الصبر .»

وفي هذا للبدان ظهرت جماعة من النساء ثارت في نفوسهن عاطفة الحب لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فقامن خطيبات يماون بسلاح الكلمة عليا كرم الله وجهه ، فتسير خطبهن مسار النار في المهيم، مثل عكرشة بنت الاطرش، وأم الخيزبت الحريش، والزرقاء بنت عدى . وبهذا اتسع مجال الخطابه ، وازدادت تراء ، سواء كان مظهر ذلك . . الغرض ، أو الداعي لها ، أو القائل الخطيب . . .

٧ - إيجاب الخطابة على المسلمين في بعض حالات العبادة ، واستجابتها في بعض آخر ، مع تحديد الخطيب في ذلك بناية، وربط الخطبة بأسباب ووسائل كان لها أكبر الأثر في نمو الخطابة وتطورها ؛ فصلاة الجمعة من كل أسبوع لا تتم بدون خطبة ، وفي كل مناسبة أو داعية خطبة يواجه فيها الإمام أو الخليفة جمهور المسلمين . وكل تلك الخطب غير محدودة الموضوع ، بل هي مطلقة على حسب ما يناسب الزمان والوائع والموقف . بيد أن غايتها محدودة ، وكميتها تكاد تكون كذلك وأوضح نموذج لذلك النمط من الخطابة ما أُر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع . قال صلى الله عليه وسلم بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « يا أيها الناس ، اسمعوا قولي فإني

لا أدري لى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بافت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أن لا ربا . وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله . وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . . أما بعد أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطلع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحمقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . .

* * *

وهكذا اجتمع للخطابة العربية بمجىء الإسلام كل أسباب النمو والترقى ، وباستطاعتنا أن نجمل تلك العوامل فى ثلاثة : أحدها جذرى ، والثانى عرضى ، والثالث تهذيبى .

فالأول يعمل على تعميقها وتأصيل أسبابها بعد أن كانت مقصورة على خطاب للشاعر والوجدانات ، كما بدأ ذلك فى الحجاج الموضوعى ، والمناقشة الموضوعية ، والدعوة المذهبية .

والثانى يوسع أبعادها، ويمدد ميادينها، وذلك بتكثير الأعراض التى تستخدم فيها، والثالث يحدد لها النهج ، ويرسم لها الطريق ، ويقسم لها الخطوات ، ويربط بين عناصرها وأفكارها .

ومن ثم تهباً للخطابة - مع الإعلام - من أسباب النديوع والانتشار ما لم يتم لها من قبل ، فقد أصبحت الوسيلة الأولى ، والأداء المبررة عن الدعوة ، تنطق بمحاسنها، وتشرح لأسرارها ، ويواجه بها أصحاب الآراء والأفكار الجديدة معارضتهم بالتوضيح والتشويق والتفريد .

أهم خصائص الخطابة الإسلامية :

تحت تأثير هذه العوامل وغيرها نمت الخطابة وتطورت، فاكنت سمات وخصائص ميزتها عن الخطابة الجاهلية ، كان من أبرزها :

١ - أن الخطيب أصبح يميل إلى التطول ، حيث مست الحاجة إلى الإطناب فيها ؛ عرضاً لحوانب المسكرة التي يقدمها الداعي ، أو تمليلاً وتفسيراً لما آخذ من المواقف ، أو بسبب ما يأخذ على الخصم من أخطاء وأحرفات ، أو استطراداً في ذكر الحجج والبراهين على قوة ما يرى وترهين ما يراه غيره . . . إلى غير ذلك من دواعي الإفاضة ، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك في قوله : إن جملة القول في الرداء أنه ليس به حد ينهي ~~الخطيب~~ ^{الخطيب} ، وإنما ذلك على قدر الستمين ومن يحضره من العوام والخواص ، وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى، وهود، وهارون، وشعيب، وإبراهيم ، ولوط لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم (١) . وقد روى الباقلائي أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات ، غير أن ما وصلنا من خطبه صلى الله عليه وسلم إنما هو بقايا تلك الخطب ، فقد سقط منها الكثير قبل أن يتخذها التدوين ، مثال ذلك خطبته صلى الله عليه وسلم في أوز حمة له بالمدينة ، وفيها يقول .

والحمد لله ، أحمدوه وأستعيبه ، وأستعفروه وأستهدبه ، وأومس به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمد عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والبر والموعدة ، على فترة من الرسل ، وقلة من الأمم ، وصلاته من الناس ، واقطاع من الزمان ، ودور من الساعة ، وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وصل صلالاً بعيداً ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه . ولا أفضل من ذلك بصيحة . وأصل من ذلك ذكرنا ، وإن تقوى الله لمن عمل به على وحل ومحافة من ربه ، عون صدق على ما يتقون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا يبرى

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٠٥

بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره ، وذخرا فيها بمد اللوت حين يفتقر
المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بيده ويده أمداء بيضاء ، ويحدركم
الله نفسه . والله رءوف بالعباد ، والذي صدق قوله ، وأبجر وعده لا حلف لذلك ،
فإنه يقول عز وجل : « ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » فاتقوا الله في عاجل
أمركم وآجله ، في السر والعلانية : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويغفر له أجرا »
ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما ، وإن تقوى الله يوقى مقتته ، ويوقى عقوبته ، ويوقى
سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، حسدوا
بمخظكم ، ولا تمطوا في جنب الله ، قد هدكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم
الذين صدقوا ويهمل الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه
« وحاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم » وسماكم المسلمين « ليهلك من هلك عن
بينة ويحيى من حي عن بينة » ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكرا الله ، واعملوا لما
يهدى اليوم ، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفمه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله
يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويعلم من أناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ،
ولا قوة إلا بالله العظيم .

٢ - أن الخطيب يحرص على تقسيم الخطبة ، حيث تبدأ بمقدمة توحى بالموضوع ،
ثم عرض للموضوع يستخدم فيه كل ما يمكن من وسائل العرض ، ثم خاتمة يخلص
فيها ما بسط ، ويكمل ما فصل . ولقد كان للخطاب القرآني أكبر الأثر في توجيه العرب
إلى ذلك النهج في خطباته ، حتى إذا اطلع القواد العرب على حطانة أرسطو وجدوه
يطلب من الخطيب السير على هذا المنوال ، ولما رجعوا إلى ما بين أيديهم من الخطابة
الفريية الإسلامية وجدوها تسير في نفس الطريق .

٣ - وكما حرص الخطيب على تقسيم خطبته حرص على أن يكون العرض قائما
على الترتيب المنطقي الصحيح الذي يتمدد على استخلاص النتائج من مقدماتها ،
سواء بدأ بالمقدمات ونهى بالنتائج أو عكس . ونظرة إلى ما قدمنا من نماذج
تقرر ذلك .

٤ - قوة الأفكار التي تناو لها الخطابه ، فلقد أصبحت هي أداة التعبير الأولى
لديهم ، وكان عليها أن تحمل ما جد في المجتمع الإسلامي الجديد من مضامين . ومن
ثم أصبحت أفكارها في مستوى المخاطبين بها ، قوة وعمقا وكشفا

٥ - إرسال أسلوبها ، وعدم التزام لون أسلوبى معين فيها ، فجملها تردد بين الطول والقصر على حسب الحاجة إلى ذلك ، والسجع فيها غير ملازم ولا مقصود إلا أن يجى عفوا ، إذ للخطيب من جلال موضوعه ، وترتيب أفكاره ما يشتهه عن الاهتمام بالتحسين اللفظى والقصد إليه .

٦ - توشيح الخطبة بآيات القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والحكم والأمثال السائرة ، تزيينا وإقناعا

(٢) الكتابة

معرفة العرب بالكتابة سابقة على مجيء الإسلام ؛ لكن هذه المعرفة لم يصلنا من مظاهرها ما يدل على أنهم توسعوا في استخدامها ، أو تفننوا في موضوعاتها ، والتصور العقلي لحياة العرب في العصر الجاهلي يحدد مجالات استعمالهم الكتابة وسيلة من وسائل الإبانة ؛ فقد كان مهتمهم الأصيل على الشعر الذي يقوم على الإنشاد والشافهة . .

ولما جاء الإسلام ، واتسعت الدولة ، وتوحدت الأمة ، وتشابكت المصالح ، وتوطدت الصلات على البعد المكاني . . . في هذه البيئة الحضارية الجديدة مست الحاجة إلى الكتابة ، وأصبحت من أهم مقومات الدعوة الجديدة ؛ فهي مطلوبة لحفظ القرآن الكريم ، ولتوثيق المعهود والاتفاقات ، ولتبليغ الملوك والرؤساء الدعوة الإسلامية ، ولخطابه العمال والولاة بشئون الحكم ، ولتوصية الرسل والقضاة بالحفاظ على مبادئ الإسلام . . إلى غير ذلك مما جدد على العرب المسلمين ، ودعاهم إلى مزيد من الحرص على الكتابة ، والإقبال عليها تعلما وتعلما وتنمية

ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن بمكة سوى سبعة عشر كاتباً (١) أسلم أكثرهم في مبتدأ الدعوة مثل أبي بكر الصديق ، وسعد بن أبي وقاص ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعاصم بن فهيرة ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله . . ومن بين هؤلاء الصحابة تخير الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الوحي ، وكتاب الرسائل والمعهود (٢) . ولما أصبح للمسلمين دولة بعد الهجرة إلى المدينة وزادت الحاجة إلى الكتابة وإلى الكتابيين ، أقبل المسلمون على تعلم الكتابة ، وكان في مقدمة هذا التحرك التعليمي ما فرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم على العاجزين عن دفع الفدية من أسرى بدر ، فقد عادل الفدية بتعليم عشرة من فتيان المسلمين . .

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٧١ ، ص ٤٧٣
(٢) الزرراء والكتاب للجهمشيارى ص ١٢ طبعة الحلبي .

وهكذا وجدت الأرض الخصيبة والجو المناسب تماما لانتشار الكتابة في عصر صدر الإسلام ، ومع انتشار المسلمين في أرجاء الجزيرة العربية وما جاورها انتشرت الكتابة العربية ، حتى أصبحت معلما بارزا من معالم الحضارة الإسلامية الممتدة في تلك الفترة . وكان في مقدمة الدواعي المباشرة إلى الإقبال على تعلم الكتاب ، أن أول ما نزل من وحى السماء تضمن من الله سبحانه وتعالى طى الإنسان بنعمة القلم وتعلمه بالقلم : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . وأتبع ذلك بقسمه جل وعلا بالقلم وما يكتب بالقلم ، وبالكتاب . . . إلى غير ذلك مثل قوله تعالى : « ن والقلم وما يسطرون » . وقوله : « والطور وكتاب مبطور فى رقى مشطور » . كما أن القرآن الكريم أمر المسلمين أن يكتبوا ما جاءهم من الكتاب والتسجيل من الله تعالى من اختلاف ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالمدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق . . . » (١) .

وهكذا ارتبطت الكتابة بالإسلام وبالدولة الإسلامية ، كما ازداد الإسلام انتشارا ، وازدادت الدولة اتساعا ، ازدادت الكتابة عوا وازدهارا ، ونبتت عن الفصحى الخطوى أغصان ، وتمتقت عن تلك الأغصان أزهار وثمار ، أيسمت وبدا نضجها سريما ، تقدمت الأدب العربى جنى طيبا شهيا ، كان نواة صالحة لما أنتجت البيئة العربية بمد ذلك من دنون النثر المكتوب .



والناظر فيما أنرمس كتابة هذا العصر يجد فيها - بمد أول العصر - الكتابة العربية ذات السمات والخصائص التى تتميز بها عن غيرها بما أصمت، البيئة ومتطلباتها عليها من مناهج أسلوبية وبيانية خاصة ؛ هى ليست - كما يتوهم بعض الدارسين - حديثا عاديا يسجل فى كتاب موجه إلى شخص معين ، حاليا من الفمية والصنعة الأدبية . وإنما هى عمل فنى ، صادر عن بقدر البيان التعبيرى قدره ، وهو يقدم بين يدي دعوته الجديدة

كتاب السماء يتعدى الإص والجن أن يأتوا بمثله مجتمعين متآزرين ، ومن أبرف مظاهر فنية الكتابة في ذلك العهد :

١ - أن السكتب والمراسلات لم يكن يلتزم فيها بشكل معين ولا صورة واحدة . فقد كان صلى الله عليه وسلم يلونها على حسب المرسل إليه ، فإن كان المرسل إليه غير عربي حرص صلى الله عليه وسلم على أن يكون موجزا ، مختار الكلمات بحيث يسهل ترجمتها في بيان قاطع . كما ترى في كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل فارس :

« من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس . سلام على من أنبى الهدى وآمن بالله ورسوله . فأدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الخلق كافة لبيد من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم ، فإن أبيت وإم الجوس عليك . »
وإن كان المرسل إليه عربيا انتقى من الألفاظ ما يتناسب مع وسطه البيئى ، كما ترى في كتابه صلى الله عليه وسلم المرسل إلى وائل بن حجر الحضرمى :

« من محمد رسول الله إلى الأقبال العباهلة والأرواع المشاييب (١) . » ثم يقول :
« وفي التيمة شاة لا مقورة الألياط ولاضناك ، وانطوا الشبجة (٢) ، وفي السيوب الخمس (٣) ، ومن ربي مم بكر فاصقوم . مائة ، واستوفضوه عاما (٤) . ومن ربي مم ثيب مفرجوه بالأضاميم (٥) ، ولا توصيم في الدين ، ولاغمة في فرائص الله تعالى (٦) ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترفل على الأقبال ، (٧) . »

(١) الأقبال جمع قيل بفتح مسكون : الملك من ملوك حير وحضرموت . والعباهلة : المقرون على ملكهم ، والأرواع : الذين يرعون بالهية والحمال . والشاييب جمع معسوب : الجميل الزاهر اللون .

(٢) التيمة : أربعون شاة ، وهي نصاب الزكاة في الضأن . والمقورة الألياط بضم الميم وسكون القاف وفتح الواو : المسترخية الجلود . والضناك بكسر الصاد : السمينة ، وانطوا : اعطوا بإبدال العين نونا في لغتهم . والشبجة بفتح حين : الوسط .

(٣) السيوب جمع سيب : العطية والمراد به الركار

(٤) مم : من بإبدال الميم نونا في لغتهم . والاصتغ : للضرب ، والاستيفاض : التنوير .

(٥) الأضاميم . جمع إصامة : الحجارة الصغار . (٦) التوصيم : التوائى .

(٧) يترفل : يترأس .

وقد سار الصحابة في الطريق ذاته ، فاهتموا بتجويد الكتابة ، وحرصوا على اختيار من يتولى الكتابة لهم ، روى الجهمي أن عمر رضى الله عنه دعا زيدا فقال له ينبغي أن تكتب إلي خليفتك بما يجب أن يعمل به ، فكتب إليه كتابا وضمه إلى عمر ، فنظر فيه ثم قال أعد ؛ فكتب غيره . فقال له أعد ، فكتب الثالث . فقال عمر : لقد بلغ ما أردت في الأول ولكني ظلمت أنه قد روى فيه ، ثم بلغ في الثاني ما أردت فسكرت أن أعلمه ذلك ، وأردت أن أضع منه لثلا يدخله العجيب فيهلك (١) .

٢ - الميل إلى الأسلوب التصويري القائم على التحبير والتجويد ، استجابة لما شب في آخريات ذلك العصر من فنن وجهت للحكام والكتابيين إلى تضمين رسائلهم وسائل التهذيب في الخطوة عند الحكم والتهيب من الخروج عليه ، والتهدير من الإهمال على ما تجدد في رسائل عثمان رضى الله عنه إلى عماله وولاته يبه فيها إلى ما شب في البلاد من فنن تتمدد على اللشائمات . وبين سياسة الجديدة . مثل رسالته إلى معاوية حين قام أبو در بدعوته في الشام ، وبها يقول : « إن افئنة قد أخرجت حطما وعيبها ، فلم يبق إلا أن تثب فلا تسكأ القرع » (٢) .

٣ - إحصاء الكتاب إلى الإطبات والإطالة ؛ فالعصر في مرحله الأخيرة مليء بالصراع السياسي الذي لم يتركه المتصارعون وسيلة من وسائل الحرب إلا استخدموها ، ومن بين وسائلهم في ذلك كانت الكلمة المكتوبة ، يفدون فيها مزاعم الخصوم ، ويستعرضون آراءهم ، ويتنبهونها في استقصاء يقنع ، وهذا دون شك يستمد على الإطبات والإطالة ، وقد احتدوا في ذلك بالقرآن الكريم ؛ فهم في ذلك حاضمون للبيئة وأحداثها ، متأثرون بالقرآن الكريم ومنهجه .

٤ - سهولتها ووضوح أحوالها ، وبسببها عن التسكف ، وتأثرها بالقرآن الكريم ، وتحليلها بآياته ، كما ترى في كتاب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله وفيه يقول : « أما بعد .. فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جراه ؛ فاحمل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصيرتك ، فإنه لا عمل

(١) الوراء والكتاب ص ١٩

(٢) الجهرة لأحمد صفوت ج ١ ص ٢٩٦ .

لا بية له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا مال لمن لا رفق له ، ولا جديد لمن لا حلق
- بفتح الحاء واللام - له .

ويلاحظ المدارس لما أثر من كتابات ذلك العصر أنها رسائل أو عهود وموائيق ،
وأن الرسائل تتنوع بتنوع أعراضها ، فمنها رسائل الدعوة التي وجهها الرسول صلى الله
عليه وسلم ومحابته إلى الملوك والحكام - غير المسلمين - يدعونهم إلى الإسلام ، ومنها
الرسائل السياسية التي تتضمن توجيهها سياسياً يتماق بأمور الحكم - وقد رأينا فيما أسلفنا
نماذج لهذه الرسائل الفرضية - ومنها الرسائل الإحوائية التي تقوم على الإسيات ، كما جاء
في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل ، يبريه في وفاة ابن له مات ، وفيها
يقول : « من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل ، سلام عليك ، إني أحمد إليك الله
الذي لا إله إلا هو . أما بعد فمعظم الله لك الأجر ، وألمك الصبر ، وورقنا وإياك
الشكر ، ثم إن أنفسنا وأهلينا ومواليها من مواهب الله السنية ، وعوارفه المستودعة ،
نتمتع بها إلى أجل معدود ، وتقبيض لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى ،
والصبر إذا ابتلى . وكان إياك من مواهب الله السنية ، وعوارفه (١) المستودعة ،
متمك به في عبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير ؛ الصلاة والرحمة والهدى إن
صبرت واحتسبت ، فلا تجتمع عليك إماماً خصلتين : أن يحبط حزرك صرك ، فتدم
على ما فاتك ، ولو قدمت على ثواب مصيبتك قد أطعت ربك وتنجزت موعوده . عرفت
أن المصيبة قد قصرت عنه ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ، ولا يدفع حزناً ، فأحسن
الجراء ، وتجر الموعود ، وليذهب أسفك ما هو نازل بك ، فسكن قد ، (٢) .

ومنها رسائل المواعظ والنصح والتوجيه ، وهي تختلف عن الإحوانات ؛ إذ ليس
صروها أن يكتب بالنصح لآخر ممن تربطه به علاقة أحوة أو صلة قرابي ، فقد يكتب
بذلك إلى فرد من عامة الناس ، أو إلى أمير أو عامل أو خليفة . ثم هي قائمة على هذا
الفرض المحدود استجابة لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . متبادله سلمان
الفارسي وأبو الدرداء .

(١) العوارف جمع عارفة : المعروف .

(٢) الحمرة ج ١ ص ٦٥

يقول سلمان في إحداها : « أما بعد فإنك لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تكره، فليكن كلامك ذكرا، وصمتك سكرا، ونظرك عبرا، فإن الهديا تتقلب، وبهجتها تتغير، ولا تغتر بها، وليكن بيتك المسجد » .

ومما كتبه أبو الورداء إلى سلمان : « سلام الله عليك . أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله . وأن تأخذ من صحتك لسقمك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن مراغك لشغلك ، ومن حياتك لموتك ، ومن جفائك لموتك ، واذكر حياة لا موت فيها في إحدى المنزلتين ؛ إما في الجنة وإما في النار ، فإنك لا تدري إلى أيهما تصير ، (١) .

ومنها كتب اليهود واللواتيق ، وهي كتب تعتمد على الدقة في التعبير ، والوقوف على اللفظ المناسب ، دون الحاجة إلى المؤثرات العاطفية من تصوير أو تخيل ؛ فالدقة الفنية فيها تتطلب اليقظة للفظ الذي يؤدي الغرض منه .

ولا ريب في أن هذا النمط البياني لم يكن وليد الحضارة الإسلامية ، فقد كان للرب في الجاهلية معاهداتهم واتفاقياتهم المكتوبة ، وكان من عادتهم أن يودعوا لهم منها جوف السكبة توثيقا لها وحفظا ، كما حدث يوم واجهت قريش بني هاشم للضنط عليهم وتسليم محمد إليهم ، فانفقوا على مقاطعتهم ، ودبروا هذا الاتفاق في صحيفة أودعها السكبة .

بيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدخل على المعاهدة من التحفظات والاشتراطات والتوضيحات ما نظمها في سلك العمل الفنى ، حتى أصبح الناظر فيها يحمده نفسه . أمام لون يبان يكشف به صاحبه عن كثير من الجوانب السياسية والاجتماعية القائمة والمتوقعة ، ويبين عن طبائع من يتعامل معهم وأفكارهم ، ويواجه الشاذ منها بالتقويم ، مثال ذلك معاهدته صلى الله عليه وسلم مع من كان بالمدينة التي جاء فيها : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي - صلى الله عليه وسلم - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم باحسان وهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، وللمهاجرون من قريش على ربعتهم (٢) يتماقلون (٣) بينهم ، وهم يفسدون

(١) المحبرة ج ١ ص ٣٢٤ ، وحياة الأولياء ج ١ ص ٢١٤ .

(٢) على ربعتهم : على استقامتهم ، يعنى على أمرهم الذى كانوا عليه .

(٣) يتماقلون : يعقل بعضهم بعضا ، ويدوم دية جنائته الخطأ .

عائيم^(١) بالمروف والقسط^(٢) بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتماثلون معاقتهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عايبها بالمروف والقسط بين المؤمنين - ثم ذكر كل بطون من بطون الأنصار وأهل كل دار ؛ بنى الحارث ، وبنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى النجار ، وبنى عمرو بن عوف ، وبنى البيت ، وبنى الأوس - وإن للمؤمنين لا يتركوا مفرجا^(٣) بينهم أن يعطوه بالمروف في فداء أو عقتل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . . .

ويسير صلى الله عليه وسلم في المعاهد على هذه الوتيرة من تحديد واجبات المتأهدين قبل الآخرين ، ثم في النهاية ، يحدد معالم الواجبات العامة في قوله : « وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه للصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأن الله على أتقى ما في هذه للصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قرينش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصلحون ويلتبسونه بإنهم يصلحونه ويلتبسونه . وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنهم لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه للصحيفة مع البر المحض من أهل هذه للصحيفة ، وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه للصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظلم ولا آثم ، وأن من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو آثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

والناظر في محتوى هذا الكتاب يلاحظ أن الذي صلى الله عليه وسلم التزم به سبيل الدعوة إلى الدين والإبانه عن ميادئه ، إلى جوار المقررات السياسية التي تستدعيها نظم الحكم ، واستقرار الحياة في الدولة الناشئة ، فلم ينفصل جانباً لحساب الجانب الآخر ،

(١) العاني : الأسير .

(٢) القسط : المدل .

(٣) المفرج - بضم الميم وسكون الفاء وفتح الراء - الذي أئتمه الدين والنعم . يقال : أفرجه إذا أئتمه ، ويروى (المفرج) بالجيم ، وهو القليل الذي لا يدرى من قتله أو الذي لا ولد له ولا مال ولا عشيرة .

واسكنه - صلى الله عليه وسلم - خرج بين كل هذه الغايات في كتابه ، بحيث يجسد التأمل أنه أمام وثيقة سياسية بما تضمنه من مقررات محددة ، وأنه أمام رسالة تكشف عن أبرز مزايا الدين الجديد بما يشد الناس إليه ، ويجتذبهم نحوه (١) .

وصفوة القول : إن الكتابة في ظل حصار الإسلام توفر لها - بالقرآن الكريم ، وبالإسلام ومبادئه ونظمه ، ورسول الإسلام ومحابته ، وبما جد من أحداث في ظلال الإسلام - من أسباب النمو والترقي مامنحها القدرة على النهوض ، وأتاح لها فرصة القيام والتحرك في مجال النمو والترقي في مختلف الاتجاهات . . أسلوبا ، وموضوعا ، وفكرا ، ومنهجيا ؛ فأصبح للكتابة كيان أدبي يؤرخ له في هذا العصر ، فأضيف لفنون الثرفن جديد .

(١) لمزيد من التفصيل راجع للدؤلف (تأملات في البيان النبوي) ص ١٢٦ وما بعدها.

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٣	للقدمه
٢٤ - ٥	تمهيد
٥	الفصل الأول : الأدب
١٢	الفصل الثاني : العرب
١٦	الفصل الثالث : الوطن للعربي
٢١	الفصل الرابع : اللغة العربية
٨٥-٢٥	الباب الأول : الأدب العربي
٢٧	الفصل الأول : البيئة والأدب
٣٤	الفصل الثاني : أجناس الأدب العربي
٥١	الفصل الثالث : مصادر الأدب الجاهلي
٦٧	قضية نحل الشعر وانتحاله
٧٩	الفصل الرابع : المقصود بالبادية والحاضرة
١٦٣-٨٧	الباب الثاني : الشعر البدوي
٨٨	الفصل الأول : أعلام من شعراء البادية
	٩٢ عنتره ، ٩٩ الحارث بن حلزة ، ١٠٦ زهير بن
	سلي ، ١٢٠ الشنفرى ، ١٢٦ عروة ابن الورد
١٣١	الفصل الثاني : فنون الشعر البدوي
	١٣٣ الفخر ، ١٤٠ الهجاء ، ١٤٣ للدح ،
	١٤٧ الرثاء ، ١٥٢ القزل ، ١٥٧ الوصف
٣٢٦-١٦٥	الباب الثالث : الشعر الحضري
١٦٦	الفصل الأول : أعلام من شعراء الحاضرة
	١٧٥ امرؤ القيس ، ١٩٢ عدى بن زيد ، ٢١٤ النابغة

الصفحة	الموضوع
	الديباني ، ٢٢٦ العباس ابن مرداس السلمي ،
	٢٥٦ حسان بن ثابت ، ٢٦٢ كعب بن زهير
٢٦٦	الفصل الثاني . فنون الشعر الحضري
	٢ : ٢ المدح ، ٢٧٠ الهجاء ، ٢٧٤ الاعتذار ،
	٢٧٦ الفخر ، ٢٧٩ النزل ، ٢٨٢ الدينيات والمواعظ
	٢٨٤ الرثاء ، ٢٨٨ الوصف .
٢٩٧	الفصل الثالث : الشعر العربي بين البادية والحاضرة
٢٩٨	الخصائص المنوية والخيالية
٣١٢	الخصائص المضمونية
٣١٧	الخصائص الأسلوبية
٣٢٧-٣٩٥	٤: الفتياب الرابع : النثر بين البدو والحضر
٣٢٨	الفصل الأول : فنون النثر قبل الإسلام وخصائص كل فن
	٣٣١ الحكم والأمثال ، ٣٣٥ الخطابة
٣٤٤	الفصل الثاني : حضارة الإسلام وأثرها في العرب وآدابهم
	٣٤٤ أثر الإسلام في الحياة العربية
	٣٤٨ أثر الإسلام في الأدب العربي
٣٥٤	الفصل الثالث : أعلام من الناثرين المسلمين
	٣٥٥ القرآن الكريم ، ٣٦٣ الحديث النبوي ،
	٣٦٦ أبو بكر الصديق ، ٣٧٠ عمر بن الخطاب ،
	٣٧٣ علي بن أبي طالب
٣٧٦	الفصل الرابع : فنون النثر الإسلامي وخصائصه
	٣٧٦ الخطابة ، ٣٨٨ السكتانة